سعيد حوّى

الأساس في التفسير

المجلد الحادي عشر

ويشتمل على :-

تفسير السور من بداية سورة الحاقة حتى سورة الناس

وهي تمثل :-

المجموعات من السادسة حتى الخامسة عشرة من قسم المفصل

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

المجموعة السادسة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمَّى بقسم المفصَّل
وتشمل سور :
الحاقة ، والمعارج ، ونوح ،
والجن ، والمزمل ،
والمدثر

كلمة في المجموعة السادسة من قسم المفصل

ترددتُ كثيراً في تحديد حدود المجموعة السادسة بدايتها ونهايتها وعدد سورها ، فمن القديم كان مستقراً في حسي وقلبي أن سورة الحاقة بداية مجموعة ، إلا أنني لاحظت أن سورة الحاقة تشبه سورة الواقعة شبهاً عجيباً في مضمونها ، وفي نهايتها ؛ فسورة الواقعة تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ وكذلك سورة الحاقة ، ومضمون سورة الحاقة يشبه إلى حدّ بعيد مضمون سورة الواقعة ، وقد رأينا أن سورة الواقعة كانت نهاية مجموعة ، ولم تكن بداية مجموعة . وبعد التأمل الطويل رجّحت أن سورة الحاقّة بداية مجموعة ، وأنها هي والسور الخمس بعدها مجموعة واحدة ، ومن قبل قلنا إن المعاني وحدها هي التي لها الحكم النهائي ، وقد رأيت أن المعاني توصل إلى هذه النتيجة .

....

وإذن فمن خلال المعاني يتبين أن السور الست التي ذكرناها تشكل مجموعة واحدة ، ومن خلال المعاني نرى أن الحاقة والمعارج ونوح والجن تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وأن سورتي المزمل والمدثر تفصّلان في الآيات السبع بعد المقدمة ، وسنرى أدلة ذلك أثناء الكلام عن هذه السور .

....

والمجموعة وهي تفصل تكمّل البناء ، وتوضّح الطريق ، ويرافق فيها الإقناع الدعوة إلى بذل الجهد في كل جانب من الجوانب ولنبدأ عرض سور المجموعة .

....

سورة الحاقة

وهي السـورة التاسعة والستون بحسب الرسم القرآني

وهي السورة الأولى من المجموعة السادسة من قسم

المفصل، وهي اثنتان وخمسون آية

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

بين يدي سورة الحاقة :

قال الألوسي ذاكراً وجه المناسبة بين سورة الحاقة ونون : (ولما وقع في نون ذكر يوم القيامة مجملاً شرح سبحانه في هذه السورة الكريمة نبأ ذلك اليوم وشأنه العظيم ، وضمّنه عز وجل ذكر أحوال أمم كذبوا الرسل عليهم السلام ، وما جرى عليهم ؛ ليزدجر المكذبون المعاصرون له عليه الصلاة والسلام) .

وقال صاحب الظلال عن سورة الحاقة : (هذه سورة هائلة رهيبة ؛ قلّ أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ؛ وهي منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع هذا الحس ، وتطالعه بالهول القاصم ، والجد الصارم ، والمشهد تلو المشهد ، كله إيقاع ملح على الحس ، بالهول آناً وبالجلال آناً ، وبالعذاب آناً ، وبالحركة القوية في كل آن !

والسورة بجملتها تلقي في الحس - بكلّ قوة وعمق - إحساساً واحداً بمعنى واحد ... أن هذا الأمر - أمر الدين والعقيدة - جدّ خالص حازم جازم . جدّ كله لا هزل فيه . ولا مجال فيه للهزل . جدّ في الدنيا وجدّ في الآخرة ، وجد في ميزان الله وحسابه . جد لا يحتمل التلفت عنه هنا أو هناك كثيراً ولا قليلاً . وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم ، وأخذه الحاسم) .

(إنها سورة هائلة رهيبة . قلّ أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . وهي بذاتها أقوى من كل استعراض ومن كل تحليل ، ومن كل تعليق !) .

(ذلك المعنى الذي تتمحّض السورة لإلقائه في الحس ، يتكفل أسلوبها وإيقاعها ومشاهدها وصورها وظلالها بإلقائه وتقريره وتعميقه بشكل مؤثر حي عجيب :

إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالمشاهد الحية ، المتناهية الحيوية ، بحيث لا يملك منها فكاكاً ، ولا يتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة ، تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة !) .

كلمة في سورة الحاقة ومحورها :

جاءت سورة الحاقة بعد سورة (نٓ) التي ذكرنا أنها نهاية مجموعة ، وهذا يجعلنا نستأنس أن سورة الحاقة بداية مجموعة ، وإذا كانت سورة الحاقة بداية مجموعة فهي تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، ولذلك فإنّها تبدأ بالكلام عن اليوم الآخر ، وصلة ذلك

بقوله تعالى في الآيات الأولى من سورة البقرة : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ واضحة ، ثمّ هي تتحدّث عن مآل المسلمين ومآل الكافرين ، وصلة ذلك بالكلام عن المتقين والكافرين في أوائل سورة البقرة واضحة ، كما هي تتحدّث عن سبب تعذيب الكافرين ﴿ **إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ واضحة ، وتتحدث عن القرآن : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين** ﴾ ... ﴿ **وإنه لتذكرة للمتقين** ﴾ ... ﴿ **وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ واضحة ، وهذا كله يؤكد أن سورة الحاقة بداية مجموعة .

....

يبقى أن نتساءل عن سر التشابه بين سورة الحاقة وسورة الواقعة ؟ أقول : إن اليوم الآخر يدفع للعمل كما يدفع للإيمان ، وقد جاءت سورة الواقعة تفصّل في ما بعد مقدمة سورة البقرة ، وجاءت سورة الحاقة تفصّل في مقدّمة سورة البقرة وبين المقامين تداخل ، فالكلام عن اليوم الآخر دافع للتحلي ، كما هو دافع للتخلي ، ودافع للإيمان كما أنه دافع للعمل ، ومن ثمّ تقدم الحديث عن اليوم الآخر في السورتين للوصول إلى ما ينبغي أن يبنى عليه ، على أن كلاً من السورتين تخدم محورها بشكل رئيسي .

....

ومع أن هناك تشابهاً في السورتين فإن لكل سورة روحها وسياقها الخاص بها ، ومعانيها وألفاظها ، وطريقة عرضها ، وكل من السورتين على غاية من الكمال والبيان ، مما يدلك على أنّ هذا القرآن من عند الله ، فأن ترى معنى واحداً يعرض بعشرات الطرق ، وفي كل مرة تجد عرضاً على غاية من الكمال والعلو في موضوع لم يطرقه العرب أصلاً فذلك شأن غير مستطاع للبشر .

....

إن سورة الواقعة وسورة الحاقة نموذجان على السور التي تعرض اليوم الآخر ، ثم تبني على ذلك ما ينبغي أن يبنى عليه من بناء ، إن في مجال الإيمان ، أو في مجال العمل .

وسنرى سوراً أخرى تشبههما في هذا المجال ، ولعل في هذا الذي ذكرناه سر التشابه بين هذه السور وإن اختلفت المحاور .

لقد رأينا سوراً تعرفنا على الله ، ثم تنطلق من خلال التعريف عليه جل جلاله ، إلى البناء على ذلك ما ينبغي أن يبنى من إيمان وعمل .

ولقد رأينا سوراً تذكرنا بإعجاز القرآن ، ثم تنطلق لتبني على كون هذا القرآن من عند الله ما ينبغي أن يبنى من إيمان وعمل .

ورأينا سوراً تعرفنا على رسول الله ﷺ ، ثم تنطلق لتبني على ذلك ما ينبغي أن يبنى من إيمان وعمل ، وكل ذلك يأتي أحياناً بشكل دوري ، وأحياناً بشكل متباعد ، والإنسان أعجز من أن يحيط بأسرار هذا القرآن ، فلو أن عقول الأولين والآخرين اجتمعت لتحيط بكل أسرار هذا القرآن لما كان لها إلى ذلك سبيل ، فكما أنّ الله حدثنا عن ذاته فقال : ﴿ **ولا يحيطون به علماً** ﴾ فإن كتابه كذلك ، لقد سمّى الله كتابه روحاً فقال : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا** ﴾ وقال عن الروح الإنسانية : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ وما يقال عن روح الإنسان يقال عن القرآن ، مع ملاحظة أن كون القرآن روحاً هو إحدى خصائصه التي بسببها مع غيره يعجز الإنسان عن أن يأتي بمثل هذا القرآن .

فلنبدأ بعرض سورة الحاقة ولنعرضها على فقرتين :

الفقرة الأولى تستمر حتى نهاية الآية (٣٧) .

الفقرة الثانية تستمر حتى نهاية الآية (٥٢) .

وتتألف الفقرة الأولى من مقدمة ومجموعتين .

* * *

الفقرة الأولى

وتمتدّ من الآية (١) حتى نهاية الآية (٣٧) وهذه هي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾

المجموعة الأولى

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾

المجموعة الثانية

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ

لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

تفسير مقدمة السورة :

﴿ **الحاقّة** ﴾ هذه الكلمة مشتقة من حقّ يحِقّ بالكسر أي : وجب ، والمراد بها الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المجيء ، التي هي آتية لا ريب فيها . قال ابن كثير : الحاقة من أسماء يوم القيامة لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ، ولهذا عظّم الله أمرها فقال : ﴿ **ما الحاقة** ﴾ أي : الحاقة ما هي وأي شيء هي ؟ تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها ، أي : حقها أن يستفهم عنها لعظمتها ﴿ **وما أدراك ما الحاقة** ﴾ قال النسفي : أي وأي شيء أعلمك ما الحاقة ؟ يعني : أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها لأنه من العظم والشدة بحيث لا تبلغه دراية المخلوقين .

كلمة في السياق :

١ - هذه مقدمة السورة ، وفيها ذكر ليوم القيامة وتفخيم له ، يعقب ذلك

المجموعة الأولى من الفقرة الأولى ، وفيها ذكر لأمم كذبت بالساعة ، فحلّ بهم ما حلّ ، ثمّ تسير السورة في سياقها المبدع الرائع الذي يهز الكيان هزّاً . قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد ... عن عمر بن الخطاب أنه قال : خرجت أتعرّض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد ، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، قال : فقلت هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال فقرأ ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون** ﴾ قال : فقلت كاهن ، قال فقرأ ﴿ **ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ إلى آخر السورة ، قال : فوقع الإسلام في قلبي كل موقع ، فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه) . لاحظ كلمة عمر في جاهليته : فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، وكيف كانت هذه السورة من أسباب إيمانه ، لتدرك روعة هذه السورة ، وروعة الإعجاز القرآني .

٢ - قدّمت السورة للكلام عن يوم القيامة بما هو الغاية في الفخامة والتعظيم ، فقرعت الآذان والقلوب بهذا الجرس القوي ، والاستفهام بعد الاستفهام عن شأنها وها هي ذي المجموعة الأولى من الفقرة الأولى تتحدث عن من كذّب بها وما حلّ بهم بسبب التكذيب .

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الأولى :

﴿ **كذّبت ثمود وعاد بالقارعة** ﴾ أي : بالحاقة فوضعت القارعة موضعها ، لأنها من أسماء يوم القيامة ، وسميت بالقارعة لأنها تقرع الناس بالأفزاع والأهوال ، وثمود قوم صالح ، وعاد قوم هود ﴿ **فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية** ﴾ قال النسفي : (أي : بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة ، واختلف فيها فقيل الرجفة ، وقيل الصيحة ...) وقال ابن كثير في تفسير الطاغية : وهي الصيحة التي أسكتتهم ، والزلزلة التي أسكنتهم ، هكذا قال قتادة : الطاغية الصيحة وهو اختيار ابن جرير ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر** ﴾ أي : شديدة الصوت أو باردة ﴿ **عاتية** ﴾ أي : شديدة العصف والهبوب . قال الضحاك : عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة ﴿ **سخّرها** ﴾ أي : سلّطها ﴿ **عليهم سبع ليال وثمانية أيام** ﴾ من الليالي سبعاً ومن النهر ثمانية ﴿ **حسوماً** ﴾ قال ابن كثير : أي : كوامل متتابعات مشائيم أو مستأصلة استئصالاً ﴿ **فترى القوم** ﴾ أيها

الخاطب ﴿ **فيها** ﴾ أي : في مهاب الريح أو في الأيام والليالي ﴿ **صرعى** ﴾ أي : هلكى ﴿ **كأنهم أعجاز** ﴾ أي : أصول ﴿ **نخل خاوية** ﴾ أي : ساقطة أو بالية ﴿ **فهل ترى لهم من باقية** ﴾ أي : من نفس باقية أو من بقاء . قال ابن كثير : أي : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم ، أو ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً ﴿ **وجاء فرعون ومَنْ قبله** ﴾ أي : ومن تقدمه من الأمم ﴿ **والمؤتفكات** ﴾ قال النسفي : (أي : قرى قوم لوط فهي ائتفكت أي : انقلبت بهم) ، وقال ابن كثير : هم الأمم المكذّبون بالرسل ﴿ **بالخاطئة** ﴾ أي : بالخطأ أو بالفعلة الخاطئة ، أو بالأفعال ذات الخطأ العظيم ﴿ **فعصوا رسول ربهم** ﴾ أي : فعصى قوم لوط رسول ربهم ، أو فعصت كل أمة من الأمم المذكورة رسول ربها ﴿ **فأخذهم أخذة رابية** ﴾ أي : شديدة زائدة في الشدة ، كما زادت قبائحهم في القبح ﴿ **إنا لما طغى الماء** ﴾ أي : زاد على الحد بإذن الله يوم طوفان نوح ﴿ **حملناكم** ﴾ أيها البشر أي : حملنا آباءكم ﴿ **في الجارية** ﴾ أي : في سفينة نوح عليه السلام ﴿ **لنجعلها لكم** ﴾ أي : لنجعل لكم تلك الفعلة وهي إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿ **تذكرة** ﴾ أي : عبرة وعظة ، ﴿ **وتعيها أذن واعية** ﴾ أي : وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية ، أي : حافظة سامعة ، أي : يحفظها ويفهمها كل من له سمع صحيح ، وعقل رجيح . قال ابن كثير : (وهذا عام في كل من فهم ووعى) .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بذكر الحاقة ، وتفخيم أمرها من خلال سؤالين عنها ، ثم جاءت مجموعة تحدثت عن قوم عاد وثمود ، وفرعون وقومه ، وقوم لوط ، وقوم نوح كأمم كذبت باليوم الآخر الذي سيأتي حديث عنه في المجموعة الثانية ، وهي المجموعة التي ستذكر الجواب على السؤال عن الحاقة ، وبهذا تكون المجموعة الأولى من الفقرة الأولى بمثابة التمهيد قبل التفصيل في أمر الحاقة ، فقد جاءت المجموعة الأولى لتبيّن عاقبة من يكذب بالحاقة لتتلقى النفس البشرية البيان وهي عارفة عقوبة من يكذّب بها . كانت مقدمة السورة ﴿ **الحاقّة . ما الحاقّة . وما أدراك ما الحاقّة** ﴾ ؟ وفي المجموعة الثانية تفصيل الحديث عن الحاقّة : ﴿ **فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة** ... ﴾ وجاءت المجموعة الأولى في الوسط إنذاراً ووعظاً وتذكيراً .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الأولى :

﴿ **فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة** ﴾ المراد بهذه النفخة النفخة الأولى ، وهي التي يموت بها الناس . قال ابن كثير : وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ، ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد ﴿ **وحُملت الأرض والجبال فدكّتا دكّةً واحدة** ﴾ أي : دكتا حتى ترجع الجبال كثيباً مهيلاً ، وهباءً منبثاً ، قال ابن كثير : أي : فمدّت مدّ الأديم العكاظي وتبدّلت الأرض غير الأرض ﴿ **فيومئذ وقعت الواقعة** ﴾ أي : قامت القيامة ، أو نزلت النازلة ، ﴿ **وانشقت السماء فهي يومئذ واهية** ﴾ قال النسفي : أي : مسترخية ساقطة القوة بعدما كانت محكمة ﴿ **والمَلَكُ** ﴾ أي : جنس الملائكة ﴿ **على أرجائها** ﴾ قال ابن كثير : أي : على أرجاء السماء ، قال ابن عباس : على ما لم يَهِ منها أي : حافاتها ، وقال النسفي : أي : جوانبها لأنها إذا انشقت وهي مسكن الملائكة فيلجئون إلى أطرافها ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم** ﴾ أي : فوق الملائكة الموجودين على الأرجاء ﴿ **يومئذ** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **ثمانية** ﴾ أي : ثمانية ملائكة أو ثمانية أصناف ، أو ثمانية صفوف ، والقول الأقوى أنهم ثمانية ملائكة . قال النسفي : (اليوم تحمله أربعة وزيدت أربعة أخرى يوم القيامة) ﴿ **يومئذ** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **تُعرَضون** ﴾ أي : للحساب والسؤال ﴿ **لا تخفى منكم خافية** ﴾ أي : سريرة وحال كانت تخفى على الخلق في الدنيا . قال ابن كثير : أي : تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول** ﴾ سروراً به لما يرى فيه من الخيرات خطاباً لجماعته ﴿ **هاؤم** ﴾ أي : خذوا ﴿ **اقرأوا كتابيه** ﴾ قال ابن كثير : لأنه يعلم أن الذي فيه خير ، وحسنات محضة لأنه ممن بدّل الله سيئاته حسنات ﴿ **إني ظننت** ﴾ أي : علمت وتيقنت ﴿ **أني ملاق حسابيه** ﴾ قال ابن كثير : أي : قد كنت مؤمناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة . قال النسفي : (وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظنّ الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام ، ولأن ما يدرك بالاجتهاد قلّما يخلو عن الوسواس والخواطر ، وهي تفضي إلى الظنون ، فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لا يخلوا عنه) . أقول : يُفهم من كلام النسفي أن استعمال الظن بمعنى العلم في الآية ، لأن كثيراً من أعمال الآخرة مبناها على غلبة الظن لكثير من الأحكام الفقهية والفرعيات ، ومعنى ﴿ **ملاق حسابيه** ﴾ أي :

معاين حسابي ﴿ **فهو في عيشة راضية** ﴾ أي : ذات رضا يرضى بها صاحبها ، أي : مرضية ﴿ **في جنة عالية** ﴾ أي : رفيعة قصورها ، حسان حورها ، مقيمة دورها ، دائم حبورها ، قال النسفي : أي : رفيعة المكان ، أو رفيعة الدرجات ، أو رفيعة المباني والقصور ﴿ **قطوفها دانية** ﴾ أي : ثمارها قريبة من مريدها ينالها القائم والقاعد والمتكىء ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً** ﴾ أي : أكلاً وشرباً هنيئاً لا مكروه فيهما ولا أذى ﴿ **بما أسلفتم** ﴾ أي : بما قدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿ **في الأيام الخالية** ﴾ أي : الأيام الماضية من أيام الدنيا ﴿ **وأما من أوتي كتابه بشماله** ﴾ وهم الأشقياء الكفرة الفجرة ﴿ **فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه** ﴾ لما يرى فيه من الفضائح ﴿ **ولم أدر ما حسابيه** ﴾ أي : يا ليتني لم أعلم ما حسابي ﴿ **يا ليتها** ﴾ أي : يا ليت الموتة التي مِتّها ﴿ **كانت القاضية** ﴾ أي : القاطعة لأجلي فلم أُبعث بعدها ، ولم ألق ما ألقى ﴿ **ما أغنى عني ماليه** ﴾ أي : لم ينفعني ما جمعته في الدنيا ﴿ **هلك عني سلطانيه** ﴾ قال الألوسي : أي : بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا ... أو ملكي وتسلطي على الناس ، وبقيت فقيراً ذليلاً ، أو تسلطي على القوى والآلات التي خلقت لي فعجزت عن استعمالها في الطاعات يقول ذلك تحسّراً وتأسّفاً . قال ابن كثير : أي : لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه ، بل خلص الأمر إليّ وحدي ، فلا معين لي ولا مجير ، فعندها يقول الله عز وجل أي : لخزنة جهنم ﴿ **خذوه فغلّوه** ﴾ أي : اجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ **ثم الجحيم صلّوه** ﴾ أي : أدخلوه . قال النسفي : يعني : ثم لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظمى . قال ابن كثير : أي : يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر فتغلّه ، أي : تضع الأغلال في عنقه ثم توردها إلى جهنم فتصليه إياها ، أي : تغمره فيها ﴿ **ثم في سلسلة ذرعها** ﴾ أي : طولها ﴿ **سبعون ذراعاً** ﴾ قال النسفي : بذراع الملك ، عن ابن جريج : وقيل لا يعرف قدرها إلا الله ﴿ **فاسلكوه** ﴾ أي : فأدخلوه . قال ابن كثير : (وقال ابن جرير : قال ابن عباس : تدخل في أسته ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى ، وقال العوفي عن ابن عباس : يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه) ثم علل تعالى لاستحقاقه هذا العذاب الشديد فقال : ﴿ **إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ أي : على بذل طعام المسكين . قال ابن كثير : أي : لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم ، فإن لله على العباد أن يوحّدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان

معاين حسابي ﴿ **فهو في عيشة راضية** ﴾ أي : ذات رضا يرضى بها صاحبها ، أي : مرضية ﴿ **في جنة عالية** ﴾ أي : رفيعة قصورها ، حسان حورها ، مقيمة دورها ، دائم حبورها ، قال النسفي : أي : رفيعة المكان ، أو رفيعة الدرجات ، أو رفيعة المباني والقصور ﴿ **قطوفها دانية** ﴾ أي : ثمارها قريبة من مريدها ينالها القائم والقاعد والمتكىء ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً** ﴾ أي : أكلاً وشرباً هنيئاً لا مكروه فيهما ولا أذى ﴿ **بما أسلفتم** ﴾ أي : بما قدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿ **في الأيام الخالية** ﴾ أي : الأيام الماضية من أيام الدنيا ﴿ **وأما من أوتي كتابه بشماله** ﴾ وهم الأشقياء الكفرة الفجرة ﴿ **فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه** ﴾ لما يرى فيه من الفضائح ﴿ **ولم أدر ما حسابيه** ﴾ أي : يا ليتني لم أعلم ما حسابي ﴿ **يا ليتها** ﴾ أي : يا ليت الموتة التي مِتّها ﴿ **كانت القاضية** ﴾ أي : القاطعة لأجلي فلم أبعث بعدها ، ولم ألق ما ألقى ﴿ **ما أغنى عني ماليه** ﴾ أي : لم ينفعني ما جمعته في الدنيا ﴿ **هلك عني سلطانيه** ﴾ قال الألوسي : أي : بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا ... أو ملكي وتسلطي على الناس ، وبقيت فقيراً ذليلاً ، أو تسلطي على القوى والآلات التي خلقت لي فعجزت عن استعمالها في الطاعات يقول ذلك تحسّراً وتأسّفاً . قال ابن كثير : أي : لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه ، بل خلص الأمر إليّ وحدي ، فلا معين لي ولا مجير ، فعندها يقول الله عز وجل أي : لخزنة جهنم ﴿ **خذوه فغلّوه** ﴾ أي : اجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ **ثم الجحيم صلّوه** ﴾ أي : أدخلوه . قال النسفي : يعني : ثم لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظمى . قال ابن كثير : أي : يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر فتغلّه ، أي : تضع الأغلال في عنقه ثم تورده إلى جهنم فتصليه إياها ، أي : تغمره فيها ﴿ **ثم في سلسلة ذرعها** ﴾ أي : طولها ﴿ **سبعون ذراعاً** ﴾ قال النسفي : بذراع الملك ، عن ابن جريج : وقيل لا يعرف قدرها إلا الله ﴿ **فاسلكوه** ﴾ أي : فأدخلوه . قال ابن كثير : (وقال ابن جرير : قال ابن عباس : تدخل في أسته ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى ، وقال العوفي عن ابن عباس : يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه) ثم علل تعالى لاستحقاقه هذا العذاب الشديد فقال : ﴿ **إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحضّ على طعام المسكين** ﴾ أي : على بذل طعام المسكين . قال ابن كثير : أي : لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم ، فإن لله على العباد أن يوحّدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان

والمعاونة على البر والتقوى ، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وقبض النبي ﷺ وهو يقول : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » قال النسفي : (وفيه - أي : وفي قوله تعالى : ﴿ **ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ - إشارة إلى أنه لا يؤمن بالبعث ؛ لأن الناس لا يطلبون من المساكين الجزاء فيما يطعمونهم ، وإنما يطعمونهم لوجه الله ، ورجاء الثواب في الآخرة ، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم ، أي : أنه مع كفره لا يحرّض غيره على إطعام المحتاجين ، وفيه دليل قوي على عظم جرم حرمان المسكين ، لأنه عطفه على الكفر ، وجعله دليلاً عليه وقرينة له ، ولأنه ذكر الحضّ دون الفعل ليعلم أن تارك الحضّ إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحق ، وعن أبي الدرداء أنه كان يحضّ امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلنخلع نصفها بهذا ، وهذه الآيات ناطقة على أن المؤمنين يرحمون جميعاً ، والكافرين لا يرحمون ؛ لأنه قسّم الخلق نصفين ، فجعل صنفاً منهم أهل اليمين ، ووصفهم بالإيمان فحسب بقوله : ﴿ **إني ظننت أني ملاق حسابيه** ﴾ وصنفاً منهم أهل الشمال ووصفهم بالكفر بقوله : ﴿ **إنه كان لا يؤمن بالله العظيم** ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ **فليس له اليوم ههنا حميم** ﴾ أي : قريب يرفع عنه ويحترق له قلبه ﴿ **ولا طعام إلا من غسلين** ﴾ قال النسفي : (أي : غسالة أهل النار ... وأريد به هنا ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم) . أقول : سنرى مجموعة الأقوال في الغسلين في الفوائد . قال ابن عباس : ما أدري ما الغسلين ولكني أظنه الزقوم ﴿ **لا يأكله إلا الخاطئون** ﴾ أي : الكافرون أصحاب الخطايا .

كلمة في السياق :

١ - فصّلت هذه المجموعة في ماهية الحاقة ، وما يكون فيها ، وانقسام الناس فيها إلى قسمين : أهل يمين ، وأهل شمال ، وما لأهل اليمين وما لأهل الشمال ، والأسباب التي استحق بها أهل اليمين ما نالوه ، والأسباب التي استحق بها أهل الشمال ما نالوه .

٢ - نال أهل اليمين ما نالوه بسبب يقينهم بالآخرة ﴿ **إني ظننت أني ملاق حسابيه** ﴾ وبسبب أعمالهم الصالحة ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية** ﴾ ونال أهل الشمال ما نالوه بسبب كفرهم بالله ومنعهم حقوق المساكين ﴿ **إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ وبسبب خطاياهم ﴿ **لا يأكله إلا الخاطئون** ﴾ وصلة ذلك بالمحور واضحة ، فالمتقون يؤمنون بالغيب ،

ويوقنون بالآخرة ، وينفقون مما رزقهم الله عز وجل ، والكافرون ليسوا كذلك .

٣ - بدأت السورة بذكر الحاقة ، وتفخيم أمرها ، ثم ثنّت بذكر المكذبين فيها وعذابهم ، ثم ثلّثت بذكر ماهيتها ، ثمّ تأتي الفقرة الثانية في السورة ، وفيها تأكيد على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل ، ومجيء هذا التأكيد في نهاية السورة يبرهن على أن اليوم الآخر حق لا مرية فيه ، فما دام القرآن يذكر ذلك ، وما دام هذا القرآن حقاً خالصاً من عند الله ، فاليوم الآخر الذي تحدّث عنه القرآن حق .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (٣٨) إلى نهاية السورة أي : إلى نهاية الآية (٥٢) وهذه هي :

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

التفسير :

﴿ **فلا أقسم** ﴾ أي : فأقسم ﴿ **بما تبصرون** ﴾ أي : من الأشياء ﴿ **وما لا تبصرون** ﴾ من الأشياء . قال النسفي : فالحاصل أنه أقسم بجميع الأشياء ﴿ **إنه** ﴾ أي : إن القرآن ﴿ **لقول رسول كريم** ﴾ أي : محمد ﷺ أي : يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة عن الله عز وجل . قال ابن كثير : أضافه - أي : القرآن - إليه (أي : إلى رسول الله ﷺ) على معنى التبليغ ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل ، وقال ابن كثير : (يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته ، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم ، إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة) ، ﴿ **وما هو** ﴾ أي : القرآن ﴿ **بقول شاعر** ﴾ كما تدعون ﴿ **قليلاً ما تؤمنون** ﴾ أي : تؤمنون إيماناً قليلاً ، والمراد هنا نفي الإيمان عنهم ﴿ **ولا بقول كاهن** ﴾ كما تقولون ﴿ **قليلاً ما تذكّرون** ﴾ أي : تتذكرون قليلاً ، والمراد بالقلة نفي التذكر أصلاً . قال ابن كثير : (والمعنى : لا تؤمنون ولا تذكّرون البتة) ،

﴿ **تنزيل** ﴾ أي : هذا القرآن تنزيل ﴿ **من ربّ العالمين** ﴾ هذا بيان لكون القرآن قول رسول الله ، فهو قول رسول نزل عليه من رب العالمين ، وبعد أن نفى أن يكون رسول الله ﷺ شاعراً أو كاهناً ، وأثبت أنه رسول ، وإذن فهذا القرآن ليس شعراً أو كهانة ، فلم يبق إلا أن يكون منزلاً من الله عز وجل ، يذكر سنته فيمن كذب عليه مما يؤكد أن محمداً ﷺ لم يتقوّل هذا القرآن من عند نفسه فقال : ﴿ **ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل** ﴾ أي : ولو ادّعى علينا شيئاً لم نقله ﴿ **لأخذنا منه باليمين** ﴾ قال ابن كثير : (وقيل معناه : لانتقمنا منه باليمين لأنها أشدّ في البطش - أي : في تصور الناس - وقيل : لأخذنا بيمينه) ﴿ **ثم لقطعنا منه الوتين** ﴾ قال ابن عباس : وهو نياط القلب ، وهو العرق المعلق فيه القلب ﴿ **فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ أي : فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك ، وإذن فهو صادق بار راشد ، لأن الله عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه ، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات ، والدلالات القاطعات ، والمعنى العام للآيات الأربعة : لو كان محمد ﷺ كما يزعمون مفترياً علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا ، وليس كذلك ، لعاجلناه بالعقوبة ، فإذ لم نفعل فذلك دليل صدقه فيما يقول عنا .

كلمة في السياق :

بدأت الفقرة بقوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون** ﴾ ثم جاء جواب القسم : ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ وبعد أن أثبت الله عز وجل أن هذا القول قوله سبحانه ، وأن رسوله ﷺ مبلغ عنه ، يأتي معطوفان على جواب القسم يتحدثان عن القرآن .

المعطوف الأول :

﴿ **وإنه لتذكرة للمتقين** ﴾ أي : وإن القرآن لعظة لمن اتصف بالتقوى ، وهذه خصيصة من خصائص القرآن تدل على أنه من عند الله ، فهو يذكر أهل التقوى بالله ، وباليوم الآخر ، وبما ينبغي أن يفعلوه طاعةً لله ، وإذا كان القرآن كذلك فالمفروض ألا يبقى إلا مصدّق بهذا القرآن ، ولكن الأمر ليس كذلك ، ومن ثمّ قال تعالى : ﴿ **وإنا لنعلم أنّ منكم مكذّبين** ﴾ أي : مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذّب بالقرآن ، ثم قال تعالى : ﴿ **وإنه لحسرة على الكافرين** ﴾ قال ابن جرير :

(أي : وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة) ، وقال النسفي : (أي : وإن القرآن لحسرة على الكافرين به ، المكذبين له ، إذا رأوا ثواب المصدقين به) .

المعطوف الثاني :

﴿ **وإنه لحق اليقين** ﴾ قال النسفي : (أي : وإن القرآن لعين اليقين ، ومحض اليقين) ، وقال ابن كثير : (أي : الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب) . أقول : أي : إن ما في هذا القرآن هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإذا كان مضمون القرآن حقاً ، وإذا كان من خصائص هذا القرآن أنه مذكّر ، وإذا كان محمد ﷺ هو البار الصادق ، فلم يبق مجال لشبهة في أن هذا القرآن من عند الله عز وجل ، وأن ما يقوله هو الحق الخالص ، فإذا كان مما قاله الإخبار عن الحاقة فإن الحاقة حق خالص ، وتأتي آية أخيرة في السورة تأمر رسول الله ﷺ بتسبيح الله عز وجل مقابل جحود الجاحدين ، وتكذيب المكذّبين ، وإلحاد الملحدين ، وقياماً بحق الشكر لله رب العالمين ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ قال ابن كثير : أي : الذي أنزل هذا القرآن العظيم ، وقد سنّ لنا رسول الله ﷺ أن نسبّح الله العظيم في ركوعنا ، فالأمر بالتسبيح هنا أمر بالصلاة ضمناً ، قال الألوسي في تفسير الآية : (أي : فسبّح الله بذكر اسمه العظيم ، تنزيهاً له عن الرضا بالتقوّل عليه ، وشكراً على ما أوحى إليك من هذا القرآن الجليل الشأن) .

كلمة في السياق :

قلنا إن محور السورة هو الآيات الأولى من سورة البقرة فلنر هذه الآيات ، وصلة ما ورد في السورة بها :

١ - ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ وقد رأينا في السورة قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين** ﴾ ورأينا فيها : ﴿ **وإنه لتذكرة للمتقين** ﴾ ورأينا فيها ﴿ **وإنه لحق اليقين** ﴾ وفي ذلك كله تأكيد لكون القرآن لا ريب فيه ، وأن فيه الهدى للمتقين .

٢ - ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ وقد عرضت علينا السورة قضايا من الغيب : الإيمان بالله - الإيمان باليوم الآخر - الإيمان بالملائكة ...

٣ - ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ رأينا الأمر بالتسبيح وصلته بالصلاة .

٤ - ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ رأينا في السورة عاقبة الذين لا يحضّون على طعام المسكين .

٥ - ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ وقد رأينا في السورة دعوة إلى الإيمان بالقرآن ، ورأينا قوله تعالى : ﴿ **فعصوا رسول ربهم** ﴾ .

٦ - ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ وقد رأينا في السورة عرضاً لليوم الآخر ، وجزاء المكذبين به في الدنيا والآخرة ، وجزاء المصدقين به ، بل رأينا أن السورة في سياقها الرئيسي تتحدث عن اليوم الآخر .

٧ - ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ وقد رأينا في السورة نموذجاً من فلاح المتقين يوم القيامة ، وخسران غيرهم ، وعلى هذا فالسورة كانت نوع تفصيل للآيات الأولى من سورة البقرة .

الفوائد :

١ - بمناسبة الكلام عن قوم عاد ، قال ابن كثير : (وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح التي هلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرّت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم ، فجعلتهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها قالوا : هذا عارض ممطرنا ، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة ») .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فعصوا رسول ربهم** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا جنس ، أي : كل كذّب رسول الله إليهم كما قال تعالى : ﴿ **إن كل إلا كذّب الرسل فحق وعيد** ﴾ ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع كما قال تعالى : ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ ، ﴿ **كذّبت عاد المرسلين** ﴾ ، ﴿ **كذّبت ثمود المرسلين** ﴾ وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ولهذا قال ههنا : ﴿ **فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية** ﴾ أي : عظيمة شديدة أليمة ، قال مجاهد : رابية شديدة ، وقال السدي : مهلكة) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ قال ابن كثير : (أي : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ، ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب ، وفي حديث عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب في ذكر حملة العرش أنهم ثمانية أوعال ، وروى ابن أبي حاتم ... عن أبي قبل حيي بن هانىء أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : حملة العرش ثمانية ، ما بين موق أحدهم إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام . وروى ابن أبي حاتم ... عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أذن لي أن أحدّثكم عن ملك من حملة العرش بُعْد مابين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات ، وقد رواه أبو داود في كتاب السنة من سننه ... عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » هذا لفظ أبي داود .

وروى ابن أبي حاتم ... عن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ ، قال : ثمانية صفوف من الملائكة قال : وروي عن الشعبي وعكرمة والضحاك وابن جريج مثل ذلك ، وكذا روى السدي عن أبي مالك عن ابن عباس : ثمانية صفوف ، وكذا روى العوفي عنه ، وقال الضحاك عن ابن عباس : الكروبيون ثمانية أجزاء كل جزء منهم بعدة الإنس والجن والشياطين والملائكة) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى ابن أبي الدنيا ... عن ثابت بن الحجاج قال : قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ **يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾ . روى الإمام أحمد ... عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » ورواه ابن ماجه والترمذي ، وقد رواه ابن جرير ... عن عبد الله قال : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : عرضتان معاذير وخصومات ، والعرضة الثالثة تطير الصحف في الأيدي ، فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله . ورواه سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة مرسلاً مثله) .

٥ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى ابن أبي حاتم ... عن أبي عثمان قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغيّر لونه ، حتى يمرّ بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدّلت حسنات . قال : فعند ذلك يقول : ﴿ **هاؤم اقرأوا كتابيه** ﴾ . وعن عبد الله بن عبد الله بن حنظلة – غسيل الملائكة – قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدي – أي : يظهر – سيئاته في ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم ، أي رب ، فيقول له : إني لم أفضحك به ، وإني قد غفرت لك ، فيقول عند ذلك : ﴿ **هاؤم اقرأوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه** ﴾ حين نجا من فضيحته يوم القيامة . وقد تقدم في الصحيح حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يدني الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها حتى إذا رأى أنه قد هلك ، قال الله تعالى : إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين ») .

٦ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **في جنة عالية** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن أبي سلام الأسود قال : سمعت أبا أمامة قال : سأل رجل رسول الله ﷺ هل يتزاور أهل الجنة ؟ قال : « نعم ، إنه ليهبط أهل الدرجة العليا إلى أهل الدرجة السفلى فيحيّونهم ويسلمون عليهم ، ولا يستطيع أهل الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلين ، تقصر بهم أعمالهم » وقد ثبت في الصحيح : « إن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ») .

٧ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قطوفها دانية** ﴾ قال ابن كثير : (قال البراء ابن عازب : أي : قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره ، وكذا قال غير واحد . وروى الطبراني ... عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله لفلان بن فلان أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية » وكذا رواه الضياء في صفة الجنة ... عن سليمان عن رسول الله ﷺ قال : « يعطى المؤمن جوازاً على الصراط : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية ») .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية** ﴾ قال ابن كثير : (أي يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً وإنعاماً وإحساناً ، وإلا فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ») .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **خذوه فغلّوه * ثم الجحيم صلّوه** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن المنهال بن عمرو قال : إذا قال الله تعالى ﴿ **خذوه** ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك ، إن الملك منهم ليقول هكذا ، فيلقي سبعين ألفاً في النار . وروى ابن أبي الدنيا في الأهوال أنه يبتدره أربعمائة ألف ولا يبقى شيء إلا دقه فيقول : مالي ولك فيقول : إن الرب عليك غضبان فكل شيء غضبان عليك ، وقال الفضيل ابن عياض : إذا قال الرب عز وجل : ﴿ **خذوه فغلّوه** ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغلّ في عنقه) .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد ... عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن رضاضة مثل هذه - وأشار إلى جمجمة - أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة الخمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها » وأخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن) .

١١ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا طعام إلا من غسلين** ﴾ قال ابن كثير : (ولا طعام له ههنا إلا من غسلين . قال قتادة : هو شر طعام أهل النار . وقال الربيع والضحاك : هو شجرة في جهنم . وروى ابن أبي حاتم ... عن ابن عباس قال : ما أدري ما الغسلين ، ولكني أظنه الزقوم ، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال : (الغسلين) : الدم والماء يسيل من لحومهم . وقال علي بن أبي طلحة عنه : (الغسلين) : صديد أهل النار) . أقول : إن كلام ابن عباس فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فإنهم لآكلون منها** ﴾ أي : من شجرة الزقوم ﴿ **فمالئون منها البطون** ﴾ فالظاهر أن طعام أهل النار هو هذا ،

فلما قال تعالى : ﴿ **ولا طعام إلا من غسلين** ﴾ علمنا أن المراد بذلك الزقوم . والله أعلم .

١٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون** ﴾ قال صاحب الظلال : (بهذه الفخامة وبهذه الضخامة ، وبهذا التهويل بالغيب المكنون ، إلى جانب الحاضر المشهود ... والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر . بل مما يدركون . وما يبصر البشر من الكون وما يدركون إلا أطرافاً قليلة محصورة ، تلبي حاجتهم إلى عمارة هذه الأرض والخلافة فيها - كما شاء الله لهم - والأرض كلها ليست سوى هباءة لا تكاد ترى أو تحس في ذلك الكون الكبير . والبشر لا يملكون أن يتجاوزوا ما هو مأذون لهم برؤيته وبإدراكه من هذا الملك العريض ، ومن شؤونه وأسراره ونواميسه التي أودعها إياه خالق الوجود ... ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون** ﴾ .

ومثل هذه الإشارة تفتح القلب وتنبه الوعي إلى أن هناك وراء مد البصر ، ووراء حدود الإدراك جوانب وعوالم وأسراراً أخرى لا يبصرها ولا يدركها . وتوسع بذلك آفاق التصور الإنساني للكون والحقيقة . فلا يعيش الإنسان سجين ما تراه عيناه ، ولا أسير ما يدركه وعيه المحدود . فالكون أرحب والحقيقة أكبر من ذلك الجهاز الإنساني المزود بقدر محدود من الطاقة يناسب وظيفته في هذا الكون . ووظيفته في الحياة الدنيا هي الخلافة في هذه الأرض ... ولكنه يملك أن يكبر ويرتفع إلى آماد وآفاق أكبر وأرفع حين يستيقن أن عينه ومداركه محدودة ، وأن هناك وراء ما تدركه عينه ووعيه عوالم وحقائق أكبر - بما لا يقاس - مما وصل إليه ... عندئذ يتسامى على ذاته ويرتفع على نفسه ، ويتصل بينابيع المعرفة الكلية التي تفيض على قلبه بالعلم والنور والاتصال المباشر بما وراء الستور !

إن الذين يحصرون أنفسهم في حدود ما ترى العين ويدرك الوعي بأدواته الميسرة له ... مساكين ؟ سجناء حسهم وإدراكهم المحدود . محصورون في عالم ضيق على سعته ، صغير حين يقاس إلى ذلك الملك الكبير .

وفي فترات مختلفة من تاريخ البشرية كان كثيرون أو قليلون يسجنون أنفسهم بأيديهم في سجن الحس المحدود ، والحاضر المشهود ؛ ويغلقون على أنفسهم نوافذ المعرفة والنور ، والاتصال بالحق الكبير ، عن طريق الإيمان والشعور . ويحاولون أن يغلقوا هذه النوافذ على الناس بعد ما أغلقوها على أنفسهم بأيديهم ... تارة باسم الجاهلية . وتارة

باسم العلمانية ! وهذه كتلك سجن كبير . وبؤس مرير ، وانقطاع عن ينابيع المعرفة والنور !

والعلم يتخلص في هذا القرن الأخير من تلك القضبان الحديدية التي صاغها - بحمق وغرور - حول نفسه في القرنين الماضيين ... يتخلص من تلك القضبان ، ويتصل بالنور - عن طريق تجاربه ذاتها - بعد ما أفاق من سكرة الغرور والاندفاع من أسر الكنيسة الطاغية في أوربا ؛ وعرف حدوده ، وجرب أن أدواته المحدودة تقوده إلى غير المحدود في هذا الكون وفي حقيقته المكنونة . وعاد « العلم يدعو إلى الإيمان » في تواضع تبشر أوائله بالفرج ! أي نعم بالفرج . فما يسجن الإنسان نفسه وراء قضبان المادة الموهومة إلا وقد قدر عليه الضيق !) .

١٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون** ﴾ قال صاحب الظلال : (فالشعر قد يكون موسيقي الإيقاع ، رائع الأخيلة ، جميل الصور والظلال ؛ ولكنه لا يختلط أبداً ولا يشتبه بهذا القرآن ، إن هنالك فارقاً فاصلاً بينهما . إن هذا القرآن يقرر منهجاً متكاملاً للحياة يقوم على حق ثابت ، ونظرة موحدة ، ويصدر عن تصور للوجود الإلهي ثابت ، وللكون والحياة كذلك . والشعر انفعالات متوالية وعواطف جياشة ، قلما تثبت على نظرة واحدة للحياة في حالات الرضى والغضب ، والانطلاق والانكماش ، والحب والكره ، والتأثرات المتغيرة على كل حال !

هذا إلى أن التصور الثابت الذي جاء به القرآن قد أنشأه القرآن إنشاء من الأساس في كلياته وجزئياته ، مع تعين مصدره الإلهي . فكل ما في هذا التصور يوحي بأنه ليس من عمل البشر ، فليس من طبيعة البشر أن ينشئوا تصوراً كونياً كاملاً كهذا التصور ... لم يسبق هم هذا ولم يلحق ... وهذا كل ما أبدعته قرائح البشر من تصورات للكون وللقوة المنشئة له ، المدبرة لنظامه ... هذا هو معروضاً مسجلاً في الفلسفة وفي الشعر وفي غيرهما من المذاهب الفكرية ؛ فإذا قرن إلى التصور القرآني وضح أن هذا التصور صادر من جهة غير تلك الجهة ! وأنه متفرد بطابع معيّن يميزه من كل تصورات البشر .

كذلك الأمر في الكهانة وما يصدر عنها . فلم يعرف التاريخ من قبل أو بعد كاهناً أنشأ منهجاً متكاملاً ثابتاً كالمنهج الذي جاء به القرآن . وكل ما نقل عن الكهنة أسجاع

لفظية أو حكمة مفردة ، أو إشارة ملغزة !) .

كلمة أخيرة في السورة :

لقد رأينا تسلسل السورة الخاص ، ورأينا صلتها بمحورها ، وههنا نذكر أن هذه السورة مقدمة لمجموعتها ، ومن ثَمَّ فقد ذكّرت ووعظت وأُنذرت ودلّلت ، ومن المعلوم أن التأكيد على كون هذا القرآن من عند الله هو المقدمة الكبرى لكل قضية قرآنية ، ومن ثَمَّ بدأت سورة البقرة بهذا التأكيد ، ورأينا أن الفقرة الثانية من هذه السورة أكّدت نفس المضمون ، فلننتقل إلى سورة المعارج .

☆ ☆ ☆

سورة المعارج

وهـي الـــــورة الـــبعون بحـــب الرســم القــرآني

وهي السورة الثانية من المجموعة السادسة من قسم

المفصل ، وهي أربع وأربعون آية

وهـي مكيـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة المعارج :

قدّم الألوسي لسورة المعارج بقوله : (وتسمى سورة المواقع ، وسورة سأل . وهي مكية بالاتفاق ، على ما قال القرطبي . وآيها ثلاث وأربعون في الشامي ، واثنتان وأربعون في غيره . وهي كالتتمة لسورة الحاقة في بقية وصف القيامة والنار ، وقد قال ابن عباس : إنها نزلت عقيب سورة الحاقة) .

وقال صاحب الظلال في معرض حديثه عن سورة المعارج : (ظاهرة أخرى في الإيقاع الموسيقي للسورة ، الناشىء من بنائها التعبيري ... فقد كان التنوع الإيقاعي في الحاقة ناشئاً من تغير القافية في السياق من فقرة لفقرة ، وفق المعنى والجو فيه ... فأما هنا في سورة المعارج فالتنوع أبعد نطاقاً ، لأنه يشمل تنوع الجملة الموسيقية كلها لا إيقاع القافية وحدها . والجملة الموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيباً . ويكثر هذا التنوع في شطر السورة الأول بشكل ملحوظ .

والتنويع الإيقاعي في مطلع السورة عميق وشديد التعقيد في الصياغة الموسيقية بشكل يلفت الأذن الموسيقية إلى ما في هذا التنويع المعقد الراقي - موسيقياً - من جمال غريب على البيئة العربية وعلى الإيقاع الموسيقي العربي . ولكن الأسلوب القرآني يطوعه ويمنحه اليسر الذي يدخل به إلى الأذن العربية فتقبل عليه ، وإن كان فناً إبداعياً عميقاً جديداً على مألوفها الموسيقي) .

كلمة في سورة المعارج ومحورها :

قلنا من قبل إن سورة المعارج تفصل في مقدمة سورة البقرة ، وبالتحديد فإنها تفصّل في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ فبداية السورة ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع** ﴾ ثمّ بعد آيات يأتي قوله تعالى : ﴿ **كلّا إنها لظى * نزّاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى** ﴾ ثمّ بعد آيات يأتي قوله تعالى : ﴿ **فمال الذين كفروا قِبلك مهطعين** ﴾ ثمّ بعد آيات يأتي قوله تعالى : ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون** ﴾ فأنت ترى مما نقلناه أن الكلام في السورة ينصبّ انصباباً رئيسياً على الكافرين وعذابهم وأحوالهم .

فإذا تذكّرنا أن سورة الحاقة تحدّثت عن أصحاب الشمال ، وتحدّثت عن المكذّبين باليوم الآخر ، وتحدثت عن المكذبين بالقرآن في أواخرها ، ندرك صلة سورة الحاقة بسورة المعارج ، وصلة نهايتها ببداية سورة المعارج ، وندرك كيف كانت سورة الحاقة مقدمة لمجموعتها ، ولنكتف بهذا القدر .

....

تتألف السورة من مقدمة وفقرتين : المقدمة أربع آيات .

والفقرة الأولى وتمتد من الآية (٥) إلى نهاية الآية (٤١) .

والفقرة الثانية وتمتد من الآية (٤٢) إلى نهاية الآية (٤٤) .

ولنبدأ عرض السورة .

المقدمة

وتمتدّ من بداية السورة حتى الآية (٤) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾

التفسير :

﴿ **سأل سائل** ﴾ أي : دعا داع ﴿ **بعذاب واقع** ﴾ أي : كائن لا محالة ، والمعنى : استعجل سائل بعذاب واقع لا محالة بالكافرين ﴿ **للكافرين** ﴾ أي : العذاب مرصد معدّ للكافرين ﴿ **ليس له دافع** ﴾ أي : لا دافع له إذا أراد الله كونه ﴿ **من الله ذي المعارج** ﴾ قال النسفي في تفسير المعارج : (أي : مصاعد السماء للملائكة ، جمع

معرج ، وهو موضع العروج) ﴿ **تعرج** ﴾ أي : تصعد ﴿ **الملائكة والروح إليه** ﴾ قال ابن كثير : (وأما الروح ، فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا أناساً . قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام . ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم ، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء ، كما دل حديث البراء ، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه ... عن البراء مرفوعاً الحديث بطوله في قبض الروح الطيبة قال فيه : « فلا يزال يصعد بها من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة » والله أعلم بصحته ؛ فقد تكلم في بعض رواته ، ولكنه مشهور ، وله شاهد في حديث أبي هريرة فيما تقدم من رواية الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من طريق ابن أبي الدنيا بإسناده ، وهو إسناد رجاله على شرط الجماعة) . ﴿ **في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال النسفي : (أي : من سني الدنيا لو صعد فيه الملك) وقال ابن كثير في هذا اليوم : (فيه أربعة أقوال : أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل سافلين .

القول الثاني : أن المراد بذلك مدّة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة .

القول الثالث : أنه الفاصل بين الدنيا والآخرة ، وهو قول غريب جداً .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة) . أقول : وأقوى الأقوال التي تشهد لها السنة هو القول الأخير ، وسنرى أدلة كل من الأقوال في الفوائد .

كلمة في السياق :

مرت معنا مقدمة السورة ، وقد عرضت لاستعجال الكافرين بعذاب الله الذي أوعد الله به الكافرين ، كما مَرّ في محور السورة ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ وقد بينت المقدمة أن عذاب الله واقع لا محالة ، وأنه لا يدفعه أحد عنهم ، وأن هذا العذاب من الله عز وجل ذي العظمة والجلال ، وقد ذكرت المقدمة بعض مظاهر عظمته سبحانه وتعالى . وبعد أن قدّمت السورة هذه المقدمة ، تأتي الفقرة الأولى آمرة في ابتدائها رسول الله ﷺ بالصبر الجميل على مواقف الكافرين ، ثم تسير متحدثة عن يوم القيامة ، وعن عذاب الكافرين فيه ، مبيّنة ماهية الأخلاق التي ينبثق عنها الصبر ، ذاكرة مواقف للكافرين تقتضي صبراً .

الفقرة الأولى

وتمتد من الآية (٥) إلى نهاية الآية (٤١) وهذه هي :

المجموعة الأولى

فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

المجموعة الثانية

* إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

المجموعة الثالثة

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾

تفسير المجموعة الأولى :

﴿ **فاصبر صبراً جميلاً** ﴾ أي : بلا جزع ولا شكوى ، وقد جاء الأمر بالصبر في سياق استعجال الكافرين بعذاب الله ؛ ليفيد أن على الداعية أن يتحلّى بالصبر أمام مثل هذه المواقف . قال ابن كثير : (أي : اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه) ثمّ علّل تعالى لاستعجالهم العذاب ، ولوجوب الصبر بقوله : ﴿ **إنهم** ﴾ أي : إن الكافرين ﴿ **يرونه** ﴾ أي : يرون وقوع العذاب ﴿ **بعيداً** ﴾ أي : مستحيلاً ، قال ابن كثير : وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى : مستحيل الوقوع ﴿ **ونراه قريباً** ﴾ أي : كائناً لا محالة ، قال ابن كثير : أي : المؤمنون يعتقدون كونه قريباً وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله عز وجل ، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة . قال النسفي : (فالمراد بالبعيد في الآية الأولى البعيد من الإمكان ، وبالقريب القريب منه) ثم حدثنا الله عز وجل عن اليوم الذي يراه الكافرون بعيداً ، ويراه المؤمنون قريباً ﴿ **يوم تكون السماء كالمهل** ﴾ أي : كعكر الزيت ، أو كالفضة المذابة في تلونها ﴿ **وتكون الجبال كالعهن** ﴾ أي : كالصوف المنفوش المصبوغ ألواناً ؛ لأن الجبال ذات ألوان ، فإذا بثت وطيرت في الجو أشبهت

العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿ **ولا يسأل حميم حميماً** ﴾ أي : ولا يسأل قريب عن قريب ؛ لاشتغاله بنفسه ، وقال ابن كثير : أي : لا يسأل القريب قريبه عن حاله ، وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره ﴿ **يُبصَّرونهم** ﴾ فهم مع رؤيتهم إياهم ، ومعرفتهم لهم لا يسأل القريب عن القريب ﴿ **يَوَدُّ المجرم** ﴾ أي : يتمنى الكافر ﴿ **لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ۞ وصاحبته** ﴾ أي : زوجته ﴿ **وأخيه ۞ وفصيلته** ﴾ أي : وعشيرته الأدنين ﴿ **التي تؤويه** ﴾ أي : تضمه انتماء إليها ﴿ **ومَن في الأرض جميعاً** ﴾ من الناس ، أي : يوّد الكافر أن يفتدي بأبنائه وزوجته وعشيرته وقومه والبشرية جميعاً ﴿ **ثم ينجيه** ﴾ أي : الافتداء ، قال تعالى : ﴿ **كلَّا** ﴾ أي : لا يقبل منه فداء ولو جاء بكل ذلك وأنى له ذلك ﴿ **إنها لظى** ﴾ ليس له منها مفر ، ولا له عنها معدل ، ولظى : اسم علم للنار ، كما قال النسفي ﴿ **نزَّاعة للشوى** ﴾ الشوى : إما أطراف الإنسان ، وإما جلدة رأسه ، وقال قتادة جامعاً بين القولين : أي : نزّاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه ﴿ **تدعو من أدبر** ﴾ عن الحق ، ﴿ **وتولى** ﴾ عن الطاعة ﴿ **وجمع** ﴾ المال ﴿ **فأوعى** ﴾ أي : فجعله في وعاء ولم يؤد حق الله منه . قال ابن كثير : (أي : تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدّر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق زلق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب) .

كلمة في السياق :

١ - أمر الله رسوله ﷺ في هذه المجموعة بالصبر الجميل على مواقف الكفار ، ومما مرّ معنا في السورة نعرف بعض أخلاق الكافرين التي تقتضي صبراً ، كاستعجالهم بالعذاب ، ورؤيتهم استحالة اليوم الآخر ، وإجرامهم ، وإدبارهم عن الحق ، وتوليهم ، وبخلهم .

٢ - رأينا في المجموعة الأولى نموذجاً من العذاب العظيم الذي أعده الله عز وجل للكافرين في المحشر أو في النار ، ولذلك صلته بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ۞ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

٣ - ثمّ تأتي المجموعة الثانية لتتحدث عن الإنسان وهلعه وجزعه ومنعه ، إلا إذا كان متصفاً بصفات محددة ، ومجيء هذه المجموعة في هذا السياق يؤدي عدة خدمات ،

فالصبر الذي أمر الله عز وجل به في المجموعة السابقة لا يطيقه إلا من اتصف بصفات معينة ، وهذا ما سنراه في هذه المجموعة إن شاء الله تعالى .

تفسير المجموعة الثانية :

﴿ **إن الإنسان** ﴾ أي : جنس الإنسان ﴿ **خُلق هلوعاً** ﴾ الهلع : هو سرعة الجزع عند مَسّ المكروه ، وسرعة المنع عند مَسّ الخير ﴿ **إذا مَسّه الشر جزوعاً** ﴾ قال ابن كثير : أي : إذا مسّه الضر فزع وجزع ، وانخلع قلبه من شدة الرعب ، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ﴿ **وإذا مسّه الخير منوعاً** ﴾ أي : إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ، ومنع حق الله تعالى فيها ، ويدخل في الشر هنا الضر والفقر والمرض ، ويدخل في الخير السعة والغنى والصحة ، ثم استثنى الله عز وجل من جنس الإنسان من اتصفوا بالخصائص الآتية ، فهؤلاء ليسوا كذلك ، قال تعالى : ﴿ **إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم** ﴾ التي فرضها الله عليهم وهي الصلوات الخمس ﴿ **دائمون** ﴾ أي : يحافظون عليها في مواقيتها . قال ابن كثير : أي : الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ، ووفقه وهداه إلى الخير ، ويسّر له أسبابه ، وهم المصلون ﴿ **والذين في أموالهم حق معلوم** ﴾ قال النسفي : يعني الزكاة ؛ لأنها مقدرة معلومة ، أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها في أوقات معلومة ﴿ **للسائل** ﴾ الذي يسأل ﴿ **والمحروم** ﴾ أي : الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم . قال ابن كثير : أي : في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات ﴿ **والذين يصدّقون بيوم الدين** ﴾ أي : يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة ، قال ابن كثير : أي : يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب ﴿ **والذين هم من عذاب ربهم مشفقون** ﴾ أي : خائفون وجلون ﴿ **إن عذاب ربهم غير مأمون** ﴾ قال ابن كثير : أي : لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره ، إلا بأمان من الله تبارك وتعالى ، قال النسفي : أي : لا ينبغي لأحد - وإن بالغ في الاجتهاد والطاعة - أن يأمنه ، وينبغي أن يكون مترجحاً بين الخوف والرجاء ، ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾ قال ابن كثير : أي : يكفّونها عن الحرام ، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إلا على أزواجهم** ﴾ أي : نسائهم ﴿ **أو ما ملكت أيمانهم** ﴾ أي : من الإماء ﴿ **فإنهم غير ملومين** ﴾ أي : على ترك الحفظ ﴿ **فمن ابتغى** ﴾ أي : طلب منكحاً ﴿ **وراء ذلك** ﴾ أي : غير الزوجات والمملوكات ﴿ **فأولئك هم**

العادون ﴾ أي : المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام ، قال النسفي : وهذه الآية تدلّ على حرمة المتعة ووطء الذكران والبهائم والاستمناء بالكف ، ﴿ **والذين هم لأماناتهم** ﴾ قال النسفي : وهي تتناول أمانات الشرع وأمانات العباد ﴿ **وعهدهم** ﴾ أي : عهودهم ، قال النسفي : ويدخل فيها عهود الخلق والنذور والأيمان ﴿ **راعون** ﴾ أي : حافظون غير خائنين ولا ناقضين ، قال ابن كثير في الآية : أي : إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ﴿ **والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾ قال النسفي : (أي : يقيمونها عند الحكام بلا ميل إلى قريب وشريف ، وبلا ترجيح للقوي على الضعيف ؛ إظهاراً للصلابة في الدين ، ورغبة في إحياء حقوق المسلمين) ، وقال ابن كثير : (أي : محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها) ﴿ **والذين هم على صلاتهم يحافظون** ﴾ قال ابن كثير : أي : على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، افتتح الكلام بذكر الصلاة ، واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها ، والتنويه بشرفها . وقال النسفي : (كرر ذكر الصلاة لبيان أنها أهم ، أو لأن إحداهما للفرائض والأخرى للنوافل ، وقيل الدوام عليها : الاستكثار منها ، والمحافظة عليها : أن لا تضيع عن مواقيتها . أو الدوام عليها : أداؤها في أوقاتها ، والمحافظة عليها : حفظ أركانها ، وواجباتها ، وسننها وآدابها) ، ﴿ **أولئك في جنات مكرمون** ﴾ أي : أصحاب هذه الصفات في جنات مكرمون ، قال ابن كثير : أي : مكرمون بأنواع الملاذّ والمسارّ .

كلمة في السياق :

١ - جاءت هذه المجموعة في سياق السورة لتبيّن خصائص الإنسان الذي خرج عن صفة الهلع إلى صفة الصبر ، ومجيء هذه الآيات في سياق قوله تعالى : ﴿ **فاصبر صبراً جميلاً** ﴾ واضح الدلالة ، فالمجموعة تذكر الخصائص التي عنها ينبثق خلق الصبر : الدوام على الصلاة ، والإنفاق ، والإيمان باليوم الآخر ، والإشفاق من عذاب الله ، وإحصان الفروج ، وحفظ الأمانات ، والوفاء بالعهود ، والقيام بالشهادات ، والمحافظة على الصلوات ، هذه الأخلاق هي التي ينبثق عنها خلق الصبر ، ويتحرّر بها الإنسان من خلق الهلع ، وذلك درس كبير في التربية ينبغي أن يعرفه حملة الإسلام فيتحققوا به ، يربّوا عليه ، وكأن المجموعة تقول : تحقّق بهذا كي تصبر على ما تلقاه من أخلاق الكافرين وأقوالهم وأفعالهم .

٢ - ذكرت المجموعة خلقين للكافرين : الهلع ، والجزع ، ومن قبل ذكرت السورة بعض أخلاق الكافرين : استعجال العذاب ، واستبعاد وقوع اليوم الآخر ، والإدبار ، والتولّي ، وستذكر أخلاقاً أخرى ، وبذلك تعرّفنا السورة على أخلاق الكافرين ، ولذلك صلاته بمحور السورة .

تفسير المجموعة الثالثة :

﴿ **فمال الذين كفروا قِبلك** ﴾ أي : عندك ﴿ **مهطعين** ﴾ أي : مسرعين ، قال ابن كثير : أي : فما هؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد مهطعين ، أي : مسرعين نافرين منك ﴿ **عن اليمين وعن الشمال** ﴾ أي : عن يمين النبي ﷺ ، وعن شماله ﴿ **عزين** ﴾ أي : فرقاً شتى . قال ابن كثير : (أي : متفرقين) وعزين واحدها عزة أي : فرقة . قال ابن كثير في الآيتين : (يقول تعالى منكراً على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات ، ثم هم مع هذا كله فارون منه متفرقون عنه ، شاردون يميناً وشمالاً فرقاً فرقاً ، وشيعاً شيعاً) . وقال قتادة في تفسير عزين : أي : فرقاً حول النبي ﷺ ، لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيه . أقول : دلت الآيتان على أن الكافرين منهمكون في أعمال الحياة الدنيا ، معرضون عن التلقي عن رسول الله ﷺ ، زاهدون في ذلك . ودلّتا على أن أدب المسلم الاطمئنان عند رسول الله ﷺ ، والالتفاف حوله ﴿ **أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم** ﴾ مع إعراضهم عن تلقي الهدى من رسول الله ﷺ ﴿ **كلّا** ﴾ قال ابن كثير : أي : أيطمع هؤلاء - والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ ونفارهم عن الحق - أن يدخلوا جنات النعيم ؟ كلّا ، بل مأواهم جهنم ، ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد الذي أنكروا كونه ، واستبعدوا وجوده مستدلاً عليهم بالبداءة : ﴿ **إنا خلقناهم مما يعلمون** ﴾ أي : من المني الضعيف ، أي : إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بني آدم كلهم ، ومن حكمنا ألا يدخل أحد الجنة إلا بالإيمان ، فلم يطمع أن يدخلها من لا إيمان له ! ﴿ **فلا أقسم برب المشارق والمغارب** ﴾ أي : مشارق الشمس ومغاربها ﴿ **إنا لقادرون على أن نبدّل خيراً منهم** ﴾ أي : على أن نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم وأطوع لله ﴿ **وما نحن بمسبوقين** ﴾ أي : بعاجزين ، فإذا كان الأمر كذلك فما لهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر والرسول خضوعاً لله وإخباتاً له .

كلمة في السياق :

دلّت المجموعة الأخيرة على أن الكافرين مستغرقون في شؤونهم استغراقاً شغلهم عن رسول الله ﷺ ، وأنهم مستغرقون في باطلهم استغراقاً جعلهم لا يلتفون حوله ، ولذلك صلته بمحور السورة ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ ، ثمّ تأتي الفقرة الأخيرة من السورة ، آمرة رسول الله ﷺ بالإعراض عن هؤلاء الكافرين ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا ...** ﴾ وصلة ذلك بمحور السورة واضحة ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ فلنر الفقرة الأخيرة في السورة وهي تبني على كل ما تقدّم عليها .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (٤٢) إلى نهاية السورة أي : إلى نهاية الآية (٤٤) وهذه هي :

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

التفسير :

﴿ **فذرهم** ﴾ أي : فدع هؤلاء الكافرين يا محمد ﴿ **يخوضوا** ﴾ أي : في باطلهم ﴿ **ويلعبوا** ﴾ متمتعين في دنياهم ، قال ابن كثير : أي : دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿ **حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون** ﴾ به العذاب أي : فسيعلمون غبّ ذلك ويذوقون وبال أمرهم ، ثم فسّر هذا اليوم بقوله : ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث** ﴾ أي : من القبور ﴿ **سراعاً** ﴾ أي : مسرعين إلى الداعي ﴿ **كأنهم إلى نُصُب** ﴾ النصب : كل ما نصب وعُبِد من دون الله ، أي : إلى أوثانهم وأصنامهم

﴿ **يوفضون** ﴾ أي : يسرعون أي : إن إسراعهم إلى الموقف يشبه إسراعهم إلى آلهتهم في الدنيا ؛ إذ كانوا يبتدرون إليها أيهم يستلمها أولاً ، قال ابن كثير : أي : يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ينهضون سراعاً كأنهم إلى نُصب يوفضون ﴿ **خاشعة أبصارهم** ﴾ أي : خاضعة ذليلة ، قال النسفي : يعني لا يرفعونها لذلّتهم ﴿ **ترهقهم ذِلّة** ﴾ أي : يغشاهم هوان ، قال ابن كثير : أي : في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ **ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون** ﴾ في الدنيا ، وهم يكذبون به .

كلمة في السياق :

١ - يلاحظ أن الفقرة الأولى بدأت بالأمر لرسول الله ﷺ ﴿ **فاصبر صبراً جميلاً** ﴾ ثمّ جاءت الفقرة الثانية مبدوءة بالأمر لرسول الله ﷺ ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا** ﴾ وما بين الأمرين كان تفصيل لما يكون في اليوم الآخر ، وتبيان لطريق التحقق بالصبر ، وما بعد الأمر الثاني كان تفصيل لما يكون في اليوم الآخر كذلك ، ومن هذا ومما ذكرناه من قبل يتضح السياق الخاص للسورة ؛ فالكافرون يستعجلون بالعذاب لأنهم يستبعدون مجيئه ، وفي مقابل ذلك فعلى رسول الله ﷺ أن يصبر على أذاهم وأن يتركهم .

٢ - رأينا ما هو محور السورة فلنر كيف فصّلت السورة في هذا المحور :

أ - ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ وقد رأينا في السورة مظاهر من هذا الكفر الذي لا فائدة من معالجته ، ورأينا ما أمر الله به رسوله ﷺ في مقابل هذا الكفر ، وما هي الأخلاق التي ينبغي أن يتحقق بها ليقوم بهذا الأمر .

ب - ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ وقد رأينا في السورة تفصيلات عن هذا العذاب العظيم الذي سيصيبهم ، والذي يستبعدون مجيئه ووجوده . وهكذا رأينا أن للسورة سياقها الخاص ، كما لها صلتها بمحورها .

الفوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **سأل سائل** ﴾ قال ابن كثير : (روى

النسائي ... عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾ قال : النضر بن الحارث بن كلدة ، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾ قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله ، وهو واقع بهم ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ **سأل سائل** ﴾ : دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة قال : وهو قولهم ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾) .

٢ - هناك أكثر من قول في تفسير كلمة (المعارج) من قوله تعالى ﴿ **ذي المعارج** ﴾ قال ابن كثير : (روى الثوري ... عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ **ذي المعارج** ﴾ قال : ذو الدرجات ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : (ذي المعارج) يعني : العلو والفواضل ، وقال مجاهد : (ذي المعارج) : معارج السماء ، وقال قتادة : ذو الفواضل والنعم) .

٣ - في قوله تعالى ﴿ **في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال ابن كثير : (فيه أربعة أقوال : (أحدها) : أن المراد بذلك : مسافة ما بين العرش إلى أسفل السافلين ، وهو قرار الأرض السابعة ، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة - هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة - وكذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة . (القول الثاني) : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة . روى ابن أبي حاتم ... عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ **في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال : الدنيا عمرها خمسون ألف سنة ، وذلك عمرها يوم سماها الله عز وجل يوماً . (القول الثالث) : أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة ، وهو قول غريب جداً . روى ابن أبي حاتم ... عن محمد بن كعب : ﴿ **في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال : هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة . (القول الرابع) : أن المراد بذلك يوم القيامة . روى ابن أبي حاتم ... عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ **في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال : يوم القيامة ، وإسناده صحيح ، ورواه الثوري عن سماك بن حرب عن عكرمة ﴿ **في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ : يوم القيامة ، وكذا قال الضحاك وابن زيد . وقال علي بن أبي طلحة

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال : هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، وقد وردت أحاديث في معنى ذلك ، وروى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد قال : قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ **في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ ما أطول هذا اليوم ! فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا » ورواه ابن جرير .... عن دراج به - إلا أن دراجاً وشيخه أبا الهيثم ضعيفان - والله أعلم ، وروى الإمام أحمد ... عن أبي عمر الغداني قال : كنت عند أبي هريرة فمرّ رجل من بني عامر بن صعصعة فقيل له : هذا أكثر عامري مالاً ، فقال أبو هريرة : ردوه إليّ فردّوه ، فقال : نبئت أنك ذو مال كثير ، فقال العامري : إي والله ؛ إن لي لمائة حمراء أو مائة أدماء ، حتى عدّ من ألوان الإبل وأفنان الرقيق ورباط الخيل ، فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل ، وأظلاف الغنم - يردد ذلك عليه - حتى جعل لون العامري يتغير فقال : ما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كانت له إبل لا يعطي حقها في نجدتها ورسلها » قلنا : يا رسول الله ما نجدتها ورسلها ؟ قال : « في عسرها ويسرها فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قرقر فتطؤه بأخفافها ، فإذا جاوزته أخراها أعيدت أولاها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله ، وإذا كانت له بقر لا يعطيها حقها في نجدتها ورسلها فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره ، ثم يبطح لها بقاع قرقر ، فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها ، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، ليس فيها عقصاء ولا عضباء ، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله ، وإذا كانت له غنم لا يعطي حقها في نجدتها ورسلها فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قرقر فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها ، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، ليس فيها عقصاء ولا عضباء ، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله » قال العامري : وما حق الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطي الكريمة ، وتمنح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتسقي الإبل ، وتطرق الفحل ، وقد رواه أبو داود من حديث شعبة ، والنسائي من حديث سعيد ابن أبي عروبة كلاهما عن قتادة به .

(طريق أخرى لهذا الحديث) روى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره ، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل كما تقدم وفيه « الخيل الثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر » إلى آخره ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفرداً به دون البخاري من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة وموضع استقصاء طرقه وألفاظه في كتاب الزكاة من كتاب الأحكام ، والغرض من إيراده ههنا قوله حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجمع فأوعى** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ورد في الحديث : « ولا توعِ فيوعي الله عليك » وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيساً ، ويقول : سمعت الله يقول : ﴿ **وجمع فأوعى** ﴾ . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا ، وقال قتادة في قوله : ﴿ **وجمع فأوعى** ﴾ قال : كان جموعاً نموماً للخبيث) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعاً** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد ... عن عبد العزيز بن مروان بن الحكم قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « شر ما في رجل : شحّ هالع ، وجبن خالع » رواه أبو داود ... وليس لعبد العزيز عنده سواه) . وقال النسفي : (والهلع : سرعة الجزع عند مسّ المكروه ، وسرعة المنع عند مسّ الخير . وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلباً عن الهلع فقال : قد فسره الله تعالى ولا يكون تفسير أبين من تفسيره ، وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس ، وهذا طبعه وهو مأمور بمخالفة طبعه ، وموافقة شرعه ، والشر : الضر والفقر ، والخير : السعة والغنى أو المرض والصحة) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى واصفاً المصلين : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ قال ابن كثير : (أي : إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ، وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين كما ورد في الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » وفي رواية : « إذا

حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ») .

٧ - بمناسبة قوله تعالى في الكافرين : ﴿ **فمال الذين كفروا قبلك مهطعين * عن اليمين وعن الشمال عزين** ﴾ قال ابن كثير : كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء : فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون في الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . أقول : فالكافرون معرضون عن الحق ، فارّون من الالتفاف حول رسول الله ﷺ ، متفرقون فيما بينهم فرقاً شتى كل فرقة تجتمع على شيء من الباطل .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **عزين** ﴾ قال ابن كثير : (وقال الثوري وشعبة وعبثر بن القاسم وعيسى بن يونس ومحمد بن فضيل ووكيع ويحيى القطان وأبو معاوية كلهم ... عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حِلَق فقال : « مالي أراكم عزين ؟ » رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير من حديث الأعمش به . وروى ابن جرير ... عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حِلَق حِلَق فقال : « مالي أراكم عزين ؟ » وهذا إسناده جيد ، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه) . أقول : هذا يشير إلى أن الأصل في الإسلام هو الاجتماع .

كلمة أخيرة في سورة المعارج :

تحدثت سورة الحاقة عن القيامة ، وجزاء المكذبين بها ، وحال الناس فيها ، وأكّدت أن القرآن حق ، وجاءت سورة المعارج لتبيّن أن هناك مكذبين باليوم الآخر ، وحدّدت لرسول الله ﷺ الموقف من هؤلاء ، وكل ذلك رأيناه ، فصلة سورة المعارج على هذا بسورة الحاقة - التي هي مقدمة هذه المجموعة - واضحة . والملاحظ أن سورة الحاقة حدّثتنا عن عذاب المكذبين باليوم الآخر في الدنيا والآخرة ، وجاءت سورة المعارج تحدّثنا عن عذاب المكذبين باليوم الآخر في الآخرة فقط ، ثمّ تأتي سورة نوح لتحدّثنا عما أصاب أمة مكذبة من عذاب في الدنيا . والملاحظ أن سورة الحاقة والمعارج ونوح ، وكذلك سورة الجن كلها تفصّل في مقدمة سورة البقرة كما رأينا وسنرى . فسورة المعارج تأخذ محلها في مجموعتها ، ومحلها من تفصيل مقدمة سورة البقرة ، فلننتقل إلى الكلام عن سورة نوح .

☆ ☆ ☆

سورة نوح

وهي السورة الحادية والسبعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة السادسة من قسم
المفصل ، وهي ثمان وعشرون آية
وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة نوح :

قال الألوسي : (مكية بالاتفاق . وهي ثمان وعشرون آية في الكوفي ، وتسع في البصري والشامي ، وثلاثون فيما عدا ذلك ، ووجه اتصالها بما قبلها على ما قال السيوطي وأشار إليه غيره أنه سبحانه لما قال في سورة المعارج : ﴿ **إنا لقادرون على أن نُبدِّل خيراً منهم** ﴾ عقّبه تعالى بقصة قوم نوح عليه السلام المشتملة على إغراقهم عن آخرهم بحيث لم يبق منهم في الأرض ديار ، وبدّل خيراً منهم ، فوقعت موقع الاستدلال والاستظهار لتلك الدعوى ، كما وقعت قصة أصحاب الجنة في سورة نّ موقع الاستظهار لما ختم به تبارك ، هذا مع تواخي مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعد به الكافرون ، ووجه الاتصال على قول من زعم أن السائل هو نوح عليه السلام ظاهر ، وفي بعض الآثار ما يدل على أن النبي ﷺ يقرؤها على قوم نوح عليه السلام يوم القيامة ، أخرج الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً قال : « إن الله تعالى يدعو نوحاً وقومه يوم القيامة أول الناس فيقول : ماذا أجبتم نوحاً ؟ فيقولون : ما دعانا وما بلّغنا ولا نصحنا ولا أمرنا ولا نهانا ، فيقول نوح عليه السلام : دعوتهم يا رب دعاءً فاشياً في الأولين والآخرين ، أمة بعد أمة ، حتى انتهى إلى خاتم النبيين أحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانتسخه وقرأه وآمن به وصدّقه ، فيقول الله عز وجل للملائكة عليهم السلام : ادعوا أحمد وأمته ، فيدعونهم فيأتي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته يسعى نورهم بين أيديهم ، فيقول نوح عليه السلام لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته : هل تعلمون أني بلغت قومي الرسالة ، واجتهدت لهم النصيحة ، وجهدت أن أستنقذهم من النار سراً وجهاراً ، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ؟ فيقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته : فإنا نشهد بما أنشدتنا أنك في جميع ما قلت من الصادقين ، فيقول قوم نوح عليه السلام : وأنى علمت هذا أنت وأمتك ونحن أول الأمم وأنت آخر الأمم ؟ فيقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه** ﴾ حتى يختم السورة فإذا ختمها قالت أمته : نشهد إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله وأن الله لهو العزيز الحكيم فيقول الله عز وجل عند ذلك : امتازوا اليوم أيها المجرمون ») .

وقال صاحب الظلال : (هذه السورة كلها تقصّ قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ؛ وتصف تجربة من تجارب الدعوة في الأرض ، وتمثل دورة من دورات العلاج

الدائم الثابت المتكرر للبشرية ، وشوطاً من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل .

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة ، الضالة ، الذاهبة وراء القيادات المضللة ، المستكبرة عن الحق ، المعرضة عن دلائل الهدى وموجبات الإيمان ، المعروضة أمامها في الأنفس والآفاق ، المرقومة في كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون .

وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني ، وعنايته بأن يهتدي . تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل تترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى .

ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني ، والعناء المرهق ، والصبر الجميل ، والإصرار الكريم من جانب الرسل - صلوات الله عليهم - لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة . وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية ، ولا مكافأة ولا جُعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون ، في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم !) .

(ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها ، وتأصل جذورها . كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره ، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله) .

كلمة في سورة نوح ومحورها :

١ - أجملت سورة الحاقة الحديث عن تعذيب المكذّبين باليوم الآخر في الدنيا ، وذكرت عذاب الكافرين في الآخرة ، وجاءت سورة المعارج لتحدّثنا عن عذاب المكذبين باليوم الآخر في الآخرة ، ثمّ تأتي سورة نوح لتعرض علينا قصّة قوم نوح الذين ذُكروا في سورة الحاقة ، لترينا كيف عذّب هؤلاء في الدنيا ، وكيف أن الله عز وجل لم يهلكهم إلا بعد أن استنفد رسولهم ﷺ كافّة الوسائل وأقام عليهم الحجة .

٢ - تأتي سورة نوح بعد سورة المعارج التي حدثتنا عن موقف كافري هذه الأمة من رسولها لتعرض سورة نوح موقف أمة من رسولها ، وما عاقبها الله في الدنيا ، وفي

ذلك تحذير لهذه الأمة .

٣ - في مقدمة سورة البقرة كلام عن الكافرين أنهم سواء في حقهم الإنذار وعدمه ، وتأتي سورة نوح لترينا أن رسولاً لله ﷺ هو نوح دعا إلى ما دعا إليه رسولنا من التقوى ، وترينا قصة أمة بذل معها رسولها كل جهد ممكن ، وأقام عليها كل حجة ، ومع ذلك أصرت على الإنكار ورفض الإنذار ، فسورة نوح إذن تقدّم نموذجاً على نوع من الكفار يتساوى الإنذار وعدمه في حقهم ، ولذلك صلته بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ وهكذا فسورة نوح تفصّل في محورها من مقدمة سورة البقرة ، وتؤدي دورها في مجموعتها ، وكل ذلك ضمن سياقها الخاص .

٤ - وفي سورة نوح درس للنذير ، ودروس في الإنذار : كيف يكون ، وما هي وسائله ، وما هو مضمونه ، ولذلك صلته بمحور السورة كذلك .

٥ - تتألف السورة من مقدمة وفقرتين :

المقدمة آية واحدة تتحدّث عن تكليف نوح بالإنذار .

والفقرة الأولى تستمر حتى نهاية الآية (٢٥) وفيها حديث عما فعل نوح قياماً بحق الدعوة .

والفقرة الثانية وتستمرّ حتى نهاية السورة ، وفيها دعاء نوح على قومه الذين لم يستجيبوا له ودعاؤه لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات .

* * *

مقدمة السورة

وهي آية واحدة هي الآية الأولى وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١)

التفسير :

﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه** ﴾ فالمرسِل الله عز وجل ، والمرسَل نوح عليه السلام والمرسَل إليهم قوم نوح ، كما أن كل رسول قبل رسولنا عليه السلام كان يبعث إلى قومه خاصّة ، وهذا يرجّح أن الطوفان لم يكن شاملاً للأرض كلها ، وإنما كان شاملاً للمنطقة التي كان فيها قوم نوح ، هذا مع أن عامّة المفسرين يرجّحون القول الذي يقول بشمول الطوفان كما سنرى ، وهو أحد اتجاهين عند المفسرين ﴿ **أن أنذر قومك** ﴾ أي : بأن أنذر قومك ﴿ **من قبل أن يأتيهم عذاب أليم** ﴾ أي : عذاب الآخرة أو الطوفان ، والظاهر من كلام ابن كثير أن المراد بالعذاب في الآية عذاب الدنيا قبل الآخرة ، قال ابن كثير : (يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم) .

كلمة في السياق :

يلاحظ أن مضمون الرسالة التي أمر الله بها نوحاً كان هو الإنذار بعذاب الله ، وهذا يجعلنا ندرك أهمية الإنذار الصحيح السليم الذي تعطينا السورة صورة مفصّلة عنه في فقرتها الأولى ، فلنر هذه الفقرة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتدّ من الآية (٢) حتى نهاية الآية (٢٥) وهذه هي :

المجموعة الأولى

قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

المجموعة الثانية

قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾

تفسير المجموعة الأولى :

﴿ **قال يا قوم** ﴾ ناداهم هذا النداء بأن أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة ، وإيذاناً بالحرص عليهم ، وهذا أول دروس الإنذار ﴿ **إني لكم نذير** ﴾ أي : مخوّف ﴿ **مبين** ﴾ أي : أبيّن لكم رسالة الله بلغة تعرفونها ، قال ابن كثير : أي : بيّن النذارة ، ظاهر الأمر واضحه . أقول : وهذا ثاني درس في الإنذار أن يعرّف الداعية إلى الله على مهمته وطبيعتها فلا يترك مجالاً لأحد يعطي الآخرين تصوراً خاطئاً عنه ، ثمّ إن نوحاً عليه السلام حدّد مضمون دعوته التي إذا قبلوها فقد حققوا الحكمة من إرساله وإنذاره ، وتجنّبوا سخط الله عليهم في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ **أن اعبدوا الله** ﴾ أي : وحّدوه ﴿ **واتقوه** ﴾ قال ابن كثير : أي : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ **وأطيعون** ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ، وهكذا حدّد نوح عليه السلام مضمون دعوته : العبادة والتقوى والطاعة ، وباجتماعها ينتقل المجتمع من طور إلى طور ، وكثير ممن يشتغلون بالدعوة إلى الله يفرّطون في التربية على هذه المعاني الثلاثة مجتمعة ، فينتج عن ذلك قصور في العبادة أو في التقوى ، أو في الطاعة ، والملاحظ أن كثيرين من الدعاة في عصرنا يهملون قضية الطاعة ، فتبقى طاعة المسلم للكافرين يستخدمونها حتى في تهديم الإسلام ، فالدعوة الكاملة ، والدعاة الكاملون ، هم الذين يربون ويدعون للمعاني الثلاثة مجتمعة ، ضمن صيغة قرآنية إسلامية ، تجعل واجب الطاعة من الأدنى إلى الأعلى في المجتمع الإسلامي بديهية ، وهذا درس ثالث في الإنذار ، ثم بيّن نوح عليه السلام ما لهم إن فعلوا ذلك فقال : ﴿ **يغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ أي : إذا فعلتم ما آمركم به

وصدّقتم ما أرسلت به إليكم ، غفر الله لكم ذنوبكم ، هذا إذا اعتبرنا (من) في الآية زائدة ، وإذا اعتبرناها بمعنى (عن) كما رجح ذلك ابن كثير يكون المعنى : يصفح لكم عن ذنوبكم ، وإذا اعتبرناها بمعنى (بعض) يكون المعنى : يغفر لكم الذنوب العظيمة التي أوعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمّى** ﴾ قال النسفي : هو وقت موتكم ، قال ابن كثير : أي : يمدّ من أعماركم ، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم ﴿ **إنّ أجل الله** ﴾ أي : الموت ﴿ **إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون** ﴾ قال النسفي : أي : لو كنتم تعلمون ما يحل بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم لآمنتم ، وقال ابن كثير في الآية : أي : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ، فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يردّ ولا يمانع فإنّه العظيم الذي قد قهر كل شيء ، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات ، والملاحظ أن نوحاً عليه السلام وعدهم على قبول دعوته أن يغفر الله لهم ذنوبهم ، وأن يجنّبهم عذابه الذي ينزله بالأقوام الفاسقين ، وهذا درس رابع في الدعوة ، أن الداعية إلى الله ليست طريقته كطريقة دعاة الدنيا يغرقون الناس بالوعود الدنيوية فقط ، وبهذا انتهت المجموعة الأولى من الفقرة الأولى .

كلمة في السياق :

بعد أن قصَّ الله علينا ما قاله نوح عليه السلام لقومه في المجموعة السابقة ، يقصّ علينا ربنا عز وجل شكوى نوح إلى الله عز وجل من مواقف قومه ، ومن هذه الشكوى نعلم أن قومه رفضوا نذارته ، ومنها نعرف ماذا فعل نوح عليه السلام ، وهذا يستغرق المجموعة الثانية من الفقرة الأولى .

تفسير الجزء الأول من المجموعة الثانية :

﴿ **قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً** ﴾ أي : دائباً بلا فتور في كل الأوقات فلم أترك وقتاً إلا ودعوتهم فيه ، قال ابن كثير : أي : لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالاً لأمرك وابتغاءً لطاعتك ، وفي ذلك درس خامس للدعاة ، وهو ألا يبقوا وقتاً إلا ويمارسون فيه الدعوة ، فإن بعض الأوقات أنسب للدعوة لبعض الطبقات من بعض ، كما أنه درس للداعية في الدأب الدائم على الدعوة ﴿ **فلم يزدهم دعائي إلا فراراً** ﴾ أي : عن طاعتك . قال النسفي : (ونسب ذلك - أي : الفرار - إلى

دعائه لحصوله عنده ، وإن لم يكن الدعاء سبباً للفرار في الحقيقة) وقال ابن كثير : أي : كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه ﴿ **وإني كلما دعوتهم** ﴾ إلى الإيمان بك وعبادتك وتقواك ﴿ **لتغفر لهم** ﴾ أي : ليؤمنوا فتغفر لهم ﴿ **جعلوا أصابعهم في آذانهم** ﴾ أي : سدوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامي ﴿ **واستغشوا ثيابهم** ﴾ أي : وتغطوا بثيابهم لئلا يبصروني كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله ، قال ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم ، وقال سعيد بن جبير : أي : غطّوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول ﴿ **وأصروا** ﴾ أي : وأقاموا على كفرهم ، أي : استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ﴿ **واستكبروا استكباراً** ﴾ أي : تعظموا عن إجابتي ، واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له ﴿ **ثم إني دعوتهم جهاراً** ﴾ أي : مجاهراً ، أي : جهرة بين الناس . قال النسفي : يعني : أظهرت لهم الدعوة في المحافل ﴿ **ثم إني أعلنت لهم** ﴾ أي : كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿ **وأسررت لهم إسراراً** ﴾ قال ابن كثير : أي : فيما بيني وبينهم ، فَنَوَّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ، وقال النسفي : (أي : خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر فالحاصل أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السر ، ثم دعاهم جهاراً ثم دعاهم في السر والعلن ، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف يبتدىء بالأهون ، ثم بالأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة في السر ، فلما لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان ، و(ثم) تدل على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما) . أقول : وفي ذلك كله درس جديد من دروس الدعوة أن يلجأ الداعية إلى كل الوسائل العلنية والسرية لتبليغ دعوته بالمحاضرة والخطاب المنفرد والجهر والسر .

كلمة في السياق :

١ - عرض نوح عليه السلام في هذا الجزء من المجموعة الثانية مجمل ما فعل وتصرف ، وسيأتي الجزء الثاني من المجموعة ليعرض نوح عليه السلام فيه تفصيل ما كان يقوله لهم في دعوته كما سنرى .

٢ - نلاحظ أن نوحاً لم يترك وسيلة إلا سلكها ، وكانت الحصيلة زيادة العناد والإصرار ، وفي ذلك نموذج على أن الكفر إذا تأصّل لا ينفع معه إنذار ، وصلة ذلك بمحور السورة واضحة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ فهذه أمة لم يترك رسولها وسيلة لهدايتها إلا سلكها ، ولم ينتج عن ذلك

شيء ، ولننتقل إلى الجزء الثاني من المجموعة الثانية لنرى تفصيل ما قاله نوح عليه السلام لقومه .

تفسير الجزء الثاني من المجموعة الثانية :

﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً** ﴾ قال ابن كثير : أي : ارجعوا إليه ، وارجعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا إليه من قريب ؛ فإنه من تاب إليه تاب عليه ، مهما كانت ذنوبه في الكفر والشرك ﴿ **يرسل السماء عليكم** ﴾ أي : بالمطر ﴿ **مدراراً** ﴾ أي : كثيرة الدرور ، قال ابن كثير : أي : متواصلة الأمطار ﴿ **ويمددكم بأموال وبنين** ﴾ أي : ويزدكم أموالاً وبنين ﴿ **ويجعل لكم جنات** ﴾ أي : بساتين ﴿ **ويجعل لكم أنهاراً** ﴾ أي : جارية لمزارعكم وبساتينكم ، قال ابن كثير : (أي : إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدرّ لكم الضرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أي : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها ، هذا مقام الدعوة والترغيب ، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب) فقال : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقاراً** ﴾ أي : عظمة ، أي : لم لا تعظّمون الله حق عظمته ، أي : لا تخافون من بأسه ونقمته ﴿ **وقد خلقكم أطواراً** ﴾ قال ابن كثير : قيل : معناه : من نطفة ، ثم علقة ، ثم من مضغة ، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة ويحيى بن رافع والسدي وابن زيد ، قال النسفي : (عن الأخفش قال : والرجاء هنا الخوف لأن مع الرجاء طرفاً من الخوف ومن اليأس ، والوقار العظمة ، أو لا تأملون له توقيراً أي : تعظيماً . والمعنى : ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب ﴿ **وقد خلقكم أطواراً** ﴾ في موضع الحال ، أي : ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه - وهي حال موجبة للإيمان به - لأنه خلقكم أطواراً أي : تارات وكرّات ، خلقكم أولاً نطفاً ، ثم خلقكم علقاً ، ثم خلقكم مضغاً ، ثم خلقكم عظاماً) . أقول : وهكذا نجد نوحاً عليه السلام يركّز على نقطتين الاستغفار وتعظيم الله عز وجل ، وفي ذلك درس جديد من دروس الدعوة ، وفي عملية الدعوة إلى تعظيم الله عز وجل لفت نظرهم أولاً إلى الأطوار التي مرّوا عليها بقدرة الله عز وجل ، ثم يتابع لفت أنظارهم إلى معان أخرى ، كلها توصل إلى تعظيم الله عز وجل ، ومن ثَمَّ قال : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوات طباقاً** ﴾ أي : واحدة فوق واحدة ، قال

النسفي : (أي : بعضاً على بعض ، نبههم أولاً - أي : في قوله ﴿ **وقد خلقكم أطواراً** ﴾ - على النظر في أنفسهم لأنها أقرب ، ثم على النظر في العالم وما سوّى فيه من العجائب الدالة على الصانع) ﴿ **وجعل القمر فيهن** ﴾ أي : في السموات ﴿ **نوراً وجعل الشمس سراجاً** ﴾ أي : مصباحاً منيراً ، وهذا يفيد أن الشمس والقمر تحيط بهما السموات السبع كلها لأنه إذا لم تكن الشمس والقمر في وسط الفضاء الموجود في باطن السماء الدنيا لا يكون الشمس والقمر في السموات كلها ، ولنا عودة على هذا الموضوع في الفوائد ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتاً** ﴾ أي : والله أنشأكم من الأرض فأنبتكم نباتاً ﴿ **ثم يعيدكم فيها** ﴾ أي : إذا متم ﴿ **ويخرجكم إخراجاً** ﴾ أي : يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطاً** ﴾ أي : مبسوطة ممهدة صالحة لسكنى الإنسان ﴿ **لتسلكوا منها سبلاً** ﴾ أي : طرقاً ﴿ **فجاجاً** ﴾ أي : واسعة أو مختلفة ، قال النسفي : أي : لتتقلبوا عليها كما يتقلّب الرجل على بساطه ، وقال ابن كثير : أي : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وبهذا أتم نوح عليه السلام عملية لفت النظر إلى عظمة الله عز وجل .

كلمة في السياق :

عرض نوح عليه السلام في المجموعة الأولى عمله وإنذاره بشكل إجمالي ، ثم فصّل في الجزأين الأولين من المجموعة الثانية ما قاله لقومه تفصيلاً ، وذلك يعود إلى نقطتين اثنتين : الاستغفار ، وتعظيم الله عز وجل ، والملاحظ أن المعاني التي ذكرها نوح عليه السلام هي المعاني نفسها التي عرّفنا الله عز وجل بها على ذاته في أوائل سورة البقرة ، فدعوى الرسل واحدة ، وبعد أن ذكر نوح عليه السلام لله جل جلاله ما فعله إجمالاً وتفصيلاً يأتي الجزء الثالث من المجموعة الثانية وفيه تفصيل لموقف قومه منه .

تفسير الجزء الثالث من المجموعة الثانية :

﴿ **قال نوح رب إنهم عصوني** ﴾ فيما أمرتهم به من العبادة والتقوى والطاعة ، ومن الاستغفار والتعظيم ﴿ **واتبعوا** ﴾ أي : السفلة والأتباع والفقراء ﴿ **من لم يزده ماله وولده** ﴾ أي : الرؤساء وأصحاب الأموال والأولاد ﴿ **إلا خساراً** ﴾ أي : في الآخرة . قال ابن كثير : (يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه - وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء - أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه ، واتبعوا أبناء الدنيا

ممن غفل عن أمر الله ومتّع بمال وأولاد وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام) ، ﴿ **ومكروا** ﴾ أي : الرؤساء ، قال النسفي : ومكرهم احتيالهم في الدين ، وكيدهم لنوح وتحريش الناس على أذاه ، وصدّهم عن الميل إليه ﴿ **مكراً كُبَّاراً** ﴾ أي : مكراً عظيماً بأتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى ، ﴿ **وقالوا** ﴾ أي : الرؤساء للأتباع ﴿ **لا تذرُنَّ آلهتكم** ﴾ على العموم أي : لا تتركوا عبادتها ، ﴿ **ولا تذرُنَّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً** ﴾ قال ابن كثير : وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ﴿ **وقد أضلوا** ﴾ أي : الأصنام أو الرؤساء ﴿ **كثيراً** ﴾ أي : من الناس ﴿ **ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً** ﴾ ختم نوح عليه السلام عرض حاله على الله بهذا الدعاء ، وفي ختمه عرض الحال على الله عز وجل بهذا الدعاء أدب منه عليه السلام ، فكأنه قال هذا موقفهم يا رب ، وأنت سنّتك ألا تزيد الظالمين إلا ضلالاً وهؤلاء ظالمون ، وأنا لا أذكر هذا معترضاً ؛ بل أنا أدعوك أن تحقق سنتك فيهم ؛ تسليماً لك في سنتك ، وإعلاناً عن براءتي منهم .

كلمة في السياق :

بالدعاء الأخير ختم نوح عليه السلام عرض ما فعله على الله عز وجل - والله أعلم - بما فعل وبعد أن قصّ الله عز وجل علينا هذا كله يخبرنا الله عز وجل في الجزء الرابع من المجموعة الثانية عن فعله بهؤلاء .

تفسير الجزء الرابع من المجموعة الثانية :

﴿ **مما خطيئاتهم** ﴾ أي : من خطيئاتهم أي : من ذنوبهم ﴿ **أغرقوا** ﴾ أي : بالطوفان ﴿ **فأُدخلوا ناراً** ﴾ قال ابن كثير : أي : نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ، وقال النسفي : (وتقديم ﴿ **مما خطيئاتهم** ﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان وإدخالهم في النيران إلا من أجل خطيئاتهم ، وأكّد على هذا المعنى بزيادة ما ، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا ، فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم ، وإن كانت كبراهن ، والفاء في (فأدخلوا) للإيذان بأنهم عذبوا بالإحراق عقيب الإغراق فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر) ، قال الألوسي في قوله تعالى : ﴿ **فأُدخلوا ناراً** ﴾ : (هي نار البرزخ ، والمراد عذاب القبر ، ومن مات في ماء أو نار أو أكلته السباع أو الطير مثلاً أصابه ما يصيب المقبور من العذاب) ﴿ **فلم يجدوا لهم من دون الله**

أنصاراً ﴾ ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، قال ابن كثير : أي : لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله .

كلمة في السياق :

١ - بدأت السورة بمقدمة ذكرت تكليف الله عز وجل نوحاً بالرسالة والإنذار ، ثم جاءت الفقـرة الأولى على مجموعتين : الأولى حدّثنا الله عز وجل فيها عن فعل نوح عليه السلام ، ثم جاءت المجموعة الثانية وفيها رفع نوح عليه السلام إلى الله عز وجل ما فعله في صيغة دعاء وشكوى ، وجاءت هذه المجموعة على أجزاء ، الجزء الأول أجمل فيها نوحاً عليه السلام فعله ، وموقف قومه منه ، ثم جاء الجزآن الآخران ، وقد فصّل فيهما نوع فعله ، وموقف قومه ، ثم جاء الجزء الأخير وفيه بيان ما عاقب الله عز وجل به قوم نوح ، ثمّ تأتي الفقرة الثانية وفيها دعاء نوح عليه السلام على قومه الكافرين ، ودعاؤه للمؤمنين من قومه . والملاحظ أن الله عز وجل قدّم ذكر عقوبة قوم نوح على دعائه ، ليعلم ابتداءً أن الله عز وجل عاقب انتقاماً لنوح ، وانتصاراً له ، واستجابة لنوح ، واستجابة لشكواه .

٢ - عرضت السورة نموذجاً على أمة كفرت ورفضت الإنذار فعوقبت عقاباً عظيماً في الدنيا والآخرة ، وصلة ذلك بمحور السورة واضحة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية من السورة

وتمتدّ من الآية (٢٦) إلى نهاية السورة وهذه هي :

وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

التفسير :

﴿ **وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً** ﴾ أي : لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ، والديَّار : هو الذي يدور في الأرض ، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام ، ثم علل لدعائه ﴿ **إنك إن تذرهم** ﴾ أي : تتركهم ولا تهلكهم ﴿ **يضلوا عبادك** ﴾ أي : يدعونهم إلى الضلال ، قال ابن كثير : أي : إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك ، أي : الذي تخلقهم بعدهم ، ﴿ **ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً** ﴾ قال ابن كثير : أي : فاجراً في الأعمال كافر القلب وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، قال النسفي : وإنما قال ذلك لأن الله تعالى أخبره بقوله ﴿ **لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ ثم قال نوح عليه السلام : ﴿ **رب اغفر لي ولوالدي** ﴾ قال النسفي : وكانا مسلمَيْن ﴿ **ولمن دخل بيتي** ﴾ أي : منزلي أو مسجدي أو سفينتي ﴿ **مؤمناً** ﴾ قال النسفي : لأنه علم أن من دخل بيته مؤمناً لا يعود إلى الكفر ﴿ **وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ أي : إلى يوم القيامة ، قال النسفي : خصّ أولاً من يتصل به لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عمّ المؤمنين والمؤمنات ، قال ابن كثير : دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام (كما يستحب) بما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة ﴿ **ولا تزد الظالمين** ﴾ أي : الكافرين ﴿ **إلا تباراً** ﴾ أي : هلاكاً وقد أهلكوا .

كلمة في السياق :

وهكذا عرضت السورة قصة أمة ورسول ، فكانت نموذجاً على أمة ترفض الإنذار ، ورسول قام بكامل جهده في الإنذار ، ورأينا خلال ذلك دروساً كثيرة في الإنذار وأساليبه ومضامينه ، وقد رأينا أثناء عرضنا للسورة سياقها الخاص وصلتها بمحورها ومضامينه .

الفوائد :

١ - عند قوله تعالى : ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمّى** ﴾ قال ابن كثير : (أي : يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم . وقد يستدل بهذه الآية من يقول إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث : « صلة الرحم تزيد في العمر ») .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً** ﴾ قال ابن كثير : (ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية . وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صعد المنبر ليستسقي ، فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار ومنها هذه الآية ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً** ﴾ ثم قال : « لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر ») ، وقال النسفي : (وعن الحسن أن رجلاً شكا إليه الجدب فقال : استغفر الله ، وشكا إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون أبواباً فأمرتهم كلهم بالاستغفار ؟ فتلا الآيات) ، وقال الألوسي : (قال قتادة : كانوا أهل حبّ للدنيا فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها) أقول : وفي ذلك درس من دروس الدّعوة .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً** ﴾ قال الألوسي : (أي : خلقكم مدرجاً لكم في حالات : عناصر ، ثمّ أغذية ، ثمّ أخلاطاً ، ثمّ نطفاً ، ثمّ علقاً ، ثمّ مضغاً ، ثمّ عظاماً ولحوماً ، ثمّ خلقاً آخر ، فإن التقصير في توقير من هذا شأنه في القدرة القاهرة والإحسان التام مع العلم

بذلك مما لا يكاد يصدر عن العاقل ، وقيل : المراد بها الأحوال المختلفة بعد الولادة إلى الموت ، من الصبا ، والشباب ، والكهولة ، والشيخوخة ، والقوة ، والضعف . وقيل : من الألوان ، والهيئات ، والأخلاق ، والملل المختلفة ، وقيل : من الصحة والسقم ، وكمال الأعضاء ونقصانها ، والغنى والفقر ونحوها) . **أقول** : ذهبت بعض فرق الباطنية في فهم هذه الآية مذاهب لا يشهد لها عقل ولا نقل ، فاعتبرتها دليلاً على التناسخ الذي تقول به بعض ديانات الهند ، وذلك من عمى القلب ، وانطماس البصيرة ، فالتناسخ تنقضه بديهيات العقول والعلوم ، كما سترى ذلك ، وهذا الفهم الممسوخ نموذج لا على ترك المحكم إلى المتشابه ، بل على ترك المحكم إلى الكفر الذي لا يستند إلى دليل .

٤ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً** ﴾ نحب أن ننقل كلام النسفي وابن كثير والألوسي في هذا النص ثم نعلّق على ذلك . قال النسفي : (وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم أن الشمس والقمر وجوههما مما يلي السموات ، وظهورهما مما يلي الأرض ، فيكون نور القمر محيطاً بجميع السموات لأنها لطيفة لا تحجب نوره) . وقال ابن كثير : (وقوله تعالى : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً** ؟ ﴾ أي : واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحسّ مما علم من التسيير والكسوفات ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكشف بعضها بعضاً ، فأدناها القمر في السماء الدنيا ، وهو يكشف ما فوقه ، وعطارد في الثانية ، والزهرة في الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشترى في السادسة ، وزحل في السابعة ، وأما بقية الكواكب وهي الثوابت ففي فلك ثامن يسمونه فلك الثوابت ، والمتشرعون منهم يقولون : هو الكرسي ، والفلك التاسع وهو الأطلس ، والأثير عندهم الذي حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك ، وذلك أن حركته مبدأ الحركات وهي من المغرب إلى المشرق ، وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب ، ومعها يدور سائر الكواكب تبعاً ، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها ؛ فإنها تسير من المغرب إلى المشرق ، وكل يقطع فلكه بحسبه ، فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة ، والشمس في كل سنة مرة ، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة ، ذلك بحسب اتساع أفلاكها ، وإن كانت حركة الجميع في السرعة متناسبة . هذا ملخص ما يقولونه في هذا المقام ، على اختلاف بينهم في مواضع كثيرة لسنا بصدد بيانها ، وإنما المقصود أن الله سبحانه وتعالى ﴿ **خلق سبع**

سمٰوات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ أي : فاوت بينهما في الاستنارة ، فجعل كلا منهما أنموذجاً على حدة ؛ ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدّر القمر منازل وبروجاً ، وفاوت نوره فتارة يزداد حتى يتناهى ، ثم يشرع في النقص حتى يستتر ليدل على مضي الشهور والأعوام كما قال تعالى : ﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصّل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ . وقال الألوسي : (ولعل في تشبيهها (أي : الشمس) بالسراج القائم لا بطريق الانعكاس رمزاً إلى أن ضياءها ليس منعكساً إليها من كوكب آخر ، كما أنّ نور القمر منعكس عليه من الشمس) .

أقول : هذه نماذج في التفسير تبيّن تأثّر المفسرين بثقافات عصرهم ، التي قد تقرب أو تبعد من الصواب ، والذي أراه في فهم الآية : أن الشمس والقمر والكواكب السيارة كلها في جوف السماء الدنيا ، وأن السماء الدنيا واحدة من سبع سمٰوات ، وأن هذه السمٰوات السبع مغيبة عنا ، فهي من عالم الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به دون أن نراه ، وهذا موضوع يحتاج إلى تحقيق واسع ، وهذا ما عندي فيه ، والملاحظ أنّ نوحاً عليه السّلام خاطب قومه بقوله : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوات طباقاً** ﴾ مما يشير إلى أنّه كان في حكم البديهة عندهم وجود سماوات سبع ، والدارس لحضارات وادي الرافدين يعلم أن لأهل الوادي في حضاراتهم المتعاقبة ولعاً في الفلك والسماء والنجوم ، وأن للرقم (سبعة) محلاً خاصاً في فلسفتهم ولا زال صابئة العراق الآن وهم من بقايا دين قديم هناك يربطون بين كثير من عقائدهم وبين النجوم .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتاً** ﴾ قال صاحب الظلال : (والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح . وهو يكرر في القرآن في صور شتى . كقوله تعالى : ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً** ﴾ . وهو يشير في هذا إلى نشأة الناس كنشأة النبات . كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات في مواضع متفرقة : ففي سورة الحج يجمع بينهما في آية واحدة في صدد البرهنة على حقيقة البعث فيقول : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة ، لنبين لكم ، ونُقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد**

علم شيئاً ». **وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾ ... وفي سورة (المؤمنون) يذكر أطوار النشأة الجنينية قريباً مما ذكرت في سورة الحج ويجيء بعدها : ﴿ **فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب** ﴾ ... وهكذا .

وهي ظاهرة تستدعي النظر ولا ريب . فهي توحي بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض ، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات . من عناصرها الأولية يتكون . ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو ، فهو نبات من نباتها . وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة . وكلاهما من نتاج الأرض ، وكلاهما يرضع من هذه الأم !) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومكروا مكراً كُبّاراً** ﴾ قال ابن كثير : (قال مجاهد : كُبّاراً أي : عظيماً ، وقال ابن زيد : كُبّاراً أي : كبيراً ، والعرب تقول : أمر عجيب وعجاب وعجّاب ، ورجل حسان وحسّان ، وجمال وجمّال بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد ، والمعنى في قوله تعالى : ﴿ **ومكروا مكراً كباراً** ﴾ أي : بأتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى ، كما يقولون لهم يوم القيامة : ﴿ **بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً** ﴾) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى على لسان قوم نوح : ﴿ **ولا تذرُنّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري ... عن ابن عباس : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما وُدّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع ، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم عُبدت . وكذا روي عن عكرمة والضحاك وقتادة وابن إسحاق نحو هذا ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذه أصنام كانت تعبد في زمن نوح ، وروى ابن جرير ... عن محمد بن قيس ﴿ **يغوث ويعوق ونسراً** ﴾ قال : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى

العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم) . أقول : هذا المقام من المقامات التي تقتضي تحقيقاً واسعاً ، فحفريات ما بين الرافدين قدّمت لنا الكثير عن التاريخ القديم ، وقدّمت لنا فيما قدّمت كلاماً عن نوح ، وتصوّراً عن الأصنام التي عبدتها أقوام بلاد الرافدين جيلاً بعد جيل ، ومن الملاحظ أن الصنم الذي على هيئة النسر كان يظهر مرّة بعد مرّة في عبادة الأجيال ، ولا أستبعد أن يكون ابن عباس فهم من الآية أن لكل صنم شكلاً ، وهذه الأشكال وجدت في بلاد العرب وعبدت ، لا أن عين الصنم الذي عبده قوم نوح عبدته العرب ويشهد لذلك بعض ما ذكره الألوسي .

قال الألوسي : (وأخرج ابن المنذر وغيره عن أبي عثمان النهدي أنه قال : رأيت يغوث وكان من رصاص يحمل على جمل أجرد ، ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك ، فإذا برك نزلوا وقالوا : قد رضي لكم المنزل فينزلون حوله ، ويضربون عليه بناء ، وقيل : يبعد بقاء أعيان تلك الأصنام وانتقالها إلى العرب ، فالظاهر أنه لم يبق إلا الأسماء ، فاتخذت العرب أصناماً ، وسموها بها ، وقالوا أيضاً : عبد ود وعبد يغوث يعنون أصنامهم ، وما رآه أبو عثمان منها مسمى باسم ما سلف ، ويحكى أن وداً كان على صورة رجل ، وسواعاً كان على صورة امرأة ، ويغوث كان على صورة أسد ، ويعوق كان على صورة فرس ، ونسراً كان على صورة نسر) .

أقول : قد يوصل التحقيق في هذا الموضوع إلى أشياء كثيرة تكون بمثابة المعجزات فحبذا لو انتدب إنسان نفسه لهذا الموضوع ، فبحث عن أصول هذه الكلمات الخمس في لغات بلاد الرافدين ، وبحث عن أصولها في لغة العرب ، ومن المعروف أن كثيراً من الأقوام التي استوطنت بلاد الرافدين جاءت من جزيرة العرب ، ثمّ بحث في كل ما قدّمته الحفريات القديمة والروايات عن الأصنام ، فلربما قدّم جديداً مفيداً .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم ... عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة » هذا حديث غريب ورجاله ثقات) .

٩ - بمناسبة دعاء نوح عليه السلام لمن دخل بيته مؤمناً قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي » ورواه أبو داود والترمذي) .

كلمة أخيرة في سورة نوح :

رأينا السياق الخاص لسورة نوح وصلتها بمحورها ، وتحدثنا من قبل عن محلها في مجموعتها وكل ذلك بيّناه وفصّلناه ، ثمّ تأتي معنا سورة الجن ، وهي تكمّل سورة نوح . فسورة نوح كانت نموذجاً لأمة لم ينفع بها الإنذار ، وسورة الجن تعرض علينا نموذجاً لخلق من خلق الله قبلوا الإنذار بمجرد سماعهم له ، وفي ذلك تهييج للمكلّفين أن يقبلوا دعوة الله عز وجل وهكذا نرى أن السور الأربع التي تفصّل في مقدمة سورة البقرة من المجموعة السادسة تكمّل إحداهما الأخرى ، فلننتقل إلى سورة الجن .

☆ ☆ ☆

سورة الجن

وهي السورة الثانية والسبعون بحسب الرسم القرآني

وهي السورة الرابعة من المجموعة السادسة من قسم

المفصل . وهي ثمان وعشرون آية

وهي مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الجن :

قدّم الألوسي لسورة الجنّ بقوله : (وتسمى قل أوحيَ إليّ . وهي مكية بالاتفاق . وآيها بلا خلاف ثمان وعشرون آية . ووجه اتصالها ، قال الجلال السيوطي : فكّرت فيه مدة فلم يظهر لي سوى أنه سبحانه قال في سورة نوح : ﴿ **استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً** ﴾ وقال عز وجل في هذه السورة لكفار مكة : ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً** ﴾ وهذا وجه بيّن في الارتباط انتهى . وفي قوله لكفار مكة شيء ستعلمه إن شاء الله تعالى ، ويجوز أن يضم إلى ذلك اشتمال هذه السورة على شيء مما يتعلق بالسماء كالسورة السابقة ، وذكر العذاب لمن يعصي الله عز وجل في قوله سبحانه : ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً** ﴾ فإنه يناسب قوله تعالى : ﴿ **أُغرقوا فأدخلوا ناراً** ﴾ على وجه ، وقال أبو حيان في ذلك : إنه تعالى لما حكى تمادي قوم نوح في الكفر والعكوف على عبادة الأصنام وكان أول رسول إلى أهل الأرض ، كما أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم آخر رسول إلى أهل الأرض ، والعرب الذين هو منهم صلى الله تعالى عليه وسلم كانوا عباد أصنام كقوم نوح ، حتى إنهم عبدوا أصناماً مثل أصنام أولئك في الأسماء ، أي : أو عينها ، وكان ما جاء به عليه الصلاة والسلام هادياً إلى الرشد ، وقد سمعته العرب ، وتوقف عن الإيمان به أكثرهم ، أنزل الله تعالى سورة الجن وجعلها أثر سورة نوح تبكيتاً لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان ، وكانت الجن خيراً منهم إذ أقبل للإيمان من أقبل منهم ، وهم من غير جنس الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى كادوا يكونون عليه لبداً ، ومع ذلك التباطي فهم مكذبون له ، ولما جاء به حسداً وبغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) .

وقال صاحب الظلال : (هذه السورة تبده الحس – قبل أن ينظر إلى المعاني والحقائق الواردة فيها – بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها ... إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع ، قوية التنغيم ، ظاهرة الرنين . يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهدها ، ثم روح الإيحاء فيها . وبخاصة في الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن ، والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ هذا الخطاب الذي يثير العطف على شخص الرسول في قلب المستمع لهذه السورة ، عطفاً مصحوباً بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ ، والرقابة الإلهية

المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ) .

(فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التي تبده الحس ؛ إلى موضوع السورة ومعانيها واتجاهها فإننا نجدها حافلة بشتى الدلالات والإيحاءات .

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التي كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل ، ويرجمون في أمرها رجماً لا يستندون فيه إلى حجة ، ويزعمون أحياناً أن محمداً ﷺ يتلقى من الجن ما يقوله لهم عنها ! فتجيء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التي يجحدونها ويجادلون فيها ؛ وبتكذيب دعواهم في استمداد محمد من الجن شيئاً . والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد ﷺ فهالهم وراعهم ومسّهم منه ما يدهش ويذهل ، وملأ نفوسهم وفاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا ، ولا الإجمال فيما عرفوا ، ولا الاختصار فيما شعروا . فانطلقوا يحدثون في روعة المأخوذ ، ووهلة المشدوه ، عن هذا الحدث العظيم ، الذي شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب . وترك آثاره ونتائجه في الكون كله ! ... وهي شهادة لها قيمتها في النفس البشرية حتماً .

ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن في نفوس المخاطبين ابتداءً بهذه السورة ؛ وفي نفوس الناس جميعاً من قبل ومن بعد ؛ ووضع حقيقة هذا الخلق المغيب في موضعها بلا غلو ولا اعتساف . فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطاناً في الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض ، فقال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ... ثم بات آمناً ! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبأون بما يتنبأون . وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسباً ، وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة !

والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشياً في كل جاهلية ، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا !!!) .

(وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنونه عن قدرة الجن ودورهم في هذا الكون . أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقاً ،

فلا أدري علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة !

ألأنهم عرفوا كل ما في هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟! إن أحداً من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم . وإن في هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيراً مما يكشف وجوده يوماً بعد يوم ، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء في الأرض وقفت أو ستقف في يوم من الأيام !

ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة في هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟! إن أحداً لا يدعي هذه الدعوى . فهناك قوى مكنونة تكتشف كل يوم ؛ وهي كانت مجهولة بالأمس . والعلماء جادون في التعرف إلى القوى الكونية ، وهم يعلنون في تواضع – قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها – أنهم يقفون على حافة المجهول في هذا الكون ، وأنهم لم يكادوا يبدأون بعد !

ألأنهم رأوا كل القوى التي استخدموها . فلم يروا الجن من بينها ؟! ولا هذه . فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة . ولكن أحداً منهم لم ير الكهرب قط . وليس في معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهرباً من هذه الكهارب التي يتحدثون عنها !

فقيم إذن هذا الجزم بنفي وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء ؟ ألأن هذا الخلق المسمى الجن تعلّقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن طريقنا في هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم ، لا التبجح بنفي وجود هذا الخلق من الأساس ، بلا حجة ولا دليل ! ومثل هذا الغيب ينبغي تلقي نبئه من المصدر الوحيد الموثوق بصحته ، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه . فما يقوله هو كلمة الفصل) .

كلمة في سورة الجن ومحورها :

١ – سورة الجن تعرض نموذجاً للموقف الصحيح من إنذار النذير ، وتعلّم النذير كيف ينذر ، ومن ثَمَّ تبدأ بكلمة (قل) وتتكرر فيها ، ولذلك صلته بقوله تعالى :

﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ فالسورة تأمر النذير أن يذكر قصة الجن الذين استمعوا فآمنوا ، ثم تأمره أن يعلن مجموعة إعلانات تجدّد مهمته وتؤكد عبوديته وبشريته ورسالته ، وفي ذلك إقامة حجة على الكافرين .

٢ - قلنا إن محور سورة الجن هو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ ومما يرجّح أن هذا هو محورها شيء من التشابه بينها وبين سورة الأنبياء التي هذا محورها ، ففي أواخر سورة الأنبياء يرد قوله تعالى : ﴿ **قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد . فهل أنتم مسلمون** ﴾ وتبدأ سورة الجن بقوله تعالى : ﴿ **قل أوحي إليّ** ... ﴾ ويرد فيها قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً** ﴾ ، وفي أواخر سورة الأنبياء يرد قوله تعالى : ﴿ **وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون** ﴾ وفي أواخر سورة الجن يرد قوله تعالى : ﴿ **قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً** ﴾ إن مثل هذا التشابه يجعلنا نستأنس في أن ما ذهبنا إليه من كون محور سورة الجنّ هو محور سورة الأنبياء صحيح .

....

وكما أنه بعد سورة الأنبياء تأتي سورة الحج ، وهي مبدوءة بـ (يا أيها) فإنه بعد سورة الجن تأتي سورة المزمل وهي مبدوءة بـ (يا أيها) وهذا كذلك يرجّح أن سورة الجن تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وأن السورة بعدها تفصّل فيما بعد المقدمة .

....

وصلة سورة الجن بما قبلها من مجموعتها واضحة ، فسورة الجن تقدّم نموذجاً على القبول الراقي للإنذار ، بعد أن أرتنا سورة نوح النموذج السيء للأمة الكافرة الرافضة للإنذار ، وهي وما قبلها من مجموعتها مقدمة لسورتي المزمل والمدثر اللتين تحددان الطريق في السلوك والعمل .

....

وواضح أن السورة تتألف من فقرتين : الفقرة الأولى تنتهي بنهاية الآية (١٩) والفقرة الثانية تنتهي بنهاية الآية (٢٨) وأن بين الفقرتين كمال اتصال كما سنرى .

والجن الذين تحدثت عنهم سورة الجن هم المذكورون في سورة الأحقاف ، وقد ذكرنا هناك خبرهم كما ذكره ونقله ابن كثير هناك ، وخلاصة ذلك : أنهم سبعة نفر من جن نصيبين ، قدموا مكة في عملية بحث عن أسباب كثرة الشهب التي حالت بين الجن وبين خبر السماء ، فوجدوا نبيّ الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام ، يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه ثم أسلموا ، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ما أنزل من خبرهم في سورة الأحقاف ، وفي سورة الجن . ولنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتد من الآية (١) حتى نهاية الآية (١٩) وهذه هي :

المجموعة الأولى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

المجموعة الثانية

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾

ملاحظة في السياق :

تجد في هذه الفقرة مضمون كلام الجن ، وتجد فيها معاني أوحاها الله إلى رسوله ﷺ بهذه المناسبة ، وقد جاء هذا كله في سياق قوله تعالى : ﴿ **قل أوحي إليّ** ﴾ ونحن سنعرض الوحي الذي قصّ الله عز وجل فيه كلام الجن كمجموعة واحدة ، والمعاني الأخرى التي ذكرها الله عز وجل وأوحاها إلى رسوله ﷺ بهذه المناسبة كمجموعة ثانية وسنعرض المجموعة الأولى من الفقرة الأولى على أجزاء .

تفسير المجموعة الأولى :

﴿ **قل** ﴾ يا محمد لأمتك ﴿ **أوحي إليّ** ﴾ من الله ﴿ **أنه** ﴾ أي : أن الأمر والشأن ﴿ **استمع نفر** ﴾ النفر : الجماعة من الثلاثة إلى العشرة ، والمراد بهم جن نصيبين ، وذكر ابن كثير أنهم سبعة ﴿ **من الجن** ﴾ أي : من عالم الجن ، وهو العالم الغيبي الوحيد المكلف ، فقد كلف الله عز وجل من العالم المشاهد الإنسان ، ومن العالم الغيبي الجن ﴿ **فقالوا** ﴾ أي : لقومهم حين رجعوا إليهم من استماع قراءة النبي ﷺ :

١ - ﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً** ﴾ أي : عجيباً بديعاً مبايناً لسائر الكتب في حسن نظمه وصحّة معانيه ، قال النسفي : والعجب ما يكون خارجاً عن العادة ، ﴿ **يهدي إلى الرشد** ﴾ أي : يدعو إلى الصواب والسداد والنجاح . أقول : لقد فطن الجن أن الخلق لا يرشدون إلا بهذا القرآن ، وأن دعوة القرآن رشد خالص ﴿ **فآمنا به** ﴾ أي : بالقرآن ، ولما كان الإيمان به إيماناً بوحدانية الله وبراءة من الشرك ، قالوا ﴿ **ولن نشرك بربنا أحداً** ﴾ أي : من خلقه كائناً من كان ، أقول : إن هذا الربط المطلق بين القرآن والتوحيد والذي عرفه الجن ببداهتهم فات بعض ذراري المسلمين فأشركوا حتى

أصبحت طوائف منهم تؤله الإنسان .

٢ - ﴿ **وأنه تعالى جَدُّ ربنا** ﴾ أي : عظمته ، قال النسفي : ومنه قول عمر أو أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا : أي عظم في عيوننا ، وفسر ابن كثير الجدّ بالفعل والأمر والقدرة ، وقال الضحاك عن ابن عباس : جَدُّ الله آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه ﴿ **ما اتخذ صاحبة** ﴾ أي : زوجة ﴿ **ولا ولداً** ﴾ أي : تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أقول : هذا الكلام من الجن يدل على أنهم كانوا من بيئة نصرانية ، وهذا واضح ، ففي قصة سلمان الفارسي ما يشير إلى أن نصيبين بلد عريق في النصرانية ، وقد عرف الجن بالبداهة تنزيه الله عز وجل عن الصاحبة والولد بمجرد سماعهم هذا القرآن .

٣ - ﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا** ﴾ أي : جاهلنا أو إبليس ، إذ ليس فوقه سفيه ﴿ **على الله شططاً** ﴾ أي : كفراً ، لبعده عن الصواب ، أو قولاً جائراً باطلاً وزوراً يجوز فيه عن الحق ، قال النسفي : (والشطط : مجاوزة الحد في الظلم وغيره) ، أقول : رَبَطَ الجن بين السّفه والشطط في القول على الله وذلك فهم دقيق منهم ، فما أحد يتجاوز الحق في شأن الله إلا وهو سفيه ، ومنه نفهم أن السّفه ينبثق عن القول الشطط في حق الله عز وجل .

٤ - ﴿ **وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً** ﴾ أي : قولاً كذباً أو قولاً مكذوباً فيه ، أي : كان في ظننا أن أحداً لن يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه ، فكنا نصدقهم فيما أضافوا إليه حتى تبيّن لنا بالقرآن كذبهم ، أقول : ما ذكره الجنّ في هذه المقولة يعتبر من أشدّ أسباب الضلال في تاريخ البشرية : أن يعطي الإنسان العصمة لغير أهلها ، وأن يتجاوز بالثقة حدودها ، وقد عرفوا بهذا القرآن أنه لا ثقة إلا بما وافق القرآن ، إن هذه البديهية من أهم بديهيات الإسلام ، وكثير من الطوائف التي آباؤها مسلمون فاتتهم هذه البديهيات فأعطوا الثقة لأنواع من البشر حتى غمسوهم في الكذب على الله إلى آذانهم ، سواء في تصوراتهم الخبيثة عن الذات الإلهية ، أو عن اليوم الآخر ، أو عن الرسول ، أو عن الصحابة ، أو عن القرآن ، في زعمهم أن له ظاهراً وباطناً ، وأن الظاهر ليس مراداً ، وأمثال هذه القضايا الغريبة العجيبة .

٥ - ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم** ﴾ أي : فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم ﴿ **رهقاً** ﴾ أي : طغياناً وسفهاً وكبراً ، أو فزاد الجن

الإنس رهقاً أي : إثماً لاستعاذتهم بهم ، وأصل الرهق غشيان المحظور ﴿ **وأنهم ظنوا** ﴾ أي : وأن الإنس ظنوا ﴿ **كما ظننتم** ﴾ أيها الجن ﴿ **أن لن يبعث الله أحداً** ﴾ أي : بعد الموت فالإنس كانوا ينكرون البعث كإنكار الجن ، دلت الآيتان على أن من أخلاق الكفر والجاهلية الاستعاذة بغير الله وإنكار اليوم الآخر .

٦ - ﴿ **وأنا لمسنا السماء** ﴾ قال النسفي : (أي : طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها واللمس : المسّ ، فاستعير للطلب لأن الماس طالب متعرف) ، أقول : تفسير اللمس بالطلب في هذا المقام هو تفسير عامّة المفسرين ، مما يشير إلى أن الوصول إلى السماء نفسها ومسها ليس مراداً بالآية ، كل ما في الأمر أن الجن قبل الإسلام كانوا يصعدون إلى طبقات من الجو يتاح لهم فيها سماع الملائكة ، وهم نازلون إلى الأرض يتحدّثون مع بعضهم ، فمنعوا حتى من مثل هذا ، ومن قبل لم يكونوا ممنوعين منه ، ومن ثَمّ قالوا : ﴿ **فوجدناها مُلئت حرساً شديداً** ﴾ أي : أقوياء ، والمراد بذلك الملائكة ، ﴿ **وشُهُباً** ﴾ جمع شهاب ، وهي النيازك ﴿ **وأنا كنا نقعد منها** ﴾ أي : من السماء قبل هذا ﴿ **مقاعد للسمع** ﴾ أي : لاستماع أخبار السماء ، قال النسفي : (يعني : كنا نجد بعض السماء خالية من الحرس والشهب قبل البعث) ﴿ **فمن يستمع الآن** ﴾ أي : فمن يرد الاستماع بعد البعث ﴿ **يجد له** ﴾ أي : لنفسه ﴿ **شهاباً رصداً** ﴾ أي : شهاباً راصداً له ولأجله ، قال ابن كثير : أي : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له لا يتخطّاه ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه ، وقال ابن كثير : (يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة ، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق ، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز) ، وهكذا عرف الجن أنهم قد انقطعوا عن أي خبر من أخبار السماء حتى لا يختلط على أحد أمر النبوة والرسالة بغيرها ، وكل ذلك حفظ لجناب النبوة والرسالة .

٧ - ﴿ **وأنا لا ندري أشرٌ** ﴾ أي : عذاب ﴿ **أريد بمن في الأرض** ﴾ يلاحظ أنهم أسندوا الشر إلى غير فاعل ﴿ **أم أراد بهم ربهم رشداً** ﴾ أي : خيراً ورحمة ، والملاحظ أنهم نسبوا الخير إلى الله عز وجل ، قال ابن كثير : (وهذا من أدبهم في العبارة

حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل ، وقد ورد في الصحيح : « والشر ليس إليك ») ، أقول : عرفوا ما يترتب على إرسال الرسول من سعادة لمن اتبعه ، وعذاب لمن خالفه ، ولم يعرفوا كيف يكون موقف البشرية من الرسالة الجديدة فقالوا ما قالوه ، مراعين كمال الأدب ، والعجيب أنهم أدركوا ببداهة الفطرة ما لا يدركه الآن كثيرون ممن يعيشون في أرض الإسلام .

٨ - ﴿ **وأنا منا الصالحون** ﴾ أي : الأبرار المتقون ﴿ **ومنَّا دون ذلك** ﴾ أي : وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه ، أو أرادوا غير الصالحين ﴿ **كُنَّا طرائق قِدداً** ﴾ أي : كنا ذوي مذاهب متفرقة ، أو أديان مختلفة ، أقول : هذا يشير إلى أن من الجن من أدركهم عصر النبوة وهم على الدين الصحيح دين عيسى عليه السلام ، وأن منهم منحرفين مرتدين ، وقد أدركوا هذه الحقيقة من سماعهم للقرآن فعرفوا بميزان القرآن من هم الصالحون ومن ليسوا كذلك ، والعجيب أنهم عرفوا خلال فترة وجيزة ميزان الصلاح وغيره ، وكثير من المسلمين الآن يلتبس عليهم الأمر فيعطون لقب الصلاح لمن ليس صالحاً أو العكس .

٩ - ﴿ **وأنا ظننا** ﴾ أي : أيقنّا ﴿ **أن لن نعجز الله في الأرض** ﴾ أي : لن نفوته كائنين في الأرض ، أينما كنا فيها ﴿ **ولن نعجزه هرباً** ﴾ قال النسفي : أي : ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء ، قال ابن كثير : أي : نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا ، وأنا لا نعجزه في الأرض ، ولو أمعنا في الهرب ، فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا . أقول : لقد عرفوا الله عز وجل حق المعرفة ، وعرفوا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه .

١٠ - ﴿ **وأنا لما سمعنا الهدى** ﴾ أي : القرآن ﴿ **آمنّا به** ﴾ أي : بالقرآن ، قال ابن كثير : يفتخرون بذلك وهو مفخر لهم وشرف رفيع وصفة حسنة ، أقول : في قولهم هذا إعلام لقومهم بوصفهم الجديد ، وتشجيع لقومهم في الدخول فيما دخلوا به ، بدليل ما بعده ﴿ **فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً** ﴾ أي : نقصاً من ثوابه ﴿ **ولا رهقاً** ﴾ أي : ولا ترهقه ذلة فهو لا يخاف أن ينقص من حسناته ، أو يحمل عليه غير سيئاته ، فالرهق هنا الحمل .

١١ - ﴿ **وأنا مِنّا المسلمون** ﴾ أي : المؤمنون المستسلمون لله ورسوله ، الداخلون في دين الإسلام ، ﴿ **ومنا القاسطون** ﴾ وهم الجائرون عن الحق الناكبون عنه بخلاف المقسطين ، فإنهم العادلون ، قال النسفي : (قسط : جار ، وأقسط :

عدل) ، أقول : لعلهم يتحدثون عما سيؤول إليه أمر الجن بعد البلاغ والدعوة المحمدية ، ومن ثَمَّ قالوا : ﴿ **فمن أسلم فأولئك تحرَّوْا رشداً** ﴾ أي : طلبوا هدى ، قال النسفي : والتحري : طلب الأحرى أي : الأولى ، قال ابن كثير : أي : طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً** ﴾ أي : وقوداً تسعّر بهم ، قال النسفي : وفيه دليل على أن الجني الكافر يعذب في النار .

كلمة في السياق :

بهذه الآية تنتهي المجموعة الأولى من الفقرة الأولى ، وبها ينتهي كلام الجن في السورة ، وهو تلخيص لما استوعبوه في جلستهم من رسول الله ﷺ وهم يسمعون القرآن دون أن يراهم ، وتأتي المجموعة الثانية وهي امتداد للمجموعة الأولى ، ولذلك نجد في بداية الآية اللاحقة حديثاً عن القاسطين ، وفي وسطها كلاماً مباشراً من الله عز وجل ، فالمجموعة الثانية تكمّل كلام الجن ليتم استيفاء التلخيص لمقاصد القرآن ، ومن ثَمَّ فإن المجموعة الثانية ينصبّ عليها قول الله عز وجل ﴿ **قل أوحي إليّ** ﴾ فيكون التقدير : ﴿ **قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ ، ﴿ **وألَّوِ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً** ﴾ فـ (وأن) في بداية المجموعة الثانية معطوفة على قوله تعالى : ﴿ **أنه** ﴾ في بداية السورة فالتقدير : قل أوحي إلي أنه ... وأن لو استقاموا على الطريقة . قال النسفي في قوله تعالى : ﴿ **وألَّوِ استقاموا** ﴾ : أن مخففة من الثقيلة يعني : وأنه ، وهي من جملة الوحي ، أي : أوحي إليّ أن الشأن . وقال في أول السورة : (أجمعوا على فتح أنه - أي : الواردة في أول السورة - لأنه فاعل أوحي و (أن لو استقاموا ، وأن المساجد) للعطف على أنه استمع فأن مخففة من الثقيلة .

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الأولى :

١ - ﴿ **وألَّوِ استقاموا** ﴾ أي : القاسطون ، أي : قل أوحي إلي : وأنه لو استقام القاسطون ﴿ **على الطريقة** ﴾ أي : طريقة الإسلام ﴿ **لأسقيناهم ماءً غدقاً** ﴾ أي : كثيراً والمعنى : لوسّعنا عليهم الرزق ﴿ **لنفتنهم فيه** ﴾ أي : لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خُوّلوا منه ﴿ **ومن يعرض عن ذكر ربه** ﴾ أي : عن القرآن أو التوحيد أو العبادة ﴿ **يسلكه** ﴾ أي : يدخله ﴿ **عذاباً صعداً** ﴾ أي : شاقاً ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : ما تصعّدني شيء ما تصعّدتني خطبة النكاح ، أي : ما شقّ

علي . دل هذا الجزء من المجموعة على أن الاستقامة لا تعني الحرمان من الرزق ، بل تعني التوسعة فيه ، وفي ذلك درس للذين ينحرفون عن أمر الله ابتغاء الرزق في زعمهم ، وهو معنى مكمّل للمعاني التي ذكرها الجن ، ولذلك جاء في صيغة تكاد تكون استمراراً لكلام الجن ، ومن ناحية أخرى جاءت بشكل خطاب مباشر من الله عز وجل .

٢ - ﴿ **وأن المساجد لله** ﴾ أي : أوحي إليّ : وأن المساجد لله والمساجد : البيوت المبنية للصلاة ﴿ **فلا تدعوا مع الله أحداً** ﴾ أي : في المساجد ؛ لأنها خالصة لله ولعبادته ، قال ابن كثير : (يقول تعالى آمراً عباده أن يوحدوه في محالّ عبادته ، ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به ، وقال سعيد بن جبير : نزلت في أعضاء السجود أي : هي لله فلا تسجدوا بها لغيره) أقول : والمعنى الأول أقوى ، والأمر بالتوحيد في المساجد لا يعني أن توحيد الله في غيرها غير مطلوب ، بل لتبيان أن مراعاة التوحيد فيها آكد ، وفي ذلك درس كبير لكل من يدعو مع الله غيره في مسجد ، وللأسف فإنه حتى حلقات الذكر لا تخلو من دعاء غير الله ، وهو موضوع لا يصح أن يستمر أبداً مهما كانت تأويلات فاعليه .

٣ - ﴿ **وأنه لما قام عبد الله** ﴾ أي : محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **يدعوه** ﴾ أي : يعبده ويقرأ القرآن ويوحّد الله ﴿ **كادوا يكونون عليه لبداً** ﴾ أي : جماعات جماعات ، قال قتادة في الآية : تلبّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه ، قال ابن كثير : وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ، وقول ابن زيد ، وهو اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر لقوله بعده ﴿ **قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً** ﴾ وبهذا انتهت المجموعة الثانية وانتهت بانتهائها الفقرة الأولى .

كلمة في السياق :

١ - عرضت هذه الفقرة في المجموعة الأولى نموذج من الخلق آمنوا بالله ورسوله ﷺ والقرآن ، بمجرد السماع ، جاء ذلك في السورة التي جاءت بعد سورة نوح عليه السلام ، لترينا نموذجاً مقابلاً لنموذج أمة نوح عليه السلام ، وصلة ذلك بمحور السورة من سورة البقرة واضحة ، وليرينا الله عز وجل أن هذا النموذج كان إيمانه أثراً عن فهم شامل ، واقتناع عميق ، قصّ لنا على لسانهم ما قالوه لقومهم ، ممّا يدل على الفهم

والاستيعاب والمعرفة ، وفي ذلك إقامة حجة على الرافضين لدعوة الله .

٢ - بعد أن عرض الله عز وجل علينا ما قال الجن لقومهم في شأن الدعوة الجديدة ، أتمّ الله عز وجل ما فاتهم من معان لها علاقة بهذه الدعوة والتي قدّمت الفقرة بمجموعها تلخيصاً لها بما به تقوم الحجة على الكافرين ، وتتضح به خصائص هذه الدعوة .

٣ - رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ وقد جاءت سورة الجن مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **قل أوحي إليّ** ﴾ ثم قصّت علينا ماذا قال الجن عندما سمعوا القرآن ، وذكرت مضامين من الوحي الذي أوحي إلى رسول الله ﷺ ثمّ تأتي فقرة تتكرر فيها كلمة (قل) أربع مرات .

٤ - في الفقرة الأولى جاء تلخيص لأمهات المعاني المتعلقة بالدعوة الإسلامية والآن تأتي الفقرة الثانية لتأمر رسول الله ﷺ أن يعلن مجموعة إعلانات تكمّل الإيضاح ، وتعرّف على شخصية الذي نزل عليه الوحي وخصائصها وواجباتها ، وفي ذلك إقامة حجة من ناحية ودعوة للاستجابة من ناحية أخرى .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (٢٠) إلى نهاية الآية (٢٨) وهذه هي :

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)

التفسير

الأمر الأول :

﴿ **قل إنما أدعو ربي** ﴾ وحده ﴿ **ولا أشرك به أحداً** ﴾ في العبادة وغيرها ، قال ابن كثير : أي : قال لهم الرسول ﷺ لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق ، واجتمعوا على عداوته ﴿ **إنما أدعو ربي** ﴾ أي : إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به ، وأتوكل عليه ولا أشرك به أحداً .

كلمة في السياق :

جاء هذا الأمر بهذا الإعلان بعد أن أوصلنا السياق في نهاية الفقرة السابقة أن كفار

الإنس والجن تضافروا على إبطال هذه الدعوة ، ومعاداة رسول الله ﷺ ، فجاء هذا الأمر بهذا الإعلان ليبيّن أن هذا التمالؤ والتواطؤ على العداء ليس له ما يبرره ، إذ إن رسول الله ﷺ لم يفعل سوى عبادة الله وحده فكيف يستحق أن يوقف معه هذا الموقف ؟ .

الأمر الثاني :

﴿ **قل إني لا أملك لكم ضراً** ﴾ أي : مضرة ﴿ **ولا رشداً** ﴾ أي : نفعاً ، قال النسفي : يعني لا أستطيع أن أضركم ، ولا أنفعكم ؛ لأن الضار والنافع هو الله ، أقول : ويحتمل أن يكون المراد بالضر ما يقابل الرشد وهو الغي ، فيكون المعنى : إني لا أملك لكم غواية أو هداية ، وإنما عليّ البلاغ ، ويؤيد هذا ذكر البلاغ في مضمون الأمر الثالث ، قال ابن كثير في الآية : أي : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ، وعبد من عباد الله ، ليس إليّ من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل .

كلمة في السياق :

١ - يأتي هذا الأمر بهذا الإعلان ليبيّن للكافرين أن رسول الله ﷺ لا يدّعي فوق مقامه ، ولا يدّعي أنه يملك نفعاً أو ضراً ، أو هداية أو ضلالاً ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يُحارب من هذا شأنه ، ولا يُفكّر في مضمون دعوته ، وفي ذلك درس بليغ لبعض الذين يتصدرون للدعوة إلى الله ، فيشعرون مريديهم وتلاميذهم أن بيدهم الهداية والضلال ، والنفع والضر ، فكيف يفعلون ذلك وهذا رسول الله ﷺ يؤمر أن يعلن هذا الإعلان الذي ذكرناه .

٢ - بالتأمل في صلة السورة بمحورها ندرك أن مضمون الآية يخدم محور السورة ، فالمحور يقصّ علينا قصة إصرار الكافرين على الكفر ، وعدم قبولهم الإنذار ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ فأمام هذا الموقف يأمر الله رسوله ﷺ أن يقول هؤلاء ﴿ **قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً** ﴾ فإذا اخترتم لأنفسكم الكفر فأنتم تتحملون مسؤولية ذلك ، والله الذي بيده الضر والرشد هو الذي سيتولى أمركم ، والأمر إليه ، فأنا لا أستطيع الانتقام منكم إلا بإذنه ، ولا أستطيع نفعكم إلا بإذنه ، فصححوا علاقتكم به .

٣ – ولكي لا يربطوا بين كونه لا يملك ضراً ولا رشداً ، وبين التبليغ فقد أمره الله عز وجل أن يبيّن أنّه مأمور بالتبليغ ، أمراً جازماً حاسماً ، ومن ثَمّ فإنه يقوم بالتبليغ والأمر إلى الله ، فهو يتولى شأنهم ، وإنما عليه البلاغ .

الأمر الثالث :

﴿ **قل إني لن يجيرني من الله أحد** ﴾ أي : لن يدفع عني عذابه أحد إن عصيته ﴿ **ولن أجد من دونه ملتحداً** ﴾ أي : ملتجأ ﴿ **إلا بلاغاً من الله ورسالاته** ﴾ قال ابن كثير : أي : لا يجيرني منه ، ويخلّصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي ، والبلاغ في الآية بمعنى التبليغ ، والرسالات معطوفة على التبليغ ، أي : إلا التبليغ والرسالات ، قال النسفي : (أي : إلا أن أبلّغ عن الله فأقول : قال الله كذا ناسباً لقوله إليه ، وأن أبلّغ رسالته التي أرسلني بها بلا زيادة ولا نقصان) ﴿ **ومن يعص الله ورسوله** ﴾ في ترك القبول لما أنزل على الرسول ﴿ **فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً** ﴾ قال ابن كثير : أي : أنا أبلّغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً ، أي : لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون** ﴾ من العذاب ﴿ **فسيعلمون** ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿ **مَنْ أضعف ناصراً وأقل عدداً** ﴾ قال النسفي : أهم أم المؤمنون ؟ أي : الكافر لا ناصر له يومئذ ، والمؤمن ينصره الله وملائكته وأنبياؤه ، قال ابن كثير : أي : بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية ، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل .

كلمة في السياق :

١ – بيّن هذا الأمر أن رسول الله ﷺ لا ينجيه عند الله إلا أن يبلّغ ، وإلا أن ينفذ رسالات الله ، ومن ثَمّ فإنه يبلّغ نجاة لنفسه ، وإقامة للحجة على الخلق ، وأن الذين يخالفون رسالات الله لهم نار جهنم خالدين فيها أبداً ، وعندما سيرونها وقتئذ سيعلمون من الأضعف ناصراً والأقل عدداً ، وفي ذلك إشارة إلى أن الكافرين في الدنيا تغرهم قوتهم ونصراؤهم وأعدادهم ، وفي مجيء هذه المعاني في هذا الجزء تبيان لحكمة التبليغ ، ثم في ذلك رد على مواقفهم المتحدة ضده عليه السلام ، فإذا كان عليه السلام عبداً مكلفاً من الله عز وجل بالتبليغ ، فكيف يتألّب عليه المتألّبون ، وما هو إلا مأمور من الله عز وجل ومكلف !.

٢ - وأما صلة هذا الجزء بما قبله مباشرة فإنه زيادة على ما ذكرناه من قبل نذكر رابطتين جديدتين :

الرابطة الأولى : هي أنه لما أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم : ﴿ **قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً** ﴾ أمر كذلك أن يعلن أنه حتى لنفسه لا يملك شيئاً فقال : ﴿ **قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً** ﴾ قال ابن كثير بعد أن فسّر الآية السابقة على هذه الآية : أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحداً .

الرابطة الثانية : هنالك اتجاه عند المفسرين يربط بين قوله تعالى : ﴿ **قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً** ﴾ وبين ﴿ **إلا بلاغاً من الله ورسالاته** ﴾ أي : لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات وتكون في هذه الحالة آية ﴿ **قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً** ﴾ معترضة بين الآيتين .

٣ - فصّل الأمر الثالث في محور السورة في أكثر من جانب ، فقد فصّل في نوع العذاب العظيم للكافرين ، وذكر بعض أسباب الإصرار على الكفر ، وهي كثرة الجند وقوة الناصر في الدنيا ، كما فصّل في أن الإنذار وإن كان لا يؤثر في الكافرين فإنه فريضة على رسول الله ﷺ لا ينجو من عذاب الله إلا إذا قام به ، فمعرفة عدم استفادة الكافرين من الإنذار شيء والقيام بالتبليغ شيء آخر .

٤ - وبعد أن ذكر الله عز وجل (ما يوعدون) في قوله : ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون** ﴾ يأتي الأمر الرابع .

الأمر الرابع :

﴿ **قل إن** ﴾ أي : ما ﴿ **أدري أقريب ما توعدون** ﴾ من العذاب ﴿ **أم يجعل له ربي أمداً** ﴾ أي : غاية بعيدة ، قال النسفي : يعني إنكم تعذّبون قطعاً ولكن لا أدري أهو حالّ أم مؤجّل ، وقال ابن كثير : (يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد) ﴿ **عالم الغيب** ﴾ أي : الله وحده عالم الغيب ، ومن ثَمّ فهو وحده عالم متى تقوم الساعة ، ومتى يعذّب هؤلاء الكافرون ﴿ **فلا يظهر** ﴾ أي : فلا يطلع ﴿ **على غيبه أحداً** ﴾ من خلقه ﴿ **إلا من ارتضى من رسول** ﴾ أي : إلا رسولاً ارتضاه ، فيعلّمه بعض الغيب ؛ ليكون إخباره عن الغيب معجزة له ، والرسول هنا يعمّ الرسول الملكي والبشري ، كما قال ابن كثير :

فإذا كان الأمر كذلك وكان محمد رسول الله ﷺ ، ومع ذلك فقد أمر أن يعلن أنه لا يعرف موعد قيام الساعة ، فلم يبق أحد في الخلق يعرفها ، ثم بيّن ما يحيط به الرسول من رعاية خاصة يعصمه بها من كل تلبيس أو تخليط في أمر الغيب وغيره ، فقال : ﴿ **فإنه** ﴾ أي : فإن الله ﴿ **يسلك** ﴾ أي : يدخل أو يجعل ﴿ **من بين يديه** ﴾ أي : من أمام الرسول ﴿ **ومن خلفه** ﴾ أي : من خلف الرسول ﴿ **رصداً** ﴾ قال النسفي : أي : حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين ، ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يبلّغ الوحي ، وقال ابن كثير : (أي : يخصّه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله) . أقول : وفي هذا دليل على أن قلب الرسول وحده هو المعصوم ، وقلب غيره ليس معصوماً ، والعجيب العجيب أن كثيراً من طبقات هذه الأمة تعامل كثيراً من أفرادها وكأنهم معصومو القلوب ، حتى إنهم ليتركون حكم الشرع العظيم بسبب ذلك ، ويؤوّلون الكتاب والسُّنَّة بسبب ذلك ، بل يتركون الكتاب والسُّنَّة بسبب ذلك ، ثم قال تعالى مبيناً الحكمة في سلكه الرصد من بين يدي الرسول ومن خلفه فقال : ﴿ **ليعلم** ﴾ على ماذا يعود الضمير هنا ؟ قال بعضهم : على الله ، وقال بعضهم : على الرسول ، وقال بعضهم : على المكلّف ، ويؤيد القول الأخير قراءة يعقوب بضم الياء في (لُيعلم) فيكون المعنى : ليعلم الناس ﴿ **أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ أي : ليعلم المكلّفون من خلال رؤيتهم عصمة الوحي عندما يرون صدق إخبارات الرسل في أمر الغيب أن الرسل قد بلّغوا رسالات الله ليس إلا ﴿ **وأحاط بما لديهم** ﴾ أي : وأحاط الله بما لدى الخلق ، أي : وليعلم المكلفون من خلال مشاهدة عصمة الوحي إحاطة علم الله بما عندهم ﴿ **وأحصى كل شيء عدداً** ﴾ أي : معدوداً محصوراً أو إحصاءً ، أي : وليعلم المكلفون من خلال صدق إخبارات الرسل أن الله أحصى كل شيء عدداً ، فينعكس هذا إيماناً في قلوبهم ، أن الله محيط علمه بأفعالهم ، ومحصٍ كل شيء ، فيؤمنون بالله وصفاته وأسمائه وكمالاته ، ويؤمنون باليوم الآخر والحساب فهذه حكمة إطلاع الله رسله على بعض الغيب ، وحكمة جعله الرصد بين أيديهم ومن خلفهم ، فإذا كان هذا هو الشأن ، ومع ذلك إنه لم يطلع رسوله محمداً ﷺ على أمر الساعة ، فلا يطمعن أحد أن يعرفها ، وبالتالي فالسؤال عنها ليس في محله ، هذا ما أتجه إليه في فهم هذه الآيات ، وهو اتجاه قريب لاتجاه مجاهد رحمه الله ، وابن كثير يضعّف هذا الاتجاه ، وقد اتجه النسفي اتجاهاً آخر ، فأعاد النسفي الضمير في قوله تعالى : ﴿ **ليعلم** ﴾ على الله عز وجل قال (أي : ليعلم الله ذلك موجوداً حال

وجوده كما كان يعلم ذلك قبل وجوده أنه يوجد) وعلى هذا يكون المعنى أن الله عز وجل حفظ رسله بواسطة الملائكة من التخليطات والتلبيسات ؛ ليعلم الله الذي لا يغيب عنه شيء ، وهو المحيط علماً والمحصي عدداً لكل شيء أن الرسل بلّغوا رسالاته ، وإذا علم الله ذلك منهم - وعلمه لا يخطىء - يكون الرسل قد أدوا رسالة الله عز وجل على الكمال والتمام ، ولنا عودة على هذا الموضوع في الفوائد .

وقد ختم صاحب الظلال الكلام عن سورة الجنّ بقوله : (وتقرر السورة التي لا تتجاوز الثماني والعشرين آية ، هذا الحشد من الحقائق الأساسية التي تدخل في تكوين عقيدة المسلم ، وفي إنشاء تصوره الواضح المتزن المستقيم ، الذي لا يغلو ولا يفرط ، ولا يغلق على نفسه نوافذ المعرفة ، ولا يجري - مع هذا - خلف الأساطير والأوهام . وصدق النفر الذي آمن حين سمع القرآن ، وهو يقول : ﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به** ﴾) .

كلمة في السياق :

١ - في محور السورة من سورة البقرة أوعد الله الكافرين أن يعذبهم ، وفي الجزء الأخير من سورة الجن بيان بأن هذا الوعد لا يعلم توقيته إلا الله عز وجل ، حتى ولا رسل الله ، حتى ولا أكرمهم على الله محمد ﷺ ، إلا أن الله عز وجل لفت النظر إلى صدق نبوءات الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ليعلم من خلالها أن وعد الله آت ، وبذلك تقوم الحجة على الخلق .

٢ - انتهت الفقرة الأولى بذكر تألّب الكافرين على رسول الله ﷺ ، وهددتهم الفقرة الثانية بجزئها الثالث أن من يعصي الله ورسوله فإنه سيعذب في نار جهنم أبداً ، ثمّ جاء الجزء الرابع ليلفت النظر إلى صحة رسالة محمد ﷺ من خلال صدقه في نبوءاته ، ومن خلال الأمر لرسول الله ﷺ أن يعلن عن عدم معرفته بموعد يوم القيامة ففي هذا الإعلان علامة على صدق رسول الله ﷺ إذ الكذاب ما أسهل أن يخترع من عنده جواباً عن قضية تأتي في المستقبل لا يستطيع معاصروه أن يعرفوا صدقها من كذبها .

٣ - يلاحظ أن سورة نوح ركّزت على العذاب الدنيوي لمن لم يقبل إنذار الرسل ، بينما ركزت سورة الجن على العذاب الأخروي ، وتلك تحدثت عن رسول سابق ، وهذه تحدثت عن رسول الله محمد ﷺ ، فالتكامل بين سورة نوح وسورة

الجن ليس في جانب واحد بل في جوانب متعددة فكلاهما يخدم محوراً واحداً ، كما أنهما من مجموعة واحدة .

الفوائد :

١ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل أوحي إليّ أنّه استمع نفر من الجنّ** ﴾ قال الألوسي : (والآية ظاهرة في أنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم استماعهم له بالوحي لا بالمشاهدة ، وقد وقع في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام رآهم ، وجمع ذلك بتعدد القصة قال في (آكام المرجان) ما محصله : في الصحيحين في حديث ابن عباس ما قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الجن ولا رآهم وإنما انطلق بطائفة من الصحابة لسوق عكاظ ، وقد حيل بين الجن والسماء بالشهب ، فقالوا : ما ذاك إلا لشيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فمرّ من ذهب لتهامة منهم به عليه الصلاة والسلام وهو يصلي الفجر بأصحابه بنخلة ، فلما استمعوا له قالوا : هذا الذي حال بيننا وبين السماء ، ورجعوا إلى قومهم وقالوا : يا قومنا الخ ، فأنزل الله تعالى عليه ﴿ **قل أوحي** ﴾ الخ ، ثم قال : ونفي ابن عباس إنما هو في هذه القصة ، واستماعهم تلاوته صلى الله تعالى عليه وسلم في الفجر في هذه القصة لا مطلقاً ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن** ﴾ الخ ، فإنها تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كلمهم ودعاهم وجعلهم رسلاً لمن عداهم كما قاله البيهقي ، وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أتاني داعي الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن ، قال : وانطلق بنا وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم » الخ . وقد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرات ، وقال ابن تيمية : إن ابن عباس علم ما دلّ عليه القرآن ، ولم يعلم ما علمه ابن مسعود وأبو هريرة من إتيان الجن له صلى الله تعالى عليه وسلم ومكالمتهم إياه عليه الصلاة والسلام ، وقصة الجن كانت قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقال الواقدي : كانت سنة إحدى عشرة من النبوة ، وابن عباس ناهز الحلم في حجة الوداع ، فقد علمت أن قصة الجن وقعت ست مرات ، وفي شرح البيهقي من طرق شتى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلى العشاء ثم انصرف فأخذ بيدي حتى أتينا مكان كذا ، فأجلسني وخطّ عليّ خطاً ثم قال : لا تبرحن خطك ، فبينا أنا جالس إذ أتاني رجال منهم كأنهم الزط ، فذكر حديثاً طويلاً ، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما جاءه إلى السَحَر ، قال : وجعلت أسمع

الأصوات ، ثم جاء عليه الصلاة والسلام فقلت : أين كنت يا رسول الله ؟ فقال : « أرسلت إليّ الجن » فقلت : ما هذه الأصوات التي سمعت ؟ قال : « هي أصواتهم حين ودّعوني وسلموا عليّ » . وقد يجمع الاختلاف في القلة والكثرة بأن ذلك لتعدد القصة أيضاً والله تعالى أعلم ، واختلف فيما استمعوه فقال عكرمة : اقرأ باسم ربك ، وقيل : سورة الرحمن) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ قال ابن كثير : (أي : كنّا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها ، كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير ، وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً ، أي : خوفاً وإرهاباً وذعراً ، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم كما قال قتادة ﴿ **فزادوهم رهقاً** ﴾ : أي : إثماً وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة ، وقال الثوري عن منصور عن إبراهيم : ﴿ **فزادوهم رهقاً** ﴾ : أي : ازدادت الجن عليهم جرأة . وقال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيّد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه ، أو مالي أو ولدي أو ماشيتي ، قال قتادة : فإذا عاذ بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك ، وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد ، فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن فيقول سيّد القوم : نعوذ بسيّد أهل هذا الوادي ، فقال الجن : نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم ، فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ أي : إثماً . وقال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم : (رهقاً) أي : خوفاً . وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ **فزادوهم رهقاً** ﴾ أي : إثماً ، وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : زاد الكفار طغياناً) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً** ﴾ قال ابن كثير : (وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير ، بل في الأحيان بعد الأحيان كما في حديث العباس : بينا نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ

رمي بنجم فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون في هذا ؟ » فقلنا : كنا نقول يولد عظيم يموت عظيم فقال : « ليس كذلك ، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء » وذكر تمام الحديث وقد أوردناه في سورة سبأ بتمامه ، وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فوجدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ بأصحابه في الصلاة ؛ فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء ، فآمن من آمن منهم ، وتمرد في طغيانه من بقي ، كما تقدم في حديث ابن عباس في ذلك عند قوله في سورة الأحقاف : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن** ﴾ الآية) .

وبمناسبة النص نفسه قال صاحب الظلال : (وهذه الوقائع التي حكاها القرآن عن الجن من قولهم ، توحي بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة كانوا يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى ، واستراق شيء مما يدور فيه ، بين الملائكة ، عن شؤون الخلائق في الأرض ، مما يكلّفون قضاءه تنفيذاً لمشيئة الله وقدره . ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس ! على أيدي هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس في الفترة بين الرسالتين ، وخلو الأرض من رسول ... أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئاً ، ولا ضرورة لتقصّيها . إنما هذه هي جملة هذه الحقيقة وفحواها .

وهذا النفر من الجن يقول : إن استراق السمع لم يعد ممكناً ، وإنهم حين حاولوه الآن - وهو ما يعبرون عنه بلمس السماء - وجدوا الطريق إليه محروساً بحرس شديد ، يرجمهم بالشهب ، فتنقضّ عليهم وتقتل من توجه إليه منهم . ويعلنون أنهم لا يدرون شيئاً عن الغيب المقدر للبشر : ﴿ **وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً** ﴾ فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه . فأما نحن فلا نعلم ماذا قدّر الله لعباده في الأرض : قدّر أن ينزل بهم الشر . فهم متروكون للضلال . أم قدّر لهم الرشد - وهو الهداية - وقد جعلوها مقابلة للشر . فهي الخير ، وعاقبتها هي الخير .

وإذا كان المصدر الذي يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب ، يقرر أنه هو لا يدري عن ذلك شيئاً ، فقد انقطع كل قول ، وبطل كل زعم ، وانتهى أمر الكهانة والعرافة . وتمحض الغيب لله ، لا يجترىء أحد على القول بمعرفته ، ولا على

التنبؤ به . وأعلن القرآن تحرير العقل البشري من كل وهم وكل زعم من هذا القبيل ! وأعلن رشد البشرية منذ ذلك اليوم وتحررها من الخرافات والأساطير !) .

٤ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأنا منّا الصالحون ومنّا دون ذلك** ﴾ قال ابن كثير : (وروى أحمد بن سليمان النجاد في أماليه : ... عن أبي معاوية قال : سمعت الأعمش يقول : تروّح إلينا جني فقلت له : ما أحبّ الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال : فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم ، فقلت : فما الرافضة فيكم ؟ قال : شرنا . عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي فقال : هذا إسناد صحيح إلى الأعمش) . أقول : لم يزل عدول في هذه الأمة جيلاً بعد جيل يخبروننا عن صلة للجنّ المؤمنين بهم ، وما أكثر الوقائع التي يحسّها الناس في أمر الجن ، فأن تجد بعد النصوص ، وبعد الوقائع من يتأوّل النصوص الواردة في هذا الشأن فذلك علامة على انطماس البصيرة .

٥ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً لنفتنهم فيه** ﴾ ذكر صاحب الظلال بعض الحقائق التي يدلنا عليها النص فقال : (والحقيقة الأولى : هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ؛ وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه . وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة . وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة ، ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء . ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية .

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة . وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء ، وتتدفّق فيها الأرزاق . ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلاباً . وما يزالون في نكد وشظف ، حتى يفيئوا إلى الطريقة ، فيتحقق فيهم وعد الله .

وإذا كانت هناك أمم لا تستقيم على طريقة الله ، ثم تنال الوفر والغنى ، فإنها تعذّب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء . وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته .

الغيب، وهذا معنى قول النسفي : فإن فيهم أي في المنجمين من يصدق خبره ، كما لو كان له صلة بعالم الجن فيخبرونه عن وقائع حادثة .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد اختلف المفسرون في الضمير في قوله (ليعلم) إلى من يعود ؟ فقيل إنه عائد إلى النبي ﷺ . روى ابن جرير ... عن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً** ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ﴿ **ليعلم** ﴾ محمد ﷺ ﴿ **أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً** ﴾ ورواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي به . وهكذا رواه الضحاك والسدي ويزيد ابن أبي حبيب . وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ قال : ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلّغت عن الله ، وأن الملائكة حفظتها ورفعتها عن الله ، وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة واختاره ابن جرير ، وقيل غير ذلك ، كما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً** ﴾ قال : هي معقبات من الملائكة يحفظون النبي ﷺ من الشيطان ، حتى يتبين الذين أرسل إليهم وذلك حين يقول : ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ قال : ليُعلم مَنْ كذَّب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم وفي هذا نظر . وقال البغوي : قرأ يعقوب (ليُعلم) بالضم أي : ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا ، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل وهو قول حكاه ابن الجوزي في زاد المسير ، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ **وليعلمَنَّ الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين** ﴾ إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة ؛ ولهذا قال بعد هذا : ﴿ **وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً** ﴾) .

كلمة أخيرة في سورة الجن :

رأينا أن سور : الحاقة والمعارج ونوح عليه السلام والجن كلها تفصّل في مقدمة سورة البقرة وقلنا : إن سورتي المزمّل والمدّثر تفصلان مباشرة فيما بعد مقدمة سورة البقرة ، وقد رأينا أن سورة الجن عرضت لخصائص هذه الدعوة ، وبعد ذكر هذه الخصائص تأتي سورتا المزمل والمدثر لتأمرا رسول الله ﷺ وتفصّلا فيما ينبغي فعله في أمر العبادة لله عز وجل ، والملاحظ أن سورة الجن كان الخطاب فيها متوجهاً لرسول الله ﷺ بكلمة (قل) وها هما سورتا المزمل والمدثر تتوجهان كذلك بالخطاب لرسول الله ﷺ ﴿ **يا أيها المزمّل** ﴾ ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ وهكذا نجد أن المجموعة السادسة كل سورة منها تصل إلى أختها بسبب مع قيام كل منها بتفصيل ما يقابلها من محورها .

☆ ☆ ☆

سورة المزمل

وهي السورة الثالثة والسبعون بحسب الرسم القرآني

وهي السورة الخامسة من المجموعة السادسة من قسم

المفصل ، وهي عشرون آية

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ . وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا . إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة المزمل :

قدّم الألوسي لسورة المزّمل بقوله : (مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، وقال ابن عباس وقتادة كما ذكر الماوردي : إلا الآيتين منها ﴿ **واصبر على ما يقولون** ﴾ والتي تليها ، وحكى في البحر عن الجمهور أنها مكية إلا قوله تعالى : ﴿ **إن ربك يعلم** ﴾ إلى آخرها ، وتعقبه الجلال السيوطي بعد أن نقل الاستثناء عن حكاية ابن الفرس بقوله : ويرده ما أخرجه الحاكم عن عائشة أن ذلك نزل بعد نزول صدر السورة بسنة ، وذلك حين فرض قيام الليل في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلق بذلك . وآيها : ثماني عشرة آية في المدني الأخير ، وتسع عشرة في البصري ، وعشرون فيما عداهما . ولما ختم سبحانه سورة الجن بذكر الرسل عليهم الصلاة والسلام افتتح عز وجل هذه بما يتعلق بخاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وهو وجه في المناسبة ، وفي تناسق الدرر لا يخفى اتصال أولها ﴿ **قم الليل** ﴾ الخ بقوله تعالى في آخر تلك : ﴿ **وأنه لما قام عبد الله يدعوه** ﴾ وبقوله سبحانه : ﴿ **وأن المساجد لله** ﴾ الآية) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه هذه السورة : (وشطر السورة الأول يمضي على إيقاع موسيقي واحد . ويكاد يكون على روي واحد . هو اللام المطلقة الممدودة . وهو إيقاع رخي وقور جليل ؛ يتمشّى مع جلال التكليف ، وجدية الأمر ، ومع الأهوال المتتابعة التي يعرضها السياق) .

(فأما الآية الآخيرة الطويلة التي تمثّل شطر السورة الثاني ؛ فقد نزلت بعد عام من قيام الليل حتى ورمت أقدام الرسول ﷺ وطائفة من الذين معه . والله يعدّه ويعدّهم بهذا القيام لما يعدّهم له ! فنزل التخفيف ، ومعه التطمين بأنه اختار الله لهم وفق علمه وحكمته بأعبائهم وتكاليفهم التي قدرها في علمه عليهم ... أما هذه الآية فذات نسق خاص . فهي طويلة وموسيقاها متموجة عريضة ، وفيها هدوء واستقرار ، وقافية تناسب هذا الاستقرار وهي الميم وقبلها مدّ الياء : « غفور رحيم » .

والسورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة . تبدأ بالنداء العلوي الكريم بالتكليف العظيم . وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل ، والصلاة ، وترتيل القرآن ، والذكر الخاشع المتبتل . والاتكال على الله وحده ، والصبر على الأذى ، والهجر الجميل

للمكذبين ، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة ! .

وتنتهي بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير . والتوجيه للطاعات والقربات ، والتلويح برحمة الله ومغفرته : ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ .

وهي تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذي بذله ذلك الرهط المختار من البشرية - البشرية الضالة - ليردها إلى ربها ، ويصبر على أذاها ، ويجاهد في ضمائرها ؛ وهو متجرد من كل ما في الحياة من عرض يغري ، ولذاذة تُلهي ، وراحة ينعم بها الخليون ، ونوم يلتذه الفارغون !) .

كلمة في سورة المزمل ومحورها :

بعد مقدمة سورة البقرة مباشرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وهي في محلها هناك تشرح الطريق إلى التقوى ، وههنا نجد سورة المزمل تأتي مبتدئة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً** ... ﴾ فهي تفصّل في موضوع العبادة كطريق للتقوى ، وتذكر أنواعاً من العبادات ينبغي أن تؤدى .

....

وكنا ذكرنا من قبل أن السورة التي تأتي لتفصّل في مثل هذا المقام تفصّل بما يخدم المعاني التي ذكرت قبلها في مجموعتها ، ومن ثَمّ فسورة المزمّل تدلّ على الطريق الذي يؤدي إلى القيام بحق المعاني المذكورة في السور الأربع قبلها .

....

وكنا ذكرنا من قبل أن سورتي المزمل والمدثر تفصّلان في محوري سورتي النساء والمائدة ، فسورة المزمل تفصّل في محور سورة النساء ، وسورة المدّثر تفصّل في محور سورة المائدة ، وسنرى برهان ذلك أثناء عرض السورتين .

تتألف سورة المزّمل من فقرتين : فقرة طالبت بالحدّ الأعلى من السير إلى الله عز وجل ، والقيام بحقوق عبوديته ، وفقرة طالبت بالحد الأدنى الذي لا يسع أحداً أن ينقص منه ، والملاحظ أنّ الحدّ الأعلى خوطب به رسول الله ﷺ ، وأنّ الحدّ الأدنى كان ترخيصاً لرسول الله ﷺ والمسلمين ، وفي توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ وحده

في الفقرة الأولى إشارة إلى أن من يقوم بشأن الدعوة إلى الله عز وجل يطالَب بما لا يطالَب به غيره ، ويتأكد الطلب في حقه أكثر منه في حق غيره .

....

تستمر الفقرة الأولى من السورة حتى نهاية الآية (١٩) وتتألف الفقرة الثانية من آية واحدة فلنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتد من الآية (١) حتى نهاية الآية (١٩) وهذه هي :

المجموعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

المجموعة الثانية

وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ

﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ (١٩)

قدّم ابن كثير لتفسير هذه السورة بقوله : (روى الحافظ أبو بكر البزار عن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة ، فقالوا : سموا هذا الرجل اسماً يصدر الناس عنه ، فقالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، فقالوا : مجنون ، قالوا : ليس بمجنون ، قالوا : ساحر ، قالوا : ليس بساحر ، فتفرق المشركون على ذلك ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فتزمل في ثيابه وتدثر فيهما فنزل جبريل عليه السلام فقال : ﴿ **يا أيها المزمل** ﴾ ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ قال البزار : معلى بن عبد الرحمن - وهو من رجال سند الحديث - قد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه لكن تفرد بأحاديث لا يتابع عليها) . أقول : من هذه الرواية يفهم أن التآمر العنيف على رسول الله ﷺ ، والذي أهمّه همّاً أقعده جاءت سورتا المزمل والمدثر لتعالجاه ، وهذا معنى مهم ينبغي أن يُفطن له ، فإذا تذكّرنا قوله تعالى في سورة الجن : ﴿ **وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً** ﴾ ندرك صلة سورتي المزمل والمدثر بما قبلهما من سور مجموعتهما ، ومن ثَمّ فإن ما ورد في هاتين السورتين ينبغي أن يعطيه كل من يشتغل بالدعوة إلى الله عز وجل مداه التطبيقي .

وقد نقل صاحب الظلال الرواية التي ذكرها ابن كثير ، ثمّ ذكر الرواية الأخرى التي تُذكر كسبب نزول ، وعلّق عليها وهذا كلامه : (وتروى رواية أخرى تتكرر بالنسبة لسورة المدثر كذلك - كما سيجيء في عرض سورة المدثر إن شاء الله .

وخلاصتها أن رسول الله ﷺ كان يتحنّث في غار حراء - قبل البعثة بثلاث سنوات - أي : يتطهر ويتعبد - وكان تحنثه - عليه الصلاة والسلام - شهراً من كل سنة - وهو شهر رمضان - يذهب فيه إلى غار حراء على مبعدة نحو ميلين من مكة ، ومعه أهله قريباً منه . فيقيم فيه هذا الشهر ، يطعم من جاءه من المساكين ، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون ، وفيما وراءها من قدرة مبدعة ... وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة ، وتصوراتها الواهية ، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ، ولا منهج محدد ، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه .

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له ليعدّه لما ينتظره من الأمر

العظيم . ففي هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه ، ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة ؛ ويفرغ لموحيات الكون ، ودلائل الإبداع ؛ وتسبح روحه مع روح الوجود ؛ وتتعانق مع هذا الجمال وهذا الكمال ؛ وتتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التعامل معها في إدراك وفهم .

ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى ... لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت ، وانقطاع عن شواغل الأرض ، وضجة الحياة ، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة .

لا بد من فترة للتأمل والتدبّر والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه الطليقة . فالاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستنيم له ، فلا تحاول تغييره . أما الانخلاع منه فترة ، والانعزال عنه ، والحياة في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير ، ومن الشواغل التافهة فهو الذي يؤهل الروح الكبير لرؤية ما هو أكبر ، ويدرّبه على الشعور بتكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس ، والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع !

وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ ... دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات) .

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الأولى :

﴿ **يا أيها المزمّل** ﴾ أي : المتزمّل وهو الذي تزمّل في ثيابه ، أي : تلفف بها ، قال ابن كثير : يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمّل : وهو التغطي في الليل ، وينهض إلى القيام لربه عز وجل ... وقد كان واجباً عليه وحده ... وههنا بيّن له مقدار ما يقوم ﴿ **قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه** ﴾ أي : من النصف ﴿ **قليلاً أو زد عليه** ﴾ أي : على النصف ، قال ابن كثير : أي : أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل ، لا حرج عليك في ذلك ﴿ **ورتّل القرآن ترتيلاً** ﴾ قال ابن كثير : أي : اقرأه على تمهّل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره ، قال النسفي : أي : بيّن وفصّل القرآن تبياناً وتفصيلاً ، أو اقرأ على تؤدة بتبيين الحروف ، وحفظ الوقوف ، وإشباع الحركات ﴿ **إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾ قال ابن كثير : قال الحسن وقتادة : أي : العمل به وقيل : ثقيل وقت نزوله من عظمته ، وقال النسفي : (أي :

سنتنزل عليك قولاً ثقيلاً أي : القرآن لما فيه من الأوامر والنواهي ، التي هي تكاليف شاقة ، ثقيلة على المكلّفين ، أو ثقيلاً على المنافقين ، أو كلام له وزن ورجحان ، ليس السفساف الخفيف) . أقول : إن التخلق بالقرآن والقيام بأوامره وتعليم ذلك للناس ، وتبليغهم إياه ، وتربيتهم عليه ، كل ذلك ثقيل على النفس البشرية ، ولا يخفف عبء هذا الحمل إلا صلة عظيمة بالله عز وجل ، ولذلك جاء قوله تعالى : ﴿ **إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾ ، وكأنه تعليل للأمر بقيام الليل ، وترتيل القرآن فيه ، فعلى كل من يتصدّر للدعوة إلى الله عز وجل وتربية الخلق أن يكون له حظ من قيام الليل ، ثم قال تعالى : ﴿ **إن ناشئة الليل** ﴾ أي : قيام الليل ، أو العبادة التي تنشأ بالليل ، أي : تُحدث أو ساعات الليل ، وأوقاته لأنها تنشأ ساعة فساعة ، قال ابن كثير : وكل ساعة منه تسمّى ناشئة ، وهي الآنات ﴿ **هي أشدّ وطأً** ﴾ أي : أثقل على المصلي من صلاة النهار لطرد النوم في وقته ﴿ **وأقوم قيلاً** ﴾ أي : وأشد مقالاً وأثبت قراءة لهدوء الأصوات ، وانقطاع الحركات ، قال ابن كثير : أي : أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ، لأنه وقت انتشار الناس ، ولغط الأصوات ، وأوقات المعاش ، وقال : والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة . أقول : في الآية تعليل ثان للأمر بقيام الليل ، وهو ثقله على النفس ، وكونه أجمع للقلب على الله عز وجل ، وبالتالي فهو أكثر تأثيراً وتقويماً للنفس ، ثم قال تعالى : ﴿ **إن لك في النهار سبحاً طويلاً** ﴾ أي : فراغاً طويلاً لنومك وراحتك ، أو تصرّفاً وتقلّباً في مهماتك وشواغلك ، ففرّغ نفسك في الليل لعبادة ربك ، أقول : في هذه الآية تعليل ثالث للأمر بقيام الليل ، وحضّ على هذا القيام ، فالنهار كاف لقضاء الحاجات ، وهو محلها العادي ، فاجعله لقضاء حاجتك ولراحتك ، وخلّ الليل لله ﴿ **واذكر اسم ربك** ﴾ قال النسفي : (أي : ودم على ذكره في الليل والنهار) وذكر الله يتناول التسبيح والتهليل والتكبير والصلاة وتلاوة القرآن ودراسة العلم ، وقال ابن كثير : (أي : أكثر من ذكره ، وانقطع إليه ، وتفرّغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك ، وما تحتاج إليه من أمور دنياك) .

أقول : أي : اجمع بين قيام الليل والاشتغال بذكر اسم الله عز وجل ، ثم قال تعالى : ﴿ **وتبتّل إليه تبتيلاً** ﴾ قال النسفي : (انقطع إلى عبادته عن كل شيء ، والتبتل : الانقطاع إلى الله تعالى بتأميل الخير منه دون غيره ، وقيل رفض الدنيا وما فيها ، والتماس ما عند الله ، وما ذكره ابن كثير في تفسير التبتل يدور بين الإخلاص

والانقطاع لعبادة الله ، والاجتهاد فيها ، فصار معنى الآية : اذكر اسم ربك ، وانقطع إلى الله عز وجل انقطاعاً ، وهذا يفيد أن رجل الدعوة عليه أن يكرّس ليله لقيام الليل ، وأن يجتمع له في ليله ونهاره ذكر ، وأن يكون له انقطاع إلى الله عز وجل ، ويعطي لأمور الدنيا بالقدر الذي لا بدّ منه ، ثم قال تعالى معللاً للأمر بالذكر والانقطاع إلى الله عز وجل : ﴿ **ربّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً** ﴾ قال النسفي : (أي : ولياً وكفيلاً بما وعدك من النصر ، وإذا علمت أنه ملك المشرق والمغرب ، وأن لا إله إلا هو فاتخذه كافياً لأمورك ، وفائدة الفاء ، أن لا تتلبّث بعد أن عرفت في تفويض الأمور إلى الواحد القهار إذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار) ، وقال ابن كثير : (أي : هو المالك المتصرّف في المشارق والمغارب ، الذي لا إله إلا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل ، فاتخذه وكيلاً) . أقول : بعد الأمر بقيام الليل ، والذكر والانقطاع إلى الله ، ذكّر الله رسوله ﷺ بربوبيته للمشرق والمغرب ، وبوحدانيته ليبني على ذلك الأمر بالتوكل ، فصار مجموع الأوامر في هذه الفقرة خمسة : قيام الليل ، وترتيل القرآن ، والذكر ، والانقطاع إلى الله عز وجل ، والتوكل عليه .

كلمة في السياق :

١ - قلنا إن محور السورة من سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ والملاحظ أن المجموعة التي مرّت معنا طالبت رسول الله ﷺ بأنواع من العبادة ، وفي ذلك تحديد لسلوك الطريق إلى الله عز وجل ، فمن ليس له قيام ليل ، وترتيل قرآن ، وذكر وانقطاع إلى الله عز وجل ، وتوكل عليه ، فإنه لا حظّ له من السلوك الكامل إلى الله عز وجل ، وإنما يتفاوت السالكون بقدر حظوظهم من هذه المعاني .

٢ - رأينا أن الأمر بقيام الليل كانت إحدى حِكَمه أن الله سينزل على رسوله ﷺ قولاً ثقيلاً ، ورأينا في سورة الجن كيف تألّب الجنّ والإنس على رسول الله ﷺ ، ورأينا أن سورة المزمل أنزلت بمناسبة التآمر على رسول الله ﷺ ، ومن ثَمّ تأتي المجموعة الثانية في هذه الفقرة لتوجه رسول الله ﷺ في أمر هؤلاء بعد أن وجّهته إلى ما ينبغي فعله ليقوم بحمل عبء الدعوة .

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الأولى :

﴿ **واصبر على ما يقولون** ﴾ قال النسفي : (أي : فيَّ من الصاحبة والولد ، وفيك من الساحر والشاعر) ﴿ **واهجرهم هجراً جميلاً** ﴾ قال النسفي : (أي : جانبهم بقلبك وخالفهم مع حسن المحافظة وترك المكافأة) قال ابن كثير : (يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله مَنْ كذّبه من سفهاء قومه ، وأن يهجرهم هجراً جميلاً ، وهو الذي لا عتاب معه ﴿ **وذرني والمكذبين أولي النعمة** ﴾ قال ابن كثير : أي : دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال ، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم ، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم) وقال النسفي : أي : كِلهم إليّ فأنا كافيهم ﴿ **ومَهِّلهم قليلاً** ﴾ أي : ومهلهم إمهالاً قليلاً ، ثم علل هذين الأمرين بقوله : ﴿ **إن لدينا أنكالاً** ﴾ أي : قيوداً ثقالاً للكافرين في الآخرة ﴿ **وجحيماً** ﴾ أي : ناراً محرقة ﴿ **وطعاماً ذا غُصَّة** ﴾ قال النسفي : أي : الذي ينشب في الحلوق فلا يتساغ ، قال ابن كثير : قال ابن عباس : ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج ﴿ **وعذاباً أليماً** ﴾ أي : شديد الألم ، ثم بيّن متى يكون ذلك كله فقال ﴿ **يوم ترجف الأرض والجبال** ﴾ أي : تتحرك حركة شديدة أي : تتزلزل ﴿ **وكانت الجبال كثيباً** ﴾ أي : رملاً مجتمعاً ﴿ **مهيلاً** ﴾ أي : سائلاً بعد اجتماعه ، قال ابن كثير : أي : تصير ككثبان الرمال بعدما كانت حجارة صمّاء ، ثم إنها تنسف نسفاً ، فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض (قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً) أي : وادياً (ولا أمتاً) أي : رابية ومعناها : لا شيء منخفض ، ولا شيء يرتفع ، ثم خاطب الله عز وجل سائر الناس ، ومجيء هذا الخطاب في هذا السياق بمثابة التعليل لاستحقاق الكافرين العذاب ، ﴿ **إنا أرسلنا إليكم رسولاً** ﴾ يعني : محمداً عليه الصلاة والسلام ﴿ **شاهداً عليكم** ﴾ قال ابن كثير : أي : بأعمالكم ، وقال النسفي : (أي : يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم) ﴿ **كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً** ﴾ يعني : موسى عليه السلام ﴿ **فعصى فرعون الرسول** ﴾ أي : موسى عليه السلام ﴿ **فأخذناه أخذاً وبيلاً** ﴾ أي : شديداً غليظاً ، قال ابن كثير : (أي : فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون ، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ... وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم ؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران) ﴿ **فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً** ﴾ من شدة أهواله وزلازله

وبلابله ، أي : كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ، أو كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ، أو كيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة ، والجزاء ؛ لأن تقوى الله أثر عن خوف عقابه ، ثم وصف الله عز وجل هول ذلك اليوم فقال : ﴿ **السماء منفطر به** ﴾ قال النسفي : أي : السماء على عظمها وإحكامها تنفطر به ، أي : تنشق فما ظنك بغيرها من الخلائق ... يعني أنها تتفطر لشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يفطر به ﴿ **كان وعده مفعولاً** ﴾ أي : كان وعد هذا اليوم مفعولاً ، أو كان وعد الله عز وجل بهذا اليوم مفعولاً ، قال ابن كثير : أي : واقعاً لا محالة ، وكائناً لا محيد عنه ، ثم ختم الله عز وجل هذه الفقرة بقوله ﴿ **إن هذه** ﴾ قال ابن كثير : أي : السورة ﴿ **تذكرة** ﴾ أي : موعظة ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً** ﴾ قال النسفي : أي : فمن شاء اتعظ بها ، واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية .

كلمة في السياق :

١ - أمرت المجموعة الأخيرة رسول الله ﷺ بالصبر على أقوال الكافرين ، وهجرهم وتركهم لله ينتقم منهم ، ثمّ أنذرت المجموعة الكافرين العاصين بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وختمت المجموعة بتبيان أن هذه السورة تذكرة ، وحثت على السير في سبيل الله ، مما يشير إلى أن هذه السورة حدّدت السبيل إلى الله ، وقد ذكرت الفقرة الأولى من هذا السبيل : قيام الليل ، ترتيل القرآن ، ذكر الله ، الانقطاع إلى الله ، التوكل عليه ، الصبر على أقوال الكافرين ، هجر هؤلاء الكافرين ، تركهم لله ينتقم منهم .

٢ - ذكر في نهاية المجموعة الأولى قوله تعالى : ﴿ **رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى في المحور : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ واضحة .

٣ - ورد في المجموعة الثانية قوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصى فرعونُ الرسولَ فأخذناه أخذاً وبيلاً * فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منفطر به كان وعده مفعولاً** ﴾ ولذلك صلته بقوله تعالى في محور السورة : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن**

لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين ﴾ فالسورة تبيّن الطريق ، وتنذر من انحرف عنه .

٤ - إنهاء الفقرة الأولى من هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً** ﴾ يوحي بأن ما ذكر في السورة حتى هذه الآية هو الطريق الكامل الخالص ، وستأتي الفقرة الثانية في السورة وفيها تخفيف عن رسول الله وعن أصحابه ، مما يشير إلى أن الأوامر السابقة كما طولب بها رسول الله ﷺ يطالب بها المسلمون بالتبع ، والفقرة الثانية مع أنها تخفف بعض الأحكام فإنها تذكر بعض المعاني التي تكمّل شرح الطريق .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية من السورة

وهي آية واحدة وهذه هي :

* إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

التفسير :

﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى** ﴾ أي : أقل ﴿ **من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك** ﴾ أي : ويقوم ذلك المقدار جماعة من أصحابك ، قال ابن كثير : أي : تارة هكذا وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم ﴿ **والله يقدر الليل والنهار** ﴾ قال ابن كثير : أي : تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا ﴿ **علم أن لن تحصوه** ﴾ قال النسفي : (أي : لن تطيقوا قيامه على هذه المقادير إلا بشدة ومشقة وفي ذلك حرج) ﴿ **فتاب عليكم** ﴾ أي : فخفف عليكم ، وأسقط عنكم فرض قيام الليل ﴿ **فاقرءوا ما تيسّر من القرآن** ﴾ قال ابن كثير : أي : من غير تحديد لوقت ، ولكن قوموا من الليل ما تيسّر ، وعبّر عن الصلاة بالقراءة كما في سورة سبحان ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ أي : بقراءتك ﴿ **ولا تخافت بها** ﴾ ثم بيّن

الحكمة في التخفيف وهي تعذر القيام على المرضى والمسافرين والمجاهدين ﴿ **علم** ﴾ الله ﴿ **أن** ﴾ أي : أنه ﴿ **سيكون منكم مرضى** ﴾ فيشق عليهم قيام الليل ﴿ **وآخرون يضربون في الأرض** ﴾ أي : يسافرون ﴿ **يبتغون من فضل الله** ﴾ أي : من رزقه بالتجارة أو طلب العلم ﴿ **وآخرون يقاتلون في سبيل الله** ﴾ فلا يستطيعون الجمع بين مثل ذلك القيام وشؤون القتال ﴿ **فاقرءوا ما تيسّر منه** ﴾ قال النسفي : كرر الأمر بالتيسير لشدة احتياطهم . أقول : وفي ذكر حكمة التخفيف ، أنها مراعاة لأحوال هذه الطوائف الثلاث إشعار بأن من لم يكن حاله كذلك ، فإن عليه أن يبذل جهداً في قيام الليل ، فإن سقطت الفرضية فقد بقي النّدب ، ثم قال تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ أي : الواجبة عليكم ، ومجيء هذا الأمر في ختام السورة يشير إلى أن الإكثار من قيام الليل شيء ، وإقامة الصلاة المفروضة شيء آخر ﴿ **وآتوا الزكاة** ﴾ أي : الواجبة ، قال ابن كثير : وهذا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم يتبيّن إلا في المدينة ﴿ **وأقرضوا الله** ﴾ بالنوافل ﴿ **قرضاً حسناً** ﴾ قال ابن كثير : يعني من الصدقات ، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، وفسّر النسفي القرض الحسن لله بأن يكون من الحلال بالإخلاص ﴿ **وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه** ﴾ أي : تجدوا ثوابه ﴿ **عند الله هو خيراً** ﴾ أي : مما خلفتم وتركتم ﴿ **وأعظم أجراً** ﴾ أي : وأجزل ثواباً ، قال ابن كثير : أي : جميع ما تقدمونه بين أيديكم ، فهو لكم حاصل وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا ، ثم ختم الله السورة – الدالة على الطريق بقوله : ﴿ **واستغفروا الله** ﴾ من السيئات والتقصير في الحسنات ﴿ **إن الله غفور** ﴾ يستر على أهل الذنب والتقصير ﴿ **رحيم** ﴾ يخفف عن أهل الجهد والتوفير ، وقال ابن كثير : أي : أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

كلمة في السياق :

هذه السورة رسمت طريق السير إلى الله ، وبيّنت الطريق إلى التقوى في حدّه الأدنى وحدّه الأعلى ، فحدّه الأدنى صلاة مفروضة ، وزكاة ، واستغفار ، وقيام ما تيسّر من الليل ، وحدّه الأعلى : صلاة ، وإنفاق ، واستغفار ، وقيام من الليل ، وترتيل قرآن ، وذكر ، انقطاع إلى الله عز وجل ، وصبر على أقوال الكافرين ، وهجر لهم ، وانتظار فعل الله فيهم إذا لم يكن جهاد مأمور به ، وصلة ذلك بقضية العبادة والتقوى – التي

هي محور السورة – واضحة المعالم .

الفوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها المزمّل** ﴾ قال الألوسي : (والجمهور على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما جاءه الملك في غار حراء وحاوره بما حاوره رجع إلى خديجة رضي الله تعالى عنها فقال : زملوني زملوني فنزلت ﴿ **يا أيها المدّثّر** ﴾ وعلى أثرها نزلت ﴿ **يا أيها المزمل** ﴾ ، وأخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن جابر رضي الله تعالى عنه قال : لما اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه ، فقالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ، قالوا : ليس بمجنون ، قالوا : ساحر ، قالوا : ليس بساحر ، قالوا : يفرّق بين الحبيب وحبيبه ، فتفرق المشركون على ذلك ، فبلغ ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتزمّل في ثيابه وتدثّر فيها فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا أيها المزمل يا أيها المدثر ، ونداؤه عليه الصلاة والسلام بذلك تأنيس له وملاطفة على عادة العرب في اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها ، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه حين غاضب فاطمة رضي الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب : قم أبا تراب ، قصداً لرفع الحجاب وطي بساط العتاب وتنشيطاً له ليتلقى ما يرد عليه بلا كسل ، وكل ما يفعل المحبوب محبوب) .

٢ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ورتّل القرآن ترتيلاً** ﴾ قال ابن كثير : (وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها : كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها . وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت مداً ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد بسم الله ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم ، وقال ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت : كان يقطّع قراءته آية آية ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين** ﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « يقال لقارىء القرآن : اقرأ وارق ، ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث سفيان الثوري به وقال الترمذي : حسن صحيح ، وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على

استحباب الترتيل ، وتحسين الصوت بالقراءة كما جاء في الحديث : « زينوا القرآن بأصواتكم » و « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » و « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود » يعني : أبا موسى ، فقال أبو موسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبّرته لك تحبيراً ، وعن ابن مسعود أنه قال : لا تنثروه نثر الدّقل ، ولا تهذوه هذ الشعر قفوا عند عجائبه ، وحرّكوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة . رواه البغوي وروى البخاري ... عن أبي وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : قرأت المفصّل الليلة في ركعة . فقال هذّا كهذّ الشعر ، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصّل سورتين في ركعة) .

أقول : نزل القرآن على رسول الله ﷺ مرتّلاً ، وكان رسول الله ﷺ يقرؤه ويُقرِئه مرتلاً ، وقد توارثت الأمة كيفية ترتيله عليه الصلاة والسلام ، واستخلص القراء قواعد الترتيل ، وألّفوا في ذلك الكتب ، واعتبر العلماء علم الترتيل من العلوم المفروضة فرض عين على كل مسلم ، وهذا يستدعي من كل مسلم أن يقرأ رسالة في علم التجويد ، وأن يأخذ القرآن من أهله ، ليسقط فرض عين عن نفسه ، وفرض كفاية عن المسلمين .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾ قال صاحب الظلال : (هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف ... والقرآن في مبناه ليس ثقيلاً فهو ميسّر للذكر . ولكنه ثقيل في ميزان الحق ، ثقيل في أثره في القلب : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾ فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه .

وإن تلقي هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه ، لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة ، لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاتصال بالملأ الأعلى ... وأرواح الخلائق الحية والجامدة على هذا النحو الذي تهيأ لرسول الله ﷺ لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ، ولا تلفت هنا أو هناك لآراء

الهواتف والجواذب والمعوقات لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل.

وإن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها؛ والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة؛ واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي ... إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! وينير للقلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير).

أقول: قد رأينا أن من جملة ما فسّر به القول الثقيل في قوله تعالى: ﴿ **إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾ أن المراد به ثقله وقت نزوله من عظمته، وهو قول مرجوح ليس بالقوي، وإن كان ثقل الوحي في حد ذاته كبيراً ولكن ليس هذا هو المعنى المراد بالآية غير أنّه بمناسبة ذلك القول، قال ابن كثير: (كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه أنزل على رسول الله وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض» تفرد به أحمد. وفي أول صحيح البخاري ... عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً، هذا لفظه. وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها. وروى ابن جرير عن هشام ابن عروة عن أبيه أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع أن تحرك حتى يسرى عنه، وهذا مرسل، الجران: هو باطن العنق واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معاً كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين).

٤ - مناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً وأقوم قيلاً** ﴾ قال صاحب الظلال : (﴿ **ناشئة الليل** ﴾ هي : ما ينشأ منه بعد العشاء ؛ والآية تقول : ﴿ **إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً** ﴾ أي : أجهد للبدن ، ﴿ **وأقوم قيلاً** ﴾ أي : أثبت في الخير - كما قال مجاهد - فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش ، بعد كد النهار ، أشد وطأً وأجهد للبدن ؛ ولكنها إعلان لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، وإيثار للأنس به ؛ ومن ثَمَّ فإنها أقوم قيلاً ، لأن للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها . وإنها لتسكب في القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً ، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره ... والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه ، وأيّ الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيؤاً ، وأيّ الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه) .

٥ - عند قوله تعالى : ﴿ **إن لك في النهار سبحاً طويلاً** ﴾ قال ابن كثير : (قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ **إن لك في النهار سبحاً طويلاً** ﴾ قال : لحوائجك فأفرغ لدينك الليل ، قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ، ثم إن الله تبارك وتعالى مَنَّ على عباده فخففها ووضعها وقرأ ﴿ **قم الليل إلا قليلاً** ﴾ إلى آخر الآية ثم قرأ ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه** ﴾ حتى بلغ ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ وهذا الذي قاله كما قاله ، والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد في مسنده ... عن سعيد بن هشام أنه طلّق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها ، ويجعله في الكراع والسلاح ، ثم يجاهد الروم حتى يموت ، فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه - ستة - أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أليس لكم فيَّ أسوة حسنة ؟ » فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رجعتها ثم رجع إلينا ، فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر ، فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : ائت عائشة فسلها ثم ارجع إليّ فأخبرني بردها عليك ، قال : فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها فقال : ما أنا بقاربها إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً ، فأبت فيهما إلا مضياً ، فأقسمت عليه فجاء معي ، فدخلنا عليها فقالت : حكيم ؟ - وعرفته - قال : نعم ، قالت : من هذا معك ؟ قال : سعيد ابن هشام ، قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر ، قال : فترحمت عليه ، وقالت : نعم

المرء كان عامراً ، قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ ؟ قالت ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن ، فهممت أن أقوم ، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت : ألست تقرأ هذه السورة ﴿ **يا أيها المزمّل** ﴾ ؟ قلت : بلى قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه حولاً ، حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً ، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة . فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ ، فقلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ ، قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوّك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمان ركعات ، لا يجلس فيهنّ إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض وما يسلم ، ثم يقوم ليصلي التاسعة ، ثم يقعد فيذكر الله وحده ، ثم يدعوه ، ثم يسلم تسليماً يسمعنا ، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بنيّ فلما أسَنّ رسول الله ﷺ وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك تسع يا بنيّ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ، ولا أعلم نبيّ الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان ، فأتيت ابن عباس فحدّثته بحديثها فقال : صدقت ، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة ، هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه ، وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث قتادة بنحوه) .

٦ — عند قوله تعالى : ﴿ **فاقرءوا ما تيسَّر من القرآن** ﴾ قال ابن كثير : (وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله بهذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ **فاقرءوا ما تيسر من القرآن** ﴾ على أنه لا يجب تعين قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية أجزأه ، واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي في الصحيحين : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة ابن الصامت وهو في الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج فهي خداج فهي خداج غير تمام » وفي

صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا تجزىء صلاة من لم يقرأ بأم القرآن ») .

أقول : هذه القضية خلافية ، وكل ما استدلّ به غير الحنفية عليهم جعله الحنفية حجّة لهم على من خالفهم ، وليس ههنا محلّ بسط هذه الأقوال ، وإنّما ذكرت هذا ههنا ليعلم أن ما قاله ابن كثير ليس هو القول الفصل .

٧ - عند قوله تعالى : ﴿ **علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله** ﴾ قال النسفي : (سوّى بين المجاهد والمكتسب ؛ لأن كسب الحلال جهاد ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً ، فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رحل ، أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله) . وقال ابن كثير : (أي : علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله ، وهذه الآية - بل السورة كلها - مكية ، ولم يكن القتال شرع بعد ، فهي من أكبر دلائل النبوة لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة) .

٨ - عند قوله تعالى : ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ الثانية قال ابن كثير : (أي : قوموا بما تيسّر عليكم منه ، روى ابن جرير عن أبي رجاء محمد قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ، ولا يقوم به إنما يصلي المكتوبة ؟ قال : يتوسد القرآن لعن الله ذلك ، قال الله تعالى للعبد الصالح : ﴿ **وإنه لذو علم لما علّمناه** ﴾ ﴿ **وعُلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾ قلت : يا أبا سعيد ، قال الله تعالى : ﴿ **فاقرءوا ما تيسر من القرآن** ﴾ قال : نعم ولو خمس آيات ، وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه » فقيل معناه نام عن المكتوبة ، وقيل عن قيام الليل : وفي السنن : « أوتروا يا أهل القرآن » وفي الحديث الآخر : « من لم يوتر فليس منا » وأغرب من هذا ما حكي عن أبي بكر بن عبد العزيز

- من الحنابلة - من إيجابه قيام شهر رمضان فالله أعلم) .

أقول : الذي عليه جماهير الأمة سلفاً وخلفاً أن قيام الليل مندوب في رمضان وغيره .

٩ - عند قوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ قال ابن كثير : (وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل ، واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال كما تقدم ، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل عليّ غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوّع ») .

أقول : وقد بقي قيام الليل في حق رسول الله ﷺ واجباً لقوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجّد به نافلة لك** ﴾ .

١٠ - عند قوله تعالى : ﴿ **وأقرضوا الله قرضاً حسناً** ﴾ قال النسفي : (والقرض لغة : القطع ، فالمقرض يقطع ذلك القدر من ماله فيدفعه إلى غيره ، وكذا المتصدّق يقطع ذلك القدر من ماله فيجعله لله تعالى ، وإنما أضافه إلى نفسه لئلا يمن على الفقير فيما تصدّق به عليه ، وهذا لأن الفقير معاون له في تلك القربة ، فلا يكون له عليه منة بل المنة للفقير عليه) .

١١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً** ﴾ قال ابن كثير : (روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن الحارث ابن سويد قال : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا : يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : « اعلموا ما تقولون » قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ! قال : « إنما مال أحدكم ما قدّم ومال وارثه ما أخّر » ورواه البخاري من حديث حفص بن غياث ، والنسائي من طريق أبي معاوية كلاهما عن الأعمش أيضاً به) .

كلمة أخيرة في سورة المزمل :

إن هذه السورة ينبغي أن يضعها القائمون بأمر الدعوة إلى الله نصب أعينهم فيلتزموا بما ندبت إليه من معانٍ ، وما فرضته من معانٍ ، ويرفعوا الأمة إلى الكمالات التي تحدّثت عنها فذلك هو الطريق ، لقد وضّحت هذه السورة الطريق إلى التقوى ، ولذلك فإن علينا أن نأخذ حظّنا منها ، بإلزام أنفسنا وتعويدها على القيام بكل ما فيها ، وتربية أنفس المسلمين على ذلك من خلال التذكير والقدوة والبيئة والاحتيال لذلك ؛ بتعويد الأنفس شيئاً فشيئاً ، فالصلاة والزكاة والاستغفار ، وشيء من القرآن ، وشيء من الذكر ، وشيء من قيام الليل ، وشيء من الانقطاع إلى الله عز وجل ، ثم وثم حتى تصبح معاني السورة خُلقاً للمسلم ، ومتى أصبحت خُلقاً له فقد أصبح على الطريق الواضح الموصل إلى الجنة ، إذا اجتمع له مع ذلك علم ، وتأتي سورة المدّثر لتكمّل تبيان الطريق بذكر المواقف من الكفر والكافرين ، فلننتقل إلى الحديث عن سورة المدّثر .

☆ ☆ ☆

وهـي السـورة الرابعـة والسـبعون بحسـب الرسـم القـرآني

وهي السورة السادسة والأخيرة من المجموعة السادسة

من قسم المفصل ، وهي ست وخمسون آية

وهـي مكيـة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة المدثر :

قال الألوسي عن هذه السورة : (مكية ، قال ابن عطية : بإجماع إلا آية فهي محلّ خلاف . وهي متواخية مع السورة قبلها في الافتتاح بنداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصدر كليهما نازل على المشهور في قصة واحدة ، وبدئت بالأمر بقيام الليل وهو عبادة خاصة ، وهذه بالأمر بالإنذار وفيه من تكميل الغير ما فيه) .

وقال صاحب الظلال : (وهذه السورة قصيرة الآيات . سريعة الجريان . متنوعة الفواصل والقوافي . يتئد إيقاعها أحياناً ، ويجري متدفقاً أحياناً ! وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر ويعبس ويبسر ... وتصوير مشهد سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر ... ومشهد فرارهم كأنهم حمر مستنفرة . فرّت من قسورة !

وهذا التنوع في الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقاً خاصاً ؛ ولا سيما عند رد بعض القوافي ورجعها بعد انتهائها كقافية الراء الساكنة : المدثر ، أنذر ، فكبر ... وعودتها بعد فترة : قدّر ، بسر ، استكبر ، سقر ... وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية في الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص . عند قوله : ﴿ **فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة !** ﴾) .

تحقيق : حول أي من القرآن نزل أولاً ؟

قال ابن كثير : (ثبت في صحيح البخاري عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ كما سيأتي ذلك هنالك إن شاء الله تعالى . روى البخاري عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ قلت يقولون : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلت له مثل ما قلت لي فقال جابر : لا أحدّثك إلا ما حدّثنا به رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا عليّ ماءً بارداً – قال : – فدثروني وصبوا عليّ ماءً بارداً ، قال : فنزلت ﴿ **يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك**

فكبر ﴾ » هكذا ساقه من هذا الوجه . وقد رواه مسلم ... عن أبي سلمة قال : أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه : « فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قِبَل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجثيت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت إلى أهلي فقلت : « زملوني زملوني فدثّروني فأُنزل الله تعالى ﴿ **يا أيها المدثر** ۞ **قم فأنذر** ﴾ إلى ﴿ **فاهجر** ﴾ قال أبو سلمة (والرجز) الأوثان ثم حمي الوحي وتتابع » هذا لفظ البخاري ، وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله : « فإذا الملك الذي جاءني بحراء » وهو جبريل حين أتاه بقوله ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ۞ **خلق الإنسان من علق** ۞ **اقرأ وربك الأكرم** ۞ **الذي علّم بالقلم** ۞ **علّم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ ثم إنه حصل بعد هذا فترة ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة ، كما روى الإمام أحمد ... عن ابن شهاب قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرني جابر ابن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثم فتر الوحي عني فترة ، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قِبَل السماء فإذا الملك الذي جاءني قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجثيت منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي فقلت لهم : زملوني زملوني ، فزملوني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها المدثر** ۞ **قم فأنذر** ۞ **وربك فكبر** ۞ **وثيابك فطهر** ۞ **والرجز فاهجر** ﴾ ثم حمي الوحي وتتابع » أخرجاه من حديث الزهري به) .

قال الألوسي : ولصحة الخبرين (خبر جابر وخبر عائشة رضي الله عنهما) احتاجوا للجواب فنقل في الإتقان خمسة أجوبة ، الأول : أن السؤال في حديث جابر كان عن نزول سورة كاملة ، فبيّن أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل تمام سورة اقرأ ، فإن أول ما نزل منها صدرها . الثاني : إن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي لا أولية مطلقة . الثالث : إن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار ، وعبّر بعضهم عن هذا بقوله أول ما نزل للنبوة ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ وأول ما نزل للرسالة ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ . الرابع : إن المراد أول ما نزل بسبب متقدم وهو ما وقع من التدثر الناشيء عن الرعب ، وأما اقرأ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم . الخامس : إن جابر استخرج ذلك باجتهاده وليس هو من روايته فيقدم عليه ما روت عائشة رضي الله تعالى عنها) .

نقل في سبب النزول :

بمناسبة الكلام عن سورة المزمّل نقلنا نقولاً عن أسباب نزول سورتي المزمّل والمدّثر وقد رأينا في الفترة السابقة بعض الروايات التي يفهم منها بعض أسباب النزول ، وقد ذكر ابن كثير بمناسبة الكلام عن سورة المدّثر رواية أخرى تشبه الرواية التي ذكرها بمناسبة الكلام عن سورة المزمّل وهذه هي : (وروى الطبراني عن إبراهيم بن يزيد سمعت ابن أبي مليكة يقول : سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم : كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن ، وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر ، وقال بعضهم : بل سحر يؤثر ، فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدثر فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهّر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر** ﴾) .

كلمة في سورة المدثر ومحورها :

بعد الآيات الأربع التي جاءت بعد مقدمة سورة البقرة والتي فصّلت فيها سورة المزمل يأتي قوله تعالى : ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون** ﴾ ، ويلاحظ أن سورة المدثر بدأت بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر ....** ﴾ فهناك أمر بالتبشير ، وههنا أمر بالإنذار ، وهما شيئان متكاملان . وقبل قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **وبشّر** ﴾ ورد قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ وصلة ذلك بالإنذار واضحة . وبعد آية (وبشر) يرد قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ ويلاحظ أنه في سورة المدثر يرد قوله تعالى : ﴿ **وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ ، ويأتي في تتمّة آية سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ ، ويرد في تتمّة آية المدثر قوله تعالى : ﴿ **كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود**

ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ . ويأتي بعد تلك الآية في سورة البقرة قوله تعالى في وصف الفاسقين : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ ويأتي في سورة المدثر : ﴿ **يتساءلون عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين** ﴾ والصلة بين هذه الآيات وبين ما ورد في سورة البقرة من حيث إنها تذكر مظاهر الخسران واضحة ، ولهذا وذاك قلنا : إنّ محور سورة المدثر هو محور سورة المائدة ، كما أن محور سورة المزمل هو محور سورة النساء .

....

ولا نعرف تعليلاً يعلّل لمثل ما ذكرناه هنا سوى هذا التعليل الذي اتجهنا إليه في هذا التفسير ، فهذا التشابه الحرفي بين ما ورد في محور هذه السورة من سورة البقرة ، وبين ما ورد في سورة المدثر ، ووجود مثل سورتي النساء والمائدة وراء بعضهما مبدوءتين بـ (يا أيها) وسورتين مثل سورتي الطلاق والتحريم وراء بعضهما مبدوءتين بـ (يا أيها) ، وسورتين مثل سورتي المزمل والمدثر وراء بعضهما مبدوءتين بـ (يا أيها) له سر ، وله تعليل ، وهذا التفسير هو الذي قدّم لمثل هذا تعليلاً يقوم عليه الدليل ولله الحمد والمنة .

....

لقد رأينا أن سورة التحريم تفصّل في محور سورة المائدة ، وسورة المدّثّر تفصّل في محور سورة المائدة ، وكلتاهما ذكرت (المثل) ومحور سورة المائدة من سورة البقرة مذكور فيه المثل ، أليس لهذا صلته ببعضه بعضاً ؟ .

لقد رأينا من قبل سورة الأحزاب يتعاقب فيها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ وأثبتنا هناك أن المقطع الذي بدايته (يا أيها النبي) يفصّل في محور سورة النساء من سورة البقرة ، وأن المقطع الذي بدايته (يا أيها الذين آمنوا) يفصّل في محور سورة المائدة ، أليس من العجيب أن محور سورة المائدة موجود فيه قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً** ﴾ وأنك تجد في سورة الأحزاب بعد مقطع مبدوء بـ (يا أيها الذين آمنوا) ﴿ **والله لا يستحيي من الحق** ﴾

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي ... إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق** ﴾ أو ليس من العجيب أن يتصور متصور أن مثل هذه المعاني لا تخضع لقاعدة عامة شاملة ، فإذا استطعنا أن نقيم الدليل على هذه القاعدة الشاملة فإن ذلك هو الذي يتفق مع التصور الصحيح عن أفعال الله عز وجل ، وعن كلماته ، أن يكون فيها من الانتظام ومن النظام ، ومن الضوابط ما لا يتناهى جماله ، ولا يحاط بكمالاته ، ولنعد إلى سورة المدثر .

....

في محور سورة المدّثّر من سورة البقرة كلام عن موقف الكافرين من الأمثال القرآنية ﴿ **فأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾ ، وفي سورة المدّثر أمر رسول الله ﷺ أن ينذر أمثال هؤلاء ، كما أن سورة المدّثر قدّمت لنا تفصيلاً عن نفسية هؤلاء وتفكيرهم ، وتبياناً للأسباب النفسية التي تجعلهم يقفون مثل هذه المواقف من القرآن ، وفيها تفصيل لما يستحقونه ، وفي السورة تربية للمؤمنين ، وتعريف لرسول الله ﷺ على أدب الإنذار والتبشير ، وفي السورة تعريف على القرآن وتعريف على الله عز وجل ، ولذلك كله صلة في المحور كما سنرى .

....

تتألف السورة من مقدمة وفقرتين :

المقدمة وتستمر حتى نهاية الآية (١٠) .

الفقرة الأولى وتستمر حتى نهاية الآية (٣١) .

الفقرة الثانية وتستمر حتى نهاية السورة أي : حتى نهاية الآية (٥٦) .

....

رأينا في مقدمة تفسير سورة المزمل أن سبب نزول سورتي المزمل والمدثر كان ما قابل به رسول الله ﷺ تآمر قريش ، واتهاماتها من التزمل والتدثر ، وأن هناك روايات أخرى ذكرت أن سبب النزول كان لفرق رسول الله ﷺ من رؤية جبريل مرة ثانية بعد المرة الأولى التي كان فيها بدء الوحي ، وللجمع بين الروايتين يمكن أن يقال : إن رسول الله ﷺ قابل ظهور جبريل في المرة الثانية بفرق تدثر وتزمل معه ، فنزلت

عليه السورتان ، وقابل تآمر قريش بنفس الوضع فذكّر بالسورتين .

....

والملاحظ أن سورة المزمل ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً** ﴾ وأن سورة المدثر ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً** ... ﴾ فكأن في سورة المدثر نموذجاً للمكذبين أولي النعمة ومواقفهم التي تقتضي أن يترك رسول الله ﷺ أمرهم لله عز وجل ، وفي بدء سورة المدثر يقول تعالى : ﴿ **يا أيها المدثر * قم فأنذر** ﴾ مع وجود قوله تعالى في السورة : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيداً** ... ﴾ ما يفيد أن الإنذار هو الأصل ، وأن من اتصف بخصائص معينة هذا الذي وحده لا ينفع معه الإنذار ، ويترك أمره لله يعذبه الله بيده أو بيد المؤمنين أثناء إقامتهم أمر الله بالجهاد والعدل .

....

نلاحظ أن سورة الحاقة تحدّثت عن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وتحدّثت عن المكذبين باليوم الآخر ، وأن سورة المعارج تحدّثت عن الكافرين وموقف من مواقفهم ، وأن سورة نوح حدثتنا عن أمة رفضت الإنذار ، وأن سورة الجن حدثتنا عن نفر قبلوا الإنذار ، وأن سورة المزمل حددت للنذير ما ينبغي فعله في علاقته مع الله ، وفي مواقفه من نوع من الكافرين ، وتأتي سورة المدثر لتحدد للنذير أخلاقه التي تقتضيها عملية الإنذار ، وموقفه من أنواع من المكذبين ، وعرض لحال أهل اليمين ولحال المجرمين في الآخرة ، ممّا يذكّرنا بسورة الحاقة ، فسورة المدثر تكمّل دور سورة المزمل ، وهي ترتبط بمجموعتها كلها برباط وثيق ، وهكذا نجد المجموعة تتكامل مع بعضها في معانيها ، وتتكامل مع بعضها في تفصيلها لمحاورها من سورة البقرة لتفصّل في الأساس والطريق .

....

مقدمة السورة

وتستمر من الآية (١١) إلى نهاية الآية (٣١) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)

التفسير :

﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ أي : المتدثر فأُدغمت التاء بالدال ، والمتدثر : هو المتلفف بثيابه من الدثار ، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار ، والشعار : هو الثوب الذي يلي الجسد ﴿ **قم فأنذر** ﴾ أي : قم من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم فأنذر ، أي : فحذّر قومك من عذاب الله ، إن لم يؤمنوا ، أو فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد . قال النسفي : قيل سمع من قريش ما كرهه فتغطّى بثوبه مفكراً كما يفعل المغموم ، فقيل له يا أيها الصارف أذى الكفار عن نفسك بالدثار قم فاشتغل بالإنذار وإن آذاك الفجار ، وقال ابن كثير في الآية : أي : شمّر عن ساعد العزم وأنذر الناس ، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول - أي : بقوله تعالى : اقرأ - النبوة .

أقول : وإذن فهذه أول آية أمرته ﷺ بالإنذار ، ومن ثَمّ بدأت بهذه الآية رسالته إلى الناس ، كما بدأت بالآية الأولى نبوّته ﴿ **وربك فكبّر** ﴾ قال ابن كثير : أي : عظّم ، وقال النسفي : أي : واختص ربك بالتكبير وهو التعظيم أي : لا يكبر في عينك غيره ، وقل عندما يوعدك غير الله : الله أكبر ... وقد يحمل على تكبير الصلاة ، ودخلت الفاء (أي : على قوله تعالى : فكبر) لمعنى الشرط كأنه قيل : ومهما كان فلا تدع تكبيره .

أقول : إن الأمر بالتعظيم في سياق الأمر بالإنذار إشعار بأنه بدون تعظيم كامل لله في

القلب لا تتأتى عملية الإنذار ﴿ **وثيابك فطهّر** ﴾ أي : فليكن ما يظهر منك للناس من فعل أو مظهر طاهراً حتى لا يؤثر ذلك على عملية الإنذار ، فإن الناس إذا رأوا أيّ شين في الداعية كرهوا لذلك دعوته ، وعابوه ، فرفضوا قبول دعوته ، وسنرى في الفوائد أن أقوال المفسرين كلها تدور حول أن المراد بذلك إما طهارة النفس ، أو طهارة اللباس ، أو كلاهما ، ومجيء هذا الأمر في سياق الإنذار يشير إلى هذا الذي ذكرناه ، حتى قال الحسن البصري في الآية : أي : وخلقك فحسّن ، فما لم يكن الداعية نقيّ الظاهر والباطن ، دقيق الأخذ والعطاء ، سلوكه فوق النقد في كل الأمور ، فإن إنذاره لا يكون مجدياً كلّ الجدوى ﴿ **والرجز فاهجر** ﴾ الرجز : هو العذاب الذي يأتي أثراً عن المعصية ، أي : فاهجر ما يؤدي إلى العذاب من شرك ومعصية ، قال ابن كثير : وعلى كل تقدير (أي : في تفسير كلمة الرجز سواء فسرت بالأوثان أو بالمعصية) فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك . أقول : ومجيء هذا الأمر في سياق الأمر بالإنذار يشعر أن الداعية المتلبس بالمعاصي لا تنجح دعوته ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ في هذه الآية أربعة أقوال ذكرها ابن كثير : الأول : لا تعط العطية تلتمس أكثر منها ، والثاني : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره ، والثالث : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، وهذا على القول بأن تمنن في لغة العرب تأتي بمعنى تضعف ، والرابع : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها فتأخذ عليها عوضاً من الدنيا . فهذه أقوال أربعة وقد رجح ابن كثير الأول ، واختار ابن جرير الثاني ، وعلى كل حال ففي قوله تعالى : ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ توجيه لرسول الله ﷺ في مقام الإنذار فكل ما يدخل تحت اللفظ - مما له علاقة بالإنذار - مراد به ، فالاستشراف للمكافأة والزيادة والاستشراف لما في أيدي الناس ، واستكثار العمل لله والمنة على الله به والمنة على الناس بسبب النبوة لمعنى دنيوي ، كل هذه المعاني مما ينبغي أن يلاحظها الداعية وهو يقوم بعملية الإنذار ، ثم قال تعالى : ﴿ **ولربك فاصبر** ﴾ قال ابن كثير : أي : اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل ، وقال النسفي : (أي : ولوجه الله فاستعمل الصبر على أوامره ونواهيه ، وكل مصبور عليه ومصبور عنه) ثم علّل تعالى لوجوب الأمر بالإنذار بقوله : ﴿ **فإذا نُقر في الناقور** ﴾ أي : فإذا نفخ في الصور ﴿ **فذلك** ﴾ أي : وقت النقر ﴿ **يومئذ يوم عسير** ﴾ قال النسفي : (فكأنه قيل : فيوم النقر يوم عسير) والعسير : الشديد ﴿ **على الكافرين غير يسير** ﴾ أي : غير سهل عليهم ، وقد آذن التعبير أن ذلك يوم يسير على المؤمنين ، كما آذن أن ذلك اليوم لا يرجى أن يرجع يسيراً مثلما يرجى تيسير العسير من أمور

الدنيا ، وقد ربط النسفي الفاء في الآية بالآية التي قبلها ، فصار المعنى عنده : كأنه قيل : اصبر على أذاهم ؛ فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى عاقبة صبرك عليه ، والذي أرجّحه أن ما بعد الفاء في الآية تعليل للأمر بالإنذار فإن شدة ذلك اليوم تقتضي الإنذار ، وما يقتضيه الإنذار من تعظيم لله ، وتطهير للنفس ، وهجر للمعاصي ، وترك للمنّة ، وعزوف عن الاستكثار ، وصبر على القيام بأوامر الله .

كلمة في السياق :

١ - بدأت السورة بالأمر بالإنذار وما يقتضيه الإنذار من أخلاق ، وعلّلت لذلك بمجيء يوم القيامة وشدته على الكافرين مما يقتضي أن ينذر الناس جميعاً ليعرفوا ما أمامهم .

٢ - بعد الآيتين اللتين جاءتا مباشرة بعد مقدمة سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ٭ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين ٭ وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ لو تأمّلنا هذه الآيات منطوقها ، ومفهومها ، ونصّها ، وإشارتها لوجدناها ترتبط برباط مع مقدّمة سورة المدّثر ، فسورة المدّثر تأمر من أُنزل عليه القرآن أن يقوم بواجب الإنذار ، والقيام بواجب الإنذار يقتضي القيام بالتبشير ، ولكن التبشير إنما يكون إذا وجد مؤمنون ، وسورة المدّثر نزلت ولمّا يوجد مؤمنون بعد .

٣ - بعد الآيات المذكورة من سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به من كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ٭ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ وتأتي فقرة في سورة المدثر تعطينا نموذجاً على هؤلاء الخاسرين الذين ضلوا ولا ينفع معهم إنذار ، وتعطينا نموذجاً على اعتراض المعترضين على أمثال القرآن ، ونموذجاً لأمثال القرآن التي

يضل بسببها من ضل ، ويهتدي بها من يهتدي ، وكما تفصّل الفقرة في هذه المعاني التي لها صلة بمحور السورة فإنّها تنذر أشدّ الإنذار ولذلك صلته بسياق السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتستمر من الآية (١) إلى نهاية الآية (١٠) وهذه هي

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ

إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

التفسير :

﴿ **ذرني** ﴾ أي : دعني ﴿ **ومن خلقتُ** ﴾ أي : كِلْه إليّ ﴿ **وحيداً** ﴾ أي : ذرني وحدي معه فإني أكفيك أمره ، أو ذرني ومن خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد ، أو ذرني ومن خلقته منفرداً بلا أهل ولا مال ثم أنعمت عليه ، وكل من الأقوال الثلاثة ذكره النسفي ﴿ **وجعلت له مالاً ممدوداً** ﴾ أي : واسعاً كثيراً ، أي : مبسوطاً كثيراً ، أو ممدوداً بالنّماء ﴿ **وبنين شهوداً** ﴾ أي : حضوراً لا يغيبون عنه . قال ابن كثير : أي : حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات بل مواليهم وأُجَراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملّى بهم ﴿ **ومهّدت له تمهيداً** ﴾ أي : مكّنته من صنوف المال ، وأسباب الجاه ، قال النسفي : (أي : وبسطت له الجاه والرياسة فأتممت عليه نعمتي الجاه والمال ، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا) ﴿ **ثم يطمع أن أزيد** ﴾ مع أنه لم يشكر ولم يقابل تلك النعم بالشكر الذي هو الدخول في الإسلام والقيام بتكاليفه ، قال النسفي : (هذا استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه ، فيرجو أن أزيد في ماله وولده من غير شكر) ﴿ **كلا** ﴾ قال النسفي : (هذا ردع له وقطع لرجائه) ثمّ علّل تعالى لقطع رجائه وإبعاد طمعه من المزيد بقوله ﴿ **إنه كان لآياتنا** ﴾ أي : للقرآن ﴿ **عنيداً** ﴾ أي : معانداً جاحداً ، قال النسفي : وهو تعليل للردع على وجه الاستئناف كأن قائلاً قال : لم لا يزاد ؟ فقيل : إنه جحد آيات المنعم ، وكفر بذلك نعمته ، والكافر لا يستحق المزيد ﴿ **سأرهقه صَعُوداً** ﴾ قال مجاهد : أي : مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذاباً لا راحة فيه واختاره ابن جرير ، وقال النسفي : أي : سأغشّيه عقبة شاقّة المصعد ، ثم بيّن ماهيّة عناده فقال : ﴿ **إنه فكّر وقدّر** ﴾ أي : فكّر ماذا يقول في القرآن ، وقدّر في نفسه ما يقوله وهيّأه ، قال النسفي : (هذا تعليل للوعيد) كأن الله تعالى عاجله بالفقر والذل بعد الغنى والعز لفساده ، ويعاقبه في الآخرة بأشد العذاب لبلوغه بالعناد غايته ، وتسميته القرآن سحراً ، وقال ابن كثير : أي : إنما أرهقناه صعوداً أي : قرّبناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكّر وقدّر ، أي : تروّى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ، ففكّر ماذا يختلق من المقال ، وقدّر ، أي : تروّى ﴿ **فقتل كيف قدّر * ثم قتل كيف**

قدّر ﴾ قال ابن كثير : دعاء عليه ، وفسّر النسفي : (قتل) بمعنى لعن ، وعلّل لمجيء ثمّ بين الدعاءين بأن ذلك يشعر أن الدعاء الثاني أبلغ من الأول ﴿ **ثم نظر** ﴾ قال ابن كثير : أي : أعاد النظرة والتروّي ﴿ **ثم عبس** ﴾ أي : قبض بين عينيه وقطب ﴿ **وبسر** ﴾ أي : كلح وكره ، قال النسفي : أي : زاد في التقبض والكلوح ﴿ **ثم أدبر** ﴾ أي : عن الحق ﴿ **واستكبر** ﴾ عن مقامه وفي مقاله ، قال ابن كثير : أي : صرف عن الحق ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن ﴿ **فقال إنْ** ﴾ أي : ما ﴿ **هذا إلا سحر يؤثر** ﴾ أي : هذا سحر ينقله محمد ﷺ عن غيره ممّن قبله ويحكيه عنهم ولهذا قال : ﴿ **إن هذا إلا قول البشر** ﴾ أي : ليس بكلام الله ﴿ **سأصليه سقر وما أدراك ما سقر** ﴾ قال ابن كثير : أي سأغمره فيها من جميع جهاته ، وسقر اسم علم لجهنّم ﴿ **لا تبقي ولا تذر** ﴾ قال ابن كثير : أي تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ، ثم تُبدّل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون ، وقال النسفي : (أي : هي لا تبقي لحماً ولا تذر عظماً) ﴿ **لوّاحة للبشر** ﴾ قال النسفي : (أي : هي لواحة للبشر ، جمع بشرة وهي ظاهر الجلد ، أي : مسوّدة للجلود ومحرقة لها) ، قال ابن كثير : (قال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل) ﴿ **عليها** ﴾ أي : على سقر ، أي : يلي أمرها ﴿ **تسعة عشر** ﴾ ملكاً عند الجمهور ، قال النسفي : وقيل : صنفاً من الملائكة ، وقيل صفاً وقيل نقيباً ﴿ **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** ﴾ أي : وما جعلنا خزّان النار إلا ملائكة ، أي : زبانية غلاظاً شداداً ، أي : شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون . قال النسفي : لأنهم خلاف جنس المعذّبين فلا تأخذهم الرأفة والرقة لأنهم أشد الخلق بأساً ، فللواحد منهم قوة الثقلين ﴿ **وما جعلنا عدّتهم** ﴾ تسعة عشر ﴿ **إلا فتنة** ﴾ أي : ابتلاءً واختباراً ﴿ **للذين كفروا** ﴾ وكما أن في ذكر عددهم فتنة للكافرين فإن في هذا الذكر زيادة يقين للمؤمنين ، قال ابن كثير : أي : إنما ذكرنا عدّتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس ﴿ **ليستيقن الذين أوتوا الكتاب** ﴾ قال ابن كثير : أي : يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله ﴿ **ويزداد الذين آمنوا إيماناً** ﴾ قال ابن كثير : أي : إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم محمد ﷺ ﴿ **ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون** ﴾ في شأن هذا القرآن ؛ لأنهم يرون أن كلّ ما فيه حق ﴿ **وليقول الذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي : نفاق ﴿ **والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ قال النسفي : (والمعنى : أيّ شيء أراد

الله بهذا العدد العجيب ؟ وأيّ معنى أراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين ؟ وغرضهم إنكاره أصلاً ، وأنه ليس من عند الله ، وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص) وقال : (فإن قلت : النفاق ظهر في المدينة والسورة مكية ، قلت : معناه : وليقول المنافقون الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة والكافرون بمكة ﴿ **ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ وهذا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب وذا لا يخالف كون السورة مكية ، وقيل : المراد بالمرض : الشك والارتياب ؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين ، و(مثلاً) تمييز لهذا أو حال منه كقوله : ﴿ **هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ ولما كان ذكر العدد في غاية الغرابة ، وأن مثله حقيق بأن تسير به الركبان سيرها بالأمثال سمي مثلاً) ﴿ **كذلك** ﴾ قال النسفي : أي : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يعني إضلال المنافقين والمشركين حتى قالوا ما قالوا ، وهدى المؤمنين لتصديقه ، ورؤية الحكمة في ذلك ﴿ **يضل الله من يشاء** ﴾ من عباده وهو الذي علم منه اختيار الضلال وسار في طرائقه ﴿ **ويهدي من يشاء** ﴾ وهو الذي علم منه اختيار الاهتداء ، وسار في طرائقه ، وقال النسفي : وفيه دليل خلق الأفعال ، ووصف الله بالهداية والإضلال ، وقال ابن كثير في النص : أي : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿ **وما يعلم جنود ربك** ﴾ لفرط كثرتها ﴿ **إلا هو** ﴾ قال النسفي : فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها ، وقال ابن كثير : أي : ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ؛ لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ﴿ **وما هي** ﴾ قال ابن كثير : أي : النار التي وصفت ، وقال النسفي : أي : ما سقر وصفتها ﴿ **إلا ذكرى للبشر** ﴾ أي : تذكرة للبشر ، وذكر النسفي وجهاً آخر للآية معناه : أي : وما هذه الآيات إلا ذكرى للبشر ، وبهذا انتهت الفقرة الأولى .

كلمة في السياق :

١ - رأينا في هذه الفقرة نموذجاً من الكافرين ذا صفات محددة :

أ - أنه لا يقابل العطاء المتزايد من الله عز وجل بالشكر . ب - أنه يعاند القرآن الكريم ويحاربه ويخطط لإبطال أمره فيفكر ويقدر لذلك . جـ - أنه مدبر عن الحق مستكبر عن قبوله . د - أنه يشكك بأمثال القرآن ومعاني القرآن .

هذا النوع من الناس لا ينفع معه إنذار ، ويستحق الإضلال ، ومن ثَمَّ أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يكل أمر هذا النوع من الناس إليه ، ولو تأمّلنا الصّفات التي ذكرناها فإننا نجد فيها نقض ميثاق ، وقطعاً لما أمر الله به أن يوصل ، وإفساداً في الأرض ، ومن ثَمَّ استحق صاحبه الخسارة في الدنيا والآخرة ، ولذلك صلته بمحور السورة : ﴿ **وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

٢ - رأينا في الفقرة ماذا يستحق هذا النوع من الناس من قطع ورود النعمة عنه ، ومن استحقاقه العذاب الشاق يوم القيامة ، ومن إدخاله النار ، وفي ذلك إنذار للخلق من أن يسيروا على طريق مثل هذا ، وصلة ذلك بسياق السورة الخاص وهو الإنذار وما يتعلق به واضحة ، ومن ثَمَّ ختمت الفقرة بقوله تعالى : ﴿ **وما هي إلا ذكرى للبشر** ﴾ .

٣ - النموذج الذي توافرت فيه هذه الصفات كلها في زمن النبوة هو الوليد ابن المغيرة ، كما سنرى في أسباب النزول ، ولكنه نموذج يتكرر في الحياة البشرية دائماً ، وإذ يذكر الله عز وجل هذا النموذج إبان نزول القرآن ، فذلك معجزة قرآنية إذ تذكر هذه الآيات عن هذا الإنسان أنّه سيموت على الكفر ، وقد كان ذلك ، وكَم من إنسان كان في الظاهر مثله في الكفر ثم آمن .

٤ - في محور السورة من سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها** ﴾ وفي سورة الحج المبدوءة بـ (يا أيها) ضرب الله مثلاً بالذباب في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له** ﴾ وفي سورة المدثر ضرب الله مثلاً بزبانية جهنم وعددهم ، فمثال سورة الحج صاحبه غاية في الحقارة ، ومثال سورة المدّثر أصحابه غاية في العظمة والشدة ، وشأن الله أن يضرب في كتابه المثل بهذا وهذا وغيرهما مما شاء ، وفي كل مرة يضرب الله مثلاً بشيء تكون المسألة على الشكل التالي : ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ وكما قال تعالى في سورة المدثر : ﴿ **ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً * ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين**

في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ فمن الموقف من المثل يعرف المستحقون للإضلال من المستحقين للهداية ، ومن ثَمَّ قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ وقال تعالى هنا في سورة المدثر : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ وفي سورة البقرة فصّل الله عز وجل في صفات من يستحقون الإضلال ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ۞ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ وفي سورة المدثر ذكر الله عز وجل نموذجاً لإنسان متّصف بهذه الصفات .

٥ - مما مَرَّ ندرك صلة الفقرة بمحور السورة وقد آن لنا أن نذكر شيئاً عن سياق السورة الخاصّ ، بدأت السورة بالأمر بالإنذار وما يقتضيه ذلك من خصائص ينبغي أن يلتزم بها النذير ، ثم ذكرت السورة نموذجاً من الناس لا ينتفع بالإنذار ، وقد بيّن الله عز وجل لرسوله ﷺ أن يترك هذا النوع من الناس لله ، فإنه سيعاقبه بأنواع العذاب الدنيوي والأخروي ، ولننتقل إلى الفقرة الثانية في السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (٣٢) إلى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية (٥٦) وهذه هي :

كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

ملاحظة على السياق :

بدأت السورة بأمر رسول الله ﷺ بالإنذار ، وجاءت الفقرة الأولى لتنذر من خلال العرض لمآل نموذج يرفض الإنذار ، ثم تأتي الفقرة الأخيرة في السورة ، فتبدأ بذكر معان تمهد لقبول إنذار النذير ، وتبين قيمة بعثة النذير في تاريخ البشرية وأهميتها بالنسبة للإنسان ، ثم تحض على قبول الإنذار ، والفقرة مع أدائها لهذا المعنى وغيره هي في نفسها إنذار .

التفسير :

﴿ **كلا** ﴾ قال النسفي في صلة هذا الحرف بما قبله مباشرة أي : بقوله تعالى : ﴿ **وما هي إلا ذكرى للبشر** ﴾ قال : هي إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى ؛ لأنهم لا يتذكرون . أقول : (كلّا) حرف ردع وزجر ، وهي هنا في هذا السياق ردع وزجر للكافرين والمنافقين في شكهم وارتيابهم ، وتشكيكهم بمضمون هذه الرسالة ، ورد عليهم ، ومن ثَمّ جاءت بعد ذلك هذه الأقسام وجوابها ﴿ **والقمر** ﴾ قال النسفي : أقسم به لعظم منافعه ﴿ **والليل إذ أدبر** ﴾ أي : ولّى وذهب ﴿ **والصبح إذا أسفر** ﴾ أي : أضاء وأشرق ﴿ **إنها لإحدى الكُبَر** ﴾ أي : إن سقر لمن إحدى العظائم ، قال النسفي : ومعنى : إنها إحداهن : أنها من بينهن واحدة في العظم لا نظير لها ، كما تقول : هو أحد الرجال ، وهي إحدى النساء . أقول : أرجع الضمير إلى سقر في هذه الآية على القول بأن آخر المجموعة السابقة ﴿ **وما هي إلا ذكرى للبشر** ﴾ يراد به سقر ، إلا أننا رأينا أن هناك اتجاهاً آخر في الضمير ذكره النسفي أرجع فيه الضمير على الآيات ، فليس شرطاً أن نُرجع الضمير إلى النار بل يمكن أن يكون التقدير : إن أعظم حادثة في الوجود هي أن يرسل الله تعالى نذيراً للبشر ، ومن ثَمّ فسّرت الآية اللاحقة هذه الواحدة التي لا أعظم منها ، فقالت ﴿ **نذيراً للبشر** ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر** ﴾ قال ابن كثير : (أي : لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق ، أو يتأخر عنها ويتولى ويردها) ، وقال النسفي : (أي : لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الخير أو يتأخر عنه) ، وعن الزجاج : ﴿ **لمن شاء منكم أن يتقدّم** ﴾ إلى ما أمر ﴿ **أو يتأخّر** ﴾ عمّا نهي . أقول : أقسم الله عز وجل بما أقسم به أن النار من أعظم ما ينذر به الكافر والمؤمن على السواء ، أو أقسم الله عز وجل بما أقسم به أن من أعظم الأشياء الكبيرة أن يرسل الله نذيراً للبشر لمن يختار الهداية ، أو يختار الضلال على السواء ، ثم بيّن الله عز وجل ، لِمَ كانت هذه القضية أعظم الأشياء ، بأن ذكر حال الناس يوم القيامة حيث لا ينجو إلا من قبل دعوة النذير فصلّى وأنفق وآمن فقال : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ أي : رهن ، قال النسفي : والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ، وقال ابن كثير في تفسير (رهينة) : أي : معتقلة بعملها يوم القيامة ﴿ **إلا أصحاب اليمين** ﴾ أي : إلا المسلمين الذين قبلوا الإنذار وعملوا بمقتضاه ، فإنهم فكّوا رقابهم بالطاعة كما يخلص

الراهن رهنه بأداء الحق فهؤلاء ﴿ **في جنات يتساءلون ۝ عن المجرمين** ﴾ أي : يسأل بعضهم بعضاً ، أو يتساءلون فيسألون المجرمين ﴿ **ما سلككم في سقر** ﴾ أي : ما أدخلكم فيها ، والصيغة تفيد أنه بعد التساؤل عنهم صار سؤال لهم ﴿ **قالوا لم نك من المصلين ۝ ولم نك نطعم المسكين** ﴾ أي : لم نكن مسلمين نصلي كما يصلون ، ونطعم كما يطعمون . قال ابن كثير : أي : ما عبدنا ربنا ولا أحسنّا إلى خلقه من جنسنا ﴿ **وكنا نخوض مع الخائضين** ﴾ قال النسفي : (الخوض : الشروع في الباطل ، أي : نقول الباطل والزور في آيات الله) وقال ابن كثير : أي : نتكلم فيما لا نعلم ، وقال قتادة : كلما غوى غاوٍ غوينا معه ﴿ **وكُنّا نكذِّب بيوم الدين** ﴾ أي : بالحساب والجزاء أي : باليوم الآخر ﴿ **حتى أتانا اليقين** ﴾ أي : الموت ﴿ **فما تنفعهم شفاعة الشافعين** ﴾ أي : من الملائكة والنبيين والصالحين ؛ لأنها للمؤمنين دون الكافرين ، وفي الآية دليل لثبوت الشفاعة للمؤمنين . قال ابن كثير : أي : من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ؛ لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحلّ قابلاً ، فأمّا من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنّ له النار لا محالة خالداً فيها ﴿ **فما لهم** ﴾ أي : فما لهؤلاء الكفرة والأمر كذلك ﴿ **عن التذكرة** ﴾ قال النسفي : أي : عن التذكير وهو العظة أي : القرآن ﴿ **معرضين** ﴾ أي : مولّين ، وقال ابن كثير : أي : فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكّرهم به معرضين . أقول : وهذا دليل على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ **وما هي إلا ذكرى للبشر** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **كلا إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر** ﴾ المراد به ما رجّحناه وهو القرآن ، ثم بيّن الله عز وجل شدة نفورهم من التذكرة ﴿ **كأنهم حُمُر مستنفرة** ﴾ الحمر : جمع حمار ، ومستنفرة أي : شديدة النفار ، كأنها تطلب النفار من نفوسها ﴿ **فرّت من قَسْورة** ﴾ أي : من رماة أو أسد ، قال النسفي : شبهوا في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر بحمر جرت في نفارها ، وقال ابن كثير : أي : كأنهم في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه ، حمر من حمر الوحش ، إذا فرّت ممن يريد صيدها من أسد .

أقول : فأصبح المعنى : ما لهم والعذاب أمامهم يفرون من النذير هذا الفرار الشديد ؟! ، وبعد أن بيّنت الفقرة خطورة أن يبعث الله نذيراً للبشر وعجّبت من حال المعرضين عن النذير ووصفت شدة نفارهم ، فإنّها تتجه لتبيان ماهية المعاني المستقرة في أنفسهم ، والتي تحول بينهم وبين قبول الإنذار والاستجابة للنذير .

﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يُؤتىٰ صحفاً مُنشَّرة ﴾ أي : تنشر وتقرأ . قال ابن كثير : أي : بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل الله على النبي ﷺ ﴿ كلَّا ﴾ ردع لهم عن تلك الإرادة وزجر لهم ، وبيان أن سنة الله ليست كذلك ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ قال ابن كثير : (أي : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها) ، أقول : هاتان هما علتا الإعراض عن قبول الإنذار : حسد للنذير وكفر بالآخرة .

كلمة في السياق :

رأينا أنّ الفقرة الأولى ختمت بقوله تعالى : ﴿ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ ورجحنا أن المعنى : وما آيات القرآن إلا ذكرى للبشر ، ثم رأينا في بداية الفقرة الثانية قوله تعالى : ﴿ إنها لإحدى الكُبَر ۞ نذيراً للبشر ﴾ ثم رأينا قوله تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ ثمّ تأتي ثلاث آيات تقرر أن هذا القرآن موعظة كافية ، وتبيّن أن الله عز وجل أهل لأن يُتقى ، وأهل لأن يغفر ، فهي تعرِّف على الله عز وجل والقرآن لتأخذ بيد الإنسان ليقبل الإنذار ، قال تعالى : .

....

﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ قال ابن كثير : أي : حقاً إن القرآن تذكرة ، وقال النسفي : ردعهم عن إعراضهم عن التذكرة ، وقال : إن القرآن تذكرة مبيّنة كافية ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ قال الفخر الرازي : (أي : جعله نصب عينه ، فإنّ نفع ذلك عائد عليه) وقال النسفي : (أي : فمن شاء أن يذكره ولا ينساه فعل فإن نفع ذلك عائد إليه) .

أقول : فعلى المسلم ألا يغفل عن القرآن ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ قال النسفي : أي : إلا وقت مشيئة الله ، أو إلا بمشيئة الله ﴿ هو أهل التقوى ﴾ أي : أهل لأن يتقى ﴿ وأهل المغفرة ﴾ أي : أهل لأن يغفر لمن اتقاه .

كلمة في السياق :

١ - بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ۞ قم فأنذر ﴾ وختمت الفقرة الأولى بقوله تعالى : ﴿ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ والذي نراه أن الضمير يعود على الآيات المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ ثم جاءت الفقرة الثانية ،

وختمت بقوله تعالى عن القرآن : ﴿ **كلا إنه تذكرة** ﴾ وهذا يفيد أن الإنذار الذي أُمر به رسول الله ﷺ هو تبليغ هذا القرآن ، وتبيان مضامينه ، وهكذا نجد أن السورة في سياقها الرئيسي انصبت على الإنذار وأداته التي هي القرآن .

٢ - في مقدمة السورة رأينا قوله تعالى : ﴿ **فإذا نقر في الناقور * فذلك يومئذ يوم عسير ...** ﴾ وفي الفقرة الأولى رأينا قوله تعالى : ﴿ **سأصليه سقر ...** ﴾ وفي الفقرة الثانية رأينا قوله تعالى : ﴿ **ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين ...** ﴾ وهكذا نجد أن السورة في سياقها الرئيسي صبّت على التذكير باليوم الآخر في البداية والوسط والنهاية ، مما يشير إلى أن الإنذار مرتبط ارتباطاً كاملاً بموضوع اليوم الآخر ، ومن غفل عن هذا فاته الإنذار والتذكير ، وليس كالقرآن مذكراً باليوم الآخر ، ومن ثَمّ فعلى الدعاة أن يكثروا من التفسير ، وأن يربطوا الناس بهذا القرآن .

٣ - عرضت لنا الفقرة الأولى صفات من يستحقون الإضلال ومن لا ينفعهم التذكير ، وعرضت لنا الفقرة الثانية صفات من دخلوا النار : ١ - ترك الصلاة . ٢ - ترك إطعام المساكين . ٣ - الخوض مع الخائضين . ٤ - التكذيب بيوم الدين . ٥ - الإعراض عن التذكرة . وهذه كلها مظاهر لنقض الميثاق ولقطع ما أمر الله به أن يوصل ، وللإفساد في الأرض ، وصلة ذلك بمحور السورة واضحة ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

٤ - في آخر السورة ورد قوله تعالى : ﴿ **كلّا إنه تذكرة * فمن شاء ذكره * وما يذكرون إلا أن يشاء الله** ﴾ ولذلك صلته بقوله تعالى : ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾ وعلينا أن نتنبه إلى تتمة الآية من سورة البقرة ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين ...** ﴾ مما يشير إلى أن الله عز وجل إذا شاء إضلال إنسان فلأن هذا الإنسان يستحق ذلك بسبب من أعماله ، ومن ثَمّ ختمت سورة المدثر بقوله تعالى : ﴿ **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾ فكما أنه أهل لأن يُتقى فإنه أهل لأن يغفر ، ولا يهلك على الله إلا هالك ، فمن تنكّب التقوى ، وتنكّب طريق المغفرة ، فإنه هو الذي يهلك نفسه .

٥ - وقد سارت السورة في سياقها الخاص على المسار التالي : بدأت السورة بأمر رسول الله ﷺ بالإنذار ، وبيّنت له أدب النذير ، وسبب الإنذار ، وهو مجيء يوم

القيامة ، ثم بيّنت له أن نوعاً من الناس لا يقبل الإنذار فليدعه لله ، وبيّنت له ما أعدّه الله لهذا من عذاب ، ثم استأنفت لتحدّثنا عن موقف الكافرين والمؤمنين من المثل القرآني ، ثم سارت السورة لتبيّن أهمية أن يبعث الله نذيراً للبشر ، ثم عجّبت من موقف الكافرين من الإنذار ، ثم بيّنت العلة الرئيسية لهذا الموقف ، ثم ختمت بالتذكير بهذا القرآن المنزل على النذير ، وحضّت على التذكر ، وعلّقت التذكر على مشيئة الله ؛ ليقبل العبد بقلبه على الله تائباً طالباً .

٦ - يلاحظ أن السورة ختمت بقوله تعالى : ﴿ **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾ وفي هذا المقام سِرٌّ لطيف ، فالسورة أنذرت من خلال التذكير باليوم الآخر حتى استغرق ذلك كثيراً من السورة ، ثمّ ختمت بالتذكير بأن الله عز وجل حري أن يتقيه المتقون ، لأنه أهل التقوى ، حري أن يستغفره المستغفرون ؛ لأنه أهل المغفرة ، فأصل أصيل في التذكير أن يذكّر بجلال الله وجماله وكماله في إنهاض الهمم إليه ، والتذكير باليوم الآخر طريق لذلك .

الفوائد :

١ - هناك أقوال كثيرة في قوله تعالى : ﴿ **وثيابك فطهّر** ﴾ ذكرنا مآلها في صلب التفسير وههنا ننقل بعض عبارات المفسرين في ذلك : قال الأجلح الكندي عن عكرمة عن ابن عباس أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية ﴿ **وثيابك فطهّر** ﴾ قال : لا تلبسها على معصية ولا على غدرة ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن مسلمة الثقفي :

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ قال : في كلام العرب نقي الثياب ، وفي رواية بهذا الإسناد : فطهر من الذنوب ، وكذا قال إبراهيم والشعبي وعطاء ، وقال الثوري عن رجل عن عطاء عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ قال : من الإثم ، وكذا قال إبراهيم النخعي ، وقال مجاهد ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ قال : نفسك ، ليس ثيابه ، وفي رواية عنه : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ : أي : عملك فأصلح ، وكذا قال أبو رزين وفي رواية أخرى : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ : أي : لست بكاهن ولا ساحر فأعرض عما قالوا ، وقال قتادة : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ : أي : طهرها من المعاصي ، وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف

بعهد الله : إنه لدنس الثياب ، وإذا وفى وأصلح : إنه لمطهر الثياب ، وقال عكرمة والضحاك : لا تلبسها على معصية . وقال الشاعر :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكـل رداء يرتـديـه جميـل

(وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ يعني : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائل ، ويقال : لا تلبس ثيابك على معصية ، وقال محمد ابن سيرين : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ أي : اغسلها بالماء ، وقال ابن زيد : كان المشركون لا يتطهرون فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه . وهذا القول اختاره ابن جرير ، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب ، فإن العرب تطلق الثياب عليه كما قال امرؤ القيس :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت هجري فأجملي
وإن تك قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقال سعيد بن جبير ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ : وقلبك ونيتك فطهر ، وقال محمد ابن كعب القرظي والحسن البصري : وخلقك حسّن) .

أقول : وبعضهم فسّر تطهير الثياب بتقصيرها ؛ لأن من أطالها فقد عرّضها للإصابة ، وبعد كلام طويل عن هذه الآية قال الألوسي : (وجوز أن يراد بالتطهير إزالة ما يستقذر مطلقاً ، سواء النجس أو غيره من المستقذر الطاهر ، ومنه الأوساخ ، فيكون ذلك أمراً له صلى الله تعالى عليه وسلم بتنظيف ثيابه ، وإزالة ما يكون فيها من وسخ وغيره من كل ما يستقذر ، فإنه منفّر لا يليق بمقام البعثة ، ويستلزم هذا بالأولى تنظيف البدن من ذلك ، ولذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم أنظف الناس ثوباً وبدناً ، وربما يقال باستلزام ذلك بالأولى - أيضاً - الأمر بالتنزه عن المنفّر القولي والفعلي ، كالفحش والفظاظة والغلظة إلى غير ذلك فلا تغفل) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ قال صاحب الظلال : (وهو سيقدم الكثير ، وسيبذل الكثير ، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء . ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به ... وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها . فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه . بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالله ؛ شاعرة بأن

كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه . فهو فضل يمنحها إياه ، وعطاء يختارها له ، ويوفقها لنيله . وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله . لا المن والاستكثار) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإذا نقر في الناقور** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ **فإذا نقر في الناقور** ﴾ فقال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ، قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط به .

٤ - بمناسبة قوله تعالى حكاية عن قول الوليد بن المغيرة عن القرآن : ﴿ **إنْ هذا إلا سحر يؤثر** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة ، فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا : والله لئن صبأ الوليد لتصبأ قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل ابن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد : ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألست أكثرهم مالاً وولداً ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر ، فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيداً** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لا تبقي ولا تذر** ﴾ وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه ، وما أشك أنه سحر ، فأنزل الله : ﴿ **فقُتِل كيف قدر** ﴾ الآية ، ﴿ **ثم عبس وبسر** ﴾ قبض ما بين عينيه وكلح ، وروى ابن جرير عن عكرمة أن الوليد ابن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ابن هشام ، فأتاه فقال : أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً . قال : لم ؟ ، قال : يعطونكه ؛ فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له ، قال : فماذا

أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يُعلى ، وقال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أتفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر عن غيره فنزلت : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيداً** ﴾ حتى بلغ ﴿ **تسعة عشر** ﴾ وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد نحواً من هذا) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **عليها تسعة عشر** ﴾ قال ابن كثير : (أي : من مقدمي الزبانية عظيم خَلْقهم غليظ خُلُقهم ، وقد روى ابن أبي حاتم عن البراء في قوله تعالى : ﴿ **عليها تسعة عشر** ﴾ قال : إن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن خزنة جهنم فقال : الله ورسوله أعلم ، فجاء رجل فأخبر النبي ﷺ فأنزل الله تعالى عليه ساعتئذ ﴿ **عليها تسعة عشر** ﴾ فأخبر أصحابه وقال : « ادعهم أما إني سائلهم عن تربة الجنة إن أتوني ، أما إنها درمكة بيضاء » فجاءوه فسألوه عن خزنة جهنم فأهوى بأصابع كفيه مرتين ، وأمسك الإبهام في الثانية ثم قال : « أخبروني عن تربة الجنة » فقالوا : أخبرهم يا ابن سلام ، فقال : كأنها خبزة بيضاء ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إن الخبز إنما يكون من الدرمك » هكذا وقع عند ابن أبي حاتم عن البراء ، والمشهور عن جابر بن عبد الله كما روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن الشعبي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد غُلِبَ أصحابُك اليوم ، فقال : « بأي شيء ؟ » قال : سألتهم يهود : هل أعلمكم نبيكم عدّة خزنة أهل النار ؟ قالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، قال رسول الله ﷺ : « أفغُلِبَ قوم يُسألون عما لا يعلمون فقالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ ؟ عليّ بأعداء الله ، لكنهم قد سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة » فأرسل إليهم فدعاهم ، قالوا : يا أبا القاسم كم عدّة خزنة أهل النار ؟ قال : « هكذا » وطبق كفيه ، ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة وقال لأصحابه : « إن سُئلتم عن تربة الجنة فهي الدرمك » فلما سألوه ، فأخبرهم بعدّة خزنة أهل النار ، قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما تربة الجنة ؟ » فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا : خبزة يا أبا القاسم ، فقال : « الخبزة من الدرمك » وهكذا رواه الترمذي عند هذه الآية عن ابن أبي عمر عن سفيان به ، وقال هو والبزار : لا يعرف إلا من حديث مجالد) .

قال صاحب الظلال : (وهذا العدد كغيره من الأعداد . والذي يبغي الجدل يمكنه أن يجادل ، وأن يعترض على أي عدد آخر وعلى أي أمر آخر بنفس الاعتراض ... لماذا كانت السماوات سبعاً ؟ لماذا كان خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر ؟ لماذ تعيش السلاحف آلاف السنين ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ والجواب : لأن صاحب الخلق والأمر يريد ويفعل ما يريد ! هذا هو فصل الخطاب في مثل هذه الأمور) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** ﴾ قال ابن كثير : (وذلك ردّ على مشركي قريش حين ذكروا عدد الخزنة فقال أبو جهل : يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبوتهم ؟ فقال الله تعالى : ﴿ **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** ﴾ أي شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون ، وقد قيل إن أبا الأسدين - واسمه كلدة بن أسيد بن خلف - قال : يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين ، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجاباً منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة - فيما يزعمون - أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه ، قال السهيلي : وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته ، وقال : إذا صرعتني آمنت بك ، فصرعه النبي ﷺ مراراً فلم يؤمن ، قال وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب (قلت) ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة : « فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم » .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحُقّ لها أن تئط ، ما فيها موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » فقال أبو ذر : والله لوددت أني شجرة تعضد ، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث إسرائيل ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب ويروى عن أبي ذر موقوفاً . وروى

الحافظ أبو القاسم الطبراني عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد ، أو ملك راكع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً » . وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن حكيم ابن حزام قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه إذ قال لهم : « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا : ما نسمع من شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « أسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط ، ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكع أو ساجد » .

وروى أيضاً ... عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما في السماء الدنيا موضع قدم إلا وعليه ملك ساجد ، أو قائم » وذلك قول الملائكة ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون** ﴾ وهذا مرفوع غريب جداً ثم رواه عن ابن مسعود أنه قال : إن من السماوات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائم ثم قرأ ﴿ **وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون** ﴾) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **حتى أتانا اليقين** ﴾ قال ابن كثير : (يعني الموت كقوله تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « أما هو - يعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه ») .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما يذكرون إلا أن يشاء الله** ﴾ قال صاحب الظلال : (والذي يريد القرآن أن يطبعه في حسّ المسلم هو طلاقة هذه المشيئة ، وإحاطتها بكل مشيئة ، حتى يكون التوجه إليها من العبد خالصاً ، والاستسلام لها ممحضاً ... فهذه هي حقيقة الإسلام القلبية التي لا يستقر في قلب بدونها . وإذا استقرت فيه كيفته تكييفاً خاصاً من داخله ، وأنشأت فيه تصوراً خاصاً يحتكم إليه في كل أحداث الحياة ... وهذا هو المقصود ابتداء من تقرير طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها عقب الحديث عن كل وعد بجنة أو نار ، وبهدى أو ضلال) .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾ قال ابن كثير : (أي : هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب ، قاله قتادة . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية ﴿ **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾ وقال : « قال ربكم :

أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله ، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أغفر له » ورواه الترمذي وابن ماجه والنسائي ، وقال الترمذي : حسن غريب ، وسهيل - أحد رواته - ليس بالقوي ، ورواه ابن أبي حاتم وأبو يعلى ، والبزار ، والبغوي ، وغيرهم) .

تعليقات بمناسبة انتهاء عرض المجموعة السادسة

١ - نحب أن نبدأ بتسجيل مجموعة قضايا عملية أخذناها من هذه المجموعة :

أ - إن التربية العليا التي ربّى الله عز وجل عليها رسوله ﷺ هي التربية التي بها يتحقق وجود الإنسان الكامل ، فرسول الله ﷺ جعله الله عز وجل أعظم الخلق استعداداً ، وجعله أكمل الخلق تحققاً وتخلقاً ؛ ليكون قدوة الخلق أجمعين ، وقد ختم الله عز وجل به النبوة والرسالة ، وإنما ربّاه الله عز وجل بهذا القرآن ، وفرض التأسي به ، فمن أراد أن يأخذ حظّه الكامل من وراثة النبوة فعليه أن يأخذ حظه من هذا القرآن ، وعليه أن يلاحظ الخطابات التي خوطب بها رسول الله ﷺ ليأخذ حظه منها ، ما لم تكن خاصة به ﷺ خصوصية تشريعية لا تحل لغيره ، ومن ثم فعلينا أن نأخذ حظّنا مما ورد في سورة المعارج من خصائص ، ومما ورد في سورة الجن ، ومما ورد في سورتي المزّمّل والمدّثّر وخاصة من قيام الليل ، وتلاوة القرآن ، والذكر ، والصبر ومرتكزاته الأخلاقية ، والدعوة والتبليغ وأخلاقهما .

ب - أمر الله رسوله ﷺ في سورة الأنعام أن يقتدي بكل الرسل ، قال تعالى : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ فكل ما قصّه الله عز وجل علينا من أخبار الرسل وأعمالهم فإنّه محلّ القدوة لرسولنا عليه الصلاة والسلام . وبالتالي فهو محل القدوة لنا ، ومن ثَمّ فعلينا أن نأخذ حظّنا من هذه القدوة ، فعندما يقصّ الله علينا قصّة نوح عليه السلام في سورة كاملة فإن ذلك يقتضي منا أن نأخذ دروسها ، وأن نعمل بها .

جـ - وكما ينبغي أن نلاحظ الأخلاق التي هي محل التكليف ، ومحل الطلب ، فإن علينا أن نتجنب الأخلاق التي هي محلّ المؤاخذة والنهي ، ولذلك فإن علينا أن نلاحظ ما يقصّه الله علينا من أخلاق الكافرين والمنافقين لنتحرر منها ، ولئن كان العرض قد صرفنا عن إفراد مثل هذه المعاني بالذكر في هذا التفسير ، لظننا أن في إبرازها أثناء التفسير كفاية فإن المربّي والراغب في الوراثة ، - والمسلم بشكل عام - عليه أن ينتبه لهذه الأخلاق فيجتنبها ، ويركّز عليها عند الآخرين فيستأصلها ، وهذا باب واسع في

العلم والعمل والتربية والسلوك ، والمجموعة التي مرّت معنا ذكرت المنافقين في مكان واحد ، وركّزت على أخلاق الكافرين ، فعلينا أن ننتبه إلى ما ذكرناه في القرآن كله .

٢ - المجموعة التي مرّت معنا ركّزت على الأساس والطريق ، وقد رأينا فيها الجديد الكثير ، فمع أن مجموعات كثيرة فصّلت فيما فصّلت به هذه المجموعة فإن الكثير مما ذكرته كان جديداً ، ومن هنا نحب أن نؤكد ما ذكرناه من قبل في هذا التفسير وهو :

لئن كانت المعاني القرآنية ترجع إلى أصول ، والأصول ترجع إلى أصول أقل ، فإن فروع هذه الأصول لا تتناهى ، وتفصيلات هذه الأصول وحيثياتها كثيرة ، ولذلك فلا ينبغي أن يتصور متصور أن بعض القرآن يغني عن بعض . نعم كل جزء من القرآن كاف للتذكير ، وكل جزء منه فيه خصائص القرآن كله ، ولكن للمعاني القرآنية أصولاً وفروعاً مبثوثة في القرآن كله . إن فاتحة القرآن قد استوعبت المعاني القرآنية ، وإن سورة البقرة كما قال رسول الله ﷺ : « إن كادت لتستحصي الدين كله » وإن المجموعات القرآنية تفصّل في معانٍ مذكورة في سورة البقرة على ترتيب معيّن ، ولكن في كل سورة جديد ، إنْ في الأصول أو في الفروع التي تنبثق عن هذه الأصول ، أو في صلة الأصول بالفروع ، أو في صلة الفروع بالفروع والأصول بالأصول ، وهذا يعني أن على الراغب في القرآن ألا يستغني ببعضه عن بعض ، إلا لعجز عن الكل فعندئذ يتخيّر في الحفظ والدراسة أما في التلاوة فعليه أن يضرب من أول القرآن إلى خاتمته ، نقول هذا بمناسبة قوله تعالى في سورة المزمل : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلاً** ﴾ وبمناسبة ما تعطينا إياه هذه المجموعة بوضوح : أن في كل مجموعة في القرآن جديداً .

٣ - عند عرض المجموعة السابقة استقصينا بقدر استطاعتنا أن نبرز سياق السورة الخاص ، وأن نبرز صلة كل سورة بما قبلها وما بعدها ، وصلة كل سورة بمحورها من سورة البقرة ، وقد أخذت سورة المدثر حظها من ذلك ، ولذلك فلا نجد ما نضيفه هنا سوى أن نذكّر بجانب عملي ، هو أنك تجد في آية من الآيات مجموعة أقوال كآية ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ وهذه الأقوال يحتملها النّص ، وكلها عملية ، أي : إن كل قول يعطينا جانباً عملياً تطبيقياً ، فعلينا في مثل هذه الأحوال أن نأخذ حظنا من الالتزام بالجميع ، فإن ذلك من حكمة مجيء النص على هذه الشاكلة ، وذلك يجعل أمام المسلمين مجالات يتفاوتون فيها في التقوى والكمال ، فالأكمل من يعطي التطبيق أوسع مداه .

٤ – نلاحظ من خلال ما مرّ معنا في المجموعة السابقة أن السورة عندما تفصّل في محور من المحاور قد تفصّل في كلمة من آية ، وقد تفصّل في المضمون المباشر للمحور ، وقد تفصّل في المضمون غير المباشر ، وقد تفصّل فيما يقابل المضمون ليتضح المضمون ، وأن المجموعة وهي تفصّل قطاعاً من معاني سورة البقرة على ترتيب معيّن تبقى في ترابطها مع بعضها ، تشكل كلاً متكاملاً يخدم بعضه بعضاً ويبني بعضه على بعض .

٥ – إن مما تراه بوضوح في القرآن أنك تجد الخطاب القرآني مظهراً للعزة الإلهية ، ومظهراً للربوبية الكاملة ، فهو مثلاً عندما يخاطب رسول الله ﷺ يخاطبه خطاباً تظهر فيه عزّة الربوبية ، وعبودية المربوب ، وهو موضوع يحسّه كل عاقل يتأمل في هذا القرآن وإنك لتجد المجموعة السابقة نموذجاً كاملاً على هذا الموضوع ، وهذا وحده كاف ليعرف المنصف أن هذا القرآن من عند الله عز وجل ،إن مما تراه بشكل واضح في هذا القرآن أنه خال من كل مظهر من مظاهر الضعف البشري الذي لا بد أن يظهر في كل أثر من آثار البشر ، إنْ في الأسلوب أو في التعبير ، أو في المعاني ، فعلم البشر ما دام غير محيط بالزمان والمكان ، والكون ، والإنسان ، ومفردات اللغة وطرق تركيبها ، وأساليب العرض التي لا تتناهى ، إن الإنسان ما دام غير محيط بهذا كله أو ببعضه ، فإن آثار ذلك لا بد ظاهرة في كل أثر يصدر عنه ، فأن تجد النص القرآني خالياً من القصور فذلك وحده دليل على أنه من عند الله ، فليتفطن قارىء القرآن لهذا ، تأمّل السور الست التي مَرَّت معنا كيف أن لكل واحدة منها جرساً وأسلوباً وبداية ونهاية ، وتجد في كل واحدة منها من المعاني ما لا يمكن أن يصدر شيء منه من بشر ، ألا إن هذا القرآن لا يكفر به إلا جاهل أو غبي أو عديم الذوق اللغوي أو متكبر أعمى الكبر قلبه ، فلم يعد يرى شيئاً .

٦ – جرينا في تدارسنا للقرآن مع إخواننا أن نقرأ السورة أو القدر الذي نريد تدارسه ثم نتعرّف على مفردات السورة ، ثم نقف عند الأوامر والنواهي ، ثم نقف وقفة عند الأحكام الفقهية إن كان في السورة آيات أحكام ، ثم نبحث عن الأخلاق التي تعرضت لها السورة ، أخلاق كافرين أو منافقين أو متقين ، فنقف عندها الوقفات الطوال ، فكنا نخرج من السورة أو من المكان الذي تمت فيه المذاكرة بالكثير من العلم والعمل ، ثم نتواصى بالجانب العملي ، ولم يمنعنا أن نعرض هذا التفسير على هذه الشاكلة

إلا خشية الإطالة ، وإننا لنوصي أنفسنا وإخواننا بمثل هذه المدارسة وهذا الأخذ فبدون مدارسة للقرآن ، وبدون التزام لا تنمو التقوى ، ويضعف السير .

٧ - نلاحظ أن قضية النموذج تأخذ محلّها في القرآن ، فأحياناً يعرض عليك القرآن المعنى بشكل تقريري ، وأحياناً يعرض عليك بشكل تصويري ، ويرى سيد قطب رحمه الله أن الأسلوب المفصّل في القرآن هو الأسلوب التصويري ، ومن ثَمَّ كتب كتابه (التصوير الفني في القرآن) ليبرز هذا الجانب ، وهو عرض لخاصية من خواص هذا القرآن التي ذكرها الله عز وجل بقوله : ﴿ **ولقد ضربنا في هذا القرآن للناس من كل مثل** ﴾ ، وذكر النموذج يدخل تحت هذا الأصل ، فعندما ترى نموذجاً يذكره القرآن فلا يخطرن ببالك أن هذه الظاهرة حادثة فرد مضى وانقضى ، بل هي نموذج لشخصية تتكرر في كل عصر ، دروسها كثيرة والعبر منها لا تتناهى .

☆ ☆ ☆

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المفصّل
وتشمل سورتي :
(القيامة ، والإنسان)

كلمة في المجموعة السابعة

المجموعة السابعة سورتان فقط ، السورة الأولى تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، والسورة الثانية تفصّل فيما بعد المقدمة ، وتتكامل السورتان مع بعضهما ، والتفصيل هنا جديد ذو طابع خاص ، فسورة القيامة تناقش أصل فكرة التكليف ، والأسباب التي تدعو الإنسان إلى الفرار من التكليف ، فالله عز وجل كلّف الناس أن يكونوا من المتقين ، ولكن كثيرين يفرون من ذلك ، إن معالجة هذا الموضوع هو الشيء الرئيسي في سورة القيامة ، ثم تأتي سورة الدهر لتفصّل فيما بعد المقدمة ، فتذكر أنواعاً من العبادة ، وتفصّل فيما أعدّ الله للكافرين وللمؤمنين ، وتفصّل في موضوع إنزال القرآن ، وهي المعاني التي تحدّثت عنها الآيات التي جاءت مباشرة بعد مقدمة سورة البقرة ، وإذا كانت سورة الدهر تفصّل فيما بعد مقدمة سورة البقرة أي : فيما فصّلت فيه سورتا المزمل والمدثر ، فإن معاني مشتركة نجدها بين سورة الدهر وبين سورتي المزمّل والمدّثّر ، والذي دلّنا على أنّ سورة القيامة بداية مجموعة ابتداؤها بالقَسَم ، والذي دلّنا على أن سورة الدهر نهاية مجموعة ، أن ما بعدها هو سورة المرسلات المبدوءة بقسم ، فهي بداية مجموعة جديدة ، والملاحظ أن سورة الدهر مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ هل ﴾ كأختها سورة الغاشية ، وسنرى أن سورة الغاشية هي نهاية مجموعتها ، فلنبدأ عرض السورتين .

☆ ☆ ☆

وهـي الســورة الخامسـة والسـبعون بحسـب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة السابعة من قسم
المفصـل ، وهـي أربعـون آيـة
وهـي مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة القيامة :

قال الألوسي : (ويقال لها سورة لا أقسم ، وهي مكية من غير حكاية خلاف ولا استثناء ، واختلف في عدد آيها ففي الكوفي أربعون ، وفي غيره تسع وثلاثون ، والخلاف في ﴿ **لتعجل به** ﴾ . ولما قال سبحانه وتعالى في آخر المدثر : ﴿ **كلا بل لا يخافون الآخرة** ﴾ بعد ذكر الجنة والنار ، وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث ، ذكر جل وعلا في هذه السورة الدليل عليه بأتم وجه ، ووصف يوم القيامة وأهواله وأحواله ، ثم ذكر ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن ، ثم ما قبل من مبدأ الخلق على عكس الترتيب الواقعي) .

وقال صاحب الظلال : (هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد ، والإيقاعات واللمسات ، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلّت منه ... تحشدها بقوة ، في أسلوب خاص ، يجعل لها طابعاً قرآنياً مميزاً ، سواء في أسلوب الأداء التعبيري ، أو أسلوب الأداء الموسيقي ، حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شعوري قوي ، تصعب مواجهته ويصعب التفلّت منه أيضاً !) .

....

(من تلك الحقائق الكبيرة التي تحشدها هذه السورة في مواجهة القلب البشري ، وتضرب بها عليه حصاراً لا مهرب منه ... حقيقة الموت القاسية الرهيبة التي تواجه كل حي ، فلا يملك لها رداً ، ولا يملك لها أحد ممن حوله دفعاً . وهي تتكرر في كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ، ويقف الجميع منها موقفاً واحداً ... لا حيلة . ولا وسيلة . ولا قوة . ولا شفاعة . ولا دفع . ولا تأجيل ... مما يوحي بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئاً . ولا مفر من الاستسلام لها ، والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا) .

(ومن تلك الحقائق الكبيرة التي تعرضها السورة ، حقيقة النشأة الأولى ، ودلالتها على صدق الخبر بالنشأة الأخرى ، وعلى أن هناك تدبيراً في خلق هذا الإنسان وتقديراً ... وهي حقيقة يكشف الله للناس عن دقة أدوارها وتتابعها في صنعة مبدعة ،

لا يقدر عليها إلا الله ، ولا يدعيها أحد ممن يكذبون بالآخرة ويتمارون فيها . فهي قاطعة في أن هناك إلهاً واحداً يدبّر هذا الأمر ويقدره ؛ كما أنها بينة لا ترد على يسر النشأة الآخرة ، وإيحاء قوي بضرورة النشأة الآخرة . تمشياً مع التقدير والتدبير الذي لا يترك هذا الإنسان سدى ، ولا يدع حياته وعمله بلا وزن ولا حساب) .

(ومن المشاهد المؤثرة التي تحشدها السورة ؛ وتواجه بها القلب البشري مواجهة قوية ... مشهد يوم القيامة وما يجري فيه من انقلابات كونية ، ومن اضطرابات نفسية ، ومن حيرة في مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول في صميم الكون ، وفي أغوار النفس) .

(وهكذا يشعر القلب — وهو يواجه هذه السورة — أنه محاصر لا يهرب . مأخوذ بعمله لا يفلت . لا ملجأ له من الله ولا عاصم . مقدرة نشأته وخطواته بعلم الله وتدبيره . في النشأة الأولى وفي النشأة الآخرة سواء . بينما هو يلهو ويلعب ويغتر ويتبطر) .

(وهكذا تعالج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره ولهوه . وتشعره بالجد الصارم الحازم في هذا الشأن . شأن القيامة . وشأن النفس . وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذي لا يخرم منه حرف ، لأنه من كلام العظيم الجليل ، الذي تتجاوب جنبات الوجود بكلماته ، وتثبت في سجل الكون الثابت ، وفي صلب هذا الكتاب الكريم) .

كلمة في سورة القيامة ومحورها :

تبدأ سورة القيامة بقَسَمين لا تجيب عليهما ، لأن الجواب مفهوم من سياق السورة ، وبعد القَسَمين يأتي قوله تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه** ... ﴾ ثم تسير السورة حتى تصل إلى قوله تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ... ﴾ مما يشير إلى أن السورة تردّ على ظنّين اثنين للكافرين كل منهما له علاقة باليوم الآخر ، وله علاقة برفض التكليف . وفي وسط السورة توجيه لرسول الله ﷺ في كيفية تلقي القرآن ، وكلام عن موت الكافر ، وكيف يلقى الله عز وجل بلا إيمان ولا صلاة بل بتكذيب وإعراض ، فلنتذكر مقدمة سورة البقرة : تتحدث مقدمة سورة البقرة عن المتقين والكافرين والمنافقين . والمنافقون كافرون ،

وكل من الكافرين والمتقين يقف على طرفي نقيض بالنسبة للآخرة ، فالكافرون لا يؤمنون ولا يصلون ولا يلتزمون بالقرآن ؛ لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر ، ويتصورون أن الإنسان متروك سدى ، بينما المتقون يلتزمون بالقرآن ، ويؤمنون ، ويصلون ، وينفقون ؛ لأنهم يؤمنون باليوم الآخر ، ويعلمون أنهم غير متروكين . فلمعاني سورة القيامة ارتباط مباشر بمعاني مقدّمة سورة البقرة كما سنرى .

....

تتألف السورة من مقدمة هي آيتان ، ومن فقرتين كل منهما يبدأ بقوله تعالى : ﴿ أيحسب ﴾ .

الفقرة الأولى : تبدأ من الآية (٣) وتنتهي بالآية (٣٥) وهي تتألف من عدة مجموعات .

الفقرة الثانية : وتبدأ بالآية (٣٦) وتنتهي بالآية (٤٠) . فلنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

مقدمة السورة

وهي آيتان وهاتان هما :

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾

التفسير :

﴿ **لا** ﴾ يراد بها مجرد التوكيد ، فهي التي تسمّى في غير القرآن زائدة ، ويسمونها - أدباً مع القرآن - صلة ؛ لأنها لا تفيد نهياً ، والذي سوّغ مجيئها هنا هكذا أنها جاءت قبل كلام فيه معنى النفي ، إذ الكافرون ينفون مجيء يوم القيامة ، قال ابن كثير : قد تقدّم غير مرّة أنّ المقسم عليه إذا كان منتفياً جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللّوامة** ﴾ قال قتادة : أقسم بهما (أي : بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة) جميعاً ، وقال ابن كثير : (والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً معاً) وعلى هذا فـ (لا) في الآيتين صلة لا تفيد النفي ، وإنما تفيد مجرد التوكيد ، فأمّا يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللّوامة فهي النفس التقيّة التي تلوم على التقصير في التقوى ، فهي صفة مدح ، قال الحسن البصري في الآية التي فيها ذكر النفس اللوامة : إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه ، ما أردت بكلمتي ، ما أردت بأكلتي ، ما أردت بحديث نفسي ، وإن الفاجر يمضي قدماً قدماً ما يعاتب نفسه . قال ابن جرير بعد أن عرض أقوال المفسرين في النفس اللّوامة : والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات . قال النسفي : وجواب القسم محذوف أي : لتبعثن ، دليله : ﴿ **أيحسب الإنسان** ﴾ أي : إن المعاني التي ذكرت بعد هي التي تحدّد الجواب ، قال ابن كثير : (والمقسَم عليه ههنا هو إثبات المعاد ، والردّ على ما يزعمه الجهلة من العباد ، من عدم بعث الأجساد) . أقول : أن تبدأ السورة التي تتحدّث عن المعاد والتكليف بالقسَم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة ، تلك مقدمة تدل على المقصود ، وتدل على موضوع السورة .

كلمة في السياق :

النفس اللوامة هي النفس التقية إذ لا لوم إلا مع وجود التقوى ، فالقَسَم بالنفس اللوامة قَسَم بالنفس التقية ، وصلة ذلك بالكلام عن المتقين في أول سورة البقرة واضحة ، والصلة واضحة كذلك ما بين القَسَم بيوم القيامة ، وبين ما ورد في الكلام عن الإيمان باليوم الآخر في الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة ، وكما أن مقدمة سورة البقرة بدأت بالحديث عن المتقين ، ثم انتقلت إلى الحديث عن الكافرين ، فكذلك بدأت سورة القيامة بالإشارة إلى المتقين ، ثم تنتقل إلى الكلام عن الكافرين .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتد من الآية (٣) إلى نهاية الآية (٣٥) وهذه هي :

المجموعة الأولى

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

المجموعة الثانية

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

المجموعة الثالثة

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

المجموعة الرابعة

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾

تفسير المجموعة الأولى :

﴿ **أيحسب الإنسان** ﴾ قال النسفي : أي : الكافر المنكر للبعث ﴿ **ألّن نجمع عظامه** ﴾ أي : يوم القيامة بعد تفرقها ورجوعها رفاتاً مختلطاً بالتراب ، ولذلك فهو لا يؤمن بيوم القيامة ، ولا يتقي ولا يلوم نفسه إذا أخطأ ، قال ابن كثير : (أي : أيظن أنّا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها) .

كلمة في السياق :

مجيء هذا الاستفهام بعد القَسَم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة ، يوحي بشيئين : أولاً : بمضمون جواب القسم ، وثانياً : بالسبب الذي يحمل الإنسان على الكفر بيوم القيامة ، وعلى عدم لوم النفس على الخطأ ، فالعلّة هي تصور الإنسان أن الله عز وجل لن يجمعه بعد تفرّق أجزائه ويحييه ، وهو جهل بقدرة الله عز وجل ولذلك قال تعالى :

....

﴿ **بلى قادرين على أن نسوّي بنانه** ﴾ أي : بلى نجمعها ، قادرين على أن نسوي أصابعه كما كانت في الدنيا بلا نقصان وتفاوت ، مع دقة تركيب البنان ، فكيف لا نجمع عظامه عامة ، والبنان : هو طرف الإصبع ، وقد آمن بعضهم بالقرآن لهذه الآية بسبب ذكر البنان الذي فيه بصمات الإنسان التي تختلف من إنسان لآخر في العالم ، حتى لو بلغ الناس مليارات كثيرة ما تشابهت بصمات أحدهم مع غيره ، ثم قال تعالى : ﴿ **بل يريد الإنسان ليفجر أمامه** ﴾ قال النسفي : (أي : ليدوم على فجوره

فيما يستقبله من الزمان) ، وقال الألوسي : (كأنه قيل : دع تعنيفه فإنّه أشط من ذلك وأنّى يرتدع ، وهو يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات ، وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه) ، أقول : هذه هي العلة الحقيقية للكفر بيوم القيامة ، وإنكار الحساب أن الإنسان يرغب ألا يقيد أهواءه قيد ، ومن ثَمَّ فإنه ينكر اليوم الآخر لما يترتب على إيمانه به من قيود وضوابط يقتضيها قبول التكليف الإلهي ، ثم قال تعالى : ﴿ **يسأل أيان** ﴾ أي : متى ﴿ **يوم القيامة** ﴾ ، قال ابن كثير : (أي : يقول متى يكون يوم القيامة ؟! وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده) قال تعالى مبيّناً حال هذا اليوم الذي يستبعدون وقوعه : ﴿ **فإذا برق البصر** ﴾ أي : تحيّر فزعاً ، قال ابن كثير : والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة ، وتخشع وتحار ، وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور ﴿ **وخسف القمر** ﴾ قال النسفي : (أي : ذهب ضوؤه أو غاب) ﴿ **وجمع الشمس والقمر** ﴾ قال مجاهد : أي : كوّرا ، فأصبحتا كتلة واحدة . أقول : لعل ذلك يكون عندما تطوى السماء كطي السجل للكتب ، فيجمع عند ذلك كل شيء كما قال تعالى : ﴿ **والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموٰات مطويات بيمينه** ﴾ . ﴿ **يقول الإنسان يومئذ أين المفر** ﴾ قال ابن كثير : أي : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر ، ويقول أين المفر ؟ أي : هل من ملجأ أو موئل ، قال الله تعالى : ﴿ **كلا** ﴾ ردع عن طلب المفر ﴿ **لا وَزَر** ﴾ أي : لا ملجأ ولا نجاة ، أي : ليس لكم مكان تعتصمون فيه ﴿ **إلى ربك يومئذ المستقر** ﴾ قال ابن كثير : أي : المرجع والمصير ، وقال النسفي : (أي : مستقر العباد ، أو موضع قرارهم من جنة أو نار مفوّض ذلك لمشيئة من شاء أدخله الجنة ، ومن شاء أدخله النار) ﴿ **يُنبأ الإنسان يومئذٍ** ﴾ أي : يخبر ﴿ **بما قدّم** ﴾ من عمل عمله ﴿ **وأخّر** ﴾ ما لم يعمله ، قال ابن كثير : أي : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره** ﴾ قال ابن كثير : أي : هو شهيد على نفسه عالم بما فعله ، ولو اعتذر وأنكر ، قال النسفي : والبصيرة : الحجة . أقول : والمعاذير : اسم جمع للمعذرة ، والمعنى : أن الإنسان يوم القيامة يُنبأ بما قدّم وأخّر ، وهو وإن كان ينبأ لكنه هو نفسه يعلم حقيقة نفسه وعمله ، ولو اعتذر بلسانه بما اعتذر ، ذلك هو شأن يوم القيامة الذي يستبعده الكافر رغبة منه في الفجور عن أمر الله عز وجل .

....

كلمة في السياق :

عرفنا في المجموعة السابقة أن الإنسان الكافر يظن أن الله لن يبعثه ، وقد ردّ الله عز وجل على هذا الظن ، ثم بيّن أن السبب الحقيقي لموقف الإنسان هذا هو رغبته في الفجور ، وحرصه على عدم التقيّد ، وعلى الفرار من التكليف ، ولذلك فهو يستبعد مجيء يوم القيامة .

وبعد ذلك حدّثنا الله عزّ وجلّ عن يوم القيامة الذي يكذّب به المكذبون ، وما يكون فيه ، وكيف أن الكافر نفسه يعلم حقيقة ما كان عليه من ذنب وخطأ ، وإن تظاهر بغير ذلك ، وبعد أن انتهت هذه المجموعة تأتي مجموعة ثانية ، تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **لا تحرّك به لسانك** ﴾ أي : بالقرآن : هذا مع أنه لم يذكر القرآن قبل ذلك فما سرّ ذلك ؟ .

١ - لقد عرفنا في المجموعة الأولى أن السر الحقيقي في كفر الكافرين باليوم الآخر هو إرادة الإنسان في أن يفجر ، وأن يستمر في فجوره ، أي : في أن يبقى فارّاً من التكليف ، وكتاب التكليف هو القرآن ، ومن ثم تأتي المجموعة الثانية لتبيّن لرسول الله ﷺ كيف ينبغي أن يكون تلقيه لهذا القرآن ولتبيّن سنة الله عز وجل في القرآن .

٢ - إن القرآن هو الكتاب الذي جعل الله فيه علم الساعة كما قال تعالى : ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ فأن تأتي في ثنايا الكلام عن الساعة مجموعة عن القرآن تؤكد أن هذا القرآن من عند الله ، فذلك نوع توكيد لمجيء الساعة ، وردٌّ ضمني على الكافرين في إنكارهم لها ، فلنر المجموعة الثانية من الفقرة الأولى .

تفسير المجموعة الثانية :

﴿ **لا تحرّك به** ﴾ أي : بالقرآن ﴿ **لسانك لتعجل به** ﴾ أي : بالقرآن ﴿ **إن علينا جمعه** ﴾ أي : في صدرك ﴿ **وقرآنه** ﴾ أي : أن تقرأه ، قال النسفي : (وكان ﷺ يأخذ في القراءة قبل فراغ جبريل عليه السلام كراهة أن يتفلّت منه فقيل له : لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل يقرأ لتأخذه على عجلة ، ولئلا يتفلّت منك ، ثم علل النهي عن العجلة بقوله : ﴿ **إن علينا جمعه** ﴾ في صدرك ﴿ **وقرآنه** ﴾ وإثبات قراءته في لسانك والقرآن : القراءة) ، وقال ابن كثير : (هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق

الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفّل الله له أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه وأن يبينه له ويفسره ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية ، تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه) ﴿ **فإذا قرأناه** ﴾ أي : إذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل ﴿ **فاتّبع قرآنه** ﴾ قال النسفي : أي : قراءته عليك ، وقال ابن كثير : أي : فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك ﴿ **ثم إن علينا بيانه** ﴾ قال النسفي : إذا أشكل عليك شيء من معانيه ، وقال ابن عباس وعطية العوفي وقتادة : أي : تبيّن حلاله وحرامه .

كلمة في السياق :

١ - بينت هذه المجموعة أنّ محمّداً ﷺ يتلقى هذا القرآن تلقياً ، وأنه كان حريصاً على حفظه عند التلقي ، حتى إنه ليكرر ما يلقى إليه خشية نسيانه إلى أن نهاه الله عز وجل عن ذلك ، وضمن له أن يجمع له هذا القرآن وأن يجعله يقرؤه دون نسيان ، وأن يبيّن له معانيه ، وكل ذلك يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، فإذا ثبت ذلك وكان القرآن يتحدّث عن اليوم الآخر والتكليف ، فالحجة قائمة على وجوب القيام بالتكليف ، وعلى ضرورة الإيمان باليوم الآخر ، ومن ثَمَّ يعود الحديث بعد هذه المجموعة إلى الكلام عن اليوم الآخر .

٢ - ثمّ تأتي المجموعة الثالثة وهي تتحدث عن الطبيعة البشرية التي تحب الدنيا وتترك الآخرة بالرغم من فضل الآخرة على الدنيا ، وتأتي هذه المجموعة بعد ذكر القرآن ، مما يشير إلى أنّ هذا سبب آخر من أسباب هجر القرآن والتكليف .

تفسير المجموعة الثالثة من الفقرة الأُولى :

﴿ **كلا** ﴾ ردع عن إنكار البعث ﴿ **بل تحبون العاجلة** ﴾ أي : الدنيا وشهواتها ﴿ **وتذرون الآخرة** ﴾ أي : الدار الآخرة ونعيمها فلا تعملون لها ، قال ابن كثير : (أي : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ، ومخالفة ما أنزله الله عز وجل على رسول الله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة) ، وبعد أن ذكر الله عز وجل حب الإنسان للدنيا وتركه للآخرة ذكر ما يهيّج على طلب الآخرة بذكر كرامة الله للمؤمنين فيها وإهانته للكافرين فقال : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة** ﴾ أي : حسنة ناعمة ، قال ابن كثير : أي : حسنة بهية

مشرقة مسرورة ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾ قال ابن كثير : أي : تراه عياناً ، ﴿ **ووجوه يومئذ باسرة** ﴾ أي : كالحة شديدة العبوسة وهي وجوه الكفار ، قال ابن كثير : هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة ﴿ **تظن** ﴾ أي : تستيقن ﴿ **أن يفعل بها فاقرة** ﴾ أي : داهية تقصم فقار الظهر .

كلمة في السياق :

١ - ذكر في المجموعة الأولى سبب من أسباب الفرار من التكليف ، وذكر في المجموعة الثالثة سبب آخر من أسباب الفرار من التكليف ، وذكر في الوسط ، كتاب التكليف .

٢ - وذكر في المجموعة الأولى تفصيل عن اليوم الآخر ، وذكر في المجموعة الثالثة حال أهل الإيمان وأهل الكفر فيه ، وذكر في الوسط الكتاب الذي يفصّل في العلم والطريق الذي به تكون النجاة والكرامة ، وبالإعراض عنه يكون الهلاك والإهانة .

٣ - أنكرت المجموعة الثالثة على من يحب الدنيا ، وفي ذلك تربية على أصل من أصول التقوى ، وبيان لكون الإيمان بالآخرة يقتضي محبتها وتفضيلها على الدنيا .

٤ - وبعد المجموعة الثالثة تأتي مجموعة تتحدث عن احتضار الكافر وموته وهي لحظة الانتقال من الدنيا إلى عوالم الآخرة ، ومجيء المجموعة في هذا السياق تذكير للإنسان الذي يفضّل الدنيا على الآخرة ، وتذكير للإنسان الذي يفرّ من التكليف بالموت الذي هو الواعظ الكبير للغافلين والسادرين والفاجرين ، وهكذا تعظ السورة أعظم الوعظ لتبعث الهمة على القيام بأمر الله والعمل للآخرة ، فتذكّر بالآخرة وتذكّر بهذا القرآن ، وتذكّر بالموت .

تفسير المجموعة الرابعة من الفقرة الأولى :

﴿ **كلا إذا بلغت** ﴾ أي : الروح ﴿ **التراقي** ﴾ وهي العظام المكتنفة لنقرة النّحر عن يمين وشمال ، والتراقي : جمع ترقوة . قال ابن كثير : يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال - ثبّتنا الله هنالك بالقول الثابت - : إن جعلنا كلا رادعة فمعناها : لست يا ابن آدم هناك تكذب بما أخبرت به ، بل صار ذلك عندك عياناً ، وإن جعلناها بمعنى : حقاً فظاهر ، أي : حقاً إذا بلغت التراقي ، أي : انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك ﴿ **وقيل مَنْ راق** ﴾ قال النسفي : أي : قال حاضرو المحتضر بعضهم

لبعض أيكم يرقيه مما به ؟ من الرقية ، أو هو من كلام الملائكة أيكم يرقى بروحه ، أملائكة الرحمة ، أم ملائكة العذاب ؟ من الرقي ، ﴿ **وظن أنه الفراق** ﴾ قال النسفي : (أي : أيقن المحتضر أن هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة) ﴿ **والتفت الساق بالساق** ﴾ قال مجاهد : أي : الأمر العظيم بالأمر العظيم ، أي : بلاء ببلاء ، وقال الضحاك : اجتمع عليه أمران : الناس يجهّزون جسده ، والملائكة يجهّزون روحه ، وقال ابن عباس : التفت عليه الدنيا والآخرة ، وقال : آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة ، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله ، وقال النسفي : التوت ساقاه عند موته ، وعن سعيد بن المسيب : هما ساقاه حين تلفان في أكفانه ، ﴿ **إلى ربك يومئذ المساق** ﴾ قال ابن كثير : أي : المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموٰات فيقول الله عز وجل : ردوا عبدي إلى الأرض ؛ فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . أقول : ذكر ابن كثير في أكثر من مكان من هذا التفسير أن الحديث الذي مضمونه : « روح المؤمن تكون في جوف طير تسرح في الجنة » ولعل الروح التي يأمر الله عز وجل بردّها هي روح الكافر ؛ فإنها لا تفتح لها أبواب السماء ، أما روح المؤمن فسيبقى لها تعلق في الجسد ، ولكنّ لها مراحاً في الجنة ، ثم أخبر تعالى عن الكافر بماذا يستقبل آخرته فقال : ﴿ **فلا صدّق** ﴾ أي : فلا آمن بالرسول والقرآن واليوم الآخر ﴿ **ولا صلى** ﴾ لله في حياته ﴿ **ولكن كذّب** ﴾ بالله ورسله وملائكته واليوم الآخر والقدر ﴿ **وتولى** ﴾ عن الصلاة والزكاة ، والاهتداء بكتاب الله ﴿ **ثم ذهب إلى أهله يتمطى** ﴾ قال ابن كثير : أي : جذلان أشراً بطراً كسلاناً لا همة له ولا عمل ، وفسّر النسفي : التمطّي بالتبختر ، قال : وأصله : يتمطّط أي : يتمدّد . أقول : أي : غير مبال ، غير مكترث بشيء كأنه لم يخلق لعبادة وتكليف وقيام بأمانة ﴿ **أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى** ﴾ هذا إما خطاب للكافر المتبختر في الدنيا ، أو هو خطاب للكافر في الآخرة . فإن كان في الدنيا يكون المعنى : أولى لك أيها الكافر غير هذا ، ثم أولى لك فأولى غير هذا من الإيمان والصلاة واتباع كتاب الله ، وإن كان الخطاب في الآخرة يكون المعنى : أولى لك أيها الكافر فأولى أن تلقانا بغير هذا ، ثم أولى لك فأولى أن تلقانا بغير ما لقيتنا به من التكذيب والإعراض عن الحق ، وهكذا أرتنا المجموعة العاقبة المخزية للكافرين الذين لا يتقون الله ، وفي ذلك دعوة للإنسان أن يكون من المؤمنين المصلين الملتزمين بما كلفهم الله عز وجل به ، وبهذا انتهت المجموعة الرابعة وبها انتهت الفقرة الأولى .

كلمة في السياق :

١ - بدأت الفقرة الأولى بذكر ظنّ الكافرين أن الله عز وجل لن يبعثهم ، وردّت على ذلك مرة ومرة ، ووعظت مرة ومرة ومرة ، وبيّنت الدوافع وراء هذه العقيدة وردّتها ، وفي ذلك تبيان للطريق الصحيح طريق المتقين ، وتبيان للطريق الخاطىء طريق الكافرين ، وصلة ذلك بمقدمة سورة البقرة واضحة .

٢ - وتأتي الفقرة الثانية وهي تبدأ بعرض ظنّ آخر للكافرين ، وهو تصورهم أنهم متروكون مهملون لا يؤمرون ولا ينهون ولا يبعثون ولا يجازون ، وهو التصور الموجود عند أكثر الخلق وترد عليه ، فلنر الفقرة الثانية .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (٣٦) إلى نهاية السورة أي : إلى نهاية الآية (٤٠) وهذه هي :

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

التفسير :

﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ قال ابن كثير : (قال السدي يعني : لا يبعث ، وقال مجاهد والشافعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني : لا يؤمر ولا ينهى ، والظاهر أن الآية تعم الحالتين ، أي : ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث بل هو مأمور منهي في الدنيا ، محشور إلى الله في الدار الآخرة ، والمقصود هنا إثبات المعاد والردّ على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد) . أقول : أنكرت الآية على من يظن أنّه لا تكليف ولا حساب ، وهذا هو تصور عامّة الخلق ، وهو علة عصرنا ، وقد ردّ الله عز وجل على هذا التصور بقوله : ﴿ **ألم يك نطفة من منيّ يمنى** ﴾ أي : من مني يراق في الرحم ، قال ابن كثير : أي : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين يمنى ، يراق من الأصلاب في الأرحام ؟! ﴿ **ثم كان علقة** ﴾ أي : ثم صار المني علقة في المرحلة الأولى من مراحل تكون الجنين ﴿ **فخلق فسوّى** ﴾ قال النسفي : فخلق الله منه بشراً سوياً ، ومن ثَمَّ قال تعالى : ﴿ **فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ بإذن الله وتقديره ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾ قال النسفي : أليس الفعّال لهذه الأشياء بقادر على الإعادة ، قال ابن كثير : (أي : أليس هذا الذي أنشأ هذا الخلق السويّ من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه) الجواب الحتمي : بلى ، فإذا كان الأمر كذلك وقد أخبرنا الله أنّه سيعيدنا فلا بدّ من الإعادة ، وقد أخبرنا عز وجل أنه سيحاسبنا فلا بدّ من الحساب ، وإذا كان حساب فلا بدّ من تكليف في هذه الدار ، والتكليف يقتضي إرسال رسول ، وانزال وحي ، وقد كان

ذلك فعلى الإنسان أن يبدأ البداية الصحيحة ، فيؤمن بالقرآن وبالرسول ، ويقوم بحق الله عز وجل فيصلي وينفق ويستعدّ للقاء الله عزّ وجلّ .

كلمة في السياق :

١ ـ وهكذا رأينا السورة ردّت على التصورات الكافرة في شأن اليوم الآخر والتكليف ؛ فعمّقت ضرورة الإيمان والقيام بالتكليف ، وتلك هي البديهيات الأولى التي تقوم عليها قضية التقوى ، فلنر الآن السياق الخاص للسورة ، وصلتها بمحور السورة العام .

أ ـ السياق الخاص :

بدأت السورة بالقسم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة ، وبذلك أشعرتنا بموضوعها أنها تؤكّد مجيء يوم القيامة ، وضرورة أن تكون نفس الإنسان تقية ، وإذا كان الكافرون لا يؤمنون باليوم الآخر ، فقد ردّت السورة على ذلك من خلال لفت النظر إلى قدرة الله ، وإلى كون هذا القرآن الذي تحدّث عن اليوم الآخر من عند الله ، ومن خلال تصحيح نظرة الإنسان إلى الدنيا والآخرة ، ومن خلال التذكير بالموت ، ثم ردّت على تصور الكافرين أنهم غير مسؤولين أمام الله ، وهو الداء الدويّ الذي يظهر في عصرنا بأشكال متعدّدة : حرية الإنسان المطلقة في المذاهب الوجودية ، وحرية الإنسان في التشريع في المذاهب السياسية ، وأمثال ذلك .

ب ـ السياق العام :

قلنا إن السورة تفصّل في مقدمة سورة البقرة التي تتحدّث عن المتقين والكافرين والمنافقين . ولمّا كان المنافقون كافرين فمرجع الناس إذن إلى قسمين : كافرين ومتقين ؛ فلنر ماذا فصّلت السورة في هذا الشأن :

ـ ﴿ **الٓمٓ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ذكرت السورة معنى يؤكّد أن هذا القرآن من عند الله ، ووجهت رسول الله ﷺ نحو الصيغة الصحيحة للتلقي ، وذكرت سنة الله عز وجل في شأن هذا القرآن ، وبينت قضية التكليف ، ومسؤولية الإنسان ، وصلة ذلك بالقرآن واضحة .

ـ ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة** ﴾ ذكرت السورة النتائج الخطيرة التي تترتب على عدم الإيمان وإقامة الصلاة : ﴿ **فلا صدّق ولا صلى ولكن كذّب وتولّى** ﴾ .

- ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ فصّلت السورة في شأن الآخرة كثيراً كما رأينا .

- ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ ذكرت السورة مظهراً من مظاهر الفلاح : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** ﴾ .

- ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ ذكرت السورة علل الكفر الرئيسية وفندتها ، وتعرضت لأنواع من العذاب تصيب أهلها . وهكذا نجد أن السورة فصّلت في المحور ، ولكن بشكل جديد كالعادة كلّما جاءت مجموعة جديدة .

٢ - يلاحظ أن سورة المدثر جاء في أواخرها عن الكافرين ﴿ **كلا بل لا يخافون الآخرة** ﴾ وتأتي سورة القيامة لتحدثنا عن الكافرين وموقفهم من يوم القيامة ، ويلاحظ أن سورة القيامة انتهت بقوله تعالى : ﴿ **ألم يك نطفة من مني يمنى ...** ﴾ وتأتي سورة الدهر مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾ وهكذا نجد أن للسورة صلاتها مع ما قبلها ، ومع ما بعدها ، وصلتها بمحورها من سورة البقرة ، هذا مع أن لها سياقها الخاص ، ووحدتها وجرسها وخواصها التي تكاد تنفرد بها ، شأنها في ذلك شأن كل سورة في القرآن الكريم ، إنه لا بدّ أن يكون في كل سورة من سور القرآن جديد ، ومن ثَمَّ فلا يخطرن ببال أحد أن قراءة بعض القرآن تنوب عن قراءته كله ، نعم كل سورة منه تذكّر وتعظ ، وكل مجموعة منه تذكّر بكل المعاني الأساسية ، ولكن معاني القرآن مبثوثة فيه كله ﴿ **ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ فليكن القرآن هجيرنا في أوقاتنا كلها إن استطعنا .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ قال الألوسي : (وأكثر الصوفية على أن النفس اللوامة فوق الأمارة وتحت المطمئنة ، وعرّفوا الأمّارة بأنها هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية ، وتأمر باللذات والشهوات الحسية ، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية ، وقالوا : هي مأوى الشرور ، ومنبع الأخلاق الذميمة ، وعرّفوا اللوامة بأنها هي التي تنورت بنور القلب قدر ما تنبهت عن سنة الغفلة . فكلما صدر عنها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية أخذت تلوم نفسها ونفرت عنها ، وعرّفوا

المطمئنة بأنها التي تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة ، وتخلّقت بالأخلاق الحميدة وسكنت عن منازعة الطبيعة ، ومنهم من قال في اللوامة : هي المطمئنة اللائمة للنفس الأمّارة ، ومنهم من قال : هي فوق المطمئنة وهي التي ترشحت لتأديب غيرها ، إلى غير ذلك) .

٢ - في الجزء الثاني من كتاب (الطب محراب للإيمان) بحث مستفيض تحت عنوان : (تفرّد شخصية الإنسان والبصمة) أشار فيه صاحبه إلى الإعجاز في قوله تعالى : ﴿ **بلى قادرين على أن نسوّي بنانه** ﴾ ونحن ننقل ههنا بعض عبارات المؤلف لندرك أهمية الإشارة القرآنية إلى البنان :

(إن هوية الإنسان وشخصيته تكمن بشكل محدد ومنفرد في البصمة ، فقد يتقارب الطول ، أو يتشابه القد ، أو يختلط لحن الصوت ، ومزاج النفس ، وأخلاط البدن ، قد تضيع الفروق الفردية وتتشابه الوجوه ، ولكن هناك شيئاً محدداً لا يتشابه ، إنه البصمة ، أو ختم الإنسان الخاص ، المميز لشخصية إنسانية واحدة .

ذكر الدكتور هنري فولدز أنه أخذ انطباعات مومياء مصرية قديمة ، وأمعن النظر في أثر الخطوط الحليمية فوجدها كأنها بنت يومها ، وعلى أتم جلاء ووضوح ، وعثر في الدنمارك على جثة رجل في حفرة رطبة قدّر المختصون عمرها بأكثر من ألفي سنة ، والغريب أن الجسم لم يفن طوال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، وظلت البصمات واضحة الخطوط ، حتى إن بعض الخبراء تمكنوا من عمل قوالب لها .

حاول عدد من المجرمين في الولايات المتحدة وفي مدينة شيكاغو بصورة خاصة محو هذا الخاتم الإلهي !! بمحو أو تغيير أو تحريف لأشكال الخطوط الحليمية في رؤوس أصابعهم مستخدمين طرقاً مختلفة ، ولكن محاولاتهم باءت جميعها بالفشل .

إن فرصة تكرر بصمتين بآن واحد هي نفس فرصة العثور على حبة معينة من الرمال تقبع بمكان ما في الصحراء الكبرى أو الربع الخالي . لقد قدر غالتون أن ثمة أقل من فرصة من أربع وستين ملياراً لتكرار بصمة واحدة مرتين في وقت واحد) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرّك شفتيه قال : فقال لي ابن عباس : أنا أحرك شفتي كما كان

رسول الله ﷺ يحرّك شفتيه ، وقال لي سعيد : وأنا أحرّك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه فأنزل الله عز وجل ﴿ **لا تحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه** ﴾ قال : جمعه في صدرك ثم تقرأه ﴿ **فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه** ﴾ أي : فاستمع له وأنصت ﴿ **ثم إن علينا بيانه** ﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه . وقد رواه البخاري ومسلم من غير وجه عن موسى بن أبي عائشة به . ولفظ البخاري : « فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل » وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقى منه شدة ، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه يتلقى أوله ويحرك به شفتيه ، خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره ، فأنزل الله تعالى ﴿ **لا تحرّك به لسانك لتعجل به** ﴾ وهكذا قال الشعبي والحسن البصري وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد : إن هذه الآية نزلت في ذلك) .

٤ — بمناسبة قوله تعالى عن الروح : ﴿ **كلّا إذا بلغت التراقي وقيل من راق** ﴾ قال الألوسي : (والذي عليه جمهور الأمة سلفاً وخلفاً أن النفس — وهي الروح الأمرية — : جسم لطيف جداً ألطف من الضوء عند القائل بجسميته ، والنفس الحيوانية مركب لها ، وهي سارية في البدن نحو سريان ماء الورد في الورد ، والنار في الفحم ، وسريان السيال الكهربائي عند القائل به في الأجسام ، والأدلة على جسميتها كثيرة ، وقد استوفاها الشيخ ابن القيم في كتاب الروح وأتى فيه بالعجب) .

أقول : هذا نموذج من كلام علمائنا الأقدمين على التفريق بين الحياة والروح ، فالجنين قبل نفخ الروح فيه حيّ ، وبعد نفخ الروح فيه تصبح شخصيته مستقلة فيها حياة ولها روح ، والإنسان بعد وفاته قد تبقى بعض أجزائه حية إلى أمد ولكن لا روح فيها .

٥ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة** ﴾ قال ابن كثير : أي : تراه عياناً كما رواه البخاري رحمه الله في صحيحه : « إنكم سترون ربكم عياناً » . وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها ، لحديث أبي سعيد وأبي هريرة وهما في الصحيحين : أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ! فقال : « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ » قالوا : لا ، قال : « إنكم ترون ربكم كذلك » . وفي الصحيحين عن جرير قال : نظر

رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا » . وفي الصحيحين عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » . وفي أفراد مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة – قال – يقول الله تعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيّض وجوهنا ! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ! قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ، وهي الزيادة » ثم تلا هذه الآية : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ . وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه : « إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك » يعني : في عرصات القيامة ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات وفي روضات الجنات . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخدمه ، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين » ورواه الترمذي . ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً في مواضع من هذا التفسير وبالله التوفيق ، وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام ، وهداة الأنام ، ومن تأوّل ذلك المراد بإلى – مفرد الآلاء – وهي النعم كما قال الثوري عن منصور عن مجاهد ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾ قال : تنتظر الثواب من ربها ، رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد وكذا قال أبو صالح أيضاً : فقد أُبعد هذا الناظر النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه ، وأين هو من قوله تعالى : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ ؟ قال الشافعي رحمه الله تعالى : ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل ، ثم قد تواردت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دلّ عليه سياق الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾ روى ابن جرير عن الحسن ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة** ﴾ قال : حسنة ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾ قال : تنظر إلى الخالق وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق) .

وقال صاحب الظلال عند هاتين الآيتين : (إن روح الإنسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس ، تراها في الليلة القمراء . أو الليل

الساجي . أو الفجر الوليد . أو الظل المديد . أو البحر العباب . أو الصحراء المنسابة . أو الروض البهيج . أو الطلعة البهية . أو القلب النبيل . أو الإيمان الواثق . أو الصبر الجميل ... إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود ... فتغمرها النشوة ، وتفيض بالسعادة ، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة . وتتوارى عنها أشواك الحياة ، ما فيها من ألم وقبح ، وثقلة طين وعرامة لحم ودم ، وصراع شهوات وأهواء .

فكيف ؟ كيف بها وهي تنظر - لا إلى جمال صنع الله - ولكن إلى جمال ذات الله ؟

ألا إنه مقام يحتاج أولاً إلى مد من الله . ويحتاج ثانياً إلى تثبيت من الله . ليملك الإنسان نفسه ، فيثبت ، ويستمتع بالسعادة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يتصور حقيقتها إدراك ! ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة** ﴾ .

وما لها لا تتنضر ؛ وهي إلى جمال ربها تنظر ؟

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض . من طلعة بهية ، أو زهرة ندية ، أو جناح رفاف ، أو روح نبيل ، أو فعل جميل . فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه ، فيبدو فيها الوضاءة والنضارة . فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال . مطلقاً من كل ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال ؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام ، إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذي يعز على الخيال ! كل شائبة لا فيما حولها فقط ، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ما سوى النظر إلى الله ...) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى** ﴾ قال ابن كثير : (وروى أبو عبد الله النسائي عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : ﴿ **أولى لك فأولى * ثم أولى لك أولى** ﴾ ؟ قال : قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل ثم أنزله الله عز وجل) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ قال صاحب الظلال : (فلقد كانت الحياة في نظر القوم حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية ... أرحام تدفع وقبور تبلع ... وبين هاتين لهو ولعب ، وزينة وتفاخر ، ومتاع قريب من متاع الحيوان ... فأما أن يكون هنالك ناموس ، وراءه هدف ، ووراء الهدف حكمة ؛ وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجري إلى غاية مقدرة ، وأن ينتهي إلى

حساب وجزاء . وأن تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء ... أما هذا التصور الدقيق المتناسق ، والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة ، تفعل كل شيء بقدر ، وتنهي كل شيء إلى نهاية ... أما هذا فكان أبعد شيء عن تصور الناس ومداركهم في ذلك الزمان .

والذي يميز الإنسان عن الحيوان ، هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات . وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني ، ومن الوجود كله من حوله . وارتقاؤه في سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هذا وسعته ، ودقة تصوره لوجود الناموس ، وارتباط الأحداث والأشياء بهذا الناموس . فلا يعيش عمره لحظة لحظة ، ولا حادثة حادثة ، بل يرتبط في تصوره الزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل . ثم يرتبط هذا كله بالوجود الكبير ونواميسه . ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثاً ولا تتركهم سدى .

وهذا هو التصور الكبير الذي نقل القرآن الناس إليه منذ ذلك العهد البعيد ، نقلة هائلة بالقياس إلى التصورات السائدة إذ ذاك ، وما تزال هائلة بالقياس إلى سائر التصورات الكونية التي عرفتها الفلسفة قديماً وحديثاً) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾ قال ابن كثير : (وروى أبو داود عن إسماعيل بن أمية قال : سمعت أعرابياً يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين ، ومن قرأ : ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ فانتهى إلى قوله : ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾ فليقل : بلى ، ومن قرأ : ﴿ **والمرسلات** ﴾ فبلغ : ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون** ﴾ فليقل آمنا بالله » ورواه أحمد عن سفيان بن عيينة ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر عن سفيان بن عيينة به ، وقد رواه شعبة عن إسماعيل بن أمية قال : قلت له : من حدّثك : قال : رجل صدق عن أبي هريرة ، وروى ابن جرير ... عن قتادة ، قوله تعالى : ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾ : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال : « سبحانك وبلى » . ثم روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟** ﴾ قال : سبحانك فبلى) .

كلمة أخيرة في سورة القيامة :

إن سورة القيامة تذكّرنا بمعان عملية : منها : أن نعتاد على محاسبة النفس ولومها على المعصية أو التقصير ، وأن ننوي أن نقوم بحق الله فيما يأتي ، ومنها أن نتلقى هذا القرآن بالإنصات الكامل ، ومنها أن نحب الآخرة ونزهد في الدنيا ، ومنها أن نؤمن وأن نصلي ، ومنها نعلم أننا مسؤولون أمام الله عز وجل ومحاسبون ، فلنأخذ هذه المعاني بقوة .

☆ ☆ ☆

سورة الإنسان

وهي السورة السادسة والسبعون بحسب الرسم القرآني

وهي السورة الثانية والأخيرة من المجموعة السابعة من

قسم المفصل ، وهي إحدى وثلاثون آية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الإنسان :

قدّم الألوسي لسورة الإنسان بقوله : (وتسمى سورة الدهر ، والأبرار ، والأمشاج ، وهل أتى . وهي : مكية عند الجمهور على ما في البحر ، وقال مجاهد وقتادة : مدنية كلها ، وقال الحسن وعكرمة والكلبي : مدنية إلا آية واحدة فمكية وهي : ﴿ **ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً** ﴾ ، وقيل : مدنية إلا من قوله تعالى : ﴿ **فاصبر لحكم ربك** ﴾ إلى آخرها فإنه مكي وعن ابن عادل حكاية مدنيتها على الإطلاق عن الجمهور ، وعليه الشيعة ، وآيها إحدى وثلاثون آية بلا خلاف . والمناسبة بينها وبين ما قبلها في غاية الوضوح) .

ومن تقديم صاحب الظلال لهذه السورة نقتطف ما يلي : (والسورة في مجموعها هتاف رخي ندي إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله ، وابتغاء رضاه ، وتذكر نعمته ، والإحساس بفضله ، واتقاء عذابه ، واليقظة لابتلائه ، وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء .

وهي تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشري : أين كان قبل أن يكون ؟ من الذي أوجده ؟ ومن الذي جعله شيئاً مذكوراً في هذا الوجود ؟ بعد أن لم يكن له ذكر ولا وجود : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾ .

تتلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته ، وحكمة الله في خلقه ، وتزويده بطاقاته ومداركه : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾ .

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق ، وعونه على الهدى ، وتركه بعد ذلك لمصيره الذي يختاره : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ .

وبعد هذه اللمسات الثلاثة الموحية ، وما تثيره في القلب من تفكير عميق ، ونظرة إلى الوراء ، ثم نظرة إلى الإمام ، ثم التحرج والتدبر عند اختيار الطريق ... بعد هذه اللمسات الثلاثة تأخذ السورة في الهتاف للإنسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار ... وترغيبه في الجنة ، بكل صور الترغيب ، وبكل هواتف الراحة والمتاع والنعيم والتكريم .

فإذا انتهى معرض النعيم اللين الرغيد المطمئن الهانئ الودود ، اتجه الخطاب إلى

رسول الله ﷺ لتثبيته على الدعوة - في وجه الإعراض والكفر والتكذيب - وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله في الأمر ؛ والاتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق) .

كلمة في سورة الإنسان ومحورها :

ختمت سورة القيامة بقوله تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوّى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾ ، وافتتحت سورة الإنسان بقوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾ فالصلات قائمة بين نهاية سورة القيامة وبداية سورة الإنسان .

....

وبعد مقدّمة سورة البقرة التي فصّلت فيها سورة القيامة يأتي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ، وتبدأ سورة الإنسان بقوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾ وبعد آية من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ يأتي قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** ﴾ وبعد الآيتين الأوليين من سورة الإنسان يأتي قوله تعالى : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ وفي الآية اللاحقة من سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ وفي الآية اللاحقة من سورة الإنسان يأتي قوله تعالى : ﴿ **إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً** ﴾ وبعد تلك الآية من سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ...** ﴾ وبعد تلك الآية من سورة الإنسان يرد قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً** ﴾ ويأتي بعد ذلك بقليل كلام عن بعض الأعمال الصالحة التي استحقوا بها ما استحقوا : ﴿ **يوفون بالنذر ويخافون يوماً ... ويطعمون الطعام على حبه ...** ﴾ ، وتختم السورة بتأكيد المعاني التي ذكرت في الآيات الخمس بعد المقدمة من سورة البقرة ، فتقرر أن الله عز وجل هو الذي أنزل القرآن ، وتنهى عن طاعة الآثمين والكافرين ، وتأمر بالذكر وقيام الليل ، ولذلك صلاته

بالآيات الآتية بعد مقدمة سورة البقرة .

....

والملاحظ أنّه بعد مقدمة سورة البقرة مباشرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ وفي الآية الأولى من سورة الإنسان يأتي قوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان** ﴾ والسورة نفسها اسمها سورة الإنسان ، وهذا يجعلنا نستأنس على أن محور السورة هو الآيات الآتية بعد المقدمة .

....

والملاحظ أن سورة المزمل ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً** ﴾ وورد فيها قوله تعالى : ﴿ **قم الليل إلا قليلاً** ﴾ وورد فيها قوله تعالى : ﴿ **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً** ﴾ وأن سورة الإنسان ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ۝ ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلاً طويلاً** ﴾ وورد فيها قوله تعالى : ﴿ **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً** ﴾ والملاحظ أن سورتي المزمل والمدثر ورد في الأولى منهما قوله تعالى : ﴿ **واصبر على ما يقولون** ﴾ وفي الثانية منهما ﴿ **ولربك فاصبر** ﴾ وورد في الثانية منهما أيضاً ﴿ **كلا بل لا يخافون الآخرة** ﴾ وورد في سورة الإنسان ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً** ﴾ ، ﴿ **إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً** ﴾ وتختم سورة المدثر بقوله تعالى : ﴿ **كلا إنه تذكرة ۝ فمن شاء ذكره ۝ وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾ وسورة الإنسان تختم بقوله تعالى : ﴿ **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ۝ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ۝ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً** ﴾ ومثل هذا التشابه بين معان في سورة الإنسان ، ومعان في سورتي المزمل والمدثر ، يجعلنا نستأنس أن محور سورة الإنسان هو محور سورتي المزمل والمدثر ، فسورة الإنسان تشرح الطريق ، كما أن سورتي المزمل والمدثر تشرحان الطريق .

....

تتألف السورة من مقدمة هي آيتان ، ومن فقرتين واضحتي المعالم ، كل منهما مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **إنا** ﴾ الأولى مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إنا هديناه السبيل**

إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ ، والفقرة الثانية مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً** ﴾ . الأولى تستمر حتى نهاية الآية (٢٢) والثانية تستمر حتى نهاية السورة أي : حتى نهاية الآية (٣١) ، ولنبدأ عرض السورة .

* * *

المقدمة والفقرة الأولى

المقدمة آيتان ، والفقرة الأولى تنتهي بنهاية الآية (٢٢) وهذه هي الآيات :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا

﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

التفسير :

﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه ، ثم بيّن ذلك فقال : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج** ﴾ أي : أخلاط ، قال ابن عباس : يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، وحال إلى حال ، ولون إلى لون وهكذا ﴿ **نبتليه** ﴾ أي : نختبره ، قال النسفي : أي : خلقناه مبتلين ، أي : مريدين ابتلاءه بالأمر والنهي له ﴿ **فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾ أي : ذا سمع وبصر . أقول : فعلى هذا الاتجاه تكون الآية الثانية مفسّرة للآية الأولى ، فيكون المراد بالحين الذي كان فيه الإنسان لا شيء يذكر أول مرحلة من مراحل خلقه ، أي : ساعة أن أصبح علقة ، ويمكن أن يكون المراد في الآية الأولى المرحلة السابقة على ذلك عندما كان الإنسان بعد ذرات تراب ، ثم أصبح غذاء ، ثم تحول إلى حيوان منوي ، ففي كل هذه الحالات كان الإنسان شيئاً غير مذكور ، وعلى هذا القول تكون الآية الثانية تتحدث عن مرحلة ثانية من مراحل خلق الإنسان ، ويمكن أن يراد بالآية الأولى الحديث عن آدم قبل نفخ الروح فيه ، وفي الآية الثانية نسله ، وعلى كل حال فالآيتان تذكّران الإنسان بأصل النشأة التي تذكّره بعجزه ، وأنه تحت القدرة والمشيئة ، وأن هذا يقتضي منه اعترافاً وشكراً وتحقيقاً للحكمة من خلقه ، وهي النجاح في الامتحان ، وذلك بأن يعبد الله ويتقيه ، وبذلك يكون شاكراً غير كافر .

﴿ **إنا هديناه السبيل** ﴾ قال النسفي : (أي : بيّنا له طريق الهدى بأدلة العقل والسمع) ، وقال ابن كثير : (أي : بيّناه له ووضّحناه وبصّرناه به) ﴿ **إما شاكراً** ﴾ أي : مؤمناً عابداً تقياً ﴿ **وإما كفوراً** ﴾ أي : كافراً .

كلمة في السياق :

١ - ذكرت الآية الثانية حكمة خلق الإنسان بأنه الابتلاء أي : الاختبار ، وذكرت الآية الثالثة انقسام الناس نتيجة الاختبار إلى شاكرين وكافرين ، وفي الآيات الثلاث ذكر كل ما يستدعي من الإنسان أن يشكر منْ خلقه بعد إذ لم يكن ، وخلقه وهو يملك آلات الفهم للوصول إلى النجاح في الاختبار ، وهداية إلى الطريق الصحيح ، فإذا اختار الكفر ولم يشكر فالحجة قائمة عليه .

٢ - قسَّمت الآية الأخيرة الناس إلى قسمين : شاكرين وكافرين ، والشكر طريقه التقوى قال تعالى : ﴿ **واتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ ومن ههنا ومما مرّ من قبل ندرك صلة الآيات بمحور السورة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ، بعد الآيات الثلاث تأتي مجموعة تتحدّث عما أعدّ الله عز وجل للكافرين والشاكرين ، قال النسفي : لما ذكر الفريقين أتبعهما ما أعد لهما فقال :

....

﴿ **إنا أعتدنا** ﴾ أي : هيأنا ﴿ **للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً** ﴾ أي : ناراً موقدة ، والسلاسل جمع سلسلة ، والأغلال جمع غلّ ، قال ابن كثير : يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهب والحريق في نار جهنم .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن ذكر الله عز وجل انقسام الناس إلى شاكرين وكافرين ، بدأ بذكر ما أعد للكافرين ، وثنى بما أعد للشاكرين ، وسيستغرق ذلك تتمة آيات الفقرة الأولى .

٢ - لنتذكر محور السورة من سورة البقرة ، بعد مقدمة سورة البقرة يأتي قوله

تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ وقد رأينا صلة الآيات الثلاث من السورة بهذا الجزء من سورة البقرة ، وبعد هاتين الآيتين يأتي قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب من نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين ﴾ لاحظ صلة ﴿ مما نزّلنا على عبدنا ﴾ بقوله تعالى في سورة الإنسان : ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ وصلة قوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين ﴾ بقوله تعالى في سورة الإنسان : ﴿ إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ﴾ .

٣ - بعد قوله تعالى في سورة البقرة عن النار : ﴿ أُعدّت للكافرين ﴾ يأتي قوله تعالى : ﴿ وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون ﴾ ويأتي بعد قوله تعالى في سورة الإنسان : ﴿ إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ﴾ قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون ... ﴾ أي : يأتي كلام عما يبشر الله عباده المؤمنين ، ويستمر هذا حتى نهاية الفقرة الأولى ، ويرد خلال ذلك ذكر لبعض مضامين الإيمان ، وذكر لبعض الأعمال الصالحة ، فلنر إذن تتمة الفقرة بعد أن عرفنا محلها في السياق القرآني العام ، أي : صلتها بمحور السورة من سورة البقرة ، وأما محلها في سياق السورة الخاص فإنّه بعد أن ذكر الله عزّ وجلّ أن الناس قسمان كافر وشكور ، وذكر ما أعدّه للأشقياء من السعير يذكر جل جلاله ما أعدّه للسعداء الأبرار الشاكرين .

....

﴿ إن الأبرار ﴾ فسّر بعضهم الأبرار بأنهم الذين لا يؤذون الغير ولا يضمرون الشر ، أقول : لقد فسّر الله البر في آية البر من سورة البقرة ، وفسّر رسول الله ﷺ البرّ بقوله : « والبر ما اطمأنت إليه النفس » فالأبرار هم أصحاب هذه المقامات ﴿ يشربون من كأس ﴾ قال النسفي : أي : من خمر ، فنفس الخمر تسمى كأساً ، وقيل : الكأس : الزجاجة إذا كان فيها خمر ﴿ كان مزاجها ﴾ أي : ما تمزج به ﴿ كافوراً ﴾

قال النسفي : أي : ماء كافور ، وهو اسم عين في الجنة ، ماؤها في بياض الكافور ، ورائحته وبرده ﴿ **عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً** ﴾ قال النسفي : (أي : يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم تفجيراً سهلاً لا يمتنع عليهم ، وقال ابن كثير : أي : يتصرّفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا من قصورهم ودورهم ، ومجالسهم ومحالّهم ، والتفجير هو الإنباع . وقال : وقد علم ما في الكافور من التبريد ، والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة ، أقول : قد علم أنه ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء ، فالاسم واحد والطعم مختلف ، وقال ابن كثير في الآية : (أي : هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ، ويروون بها ، وقال بعضهم : هذا الشراب في طيبه كالكافور ، وقال بعضهم : هو من عين كافور) ثم بين بما استحقوا ذلك فقال : ﴿ **يوفون بالنذر** ﴾ قال النسفي : (أي : يوفون بما أوجبوا على أنفسهم ...) والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوافر على أداء الواجبات ؛ لأن من وفّى بما أوجبه على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى ﴿ **ويخافون يوماً** ﴾ هو يوم القيامة ﴿ **كان شرّه** ﴾ أي : شدائده ﴿ **مستطيراً** ﴾ أي : منتشراً ، قال ابن كثير : أي : منتشراً عاماً إلا من رحم الله ﴿ **ويطعمون الطعام على حُبّه** ﴾ أي : على حب الطعام من الاشتهاء والحاجة إليه ، أو على حب الله ﴿ **مسكيناً** ﴾ أي : فقيراً عاجزاً عن الاكتساب ﴿ **ويتيماً** ﴾ أي : صغيراً لا أب له ﴿ **وأسيراً** ﴾ أي : مأسوراً ، وقد كان أسير المسلمين زمن نزول الوحي كافراً فعرفنا أن خيرهم يمتدّ إلى الكافر فضلاً عن المسلم ، ثمّ علّلوا لإطعامهم فقالوا ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله** ﴾ أي : لطلب ثوابه ﴿ **لا نريد منكم جزاءً** ﴾ أي : مكافأة أو هدية على ذلك ﴿ **ولا شكوراً** ﴾ أي : ثناءً ، وهذه علامة الإخلاص أن تفعل الخير لا تريد عليه جزاءً ولا ثناءً ، وليس شرطاً أن يقولوا هذا لمن يقدمون له الخير ، وإنما المراد أن يكون ذلك قائماً في أنفسهم ، فالآية تحتمل أن تكون بياناً من الله عز وجل عما في ضمائرهم ؛ لأن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم ، وإن لم يقولوا شيئاً . قال مجاهد وسعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم فأثنى عليهم به ، ليرغب في ذلك راغب ﴿ **إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً** ﴾ القمطرير : الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه ، وفسر ابن عباس العبوس بالضيّق ، والقمطرير بالطويل . قال ابن كثير في الآية : أي : إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير ، وقال النسفي : أي : إنا

لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة ، أو إنا نخاف من ربنا فنتصدّق لوجهه حتى نأمن من ذلك الخوف (أي : في ذلك اليوم) قال تعالى مبشراً لهم أنّه سيعطيهم ما أمّلوه : ﴿ **فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم** ﴾ أي : صانهم من شدائده ﴿ **ولقّاهم** ﴾ أي : أعطاهم بدل عبوس الكفار في ذلك اليوم ﴿ **نضرة** ﴾ أي : حسناً في الوجوه ﴿ **وسروراً** ﴾ أي : فرحاً في القلوب ، ﴿ **وجزاهم بما صبروا** ﴾ أي : بسبب صبرهم ﴿ **جنّة** ﴾ أي : بستاناً فيه مأكل هنيء ﴿ **وحريراً** ﴾ أي : ملبساً بهياً ، قال ابن كثير في الآية : أي : منزلاً رحباً وعيشاً رغداً ولباساً حسناً ، أقول : دلّت الآية على أنه بتحققهم بمقام الصبر نالوا ما نالوا بصبرهم على الطاعات ، وصبرهم عن المعاصي ، وصبرهم على مكارم الأخلاق ، وصبرهم على الابتلاءات ﴿ **متكئين فيها** ﴾ أي : في الجنة ﴿ **على الأرائك** ﴾ جمع أريكة وهي متكآتهم على الأسرة ﴿ **لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً** ﴾ الزمهرير : البرد الشديد ، وقيل : القمر ، وعلى القول الأخير يكون معنى الآية : إن الجنة مضيئة لا يحتاج فيها إلى شمس ولا قمر ، وعلى القول الأول يكون معنى الآية كما قال ابن كثير : أي : ليس عندهم حرّ مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل هي مزاج واحد ، دائم سرمدي لا يبغون عنها حولاً ، وقال النسفي في الآية : لأنه لا شمس فيها ولا زمهرير فظلها دائم ، وهواؤها معتدل لا حر شمس يحمي ، ولا شدة برد تؤذي ﴿ **ودانية عليهم ظلالها** ﴾ أي : قريبة منهم ظلال أشجارها ﴿ **وذُلّلت قطوفها تذليلاً** ﴾ قال النسفي : سخّرت للقائم والقاعد ، والمتكىء ، وقال ابن كثير : (أي : متى تعاطاه دنا القطف إليه وتدلّى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع ... قال مجاهد : إن قام ارتفعت معه بقدر ، وإن قعد تذللت له حتى ينالها ، وإن اضطجع تذللت له حتى ينالها ... وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بُعد) ﴿ **ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب** ﴾ أي : من فضة ، والكوب هو الكوز الذي لا عروة لها ولا خرطوم ، قال ابن كثير : أي : يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام ، وهي من فضة ، وأكواب الشراب ، وهي من فضة ﴿ **كانت** ﴾ أي : هذه الأكواب ﴿ **قواريرا** ﴾ قال ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغير واحد : بياض الفضة في صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج ، فهذه الأكواب هي من فضة ، وهي مع هذا شفافة بدا ما في باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له في الدنيا ، ثم فسّر الله عز وجل هذه القوارير بقوله : ﴿ **قوارير من فضة قدّروها تقديراً** ﴾ أي : جعلها السقاة على قدر ريّ شاربها ، فهي

ألذّ لهم وأخفّ عليهم ، قال ابن كثير : أي : على قدر ريّهم لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هي معدّة لذلك ، مقدّرة بحسب ريّ صاحبها ... وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة ﴿ **ويسقون فيها** ﴾ قال ابن كثير : أي : ويسقون يعني : الأبرار أيضاً في هذه الأكواب ﴿ **كأساً** ﴾ أي : خمراً ﴿ **كان مزاجها زنجبيلاً** ﴾ قال ابن كثير : فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور ، وهو بارد وتارة بالزنجبيل وهو حار ، ليعتدل الأمر ، مع العلم أنّه ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء ، أما الماهية فشيء شبيه لكنه على حال غير حاله في الدنيا فهنالك تقدّم الأشياء مكتملة اللذة بلا تنغيص ﴿ **عيناً فيها** ﴾ أي : في الجنة ﴿ **تسمّى سلسبيلاً** ﴾ قال ابن كثير : أي : الزنجبيل عين في الجنة تسمّى سلسبيلاً ، وقال مجاهد : سمّيت بذلك لسلاسة مسيلها ، وحدّة جريها ... وحكى ابن جرير عن بعضهم : أنها سميت بذلك لسلاستها في الحلق ، واختار هو أنها تعمّ ذلك كله ، وهو كما قال . أقول : فخمرة الأبرار في الجنة تارة ممزوجة بماء عين الكافور ، وتارة ممزوجة بماء عين الزنجبيل ، ثمّ بيّن الله عز وجل من يطوف على أهل الجنة بالخدمة فقال : ﴿ **ويطوف عليهم** ﴾ أي : على أهل الجنّة ﴿ **ولدان مخلدون** ﴾ أي : لا يموتون ﴿ **إذا رأيتهم حسبتهم** ﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم ، وانبثاثهم في مجالسهم ﴿ **لؤلؤاً منثوراً** ﴾ قال النسفي : وتخصيص المنثور لأنه أزين في النظر من المنظوم ، وقال ابن كثير : (أي : إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم ، وحسن ألوانهم ، وثيابهم ، وحليهم ، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن . قال قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم ، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه) ، وفسّر ابن كثير قوله تعالى : ﴿ **مخلدون** ﴾ بقوله : (أي : على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ، ومن فسرهم بأنهم مخرصون في آذانهم الأقرطة فإنما عبّر عن المعنى بذلك ؛ لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير) . أقول : وهل هؤلاء الغلمان من أبناء الدنيا ، أو خلقهم الله ابتداءً لخدمة عباده : في الجنة ؟ قولان : قال النسفي : غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين ، أو ولدان الكفرة يجعلهم الله تعالى خدماً لأهل الجنة ﴿ **وإذا رأيت** ﴾ يا محمد أو أيها المخاطب ﴿ **ثَمّ** ﴾ أي : هناك يعني : في الجنة نعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور ، أي : إذا اكتسبت رؤية الجنة ﴿ **رأيت نعيماً وملكاً كبيراً** ﴾ فليس نعيماً فقط ولا ملكاً فقط ، بل نعيم كثير

وملك كبير ، قال ابن كثير : (وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها : إنّ لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها ﴿ **عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق** ﴾ قال ابن كثير : (أي : لباس أهل الجنة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس) ﴿ **وحلّوا أساور من فضة** ﴾ أي : جعل لهم حلية أساور من فضة ، أقول : يجمل اللباس إذا وافق مجموعة أمور ، ويحلو إذا توافرت فيه شروط ، وما يجمل في مكان وزمان وبيئة ، وما يحلو على إنسان أو يناسبه قد لا يجمل ولا يحلو في مكان أو على إنسان ، ولباس أهل الجنة وحليتهم هي في الكمال الأعلى بما يناسب مجموع ما في الجنة ، وبما يتناسب مع الذوقية العامة فيها ، كيف لا يكون ذلك وليس في الجنة إلا الكمال ؟! ثم قال تعالى : ﴿ **وسقاهم ربهم** ﴾ قال النسفي : أضيف إليه تعالى للتشريف والتخصيص ﴿ **شراباً طهوراً** ﴾ قال ابن كثير : (أي : طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هناك عينين ، فكأنما ألهموا ذلك ، فشربوا من إحداهما ، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى ، ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم ، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن) ، وفهم النسفي أن الآية يراد بها التذكير بالفارق بين خمر الدنيا النجسة ، وخمر الآخرة الطهور ، ليعلم أن خمر الآخرة تختلف عن خمر الدنيا ، ثم قال تعالى : ﴿ **إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً** ﴾ قال النسفي : أي : محموداً مقبولاً مرضياً عندنا حيث قلتم للمسكين واليتيم والأسير ﴿ **لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً** ﴾ أقول : السعي المشكور في الآية أعمّ من أن يكون المراد به هذا وحده ، إذ يدخل فيه العمل الصالح كله ، قال ابن كثير في الآية : أي : يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم .

....

كلمة في السياق :

بدأت الفقرة الأولى من السورة بالحديث عن هداية الإنسان فقالت : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ وتحدثت مباشرة عن جزاء الكافرين وجزاء الشاكرين ، ثمّ تأتي الفقرة الثانية لتحدثنا عن طريق الهداية بعد أن فصّلت الفقرة الأولى

في الجزاء ، فأوجدت الاستعداد الكامل للسير في طريق الهداية ، ومن ثَمَّ نجد الفقرة الثانية مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً** ﴾ ونجد في نهاية الفقرة قوله تعالى : ﴿ **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ...** ﴾ وعلى هذا يكون التسلسل العام لسياق السورة على الشكل التالي :

١ - بدأت السورة بتذكير الإنسان بخلقه ، وبحكمة الخلق ، وأنها الابتلاء ، وثنت بعلامة النجاح والخسران في هذا الابتلاء : الشكر أو الكفر ، وذكرت عاقبة الكفر ، وعاقبة الشكر ، وثلّثت بذكر الطريق للنجاح في الامتحان والترابط على أشدّه بين هذه المعاني وبين بداية السورة ونهايتها ، بين أواسطها وبداياتها ونهاياتها .

٢ - إن هناك تلازماً بين قوله تعالى : ﴿ **إنا هديناه السبيل** ﴾ في بداية الفقرة الأولى ، وبين قوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً** ﴾ في بداية الفقرة الثانية ، فهداية الله عز وجل الإنسان السبيل إنما هي بهذا القرآن المنزّل على محمد ﷺ ، والناس أمام ذلك قسمان : شاكر وكافر ، والفقرة الثانية تحدّد الطريق للرسول ﷺ وللمقتدين به أي : للشاكرين ، فتأمر وتنهى وتعلّل ، ومما تنهى عنه أن يطاع الآثم الكفور الذي سقط في الامتحان .

٣ - لننظر الآن نظرة في محور السورة من سورة البقرة : مما جاء في محور السورة من سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا ...** ﴾ وقد جاءت هذه الآية بعد الأمر بالعبادة ، والنهي عن الشرك في سورة البقرة فبين الأمر بالعبادة والإيمان بأن هذا القرآن من عند الله تلازم ، وهذه الفقرة الثانية من سورة الإنسان تؤكّد أن إنزال القرآن من عند الله ، وتفصّل في أمور من العبادة تأمر بها وتحدّدها .

* * *

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (٢٣) إلى نهاية الآية (٣١) وهذه هي :

المجموعة الأولى

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾

المجموعة الثانية

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَالظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الثانية :

﴿ **إنا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً** ﴾ أكّد الله عز وجل في هذه الآية أنه هو منزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ بمجموعة مؤكدات ، ومن هذه المؤكدات ذكر الضمير (نحن) بعد ذكر الضمير (إنا) وفي حكمة ذلك قال النسفي : (وتكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لـ (إنّ) تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ؛ ليستقر في نفس النبي ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله مفرّقاً إلا حكمة وصواباً) . أقول : إن كثرة المؤكدات في الآية تمحو أيّ ريب في النفس ، وفي ذلك مقدمة مناسبة للتكاليف الآتية ﴿ **فاصبر لحكم ربك** ﴾ قال ابن كثير : (أي : كما أكرمتك بما أنزلت عليك فاصبر على قضائه وقدره ، واعلم أنه سيدبّرك بحسن تدبيره) ، وقال النسفي :

فاصبر لحكم ربك عليك بتبليغ الرسالة ، واحتمال الأذية ، وتأخير نصرتك ... ﴿ **ولا تطع منهم** ﴾ قال النسفي : أي : من الكفرة للضجر من تأخير الظفر ﴿ **آثماً** ﴾ أي : راكباً لما هو إثم ، داعياً لك إليه ﴿ **أو كفوراً** ﴾ قال النسفي : أي : (فاعلاً لما هو كفر داعياً لك إليه ؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل ما هو إثم أو كفر ، أو غير إثم ولا كفر ، فنهي أن يساعدهم على الأولين دون الثالث) ، وقال ابن كثير : أي : لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدّك عما أنزل إليك ، بل بلّغ ما نزل إليك من ربك وتوكّل على الله ، فإن الله يعصمك من الناس ، فالآثم هو الفاجر في أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه ﴿ **واذكر اسم ربك بُكرة وأصيلاً** ﴾ قال ابن كثير : أي : أول النهار وآخره ، وقال النسفي : (أي : قيل له بكرة : صلاة الفجر ، وأصيلاً : صلاة الظهر والعصر) ﴿ **ومن الليل فاسجد له** ﴾ قال النسفي : (أي : وبعض الليل فصلّ العشائين) ﴿ **وسبّحه ليلاً طويلاً** ﴾ قال النسفي : أي : تهجد له هزيعاً طويلاً من الليل : ثلثيه أو نصفه أو ثلثه ، قال ابن كثير : ثم قال تعالى منكراً على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها ، والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿ **إن هؤلاء** ﴾ الكفرة ﴿ **يحبون العاجلة** ﴾ أي : يؤثرونها على الآخرة ﴿ **ويذرون وراءهم** ﴾ أي : قدّامهم أو خلف ظهورهم ﴿ **يوماً ثقيلاً** ﴾ أي : شديداً لا يعبأون به ، وهو يوم القيامة ؛ لأن شدائده تثقل على الكفار ، فإذا كان هؤلاء كذلك ومن ثَمَّ لا يعملون فلا ينبغي أن يكون المسلم كذلك ﴿ **نحن خلقناهم وشددنا** ﴾ أي : أحكمنا ﴿ **أسرهم** ﴾ أي : خلقهم ﴿ **وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً** ﴾ قال النسفي : (أي : إذا شئنا إهلاكهم أهلكناهم ، وبدّلنا أمثالهم في الخلقة ممّن يطيع) .

كلمة في السياق :

١ - بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾ لاحظ كلمة (خلقنا) في الآية الثانية ، ونلاحظ أنه قد ورد معنا في آخر آية عرضناها من الفقرة الثانية : ﴿ **نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً** ﴾ وهذا يشعرنا أنّ معاني متعانقة في السورة قد انتهى عرضها لوجود نهاية تشبه البداية ، ولذلك فإن الآية اللاحقة تأتي وكأنها تعليق على ما مرّ : ﴿ **إن هذه تذكرة**

فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ .

٢ - أمرت المجموعة التي مرّت معنا من هذه الفقرة بالصبر على قضاء الله عز وجل ، وترك طاعة الآثمين والكافرين ، وأمرت بالصلوات ، ومن قبل ذكّرت السورة بشكل ضمني : بالوفاء بالنذر ، وبإطعام الطعام ، وبالخوف من الله عز وجل ، وبالصبر ، وبالشكر ، وحذّرت من الكفر ، وذكرت ما أعدّ الله للكفار ، وما أعدّه للأبرار ، وهذه معان تعتبر أمّهات في الطريق إلى الله عز وجل ، ومن ثم يأتي الآن مباشرة قوله تعالى عن السورة : ﴿ **إن هذه** ﴾ أي : السورة ﴿ **تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً** ﴾ .

٣ - لنتذكر الآن محور السورة من سورة البقرة : بعد مقدمة سورة البقرة جاءت آيات تأمر بالعبادة للوصول إلى التقوى ، وتذكّر بمعان تستوجب الشكر من العبد ، ثم أقامت الحجة على من يرتاب بالقرآن ، وحذّرت من النار ، وأمرت رسول الله ﷺ بتبشير الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقد فصّلت سورة الإنسان حتى الآن في هذا كله ، وبعد ذلك يأتي في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ والمجموعة الأخيرة من سورة الإنسان تتحدّث عن معنى موجود في هذه الآية ، وهو أن الهداية والضلال بمشيئة الله عز وجل ، ولا شيء يخرج عن مشيئته تعالى ، فالكافرون لم يكفروا ولم يضلوا إلا بمشيئته ، وفي ذلك مظهر من مظاهر عزّة الله عز وجل ، فليس الكافر يعصي قهراً لله ، بل يفعل ذلك بمشيئة الله ، ولا يجني إلا على نفسه ، هذا مع العلم أنّ الله عز وجل لا يضل أحداً إلا بسبب ، فكون الإضلال بمشيئة الله لا ينفي اختيار الإنسان ، وهكذا نجد أنّ سورة الإنسان فصّلت في الآيات السبع الآتية بعد مقدمة سورة البقرة ، فلنر المجموعة الثانية من الفقرة الثانية .

تفسير المجموعة الثانية .

﴿ **إن هذه** ﴾ أي : السورة ﴿ **تذكرة** ﴾ أي : عظة ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً** ﴾ قال النسفي : بالتقرب إليه بالطاعة له واتباع رسوله ، وقال ابن كثير : أي : طريقاً ومسلكاً ، أي : من شاء اهتدى بالقرآن ﴿ **وما تشاؤون إلا أن يشاء الله** ﴾

قال ابن كثير: أي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه منفعاً ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ قال النسفي: أي: إلا وقت مشيئة الله وإنما يشاء الله ذلك ممّن علم منه اختياره ذلك، وقيل هو لعموم المشيئة في الطاعة والعصيان، والكفر والإيمان فيكون حجة لنا على المعتزلة ﴿ **إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ قال ابن كثير: أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسّر له، ويقيّض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿ **يدخل من يشاء في رحمته** ﴾ أي: جنته لأنها برحمته تنال ﴿ **والظالمين** ﴾ أي: الكافرين، وسموا بذلك لأنّهم وضعوا العبادة في غير موضعها ﴿ **أعد لهم عذاباً أليماً** ﴾ جزاءً عدلاً على ظلمهم، وهكذا أكّد الله عز وجل أن الهداية بمشيئته، والضلال بمشيئته، ولكنه يهدي فضلاً، ويضلّ عدلاً، وعموم المشيئة لا ينافي اختيار الإنسان، فالاختيار قائم والمشيئة عامة، وعموم المشيئة مظهر العزّة والعظمة، وإلا يكون عصيانه مراغمة له سبحانه، ويكون نيل رضوانه بغير توفيق منه، ومن لا يعرف الله عز وجل حق المعرفة تخرج منه الأعاجيب.

كلمة في السياق:

رأينا أثناء عرض السورة سياق السورة الخاص، وصلتها بمحورها من سورة البقرة، وواضح أنها فصّلت في الطريق، فهي سورة تهيّج على السير إلى الله عز وجل فلنأخذ حظنا من العمل منها، ومن ثَمَّ فإن رسول الله ﷺ كان يقرؤها مع سورة (الٓمٓ تنزيل السجدة) في صلاة الصبح يوم الجمعة كما سنرى في الفوائد.

الفوائد:

١ - قدم ابن كثير لتفسير سورة الإنسان بما يلي: (قد تقدم في صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ **آلم تنزيل** ﴾ السجدة، و ﴿ **هل أتى على الإنسان** ﴾ وقال عبد الله ابن وهب: أخبرنا ابن زيد أن رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر** ﴾).

٢ - في مقال نشرته مجلة الأمان في عددها (٥٩) تحدّث الدكتور الطبيب محمد علي البار عن النطفة الأمشاج، حاول فيه الدكتور أن يبين أبعاد قوله تعالى: ﴿ **إنا**

خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ وكيف أنّ فيه معجزة علمية يدركها من عرف تدرّج النظريات في شأن نشأة الجنين ومن كلامه في هذا المقال نقتطف ما يلي :

(لم تكن البشرية تعرف شيئاً عن النطفة الأمشاج ... فقد كان الاعتقاد السائد لدى الفلاسفة أن الجنين الإنساني إنما يتكوّن نتيجة ماء الرجل ... وأن رحم المرأة ليس إلا محضناً لنمو ذلك الجنين ، وشبهوا ذلك بالذرة ترمى في الأرض فتأخذ منها الغذاء فتخرج منها شجرة يانعة ... فليس للمرأة دور في الجنين سوى رعايته وتغذيته ... أما أن يكون الولد نتيجة مشج ماء الرجل وماء المرأة فأمر لم تعرفه الإنسانية إلا على لسان أنبياء ... وكما قال ذلك اليهودي الذي استشهدت به قريش : كذلك كان يقول من كان قبلك من الأنبياء . أما خارج نطاق النبوة فقد ظلت الإنسانية في عمى كامل حتى العصور الحديثة .

ولقد ظلت النظرية السائدة - والقائلة بأن الجنين الإنساني ليس إلا نتيجة للحيوان المنوي فحسب - ظلت هذه النظرية مسيطرة على الفكر البشري حتى بعد أن قام العالمان : هام ، وليفن هوك عام ١٦٧٧ باكتشاف الحيوان المنوي ، وبعد أن قام جراف باكتشاف البويضة عام ١٦٧٢ . ومن ذلك التاريخ ظهرت نظرية أخرى تقول بأن البويضة تحتوى على الجنين الإنساني كاملاً ... وأن دور الحيوان المنوي هو فقط في تنشيط البويضة . ولكن ليس له أي دور في تكوين الجنين . وظلت هاتان النظريتان تتصارعان حتى عام ١٧٤٥ م عندما اكتشف العالم بونيه بأن بويضات بعض الحشرات تنمو إلى أجنة كاملة دون الحاجة مطلقاً إلى الذكر (الولادة بدون ذكر أو أب) . وعندئذ بدا أن أصحاب البويضة قد حققوا انتصاراً دامغاً على خصمائهم من أصحاب النظرية الأخرى التي تنسب الجنين إلى الحيوان المنوي فقط .

واستمرت مع ذلك هذه المعارك حتى ظهر سبالانزي الذي عاش ما بين ١٧٢٧ - ١٧٩٩ ، وولف الذي عاش في الفترة ما بين ١٧٣٣ إلى ١٧٩٤ ، اللذان أظهرا بالتجارب أن كلا من البويضة والحيوان المنوي يساهمان في تكوين الجنين ... وقدّم وولف نظريته القائلة بأن البويضة الملقحة تتكاثر وتنقسم لتكون الجنين طوراً بعد طور ، ومرحلة بعد مرحلة ... وقد كانت النظرية السائدة حتى ذلك الحين بأن الجنين موجود بصورة مصغرة في الحيوان المنوي كما يقول أصحاب نظرية الحيوان المنوي ، أو موجود بصورة مصغرة في البويضة كما يقول أصحاب نظرية البويضة ... وأنه ليس هناك إلا النمو

لهذا الجنين المصغّر ... ورغم وجاهة نظرية وولف وقربها من الحقيقة إلا أنها أُهملت لمدة نصف قرن من الزمان ... ولم ينفض عنها الغبار إلا بعد أن اكتشف شيلون وشوال أسس تركيب الجسم الحيواني المكون من مجموعة من الخلايا ... وأن الخلية الحية هي وحدة بناء الجسم الحي ... وذلك في عام ١٨٣٩ .

وقد مهدت هذه المعلومات الطريق لمعرفة أن تكوين الجنين إنما يتم بالتزاوج والاختلاط بين خلية الذكر (الحيوان المنوي) وخلية الأنثى (البويضة) ... وقد تأكدت هذه المعلومات وأصبحت ضمن الحقائق العلمية في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين .

أطوار الجنين : لقد ظلت النظرية السائدة أن الجنين البشري موجود بصورة كاملة ومصغرة في البويضة ، أو في الحيوان المنوي ، حتى أظهر وولف في أواخر القرن الثامن عشر نظريته القائلة بأن البويضة الملقحة تنقسم وتتكاثر وتمر بعدة أطوار قبل أن تشبه الطور الإنساني .

ولكن نظرية وولف هذه قوبلت بالإهمال لمدة نصف قرن من الزمان ، ولم يكتب لها الظهور إلا بعد اكتشافات شوال وشيلدن حول الخلية الحية ، وأنها لبنة البناء لجميع أنسجة الكائن الحي ... وذلك عام ١٨٣٩ ... ثم توالت الاكتشافات العلمية التي تؤيد نظرية وولف حتى أصبحت حقيقة في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين .

وقد تحدث القرآن الكريم عن أطوار الجنين في مواضع متعددة ... وكذلك فصّلت في ذلك السنة المطهرة . قال تعالى : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً** ﴾ قال ابن عباس وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد : معناه من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة إلى آخر أطوار الإنسان .

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة لنبيّن لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في**

قرار مكين ۝ ثم خلقنا النطفة علقة ۝ فخلقنا العلقة مضغة ۝ فخلقنا المضغة عظاماً ۝ فكسونا العظام لحماً ۝ ثم أنشأناه خلقاً آخر ۝ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .
﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ .

والقرآن الكريم والسنة المطهرة يكشفان عن الحقيقة العلمية قبل اكتشافها بألف وثلاثمائة عام .

النطفة والأمشاج :

الآيات : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ۝ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾ (الإنسان : ١ ، ٢) .

قال ابن جرير الطبري في تفسيره : ﴿ **إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج** ﴾ : إنّا خلقنا ذرية آدم من نطفة ، يعني : من ماء الرجل وماء المرأة . والنطفة كل ماء قليل في وعاء كان ذلك ركية أو قربة أو غير ذلك . وقوله أمشاج يعني : أخلاط واحدها مشج ومشيج ، يقال فيه : إذا مشجت هذا بهذا خلطته ، وهو ممشوج به ، ومشيج أي مخلوطه ... وهو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

وروى بسنده عن عكرمة قوله ﴿ **أمشاج نبتليه** ﴾ قال : ماء الرجل مع ماء المرأة يمشج أحدهما الآخر ، وروي عنه أيضاً قوله : ماء الرجل وماء المرأة يختلطان . وروى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ماء المرأة وماء الرجل يختلطان ، وقال الربيع ابن أنس : إذا اجتمع ماء المرأة وماء الرجل .

وقال الحسن البصري : مشج (خلط) ماء المرأة مع ماء الرجل .

قال مجاهد : خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ .

وذكر ابن جرير أقوالاً أخرى مثل قول قتادة : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج** ﴾ أي : أطوار الخلق طوراً نطفة ، وطوراً علقة ، وطوراً مضغة ، وطوراً عظاماً ، ثم كسا الله العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ... وروى عنه أيضاً : الأمشاج اختلاط الماء والدم بالنطفة ، ثم كان علقة ثم كان مضغة ... وانتهى ابن جرير إلى ترجيح القول الأول وهو : أن النطفة الأمشاج هي اختلاط ماء الرجل بماء المرأة قال : وأشبه

هذه الأقوال بالصواب قول من قال معنى ذلك من نطفة أمشاج : نطفة الرجل ونطفة المرأة ، لأن الله تعالى وصف النطفة بأنها أمشاج ... وهي إذا انتقلت فصارت علقة فقد استحالت عن معنى النطفة ، فكيف تكون نطفة أمشاجاً وهي علقة .

تفسير ابن كثير للآية : يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه وجد بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، لضعفه وحقارته ، فقال تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾ ثم بيّن ذلك فقال جل جلاله : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج** ﴾ أي : أخلاط ، والمشج والمشيج الشيء المختلط بعضه على بعض .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **من نطفة أمشاج** ﴾ يعني : ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال ، ومن لون إلى لون ، وهكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن البصري والربيع بن أنس : الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

الأحاديث : أخرج الإمام أحمد في مسنده : أن يهودياً مرّ بالنبي ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش : يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي فقال : لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي فقال : يا محمد مم يُخلق الإنسان ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا يهودي ، من كلٍّ يخلق ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة » فقال اليهودي : هكذا كان يقول من قبلك (أي : من الأنبياء) .

مما تقدم يتضح بجلاء أن ما اكتشفته البشرية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد تحدث به القرآن الكريم بلا أدنى لبس أو مواربة ، وقد وضحته الأحاديث النبوية الشريفة ... كما أن الصحابة والتابعين من أعلام المفسرين — وعلى رأسهم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قد فهموا من الآيات الكريمة ما نفهمه نحن اليوم بعد الاكتشافات العلمية ، وقد نقلنا ذلك عنهم حسب ما رواه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ، والحافظ ابن كثير الدمشقي ، وغيرهم من أعلام التفسير في القديم والحديث ، ولا أظن أحداً سيتهمنا بأننا نعتسف النصوص لنفسر بها الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) .

٣ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال لكعب

ابن عجرة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء » قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أمراء يكونون من بعدي لا يهتدون بهداي ، ولا يستنون بسنتي ، فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ، ولا يردون على حوضي ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فأولئك مني وأنا منهم ، وسيردون على حوضي ، يا كعب بن عجرة : الصوم جنة ، والصدقة تطفيء الخطيئة ، والصلاة قربان - أو قال : برهان - يا كعب بن عجرة : إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به ، يا كعب : الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » ورواه عن غياث بن وهب عن عبد الله بن خثيم به وقد تقدم في سورة الروم عند قوله جل جلاله : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ من رواية جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » .

وروى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان فإن خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته ، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته ») .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوفون بالنذر** ﴾ قال ابن كثير : (أي : يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر . روى الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » رواه البخاري من حديث مالك) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه** ﴾ قال ابن كثير : (وروى البيهقي من طريق الأعمش عن نافع قال : مرض ابن عمر فاشتهى عنباً أول ما جاء العنب ، فأرسلت صفية - يعني : امرأته - فاشترت عنقوداً بدرهم ، فاتبع الرسولَ سائل فلما دخل به قال السائل : السائل ، فقال ابن عمر : أعطوه إياه فأعطوه إياه ، فأرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقوداً ، فاتبع الرسول السائل فلما دخل قال السائل : السائل ، فقال ابن عمر : أعطوه إياه ، فأعطوه إياه ، فأرسلت صفية إلى السائل فقالت : والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت

به ، وفي الصحيح : « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » أي : في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً** ﴾ قال ابن كثير : (أما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهما ، وأما الأسير فقال سعيد بن جبير والحسن والضحاك : الأسير من أهل القبلة ، وقال ابن عباس : كان أسراؤهم يومئذ مشركين ، ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء ، وقال عكرمة : هم العبيد ، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك ، وهكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة ، وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » قال مجاهد : هو المحبوس أي : يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه ، قائلين بلسان الحال : ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله** ﴾) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن سليمان الداراني قال : قرىء على أبي سليمان الداراني سورة ﴿ **هل أتى على الإنسان** ﴾ فلما بلغ القارىء إلى قوله تعالى ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً** ﴾ قال : بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا ثم أنشد يقول :

كم قتيل لشهوة وأسير ... أف من مشتهٍ خلاف الجميل
شهوات الإنسان تورثه الذل ... وتلقيه في البلاء الطويل)

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً** ﴾ قال ابن كثير : (وقد قدمنا في الحديث المروي من طريق ثوير بن أبي فاختة عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه » فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى) .

٩ - في سورة الإنسان قال تعالى : ﴿ **وحلّوا أساور من فضة** ﴾ وفي سورة فاطر قال تعالى : ﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً** ﴾ وقد جمع ابن كثير بين

الآيتين بأن : الفضة للأبرار ، والذهب واللؤلؤ للمقربين ، قال ابن كثير : (وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال تعالى : ﴿ **يُحلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير** ﴾ وأما النسفي فقال في الجمع بين الآيتين : (قال ابن المسيب : لا أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة ، واحدة من فضة ، وأخرى من ذهب ، وأخرى من لؤلؤ) والله أعلم .

كلمة أخيرة في سورة الإنسان ومجموعتها :

رأينا أن رسول الله ﷺ كان يكرر سورة الإنسان في صلاة الصبح يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لما تضمنته من معان يستغرق التبشير منها حيّزاً كبيراً ، ورسولنا ﷺ أمر أن يبشر المؤمنين ، ولا شك أن من يصلي الصبح في جماعة فذلك مظنة الإيمان ، فأن يسمعه رسول الله ﷺ صبيحة كل جمعة سورة الإنسان فذلك تحقيق للأمر بالتبشير ، فالسورة وإن أنذرت إلا أنه يغلب عليها التبشير ، وهي مع ذلك تدل على الطريق إلى الله ، وتذكّر بمكارم الأخلاق العليا .

....

وسورة الإنسان تكمّل سورة القيامة ، فسورة القيامة تبرهن على مجيء يوم القيامة ، وسورة الإنسان تتحدّث عما يكون يوم القيامة ، وعما أعدّ الله لنوعي الناس الكفار والأبرار فيه ، كما أنها تذكر الطريق للنجاة يوم القيامة ، وبهذا تتكامل السورتان اللتان تشكلان مجموعة واحدة .

....

وسورة القيامة ناقشت أخطر قضيتين تبرزان بشكل حادّ في الحياة البشرية وهما استبعاد البعث ، وتصور أن الإنسان حر غير مسؤول ، وهاتان القضيتان هما محور أكثر ما يكتب في العالم اليوم ، حتى إنك لو أردت أن تلخّص الأفكار المطروحة في سوق الأدب والفكر لوجدتها تتلخّص بالعناوين التالية : الإنسان حر غير مسؤول أمام الله ، الهزؤ من التكاليف الدينية ، الإنسان صانع حياته وسلوكه وأفكاره ومجتمعه . كل هذه المعاني يدور حولها بشكل مباشر ، أو بشكل غير مباشر التوجيه العام للأنظمة في العالم كله وتنبثق عنها كتب المدارس الفكرية والفلسفية والأدبية والفنية في العالم ، حتى ليندر كتاب فكري لا تجد فيه مثل هذه المعاني ، بل إنّ أجهزة الإعلام من راديو

وتلفزيون وصحافة موجهة أو صحافة حرة ترقى على هذا المعنى ، ومن ثَمَّ تجد الإنسان العادي الذي لم تصل إليه التربية الإسلامية هذا شأنه ، وهذا تفكيره ، وهذا سلوكه ، ولذلك تجده بعيد التفكير عن الشعور بمسؤوليته أمام الله عز وجل ، وعندما تحدثه عن هذا الموضوع تجدك تتحدث مع إنسان يبعد عنك آلاف الأميال ، فتحتار كيف تسمعه ما تريد ، وتقرّب إليه ما تريد ، ليستشعر أن نقطة البداية في السلوك البشري أن ينطلق الإنسان من كونه مسؤولاً أمام الله عز وجل ، وأن عليه أن يصوغ حياته انطلاقاً من هذه الحقيقة ، لقد ناقشت سورة القيامة هذا الموضوع ، ومن ثَمَّ فإن الوقوف عندها مهم .

وتأتي سورة الإنسان بعدها لتتحدّث عن الطريق ، فتكمّل المعاني التي جاءت في سورة القيامة ، ومن قبل قلنا : إن سور المجموعة الواحدة تتكامل مع بعضها لتؤدي دوراً متكاملاً في التوجيه والتفصيل ، فبقدر ما يحدث انصهار بمعاني سورة القيامة ، وبقدر ما يوجد عمل في ما توجّه إليه سورة الإنسان ، يكون الابتعاد عن التصورات الإنسانية الخاطئة في باب مسؤولية الإنسان . ولننتقل إلى المجموعة الثامنة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثامنة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المفصّل
وتشمل سورتي :
(المرسلات ، والنبأ)

كلمة في المجموعة الثامنة من قسم المفصَّل

دلنا على بداية هذه المجموعة ونهايتها أن سورة المرسلات مبدوءة بقَسَم كسورة الصافّات والذاريات ، وتلك علامة على بداية مجموعة ، إذا لم يكن سبب مانع ، وبعد سورة النبأ تأتي سورة النازعات المبدوءة بقَسَم ، مما يشير إلى أنها بداية مجموعة جديدة ، فتعيّن أن سورتي المرسلات والنبأ مجموعة واحدة ، وقد مرّت معنا حتى الآن أكثر من مجموعة ثنائية ، فسورتا (الصافات) و (صَ) شكلتا مجموعة واحدة ، وسورتا الحشر والممتحنة شكلتا مجموعة واحدة ، وسورتا القيامة والإنسان شكلتا مجموعة واحدة ، وهاتان السورتان تشكلان مجموعة واحدة ، ونحب هنا أن نسجّل ملاحظة هي :

إن كلمة يوم الفصل تتكرر أكثر من مرة في سورة المرسلات ، وترد مرة واحدة في سورة النبأ ، وهذه الكلمة نفسها وردت في سورة الصافات من قبل في قوله تعالى : ﴿ **هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون** ﴾ والملاحظ أن كلمة النبأ وردت في سورة (صَ) في قوله تعالى : ﴿ **قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون** ﴾ ، وأن سورة النبأ تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **عَمَّ يتساءلون . عن النبأ العظيم** ﴾ . مما يوحي بالتشابه بين مجموعة الصافات ومجموعة المرسلات ، ومما يشعرنا بوحدة المحاور ، فالصافات وصَ فصّلتا في مقدمة سورة البقرة ، والظاهر أن سورتي المرسلات والنبأ تفصّلان في مقدمة سورة البقرة ، الأولى منهما كالصافات تفصّل في الآيات الخمس الأولى التي تتحدّث عن المتقين ، والثانية منهما تفصّل في الآيتين بعد ذلك على تداخل بينهما وتكامل .

....

والملاحظ أن سورة الإنسان تحدّثت عمّا أعدّ الله عز وجل للكافرين ، وعما أعدّه للأبرار ، وأن سورة المرسلات تبدأ بمجموعة أقسام جوابها ﴿ **إنما توعدون لواقع** ﴾ ثم تتحدّث السورة عما يجري في ذلك اليوم ، فالصلة بين سورتي الإنسان والمرسلات واضحة المعالم ، وسورة الإنسان تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً** ﴾ ، ولازمة سورة المرسلات هي ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ . فالصلة بين نهاية سورة الإنسان وبين سورة المرسلات واضحة . فلنبدأ عرض سورتي المجموعة .

* * *

وهي السورة السابعة والسبعون بحسب الرسم القرآني

وهي السورة الأولى من المجموعة الثامنة من قسم

المفصل، وهي خمسون آية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة المرسلات :

قدّم الألوسي لسورة المرسلات بقوله : (وتسمى سورة العرف . وهي مكية . وآيها خمسون آية بلا خلاف . ومناسبتها لما قبلها أنه سبحانه لما قال فيما قبل ﴿ **يُدخل من يشاء في رحمته** ﴾ الخ افتتح هذه بالأقسام على ما يدل على تحقيقه ، وذكر وقته وأشراطه ، وقيل إنه سبحانه أقسم على تحقيق جميع ما تضمنته السورة قبل من وعيد الكافرين الفجار ووعد المؤمنين الأبرار) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لهذه السورة : (هذه السورة حادة الملامح ، عنيفة المشاهد ، شديدة الإيقاع ، كأنها سياط لاذعة من نار . وهي تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة ، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات ، تنفذ إليها كالسهام المسنونة !

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة ، وحقائق الكون والنفس ، ومناظر الهول والعذاب ما تعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ !

ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها . وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة ، ومشاهدها العنيفة ، وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة في سورة (الرحمن) عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟** ﴾ ... كما تذكرنا باللازمة المكررة في سورة (القمر) عقب كل حلقة من حلقات العذاب : ﴿ **فكيف كان عذابي ونذر ؟** ﴾ ... وتكرارها هنا على هذا النحو يعطي السورة سمة خاصة ، وطعماً مميزاً ... حاداً .

وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة ، متعددة القوافي . كل مقطع بقافية . ويعود السياق أحياناً إلى بعض القوافي مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هذه المقاطع والفواصل والقوافي بلذعها الخاص ، وعنفها الخاص . واحدة إثر واحدة . وما يكاد يفيق من إيقاع حتى يعاجله إيقاع آخر ، بنفس العنف وبنفس الشدة) .

وقال صاحب الظلال في ختام السورة : (إن السورة بذاتها ، ببنائها التعبيري ،

وإيقاعها الموسيقي ، ومشاهدها العنيفة ، ولذعها الحاد ... إنها بذاتها حملة لا يثبت لها قلب ، ولا يتماسك لها كيان .

فسبحان الله الذي نزل القرآن ، وأودعه هذا السلطان !) .

كلمة في سورة المرسلات ومحورها :

تبدأ سورة المرسلات بمقدمة توصل إلى فقرة ، والفقرة توصّل إلى فقرة أخرى ، بتسلسل عجيب يناقش المكذبين وينذرهم ، ليصل إلى الحديث عن المتقين ومآلهم ، والمكذّبين وحالهم ، لتكون الحصيلة وصفاً ضمنياً للمتقين وذلك يرتبط برباط وثيق بالآيات الأولى من سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ . ومن ثَمَّ نجد في السورة قوله تعالى عن القرآن :

﴿ **فبأي حديث بعده** ﴾ أي : بعد القرآن ﴿ **يؤمنون** ﴾ .

ونجد قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون** ﴾ .

ونجد قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين في ظلال وعيون** ﴾ .

ونجد قوله تعالى : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ يتردد كثيراً ، وفيه تهديد للذين لا يؤمنون بالغيب ، والذين لا يؤمنون بما أُنزل على رسول الله ﷺ والذين لا يؤمنون بالبعث ، ومن هذه الملاحظات السريعة تدرك صلة السورة بما ذكرناه من الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة .

....

تتألف السورة من مقدمة هي سبع آيات ، ومن فقرتين :

الفقرة الأولى تستمر حتى الآية (٤٠) ، والفقرة الثانية تستمر حتى نهاية السورة أي : حتى نهاية الآية (٥٠) . فلنبدأ عرض السورة .

مقدمة السورة

وتستمر حتى نهاية الآية (٧) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾

التفسير :

﴿ **والمرسلات عُرْفاً** ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بها الملائكة ، والعرف يحتمل أنه المعروف ، ويحتمل أنه عرف الفرس ، فعلى الأول يكون المعنى : والملائكة المرسلات بالإحسان والمعروف ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الوحي كله معروف لا شرَّ فيه ، إذ به يرسل الله ملائكته إلى رسله ، وعلى المعنى الثاني يكون المعنى : والملائكة المرسلات متتابعات كعرف الفرس يتبع بعضهم بعضاً في مواكب تأتي مع الوحي ؛ أو تأتي إلى الأرض لتقوم بوظائفها كحضور حلقات الذكر ، وحضور الصلوات .

﴿ **فالعاصفات عصفاً** ﴾ جزم ابن جرير بأن المراد بالعاصفات الرياح ، وهو قول ابن مسعود وعلي بن أبي طالب وكثيرين . قال ابن كثير : (العاصفات هي الرياح ويقال : عصفت الرياح إذا هبّت بتصويت) . أقول : إن بين ذكر الملائكة المرسلة والرياح العاصفة مناسبة واضحة . فالملائكة تأتي بالخير من وحي وبشارة ونصر وسكينة ، والرياح تأتي بالخصب والمطر ، ففيما بين القسَم بالملائكة والقسَم بالرياح مناسبة واضحة ، والقسَم بالرياح معطوف بالفاء على القسَم بالملائكة ، مما يشير إلى أن الخير الذي تأتي به الملائكة مقدّم على الخير الذي تأتي به الرياح ، فشتان بين الخير الذي هو غذاء الأرواح والعقول والقلوب ، والخير الذي هو غذاء الأجسام ، وجواب القسَم سيأتي فيما بعد ، والمعروف أن حرف القسَم الرئيسي هو الواو الذي سيذكر

مرتين فقط في الأقسام الخمسة ، فيأتي قبل القَسَم الأول ، ويأتي القَسَم الثاني معطوفاً عليه بالفاء ، ثم يأتي القَسَم الثالث مبدوءاً بالواو ، ويأتي القسَمان الرابع والخامس معطوفين عليه بالفاء ، فكأن عندنا مرحلتين في القَسَم ، المرحلة الأولى قسَمان ، والمرحلة الثانية ثلاثة أقسام ، وجواب الأقسام كلها واحد ، ومن ثَمَّ فالمرحلة الأولى من الأقسام انتهت بالقَسَمَين السابقين ، وقد رأينا المناسبة بينهما ، فلنر الآن المرحلة الثانية من القسم .

....

﴿ والناشرات نشراً ﴾ جزم النسفي القول أن المراد بهذا القَسَم الملائكة فقال : (أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة أرسلهنّ بأمره - كما جاء في القسم الأول من السورة - وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي ، أو نشرن الشرائع في الأرض ، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين) .

﴿ فالفارقات فرقاً * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً ﴾ قال ابن كثير : (يعني الملائكة : قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس والسدي والثوري ، ولا خلاف ههنا ، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغي ، والحلال والحرام ، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق ، وإنذار لهم بعقاب الله إن خالفوا أمره) ، وفسّر النسفي الآيات الثلاث بقوله عن الملائكة : (ففرقن بين الحق والباطل ، فألقين ذكراً إلى الأنبياء عليهم السلام عذراً للمحقّين ، أو نذراً للمبطلين) ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ هذا جواب القسم . قال النسفي : (أي : إن الذي توعدونه من مجيء يوم القيامة لواقع أي : لكائن نازل لا ريب فيه) ، وقال ابن كثير في الآية : (هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام ، أي : ما وعدتم به من قيام الساعة ، والنفخ في الصور ، وبعث الأجساد ، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، ومجازاة كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ،إن هذا كله لواقع . إنه لكائن لا محالة) .

كلمة في السياق :

١ - الراجح أنه من بين الأقسام الخمسة لا يوجد إلا قوله تعالى : ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ في غير الملائكة ورأينا المناسبة بين هذا القسم والذي قبله ، فهو نوع تشبيه

لما تأتي به الملائكة بما تأتي به الرياح من خير ، فإذا اتضح أن الأقسام الأربعة في الملائكة ، عرفنا صلة ذلك بمحور السورة الذي فيه كلام عن الإيمان بالغيب ، والملائكة غيب ، فأن تذكر بعض وظائف الملائكة من خلال القَسَم فذلك نوع تفصيل لما يدخل في الإيمان بالغيب .

٢ — في الأقسام الأربعة بالملائكة ذكرت بعض خصائص الملائكة : أنهم يرسلون بالمعروف ، وينشرون شريعة الله ، ويفرّقون بما يأتون به بين الحق والباطل ، ويلقون الذكر الذي فيه تبشير وإنذار ، وفي ذلك كلام ضمني عن خصائص الوحي ، وبالتالي عن خصائص القرآن ، فالقرآن عرف خالص وشريعة مبثوثة منتشرة ، وفارق بين الحق والباطل ، وذكر وتبشير وإنذار ، وصلة ذلك بقوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ واضحة .

٣ — جواب الأقسام الخمسة هو : ﴿ **إنما ما توعدون لواقع** ﴾ ولذلك صلته بالكلام عن الآخرة الذي جاء في مقدمة سورة البقرة ، فعلاقة مقدّمة سورة المرسلات بمحور السورة من سورة البقرة متعدّدة الجوانب .

٤ — أوصلتنا مقدّمة سورة المرسلات إلى وعد الله ، أو وعيده ، وأنه كائن ، وها هي الفقرة الأولى في سورة المرسلات تحدّثنا عن يوم القيامة ، وتقيم الحجة على الناس في شأنه فلنر الفقرة الأولى .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتستمر من الآية (٨) إلى نهاية الآية (٤٠) وهذه هي :

المجموعة الأولى

فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

المجموعة الثانية

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

المجموعة الثالثة

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

المجموعة الرابعة

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

المجموعة الخامسة

انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

المجموعة السادسة

هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

ملاحظة في السياق :

يلاحظ أن هذه الفقرة تتألف من مجموعات ، وما بين مجموعتها الأولى ، ومجموعتها الأخيرة صلة ، هي التي دلتنا على بداية المجموعة ونهايتها ، ففي المجموعة الأولى يرد قوله تعالى : ﴿ **لأي يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل** ﴾ ، وفي المجموعة الأخيرة منها يرد قوله تعالى : ﴿ **هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون** ﴾ .

فالسؤال عن يوم الفصل في المجموعة الأولى يأتي جوابه في المجموعة الأخيرة ، ويأتي في الوسط الدليل عليه مع التحذير والإنذار .

تفسير المجموعة الأولى :

﴿ **فإذا النجوم طمست** ﴾ أي : ذهب ضوؤها ، وذلك بذهابها أصلاً ، يوم تطوى السماء كطي السجل للكتب ﴿ **وإذا السماء فرجت** ﴾ . قال ابن كثير : أي :

انفطرت وانشقت ، وتدلّت أرجاؤها ، ووهت أطرافها . وقال النسفي : (أي : فتحت فكانت أبواباً) ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ . قال ابن كثير : أي : ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر ﴿ وإذا الرسل أُقِّتت ﴾ . قال النسفي : أي : وقتت ومعنى توقيت الرسل تبيين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم ، وقال الألوسي : (أي : بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره ، وهو يوم القيامة ، وجوّز أن يكون المعنى : عيّن لها الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على الأمم) ﴿ لأيّ يوم أُجِّلت ﴾ . قال ابن كثير : (أي : لأيّ يوم أجلت الرسل وأرجىء أمرها ؟ حتى تقوم الساعة) وقال النسفي : (أي : أخرت وأمهلت ، وفيه تعظيم لليوم وتعجيب من هوله) . أقول : هذا يفيد أن الرسل لا بد أن يؤدوا الشهادة ، وتأجيل الشهادة لذلك اليوم لعظمة هذه الشهادة ، ولعظمة ما يترتب عليها ، فالآية فيها سؤال تعجيبي جوابه : ﴿ ليوم الفصل ﴾ أي : أجّلت الرسل لتأدية شهادتها على أممها ليوم الفصل ، وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق ، ثم قال تعالى معظماً لشأن هذا اليوم : ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ سؤال تعجيبي فيه تعظيم لشأن ذلك اليوم ، ولا يأتي جواب مباشر عن يوم الفصل ، وإنما تأتي آية تقول : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ . قال ابن كثير : (أي : ويل لهم من عذاب الله غداً ، وقد قدّمنا في الحديث أن (ويل) واد في جهنم ولا يصح) . أقول : وفي الصيغة دلالة على أن ثبات العذاب ودوامه كائنان للمدعو عليهم ، وسنرى أن هذه الآية ستتكرر مرات في السورة ، وفي كل مرة تأتي في محلها لتؤدي دوراً ، وبها هنا انتهت المجموعة الأولى لتعرفنا على جزء مما يكون في يوم الفصل وهو استحقاق المكذّبين بالرسل للعذاب الأليم .

كلمة في السياق :

١ - رأينا في هذه المجموعة صورة عما يكون يوم القيامة ، وصلة ذلك بمقدمة سورة المرسلات واضحة ، فالمقدمة تنتهي بقوله تعالى : ﴿ إن ما توعدون لواقع ﴾ والمجموعة تحدّثت عما يكون يوم يقع ذلك الوعد .

٢ - فصّلت المجموعة في بعض ما له علاقة باليوم الآخر ، وفي بعض ما له علاقة بالرسل ، وأنذرت الذين لا يؤمنون بالرسل ، وصلة ذلك بالآيات الأولى من سورة البقرة واضحة ، فمن صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب ، وأنهم يؤمنون بما أنزل على محمد وإخوانه الأنبياء ، وأنهم يوقنون بالآخرة ، والمجموعة عرضت لجوانب تتعلق

بالغيب والرسل واليوم الآخر ، فهي تنذر لتحمل الناس على الإيمان والتقوى .

....

تفسير المجموعة الثانية :

﴿ **ألم نهلك الأولين** ﴾ أي : الأمم الخالية المكذبة . قال ابن كثير : يعني : من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به ﴿ **ثم نتبعهم الآخرين** ﴾ أي : ممن أشبههم وهو وعيد للمكذبين من هذه الأمة ، فكأنه قال : ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين ، لأنهم كذّبوا مثل تكذيبهم فتلك سنتنا ، ومن ثَمَّ قال : ﴿ **كذلك نفعل بالمجرمين** ﴾ أي : مثل ذلك الفعل نفعل بكل من أجرم ، فاحذروا ، واستدلوا بذلك على مجيء اليوم الآخر ، وتعذيب المكذبين فيه ، ومن ثَمَّ قال تعالى بعد ذلك : ﴿ **ويل يومئذ** ﴾ أي : يوم القيامة ، أي : يوم الفصل الذي تحدثت عنه المجموعة الأولى ﴿ **للمكذبين** ﴾ قال النسفي : أي : بما أوعدنا . أقول : من كلمة النسفي هذه ندرك ربط النسفي لما ورد في هذه المجموعة مع ما سبقها .

....

كلمة في السياق :

١ - استقرت مقدمة سورة المرسلات على قوله تعالى : ﴿ **إن ما توعدون لواقع** ﴾ واستقرت المجموعة الأولى على الكلام عن يوم الفصل ﴿ **ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل** ﴾ وذكرت جزْءاً ممّا يحدث في يوم الفصل فقالت : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ ثم جاءت المجموعة الثانية ولفتت النظر إلى مايستدل به على يوم الفصل ، وكررت قوله تعالى : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ فكان في هذه الجملة في هذا السياق إنذار للمكذبين من هذه الأمة ، ولفت نظر إلى اليوم الموعود .

٢ - يلاحظ أن المجموعة الأولى بدأت بالتقرير ، وذكرت استفهامين في أواخرها : ﴿ **لأيّ يوم أجّلت** ﴾ ؟ ﴿ **وما أدراك ما يوم الفصل** ﴾ ؟ والملاحظ أن المجموعات الثلاث الآتية بعد المجموعة الأولى كل منها مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **ألم** ﴾ ممّا يشير إلى أن المجموعات الثلاث تؤدي خدمة واحدة في سياق السورة ، وقد مَرَّت معنا إحدى هذه المجموعات الثلاث فلنر أختيها .

تفسير المجموعة الثالثة :

﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾ أي : حقير ، قال النسفي : وهو النطفة . ﴿ **فجعلناه في قرار مكين** ﴾ أي : الرحم . والقرار : المقر ، ووصفه بالمكين معجزة مستقلة ، فمن علم مدى ما أحيط به الجنين من حماية يعرف دقّة المعجزة ﴿ **إلى قَدَر معلوم** ﴾ أي : مؤخراً إلى مقدار من الوقت معلوم ، قد علمه الله وحكم به وهو تسعة أشهر ، أو ما فوقها ، أو ما دونها . قال ابن كثير في تفسير القدر المعلوم : يعني : إلى مدة معيّنة من ستة أشهر أو تسعة أشهر ﴿ **فقدرنا** ﴾ من القدرة أو من التقدير ﴿ **فنعم القادرون** ﴾ أي : نعم المقدّرون نحن ، أو نعم القادرون على ذلك نحن . أقول : مجيء هذا المعنى في هذا السياق فيه إشارة إلى أن من قدر على ذلك فهو قادر على أن يحيي الإنسان مرة ثانية ، وأن هذا مما ينبغي أن ينبه الإنسان فيصدّق أنّ الله قادر على إعادته ، ومن ثَمّ ختمت المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ قال النسفي : (أي : بنعمة الفطرة) .

تفسير المجموعة الرابعة :

﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتاً** ﴾ أي : ضامّة جامعة ﴿ **أحياءً وأمواتاً** ﴾ أي : تضمّ أحياءً على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها ، قال النسفي : والتنكير فيهما للتفخيم ، أي : تكفت أحياءً لا يعدّون وأمواتاً لا يحصون ، وقال الشعبيّ : بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم ﴿ **وجعلنا فيها رواسي** ﴾ قال النسفي : أي : جبالاً ثوابت ﴿ **شامخات** ﴾ أي : عاليات ﴿ **وأسقيناكم ماءً فراتاً** ﴾ أي : عذباً ، قال ابن كثير : أي : عذباً زلالاً من السحاب ، أو مما أنبعه من عيون الأرض ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ قال النسفي : أي : بنعمة الفطرة ، وقال ابن كثير : أي : ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

كلمة في السياق :

١ — في ذكر مظاهر قدرة الله وإنعامه في هذه المجموعة دعوة للإيمان والشكر ، فمن كذب ولم يشكر فويل له يوم الفصل ، وفي ختم المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ ربط للمجموعة الرابعة بالمجموعة الأولى التي تتحدث عن يوم الفصل ، فذكر مظاهر قدرته وإنعامه تذكير بأن من فعل هذا لا يعجزه أن يعيد خلق الإنسان ،

وتذكير بأن من فعل هذا فإن على الإنسان أن يشكره ، والمطالبة بالشكر تقتضي حساباً وعقاباً ، أي : تقتضي يوم فصل ، ولذلك ختمت المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ .

٢- في المجموعة الأولى حديث عما يكون يوم القيامة من أحداث رئيسية . وفي المجموعات الثلاث التي جاءت بعد ذلك كان حديث عما يوصل إلى الإيمان باليوم الآخر ، ثمّ يعود السياق إلى الحديث عن جزء مما يجري في ذلك اليوم للمكذبين .

تفسير المجموعة الخامسة :

﴿ **انطلقوا** ﴾ أيها المكذبون ﴿ **إلى ما كنتم به تكذبون** ﴾ قال النسفي : أي : يقال للكافرين يوم القيامة سيروا إلى النار التي كنتم بها تكذّبون ﴿ **انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شُعَب** ﴾ قال ابن كثير : يعني : لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان ، فمن شدّته وقوّته أن له ثلاث شُعَب ﴿ **لا ظليل** ﴾ أي : لا يظل من حرّ ذلك اليوم ولا من حرّ النار ﴿ **ولا يغني من اللهب** ﴾ أي : وغير مغن لهم من حر اللهب شيئاً ، قال ابن كثير : أي : ظل الدخان المقابل للهب ، ولا ظليل هو في نفسه ، ولا يغني من اللهب يعني : ولا يقيهم حرّ اللهب ﴿ **إنها** ﴾ أي : النار ﴿ **ترمي بشرر** ﴾ هو ما يتطاير من النار ﴿ **كالقصر** ﴾ أي : كالبناء المرتفع فالشرارة الواحدة كالقصر ﴿ **كأنه جمالة صفر** ﴾ قال ابن كثير - وهو اختيار ابن جرير - : أي : كالإبل السود ، والجمالات جمع الجمع فجمع جمل جمال ، وجمع جمال جمالة ، فالشرارات المقذوفة من النار شبّهت بقصر يشبه مجموعات جمال سود مقذوفة ، والجمل الأصفر هو الأسود الضارب إلى الصفرة ، قال النسفي : وشبّه الشرر بالقصر لعظمه وارتفاعه . وبالجمال للعظم والطول واللون ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بالرسل وباليوم الآخر وبالنار .

كلمة في السياق :

بعد هذا الذكر المتعدد لليوم الآخر ، في المجموعة الأولى ﴿ **لأي يوم أجّلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ ، وفي المجموعة الثانية ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ وفي المجموعات الثالثة والرابعة والخامسة كذلك ، بعد ذلك كله تأتي المجموعة السادسة والأخيرة ، وفيها حديث مباشر عن ذلك اليوم .

تفسير المجموعة السادسة من الفقرة الأولى :

﴿ **هذا يوم لا ينطقون** ﴾ أي : لا يتكلمون ، وذلك في موقف من مواقف القيامة إذ في بعضها يختصمون ، أو أن المراد بالنطق هنا النطق النافع ، فجعل نطقهم غير النافع كلانطق ، هذان اتجاهان ذكرهما النسفي ﴿ **ولا يُؤذَن لهم فيعتذرون** ﴾ أي : ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون أي : لا يكون لهم إذن واعتذار . قال ابن كثير : (أي : لا يقدرون على الكلام ، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ، وعرصات القيامة حالات ، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة ، وعن هذه الحال تارة ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾) ﴿ **هذا يوم الفصل** ﴾ بين الحق والباطل ، والحسن والسيء بالجزاء ﴿ **جمعناكم** ﴾ يا مكذبي هذه الأمة ﴿ **والأولين** ﴾ أي : والمكذبين قبلكم ﴿ **فإن كان لكم كيد** ﴾ أي : حيلة في دفع العذاب ﴿ **فكيدون** ﴾ أي : فاحتالوا عليّ بتخليص أنفسكم من العذاب ، قال ابن كثير : (هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، أي : إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي وتنجوا من حكمي فافعلوا فإنكم لا تقدرون على ذلك) ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ قال النسفي : (أي : بالبعث) .

كلمة في السياق :

عرفنا في المجموعة الأخيرة ماهية يوم الفصل ، وهو اليوم الذي يجمع الله عز وجل فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد من المصدقين والمكذبين للرسل ، ليحكم بينهم جميعاً ، وقد عرفنا مما مرّ حال المكذبين في ذلك اليوم ، ثمّ يأتي كلام عن حال المتقين في ذلك اليوم ، ثم يعود الحديث عن المكذبين ومواقفهم التي استحقوا بها ما استحقوا ، وذلك كله في الفقرة الثانية من السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (٤١) إلى نهاية الآية (٥٠) وهذه هي :

المجموعة الأولى

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥)

المجموعة الثانية

كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧)

المجموعة الثالثة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الثانية :

﴿ **إن المتقين في ظلال وعيون** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات وترك المحرمات ، إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون . أي : بخلاف ما لأولئك الأشقياء من ظل اليحموم وهو الدخان الأسود المنتن ، ثم قال تعالى : ﴿ **وفواكه مما يشتهون** ﴾ أي : لذيذة مشتهاة ، قال ابن كثير : أي : ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون** ﴾ قال ابن كثير : أي : يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم ، ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ أي : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ، فأحسنوا تُجزَوا بهذا ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ أي : بالجنة .

كلمة في السياق :

استقرت مقدمة السورة على قوله تعالى : ﴿ **إن ما توعدون لواقع** ﴾ ثم جاءت

الفقرة الأولى فبيّنت أن ذلك سيكون في يوم الفصل، وعرفنا من خلال لازمة السورة ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ ومن خلال ما مرّ، ماذا سيكون في هذا اليوم للمتقين وللمكذبين؟ والآن تأتي مجموعة تهدد المكذبين فتقول:

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الثانية :

﴿ **كلوا وتمتعوا قليلاً** ﴾ أي: مدة قليلة قريبة قصيرة، لأن متاع الدنيا قليل ﴿ **إنكم مجرمون** ﴾ أي: كافرون، أي: إن كل مجرم يأكل ويتمتع أياماً قلائل ثم يبقى في الهلاك الدائم، قال ابن كثير: في الآية خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمرهم أمر تهديد ووعيد ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر، ثمّ تأتي مجموعة تتحدث عن موقف المكذبين إذا أمروا بالصلاة.

تفسير المجموعة الثالثة من الفقرة الثانية :

﴿ **وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون** ﴾ أي: إذا قيل لهم: صلوا، لا يصلون، أو إذا قيل لهم: اخشعوا لله وتواضعوا إليه بقبول وحيه واتّباع دينه، ودعوا هذا الاستكبار، لا يركعون، أي: لا يخشعون، ولا يقبلون ذلك ويصرُّون على استكبارهم. قال ابن كثير في الآية: أي: إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا عن ذلك واستكبروا عنه، قال تعالى: ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر وبالأمر وبالنهي، ثم تأتي الآية الأخيرة ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون** ﴾ أي: فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون؟ قال النسفي: أي: إن لم يؤمنوا بهذا القرآن على أنه آية مبصرة، ومعجزة باهرة من بين الكتب السماوية، فبأي كتاب بعده يؤمنون؟ وقال ابن كثير: أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون به؟!. أقول: إن هذا القرآن لم يبق بعد بيانه بيان، ولا بعد حجته حجة، فإذا كانوا لم يصدقوا بعد هذا كله بالقرآن، وبما تحدّث عنه القرآن، ولم يعملوا بما أمر به فلم يبق هناك شيء ينفعهم.

كلمة في السياق :

١ - عرفنا من الآيات الأخيرة أن المكذبين همهم الأكل والمتاع، وأنهم يرفضون الخضوع لله، والصلاة له، وأنهم لا يؤمنون بالقرآن ومن قبل عرفنا أنهم يكذبون بيوم الدين، ويكذبون بخلق الله الأشياء، ويكذبون الرسل عليهم الصلاة والسلام، وعرفنا

من السورة أن ما يقابل المكذبين هم المتقون ، وعرفنا ما هؤلاء وهؤلاء ، وعرفنا أن الحجة قائمة على المكذبين ، وهكذا عرفنا أن وعد الله آت ، وعرفنا ما يكون فيه ، وعرفنا بما استوجب المكذبين ما استوجبوا ، وبما نال المتقين ما نالوه .

٢ - ومن خلال ما مرَّ معنا في السورة عرفنا أن التقوى والإحسان متلازمان ، وفي أوائل سورة البقرة عرفنا من هم المتقون ، وههنا عرفنا تفصيل ما أعدّ الله عز وجل لهم ، وعرفنا ما يقابل صفات المتقين ، فالإيمان بالغيب عند المتقين يقابله التكذيب عند الكافرين ، والإيمان باليوم الآخر عند المتقين يقابله التكذيب ، وإقامة الصلاة عند المتقين يقابلها رفض الركوع عند الكافرين ، والإيمان بالقرآن والاهتداء بهديه عند المتقين يقابله رفض الإيمان به عند الكافرين ، ومن ثَمَّ فإن السورة فصّلت في الآيات الخمس من سورة البقرة بشكل جديد ، وذلك من خلال ما يقابل قضية التقوى التي بدايتها الإيمان .

الفوائد :

١ - قدم ابن كثير لسورة المرسلات بهذه النصوص : (روى البخاري عن عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿ **والمرسلات** ﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية فقال النبي ﷺ : « اقتلوها » فابتدرناها فذهبت فقال النبي ﷺ : « وقيت شركم كما وقيتم شرها » وأخرجه مسلم أيضاً من طريق الأعمش .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن أمه سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً . وفي رواية مالك عن الزهري عن عبيد الله بن عباس أن أم الفضل سمعته يقرأ ﴿ **والمرسلات عرفاً** ﴾ فقالت : يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب . أخرجاه في الصحيحين من طريق مالك به) .

٢ - قلنا : إن في قوله تعالى ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين** ﴾ معجزة علمية وممن تكلّم عن هذا الموضوع الدكتور الطبيب خالص كنجو في كتابه (الطبّ محراب للإيمان) الجزء الثاني ، وقد استغرق كلامه عن هذا الموضوع عشر صفحات من الصفحة (٣٤١) إلى الصفحة (٢٥١) وقد تحدّث عن آيات

سورة المرسلات التي تحدثت عن الجنين تحت عنوان (كيف يمكن اعتبار الرحم قراراً مكيناً) فذكر عدّة عناوين : تصفيح عظمي - حماية مشدّدة في أشهر الحمل الأولى - جسر معلّق - سنادات عضلية من الأسفل - قرار هرموني ... ومن كلامه في هذا البحث :

(إن القرآن تحدث ببعد لغوي لم يكن في وقته في الواقع من التشريح والفيزيولوجيا وعلم النسج ، وعلم التوليد الطبيعي والمرضي ، وعلم النسائية ، ومع تفتح الإمكانيات وكشف أسرار الجسم لوحظ أن الآية ذات تحليق خالد حقاً على العديد من المستويات .

ولنحاول الآن أن نتناول وحدات من البحث ، ونغوص في درجات البحث العلمي بهدوء .

تصفيح عظمي : لنحاول إلقاء نظرة تشريحية لنعرف قرار الرحم الفراغي ، إن الرحم يمكن اعتباره من الوجهة الفراغية في منتصف الجسم تماماً طولاً وعرضاً وعمقاً ، وهكذا فهو يتلقى الحماية من كافة الجهات ، غير أن هناك حماية مهمة على مستوى الحوض ، حيث إن مكونات الحوض هي عظم العجز والعصعص بالخلف ، ومن الجانبين والأمام يوجد عظمان هما عظما الحرقفة هذا العظم هو حلقة الاتصال ما بين العمود الفقري في الأعلى والعجز بالخلف ، وعظم الفخذ من الأسفل وهو ما يسمى بالزنار الحوضي ، وهنا ملاحظتان : الأولى : أن هذا العظم يحمي الرحم تماماً ، ويكون جوفاً يستقر الرحم فيه بحماية من كافة الجوانب ، والثانية : أن هذه الحماية يجب أن تتلاءم مع وظيفة أخرى وهي التناسب مع شكل الجنين ؛ لأن أية زيادة طفيفة في الطول أو الارتفاع أو العمق أو الثنيات والحفر يجعل دخول الجنين وخلاصه مستحيلاً ...) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن أبي عبد الله الجدلي قال : أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو ، وكعب الأحبار ، يتحدثون في بيت المقدس فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ينفذهم ويسمعهم الداعي ويقول الله : ﴿ **هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون** ﴾ اليوم لا ينجو مني جبار عنيد ، ولا شيطان مريد ، فقال عبد الله بن عمرو : فإنا نحدث يومئذ أنها تخرج عنق من النار فتنطلق حتى إذا كانت بين ظهراني الناس نادت : أيها الناس إني بعثت إلى ثلاثة أنا أعرف بهم من

الأب بولده ، ومن الأخ بأخيه ، لا يغيبهم عني وزر ، ولا تخفيهم عني خافية : الذي جعل مع الله إلهاً آخر ، وكل جبار عنيد ، وكل شيطان مريد ، فتنطوي عليهم فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن إسماعيل بن أمية : سمعت رجلاً أعرابياً يقول : سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ والمرسلات عرفاً - فقرأ ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون ؟** ﴾ فليقل : آمنت بالله وبما أنزل) .

كلمة أخيرة في سورة المرسلات :

في مقدمة سورة البقرة كان حديث عن المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون ، والذين يؤمنون بالقرآن ، واليوم الآخر . وقد تحدّثت سورة المرسلات عن النقيض هنا فعرفت بذلك التقوى ، وعرف المتقون ، وقد رأينا تسلسل المعاني في السورة ، فاتّضح السياق الخاص والعام للسورة ، فلننتقل إلى أختها في المجموعة سورة النبأ .

☆ ☆ ☆

الأب بولده ، ومن الأخ بأخيه ، لا يغيبهم عني وزر ، ولا تخفيهم عني خافية : الذي جعل مع الله إلهاً آخر ، وكل جبار عنيد ، وكل شيطان مريد ، فتنطوي عليهم فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن إسماعيل بن أمية : سمعت رجلاً أعرابياً يقول : سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ والمرسلات عرفاً - فقرأ ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون ؟** ﴾ فليقل : آمنت بالله وبما أنزل) .

كلمة أخيرة في سورة المرسلات :

في مقدمة سورة البقرة كان حديث عن المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون ، والذين يؤمنون بالقرآن ، واليوم الآخر . وقد تحدّثت سورة المرسلات عن النقيض هنا فعرفت بذلك التقوى ، وعرف المتقون ، وقد رأينا تسلسل المعاني في السورة ، فاتّضح السياق الخاص والعام للسورة ، فلننتقل إلى أختها في المجموعة سورة النبأ .

☆ ☆ ☆

سورة النبأ

وهي السوورة الثامنة والسبعون بحسب الرسم القرآني

وهي السورة الثانية والأخيرة من المجموعة الثامنة من

قسم المفصل ، وهي أربعون آية

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة النبأ ومحورها :

قلنا إن محور سورة النبأ هو محور سورة (صٓ) أي : قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ۞ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ ، ومن ثَمَّ نجد السورة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **عَمَّ يتساءلون ۞ عن النبأ العظيم ...** ﴾ فهي تبدأ بذكر تساؤل يطرحه الكافرون ، وترد عليه ، وتنتهي السورة بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ۞ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً** ﴾ فبداية السورة تتحدث عن تساؤل للكافرين ، ونهاية السورة تتحدّث عن الإنذار ، ولذلك صلاته بمحور السورة ، فسورة النبأ وسورة المرسلات كلاهما تفصّل في مقدمة سورة البقرة .

....

رأينا أن سورة المرسلات ختمت بقوله تعالى : ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون** ﴾ أي : فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون ، والملاحظ أن سورة النبأ تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **عَمَّ يتساءلون ۞ عن النبأ العظيم** ﴾ قد فسّر مجاهد النبأ العظيم بأنه القرآن ، فالصلة بين نهاية سورة المرسلات وبداية سورة النبأ واضحة ، وعلى القول بأن المراد بالنبأ العظيم اليوم الآخر ، فإن الصلة كذلك قائمة ، إذ الحديث عن اليوم الآخر يستغرق معظم سورة المرسلات .

....

ويلاحظ أن تعبير يوم الفصل ذكر في سورة المرسلات ، وذكر كذلك في سورة النبأ ففي سورة المرسلات قال تعالى : ﴿ **لأي يوم أجّلت ۞ ليوم الفصل ۞ وما أدراك ما يوم الفصل ؟** ﴾ ﴿ **هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين** ﴾ ، وفي سورة النبأ يأتي قوله تعالى : ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ فإذا تذكّرنا أن مقدمة سورة البقرة تتحدث عن المتقين والكافرين والمنافقين ندرك صلة السورتين اللتين تتحدثان عن يوم الفصل بهذه المقدمة ، فهذه المجموعة تتحدّث بشكل رئيسي عن يوم الفصل الذي يفصل الله به بين الكافرين والمتقين ، وهذا المعنى وحده كافٍ لإدراك الصلة بين المجموعة وبين مقدمة سورة البقرة التي هي محور السورتين ، ومن ثَمَّ فإن سورة المرسلات كان أكثر حديثها عن الكافرين ، وإن كانت تفصّل في الآيات الخمس الأولى ، وسورة النبأ

تتحدث عن المتقين ، وإن كانت تفصّل في الآيتين اللاحقتين ، فذكر النقيض أحياناً يوضح النقيض ، والكلام عن المتقين يقتضي الكلام عن الكافرين ، والكلام عن الكافرين يقتضي الكلام عن المتقين .

....

تتألف السورة من مقدمة هي خمس آيات ، ومن فقرتين ، وخاتمة هي آية واحدة ، الفقرة الأولى تمتد حتى الآية (١٦) والفقرة الثانية تمتدّ حتى الآية (٣٩) .

بين يدي سورة النبأ :

قال الألوسي عن سورة النبأ : (وتسمى سورة عمَّ ، وعمَّ يتساءلون ، والتساؤل ، والمعصرات ، وهي مكية بالاتفاق . وآيها إحدى وأربعون في المكي والبصري ، وأربعون في غيرهما ؛ ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمالها على إثبات القدرة على البعث الذي دل ما قبل على تكذيب الكفرة به وفي تناسق الدرر وجه اتصالها بما قبلها تناسبها معها في الجمل فإن في تلك ﴿ **ألم نهلك الأولين** ﴾ ، ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾ ، ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتاً** ﴾ ... إلخ وفي هذه ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ الخ ، مع اشتراكها والأربع قبلها في الاشتمال على وصف الجنة والنار وما وعد المدثر ، وأيضاً في سورة المرسلات ﴿ **لأي يوم أجّلت • ليوم الفصل • وما أدراك ما يوم الفصل** ﴾ وفي هذه ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ الخ ، ففيها شرح يوم الفصل المجمل ذكره فيما قبلها . اهـ . وقيل : إنه تعالى لما ختم تلك بقوله سبحانه : ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون** ﴾ وكان المراد بالحديث فيه القرآن ، افتتح هذه بتهويل التساؤل عنه والاستهزاء به ، وهو مبني على ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن المراد بالنبأ العظيم : القرآن ، والجمهور على أنه البعث) . وسنرى ما فيه .

....

ولنبدأ عرض السورة .

مقدمة السورة

وتمتدّ من الآية (١) حتى نهاية الآية (٥) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)

التفسير :

﴿ **عم يتساءلون** ﴾ أي : عن ما يتساءلون أي : يتساءلون عن ماذا ؟ قال النسفي : وهذا استفهام تفخيم للمستفهم عنه ، لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿ **عن النبأ العظيم** ﴾ هذا بيان للشأن المفخم ، وما هو النبأ العظيم ، قال قتادة وابن زيد : النبأ العظيم : البعث بعد الموت ، وقال مجاهد : هو القرآن ، قال ابن كثير : والأظهر الأول ، قال ابن كثير في الآيتين بناءً على ترجيحه : يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة ، وإنكارهم لوقوعها ﴿ **عَمَّ يتساءلون * عن النبأ العظيم** ﴾ أي : عن أيّ شيء يتساءلون ؟ ، عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعني : الخبر الهائل المفظع الباهر ﴿ **الذي هم فيه مختلفون** ﴾ قال ابن كثير : يعني : الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر ، قال النسفي : منهم من يقطع بإنكاره ، ومنهم من يشك ، قال ابن كثير : ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة : ﴿ **كلا** ﴾ قال النسفي : ردع عن الاختلاف أو التساؤل هزءاً ﴿ **سيعلمون** ﴾ قال النسفي : وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون عياناً أن ما يتساءلون عنه حق ﴿ **ثم كلا** ﴾ قال النسفي : كرّر الردع للتشديد و (ثم) يشعر بأن الثاني أبلغ من الأول وأشدّ ﴿ **سيعلمون** ﴾ . قال ابن كثير في الآيتين : وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد .

كلمة في السياق :

تبدأ السورة بسؤالين : عن أيّ شيء يتساءل المشركون والكافرون ؟ وهل تساؤلهم

عن النبأ العظيم المختلفين في شأنه ؟ ، ثم تهدّد وتنذر أنهم سيعلمون قطعاً الحق في شأن هذا النبأ العظيم ، فما هو النبأ العظيم ؟ ابن كثير يذكر قولين في شأنه : إنه القرآن أو اليوم الآخر . وابن جرير يذكر قولاً ثالثاً أن النبأ العظيم هو بعث النبي ﷺ ، فإذا رجعت إلى قوله تعالى في سورة (صۤ) ﴿ **قل هو نبأ عظيم** ﴾ نجد أن ابن كثير ذكر هناك قولاً واحداً فيه أنه القرآن ، والنسفي ذكر قولاً واحداً فيه أنه بعثة رسول الله ﷺ ، والذي نرجحه أن النبأ العظيم في المقامين واحد ، وأنه القرآن العظيم . ولعل الشيخ عبد الله دراز أخذ اسم كتابه عن القرآن (النبأ العظيم) من هاتين الآيتين ، مما يشير إلى ترجيحه هذا الرأي ، وهو قول مجاهد رحمه الله ، والذي جعلنا نرجّح هذا الاتجاه هو قوله تعالى : ﴿ **الذي هم فيه مختلفون** ﴾ فالظاهر أن الكلام عن المتسائلين وهم الكافرون ، والكافرون ليسوا مختلفين في شأن اليوم الآخر ، إذ إنهم ينكرونه ولكنهم يختلفون في القرآن ، فمنهم من يسميه شعراً ، ومنهم من يسمّيه سحراً ، ومنهم من يسمّيه أساطير الأولين ، ومنهم من يسمّيه كهانة ، وهو الذي عنه أعرضوا ، كما قصّ الله علينا شأنهم في سورة (صۤ) ، وعلى هذا يكون معنى المقدمة على الشكل التالي :

عن أيّ شيء يتساءل هؤلاء الكافرون ، أيتساءلون عن هذا القرآن الذي يختلفون في شأنه ، فبعضهم يعتبره سحراً ، وبعضهم يعتبره شعراً ، وبعضهم يعتبره أساطير الأولين ، وبعضهم يعتبره كهانة ، وقد ردّ الله عليهم : أنّ الأمر لا كما تتصورون ولا كما تزعمون ، بل ستعلمون يقيناً أنه حق لا مرية فيه ، وأن ما أخبر عنه كائن وحق ، وذلك يوم تبعثون ، وذلك يوم الفصل ، ولمّا كانوا يكذبون بيوم الفصل ، فإن الفقرة الأولى في السورة تتحدّث عن مظاهر قدرة الله عز وجل ، لتقيم عليهم الحجة ، أنّ البعث الذي سيرون فيه صدق القرآن كائن ، ثم تأتي الفقرة الثانية لتحدثنا عن اليوم الذي سيعلمون فيه صدق القرآن ، ثم تأتي الخاتمة لتبيّن لهم أن هذا القرآن الذي أنزله الله عز وجل قد تمّ به الإنذار بيوم القيامة ، فخاتمة السورة تشير إلى بدايتها فقوله تعالى في الخاتمة : ﴿ **إنا أنذرناكم** ﴾ يشير إلى القرآن الذي به كان الإنذار ، وذلك يجعلنا نستأنس لصحة ما اتجهنا إليه في أن النبأ العظيم هو القرآن .

....

قلنا : إن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ۝ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة**

ولهم **عذاب عظيم** ﴾ ومقدّمة سورة النبأ أرتنا موقفاً للكافرين ، وأشعرتنا أنهم لا يؤمنون ، وأفهمتنا أن أمامهم عذاباً عظيماً ﴿ **كلا سيعلمون** ، **ثم كلا سيعلمون** ﴾ .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتدّ من الآية (٦) إلى نهاية الآية (١٦) وهذه هي :

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

كلمة في السياق :

تأتي الفقرة بعد قوله تعالى : ﴿ **كلا سيعلمون** ، **ثم كلا سيعلمون** ﴾ إنهم سيعلمون يوم القيامة أن كل ما ذكره القرآن حق ، ومن ثَمَّ فإن الفقرة تذكر من مظاهر قدرة الله عز وجل ، ما به يتذكر الإنسان أن الله عز وجل قادر على إنشائه مرة ثانية ، كما تشير إلى الحكمة في صنع الله عز وجل ، وهذا يقتضي أن يكون هناك بعث ، وقد ذكر هاتين النقطتين النسفي مبيّناً حكمة مجيء هذه الفقرة بعد المقدمة فقال : (لما أنكروا البعث قيل لهم : ألم يخلق من أضيف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة ؟ فلِمَ تنكرون قدرته على البعث وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات ؟ أو قيل لهم : لِمَ فعل هذه الأشياء ؟ - والحكيم لا يفعل عبثاً - ، وإنكار البعث يؤدي إلى أنه عابث في كل ما فعل) . أقول : إن ذكر هذه الفقرة في هذا السياق يشير إلى أن الله عز وجل الذي خلق هذا كله لا يترك الإنسان بلا هداية ، ولا تكليف ، وهؤلاء الذين يكفرون

بالقرآن لا يدركون هذا ، فالله الذي خلق هذا هو الذي أنزل هذا القرآن ، ذلك مقتضى حكمته وعظمته ، فكيف يكفرون بهذا القرآن ، وآثار قدرة الله عز وجل تشير إلى حكمته ، وحكمته تقتضي هداية خلقه ، وذلك يقتضي وحياً وبعثة رسول وهم ينكرون ذلك ، ويتساءلون عنه ، ويختلفون فيه ، فالفقرة تؤدي مجموعة أهداف بآن واحد فلنر تفسيرها .

﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ قال النسفي : (أي : فراشاً فرشناها لكم حتى سكنتموها) أقول : أي : ممهدة للخلائق ذلولاً لهم ﴿ **والجبال أوتاداً** ﴾ قال النسفي : (أي : للأرض لئلا تميد بكم) أقول : في الآية معجزة علمية سنراها ﴿ **وخلقناكم أزواجاً** ﴾ قال ابن كثير : يعني : ذكراً وأنثى يتمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ﴿ **وجعلنا نومكم سباتاً** ﴾ قال النسفي : (أي : قطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم . والسبت : القطع) وقال ابن كثير : أي : قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش في عرض النهار ﴿ **وجعلنا الليل لباساً** ﴾ قال النسفي : أي : ستراً يستركم عن العيون إذا أردتم إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه ، وقال ابن كثير : أي : يغشى الناس ظلامه وسواده ، وقال قتادة : أي : سكناً ﴿ **وجعلنا النهار معاشاً** ﴾ قال ابن كثير : أي : جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ؛ ليتمكن الناس من التصرف فيه ، والذهاب والمجيء للمعاش والكسب والتجارات وغير ذلك . وقال النسفي : أي : وقت معاش تتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم ﴿ **وبنينا فوقكم سبعاً شداداً** ﴾ أي : سبع سموات شديدة ، أي : محكمة قوية ، وقال ابن كثير : يعني : السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها ، وإتقانها وتزيينها ... ﴿ **وجعلنا سراجاً وهاجاً** ﴾ قال النسفي : أي : مضيئاً وقاداً ، أي : جامعاً للنور والحرارة والمراد الشمس ، وقال ابن كثير : يعني : الشمس المنيرة التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض ﴿ **وأنزلنا من المعصرات** ﴾ قال النسفي : أي : السحائب إذا أعصرت أي : شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر ، قال ابن كثير : والأظهر أن المراد بالمعصرات السحاب ﴿ **ماءً ثجاجاً** ﴾ أي : منصباً بكثرة ، ﴿ **لنخرج به** ﴾ أي : بالماء ﴿ **حباً** ﴾ كالبر والشعير ﴿ **ونباتاً** ﴾ قال ابن كثير : أي : خضراً يؤكل رطباً ﴿ **وجنات** ﴾ أي : بساتين ﴿ **ألفافاً** ﴾ أي : ملتفة الأشجار أو مجتمعها ، قال ابن كثير : أي : بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة الطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً . وبهذا انتهت الفقرة .

وقد علّق صاحب الظلال على مضمون هذه الفقرة بقوله : (وهذا التناسق في تصميم الكون ، لا يكون إلا ووراءه يد تنسقه ، وحكمة تقدره ، وإرادة تدبره . يدرك هذا بقلبه وحسه كل إنسان حين توجه مشاعره هذا التوجيه ، فإذا ارتقى في العلم والمعرفة تكشفت له من هذا التناسق آفاق ودرجات تذهل العقول وتحير الألباب . وتجعل القول بأن هذا كله مجرد مصادفة قولاً تافهاً لا يستحق المناقشة . كما تجعل التهرب من مواجهة حقيقة القصد والتدبير في هذا الكون ، مجرد تعنت لا يستحق الاحترام !

إن لهذا الكون خالقاً ، وإن وراء هذا الكون تدبيراً وتقديراً وتنسيقاً . وتوالي هذه الحقائق والمشاهد في هذا النص القرآني على هذا النحو : من جعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً . وخلق الناس أزواجاً . وجعل نومهم سباتاً (بعد الحركة والوعي والنشاط) مع جعل الليل لباساً للستر والانزواء ، وجعل النهار معاشاً للوعي والنشاط . ثم بناء السبع الشداد . وجعل السراج الوهاج . وإنزال الماء الثجاج من المعصرات . لإنبات الحب والنبات والجنات ... توالي هذه الحقائق والمشاهد على هذا النحو يوحي بالتناسق الدقيق ، ويشي بالتدبير والتقدير ، ويشعر بالخالق الحكيم القدير . ويلمس القلب لمسات موقظة موحية بما وراء هذه الحياة من قصد وغاية ... ومن هنا يلتقي السياق بالنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون !) .

كلمة في السياق :

جاءت هذه الفقرة بعد قوله تعالى : ﴿ **ثم كلا سيعلمون** ﴾ وقبل قوله تعالى : ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ ومجيئها في هذا المقام يحوي رداً على تساؤلات الكافرين الواردة في المقدمة ، ورداً على اختلافهم في شأن النبأ العظيم ، وتدليلاً على اليوم الآخر الذي سيعلمون فيه أن ما قاله القرآن حق ، وذلك من خلال التذكير بظاهرة العناية ، وظاهرة الحكمة ، ومن خلال عرض مظاهر القدرة الإلهية حتى إذا اتضح هذا كله تأتي الفقرة الثانية ، وفيها كلام عما سيلقونه يوم القيامة ، وعما سيلقاه المتقون فيها ، أي : فيها كلام عن اليوم الذي سيعلمون فيه الحق فيما أخبرهم به القرآن فالسياق يقول ﴿ **كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون** ﴾ فإذا سأل سائل متى هذا ؟ كان الجواب : ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ... ﴾ وجاءت الفقرة الأولى فيما بين ذلك لتخدم ما قبلها وما بعدها بأن ترد على مواقف الكافرين المذكورة قبلها وتؤسس للكلام الذي يأتي بعدها فلنر الفقرة الثانية .

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (١٧) إلى نهاية الآية (٣٩) وهذه هي :

المجموعة الأولى

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)

المجموعة الثانية

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩)

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الثانية :

﴿ **إن يوم الفصل** ﴾ بين أهل الكفر والإيمان ، بين المحسن والمسيء ، والمحق

والمبطل ، ﴿ **كان ميقاتاً** ﴾ قال النسفي : (أي : وقتاً محدوداً ومنتهى معلوماً لوقوع الجزاء أو ميعاداً للثواب والعقاب) وقال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزاد عليه ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على اليقين إلا الله عز وجل ، ثم بيّن الله عز وجل هذا اليوم فقال : ﴿ **يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً** ﴾ قال النسفي : أي : جماعات مختلفة ، أو أمماً كل أمة مع رسولها ﴿ **وفتحت السماء فكانت أبواباً** ﴾ أي : وشقّت السماء فكانت طرقاً ومسالك لنزول الملائكة ﴿ **وسُيّرت الجبال فكانت سراباً** ﴾ قال ابن كثير : أي : يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء ، وبعد هذا تذهب بالكلية ، فلا عين ولا أثر ، ﴿ **إنّ جهنم كانت مرصاداً** ﴾ قال ابن كثير : أي : مرصدة معدّة ﴿ **للطاغين** ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ﴿ **مآباً** ﴾ أي : مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً ﴿ **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ قال ابن كثير : أي : ماكثين فيها أحقاباً ، وهو جمع حقب وهو المدة من الزمان . قال النسفي : وهو الدهر ، ولم يرد به عدد محصور ، بل الأبد ، كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية ، ولا يستعمل الحقب والحقبة إلا إذا أريد تتابع الأزمنة وتواليها ﴿ **لا يذوقون فيها برداً** ﴾ أي : روحاً ينفّس عنهم حر النار ﴿ **ولا شراباً** ﴾ يسكّن عطشهم ﴿ **إلا حميماً** ﴾ قال النسفي : أي : ماءً حاراً يحرق ما يأتي عليه ﴿ **وغسّاقاً** ﴾ قال النسفي : أي : ماء السيل من صديدهم ، قال ابن كثير : فأما الحميم : فهو الماء الذي قد انتهى حره وحموه ، والغسّاق هو : ما اجتمع من صديد أهل النار ، وعرقهم ، ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطاع من برده ، ولا يواجه من نتنه . وفي الآيات الثلاث الأخيرة قال ابن كثير نقلاً عن ابن جرير : ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿ **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ متعلقاً بقوله تعالى : ﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً** ﴾ ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذاباً من شكل آخر ، ونوع آخر ، وبعد أن عرض النسفي هذا القول قال : فإذا انقضت هذه الأحقاب التي عُذّبوا فيها بمنع البرد والشراب ، بدّلوا بأحقاب أُخر ، فيها عذاب آخر ، وهي أحقاب بعد أحقاب ، لا انقطاع لها . أقول : وعلى كل حال فلا يجوز أن تفهم بشكل من الأشكال أن عذاب الكافرين في النار إلى نهاية ، بل ذلك هو الكفر كائناً من كان صاحبه ، لأن الخلود الأبدي للكفار في النار من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ﴿ **جزاءً وفاقاً** ﴾ أي : جوزوا جزاءً موافقاً لأعمالهم ، أو ذا وفاق لأعمالهم ، أي : هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في

الدنيا ، ثمّ علّل تعالى لاستحقاقهم ذلك بقوله : ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حساباً** ﴾ أي : لا يخافون محاسبة الله إياهم ، أو لم يؤمنوا بالبعث فيرجوا حساباً ، قال ابن كثير : أي : لم يكونوا يعتقدون أنّ ثمّ داراً يجازون فيها ، ويحاسبون ﴿ **وكذبوا بآياتنا** ﴾ أي : بالقرآن ﴿ **كِذّاباً** ﴾ أي : تكذيباً ، قال ابن كثير : أي : وكانوا يكذّبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله صلى الله عليهم وسلم فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة ﴿ **وكل شيء أحصيناه كتاباً** ﴾ أي : مكتوباً في اللوح أو المعنى : كتبناه كتابة ، قال ابن كثير : أي : وقد علمنا أعمال العباد كلهم وكتبناها عليهم ، وسنجزيهم على ذلك إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ **فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً** ﴾ قال ابن كثير : أي : يقال لأهل النار ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه ، وآخر من شكله أزواج .

كلمة في السياق :

١ - لقد علّل الله عز وجل لما استحق به الكافرون ما استحقوه بقوله : ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حساباً** ، **وكذبوا بآياتنا كِذّاباً** ﴾ فهما قضيتان : التكذيب بآيات الله ، وعدم رجاء الحساب ، ومن ههنا نعلم ماهية النبأ العظيم ، فالنبأ العظيم هو القرآن الذي تحدّث عن اليوم الآخر ، وهكذا عرفنا من هذه المجموعة ماهية النبأ العظيم ، وعرفنا بماذا تهدّد الله عزّ وجلّ به الكافرين بقوله : ﴿ **كلا سيعلمون ...** ﴾ .

٢ - بعد أن عرض الله عز وجل ما أعد للكافرين يحدّثنا في المجموعة الثانية من الفقرة الثانية عمّا أعده عز وجل للمتقين ، وفي ذكر ما أعده الله عز وجل للمتقين في هذا السياق إشارة إلى أن ما يعطاه المتقون يوم القيامة نوع عذاب للكافرين ، وزيادة حسرة ، أخذنا ذلك من مجيء هذه المجموعة في سياق السورة التي قالت مقدّمتها ﴿ **ثم كلا سيعلمون** ﴾ .

٣ - حدثنا محور السورة أن للكافرين عذاباً عظيماً : ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ وقد فصّلت المجموعة التي مرّت معنا في ماهية هذا العذاب العظيم .

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الثانية :

﴿ **إن للمتقين مفازاً** ﴾ أي : نجاة من كل مكروه ، وظفراً بكل محبوب ، قال ابن عباس : أي : متنزهاً ﴿ **حدائق** ﴾ أي : بساتين فيها أنواع الشجر المثمر

﴿ وأعناباً ﴾ قال النسفي : أي : كروماً ﴿ وكواعب ﴾ أي : نواهد ، والنواهد هنّ اللواتي أثداؤهن لم يتدلّين ﴿ أتراباً ﴾ أي : في سن واحدة ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال النسفي : أي : مملوءة ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾ قال ابن كثير : أي : ليس فيها كلام لاغٍ عارٍ عن الفائدة ، ولا إثم كذب ، بل هي دار السلام ، وكل ما فيها سالم من النقص ﴿ جزاءً من ربك عطاءً حساباً ﴾ قال النسفي : يعني : كافياً أو على حسب أعمالهم ، وقال ابن كثير : أي : هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به ، وأعطاهموه بفضله ، ومنّه وإحسانه ورحمته عطاءً حساباً أي : كافياً وافياً سالماً كثيراً ، تقول العرب : أعطاني فأحسبني ، أي : كفاني ، ومنه حسبي الله أي : كافيّ ﴿ رب السموٰات والأرض وما بينهما الرحمن ﴾ أي : من هذه صفته هو الذي يعطيهم هذا العطاء ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ قال النسفي : أي : لا يملكون الشفاعة من عذابه تعالى إلا بإذنه ، أو لا يقدر أحد أن يخاطبه تعالى خوفاً ، قال ابن كثير : أي : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه . أقول : هذا مع اتصافه بكمال الرحمة جل جلاله ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ قال النسفي : أي : جبريل عند الجمهور ﴿ والملائكة صفاً ﴾ أي : مصطفين ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ﴾ أي : في أمر الشفاعة ﴿ وقال صواباً ﴾ قال النسفي : حقاً بأن قال المشفوع له : لا إله إلا الله في الدنيا ، أو لا يؤذن إلا لمن يتكلم بالصواب في أمر الشفاعة ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ أي : الكائن لا محالة ، أي : الثابت وقوعه ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ أي : مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه ، ومنهجاً يمر به عليه ، وقال النسفي : أي : مرجعاً بالعمل الصالح .

كلمة في السياق :

١ - بدأت الفقرة الثانية بقوله تعالى : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ وانتهت بقوله تعالى : ﴿ ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ وفي ذلك ما يشير إلى وحدة الفقرة الثانية التي عرضناها على مجموعتين .

٢ - بدأت السورة بالإنكار على تساؤل الكافرين عن النبأ العظيم ، المختلفين في شأنه ، ثم هدّدتهم بيوم ، ثم ذكّرتهم بما يقتضي إيمانهم ، ثم تحدثت عن هذا اليوم الذي هدّدوا فيه وهو يوم الفصل ، وذكرت بعض ما يكون فيه مما سيعرفهم على أن كفرهم كان في غير محلّه ، وأنّ الحقّ هو ما دلّ عليه هذا القرآن ، وختمت الفقرة الثانية بما يهيّج على السير إلى الله عز وجل ، ثمّ تأتي الخاتمة لتبين أن الله عز وجل قد أنذر الخلق - بهذا

القرآن - ذلك اليوم ، فليس لهم حجة في عدم السير ، ولا في الكفر فلنر خاتمة السورة :

☆ ☆ ☆

خاتمة السورة

وهي آية واحدة ، وهي الآية الأربعون وهذه هي :

إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

التفسير :

﴿ **إنا أنذرناكم عذاباً قريباً** ﴾ قال ابن كثير : يعني : يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً ، لأن كل ما هو آت آت ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه** ﴾ قال ابن كثير : أي : يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها ، قديمها وحديثها ﴿ **ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً** ﴾ قال النسفي : أي : في الدنيا فلم أخلق ولم أكلّف ، أو ليتني كنت تراباً في هذا اليوم ، فلم أبعث . قال ابن كثير : (أي : يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً ، ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، وذلك حين عاين عذاب الله ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة . وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور ، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء ، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كوني تراباً ، فتصير تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر ﴿ **يا ليتني كنت تراباً** ﴾ أي : كنت حيواناً فأرجع إلى التراب ، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما) .

كلمة في السياق :

١ - بدأت السورة بالإنكار على من لم يؤمن بالقرآن ، وختمت بذكر مضمون الإنذار ، ولا شك أن وسيلة الإنذار هي القرآن ، وفيما بين المقدمة والخاتمة ذكر الله

عز وجل ما به تقوم الحجة ، وما يعرف به مضمون ما يحدث في ذلك اليوم الذي أنذروه .

٢ - قلنا إن محور السورة هما الآيتان السادسة والسابعة من مقدمة سورة البقرة ، فلنر كل جزء منهما وما فصّلت فيه سورة النبأ .

- ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ . لقد رأينا في السورة نموذجاً من مواقف الكافرين ، إذ يتساءلون تساؤل إنكار واستهزاء عن هذا القرآن الذي هو نذير ، وأنزل على النذير ، وفي ذلك بيان عملي لمواقف الكافرين وأنهم يرفضون الإنذار ويختلفون في شأن النذير الذي هو القرآن ، ويتساءلون عنه سؤال استهزاء وإنكار ، وقد ردت السورة عليهم وأقامت الحجة دون أن تخاطبهم خطاباً مباشراً ﴿ **ألم نجعل الأرض ...** ﴾ ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً** ﴾ وذلك أعظم مظهر لصلة السورة بمحورها ، فقد سجّل في السورة بشكل غير مباشر أنهم لا يستفيدون من الإنذار مع إقامة الحجة عليهم .

- ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ رأينا في السورة تفصيلاً للعذاب العظيم الذي سيصيب هؤلاء الكافرين ، وقد رأينا في السورة معاني جديدة لم تذكر في مكان آخر من القرآن ، مما يؤكّد ما ذكرناه من قبل أن كل سورة فيها جديد .

الفـوائـد :

١ - قلنا عند قوله تعالى : ﴿ **والجبال أوتاداً** ﴾ إن في هذه الآية معجزة علمية فممّا تحدّث عنه الجيولوجيون في عصرنا أن لكل جبل في الأرض جذراً وتدياً في باطن الأرض يعدل ضعفي ارتفاعه فوق الأرض ، فالتعبير بكلمة (أوتاداً) عن الجبال فيه معجزة في حد ذاته ، لأنه إخبار عن معنى ما عرف العالم دقائقه بما يتفق مع اللفظ القرآني إلا قريباً .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا نومكم سباتاً** ﴾ قال صاحب الظلال : (وكان من تدبير الله للبشر أن جعل النوم سباتاً يدركهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ؛ ويجعلهم في حالة لا هي موت ولا هي حياة ، تتكفل بإراحة أجسادهم وأعصابهم وتعويضها عن الجهد الذي بذلته في حالة الصحو والإجهاد والانشغال بأمور

الحياة ... وكل هذا يتم بطريقة عجيبة لا يدرك الإنسان كنهها ، ولا نصيب لإرادته فيها ؛ ولا يمكن أن يعرف كيف تم في كيانه . فهو في حالة الصحو لا يعرف كيف يكون وهو في حالة النوم . وهو في حالة النوم لا يدرك هذه الحالة ولا يقدر على ملاحظتها ! وهي سر من أسرار تكوين الحي لا يعلمه إلا من خلق هذا الحي وأودعه ذلك السر ؛ وجعل حياته متوقفة عليه . فما من حي يطيق أن يظل من غير نوم إلا فترة محدودة . فإذا أجبر إجباراً بوسائل خارجة عن ذاته كي يظل مستيقظاً فإنه يهلك قطعاً .

وفي النوم أسرار غير تلبية حاجة الجسد والأعصاب ... إنه هدنة الروح من صراع الحياة العنيف ، هدنة تلم بالفرد فيلقي سلاحه وجنته - طائعاً أو غير طائع - ويستسلم لفترة من السلام الآمن ، السلام الذي يحتاجه الفرد حاجته إلى الطعام والشراب . ويقع ما يشبه المعجزات في بعض الحالات حيث يلم النعاس بالأجفان ، والروح مثقل ، والأعصاب مكدودة ، والنفس منزعجة ، والقلب مروع . وكأنما هذا النعاس - وأحياناً لا يزيد على لحظات - انقلاب تام في كيان هذا الفرد . وتجديد كامل لا لقواه بل له هو ذاته ، وكأنما هو كائن حين يصحو جديد ... ولقد وقعت هذه المعجزة بشكل واضح للمسلمين المجهودين في غزوة بدر وفي غزوة أحد ، وامتنّ الله عليهم بها . وهو يقول : ﴿ **إذ يغشّيكم النعاس أمنة منه** ﴾ ... ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم** ﴾ ... كما وقعت للكثيرين في حالات مشابهة !

فهذا السبات : أي : الانقطاع عن الإدراك والنشاط بالنوم ضرورة من ضرورات تكوين الحي ؛ وسر من أسرار القدرة الخالقة ؛ ونعمة من نعم الله لا يملك إعطاءها إلا إياه . وتوجيه النظر إليها على هذا النحو القرآني ينبه القلب إلى خصائص ذاته ، وإلى اليد التي أودعتها كيانه ، ويلمسه لمسة تثير التأمل والتدبر والتأثر) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً** ﴾ قال ابن كثير : (قال قتادة عن أبي أيوب الأزدي عن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ **فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً** ﴾ قال : فهم في مزيد من العذاب أبداً) . أقول : وفي الآية رد على من ذهب إلى أن أهل النار يموتون أو ينتهي عذابهم ، أو يصبحون في وضع يستلذون به العذاب ، نسأل الله أن يميتنا على الفهم الفطري الصافي لكتاب الله الذي يحبه ويرضاه ، ويكرم أهله بكرامة الدارين .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون**

إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ قال النسفي : (اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ، ما هو ؟ على أقوال (أحدها) ما رواه العوفي عن ابن عباس : أنهم أرواح بني آدم . (الثاني) هم بنو آدم قاله الحسن وقتادة ، وقال قتادة : هذا مما كان ابن عباس يكتمه . (الثالث) أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم وليسوا بملائكة ولا ببشر وهم يأكلون ويشربون ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش . (الرابع) هو جبريل ، قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك ، ويستشهد لهذا القول بقوله عز وجل : **﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾** . وقال مقاتل بن حيان : الروح هو أشرف الملائكة وأقرب إلى الرب عز وجل وصاحب الوحي . (الخامس) أنه القرآن قاله ابن زيد كقوله **﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾** الآية . (والسادس) أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات . قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله **﴿ يوم يقوم الروح ﴾** قال : هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقاً) . أقول : ما رجحه النسفي هو الذي نرجحه ، وهو أن المراد بالروح جبريل عليه السلام ، فالآية تذكر أن جبريل على كرامته على الله ، والملائكة الآخرون على كرامتهم عنده جل جلاله ، هذا أدبهم يوم القيامة .

....

كلمة أخيرة في سورة النبأ ومجموعتها :

فصّلت سورة المرسلات وسورة النبأ في مقدمة سورة البقرة ، فتحدثتا عن المتقين والكافرين ، عن المتقين وما لهم عند الله عز وجل ، وعن الكافرين وما أعد لهم الله عز وجل من عذاب ، وبين السورتين صلات كثيرة ؛ فآخر سورة المرسلات متصل بأول سورة النبأ ، وكل من السورتين ورد فيها : (ألم) في بداية فقرة أو مجموعة ، ففي سورة المرسلات تكرّرت (ألم) ثلاث مرات ، ووردت مرة واحدة في سورة النبأ ، وفي كل من السورتين وردت في سياق إقامة الحجة ، وورد تعبير (يوم الفصل) في كل من السورتين فبين السورتين تشابه كثير .

والسورتان تفصلان في مقدمة سورة البقرة ، وكل منهما تحدثت عن المتقين والكافرين بآن واحد ، وذلك مضمون مقدمة سورة البقرة ، فالكلام عن المتقين يقتضي الكلام عن الكافرين والعكس ، ومن ثَمَّ فلا غرابة أن نجد ذلك في كل من السورتين ، وإن كان المحور الرئيسي لكل منهما هو ما رأيناه .

وكما أنّ بين السورتين تشابهاً كثيراً ، واتصالاً كبيراً ، فبينهما تكامل واضح ، فيوم الفصل الذي بدأت الحديث عنه سورة المرسلات أكملت الحديث عنه سورة النبأ ، والكلام عن المكذبين الذي تحدثت عنه سورة المرسلات تحدثت سورة النبأ عن مظاهر منه ، والكلام عن عذاب الكافرين وثواب المتقين - الذي رأينا طرفاً عنه في سورة المرسلات - رأينا طرفاً آخر عنه في سورة النبأ ، هذا مع أن لكل سورة محورها وسياقها وجرسها وأسلوبها وطريقة عرضها ونوع خطابها ، ومع هذا كله فإنه في كل من السورتين يظهر لنا كيف أن كل سورة قرآنية تعطينا جديداً ، ولكنها تعرضه ضمن معان قد تكون تكررت من قبل كثيراً أو قليلاً ، ولكن الجديد الكثير يبقى كثيراً ، وذلك من حكمة الله عز وجل في هذا القرآن إذ يرفع النفس البشرية في كل سورة إلى مقام جديد ، إن في التصورات ، أو في السلوك بالشكل الذي يحيط بجوانب النفس البشرية ، وذلك كذلك من حكمة هذا القرآن إذ يذكّر النفس البشرية بالقضايا التي تنساها كثيراً أو تغفل عنها كثيراً يذكّرها بها كثيراً ، ولكن في كل مرة بشكل جديد ، حتى لا تمل هذه النفس ، ومن الجديد في السورتين القرار المكين للنطفة ، والشرر كالقصر ، ووتدية الجبال ، وازدياد العذاب باطّراد على أهل النار ، وبقاؤهم في نوع معيّن من العذاب أحقاباً لينتقلوا إلى نوع آخر ، وغير ذلك كثير لمن دقق ، ولننتقل إلى المجموعة التاسعة من قسم المفصّل .

☆ ☆ ☆

المجموعة التاسعة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المفصّل
وتشمل سور :
النازعات ، وعبس ، والتكوير ،
والانفطار

كلمة في المجموعة التاسعة من قسم المفصل ومحاور سورها

تبدأ هذه المجموعة بسورة النازعات ، وهي تفصّل في الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة ، ولذلك نجد تشابهاً بينها وبين سورة (طه) في قصة فرعون وموسى ، ونجد فيها ما يشير إلى الأصل الذي تنبثق عنه التقوى ﴿ **فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ .

وتأتي بعد ذلك سورة عبس ، وتفصّل في الآيتين اللاحقتين من سورة البقرة ، ومن ثَمَّ تعاتب في ابتدائها النذير في قضية لها علاقة بالإنذار ، وتأتي بعد ذلك سورتا التكوير والانفطار ، وكلاهما تفصّل فيما بعد آيات مقدمة سورة البقرة ، ولذلك نجد في الأولى تهييجاً على العمل ، والاستقامة ، ونجد في الثانية تأنيباً للإنسان على ترك العمل ، فلنر سور المجموعة .

* * *

سورة النازعات

وهي السورة التاسعة والسبعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة التاسعة من قسم
المفصل ، وهي ست وأربعون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة النازعات ومحورها :

تبدأ السورة بأقسام يفهم جوابها من سياق السورة ، ثمّ تحدّثنا عن اليوم الآخر ، وموقف الكافرين منه ، ثمّ تقصّ علينا من نبأ فرعون وموسى ، فتعطينا دروساً في التقوى ، ثم تخاطب السورة البشر مذكرة إياهم بنعم الله التي تقتضي شكره وتقواه ، ثم يعود الحديث عن اليوم الآخر بما يهيّج على التقوى ، ثم تختم السورة باستهجان السؤال عن موعد الساعة ، فالسورة في سياقها العام تربي على التقوى ، وتفصّل في الآيات الخمس الأولى من مقدمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ ٭ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ٭ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ٭ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ٭ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

....

تتألف السورة من مقدمة وفقرتين وخاتمة .

المقدمة وتستمر حتى نهاية الآية (١٤) .

الفقرة الأولى وتستمر حتى نهاية الآية (٢٦) .

الفقرة الثانية وتستمر حتى نهاية الآية (٤١) .

الخاتمة : وتستمر حتى نهاية السورة .

بين يدي سورة النازعات :

قال الألوسي في تقديمه لسورة النازعات : (وتسمى : سورة الساهرة ، والطامة ، وهي مكية بالاتفاق . وعدد آيها ست وأربعون في الكوفي ، وخمس وأربعون في غيره ، وعن ابن عباس أنها نزلت عقب سورة عم . وأولها يشبه أن يكون قَسَماً لتحقيق ما في آخر عم ، أو ما تضمنته كلها ، وفي البحر لما ذكر سبحانه في آخر ما قبلها الإنذار بالعذاب يوم القيامة ، أقسم عز وجل في هذه على البعث ذلك اليوم) .

مقدمة السورة

وتمتدّ من الآية (١) حتى نهاية الآية (١٤) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

التفسير :

﴿ **والنازعات** ﴾ أي : والملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد ﴿ **غرقاً** ﴾ قال النسفي : أي : إغراقاً في النزع ، أي : تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها ومواضع أظفارها ﴿ **والناشطات** ﴾ أي : والملائكة التي تنشط الأرواح أي : تخرجها ﴿ **نشطاً** ﴾ أي : إخراجاً ، قال ابن كثير في تفسير النازعات والناشطات : الملائكة يعنون - أي : أصحاب هذا القول - حين تنزع أرواح بني آدم فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنها حلَّتْهُ من نشاط . ﴿ **والسابحات سبحاً . فالسابقات سبقاً . فالمدبِّرات أمراً** ﴾ قال ابن مسعود : هي الملائكة ، وقال النسفي : (وبالطوائف - أي : أقسم الله عز وجل بالطوائف من الملائكة - التي تسبح في مضيّها أي : تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبّر أمراً من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم كما رسم لهم) ، وقال الحسن : في قوله تعالى ﴿ **فالسابقات سبقاً . فالمدبِّرات أمراً** ﴾ يعني : الملائكة سبقت إلى الإيمان والتصديق ... تدبّر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها . قال النسفي : وجواب

القسم محذوف وهو : لتبعثنّ ؛ لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة ﴿ **يوم ترجف الراجفة** ﴾ أي : يوم تتحرك الراجفة حركة شديدة ، والرجف : شدة الحركة ، والراجفة : النفخة الأولى ، وصفت بما يحدث بحدوثها ؛ لأنها تضطرب بها الأرض حتى يموت كل من عليها ﴿ **تتبعها الرادفة** ﴾ أي : النفخة الثانية ؛ لأنها تردف الأولى . قال النسفي : والأولى تميت الخلق والثانية تحييهم . قال ابن كثير : قال ابن عباس : هما النفختان الأولى والثانية . ﴿ **قلوب يومئذ واجفة** ﴾ قال ابن عباس : يعني : خائفة ﴿ **أبصارها خاشعة** ﴾ أي : أبصار أصحابها ذليلة لهول ما ترى ، وبعد أن أقسم الله بطوائف من الملائكة على كينونة البعث ، ووصف بعض ما يكون في يوم القيامة وما بعده تحدثنا السورة عن إنكار الكافرين لهذا اليوم فتقول : ﴿ **يقولون** ﴾ أي : يقول الكافرون ، قال النسفي : أي : منكرو البعث في الدنيا استهزاءً وإنكاراً للبعث ﴿ **أإنا لمردودون في الحافرة** ﴾ قال النسفي : استفهام بمعنى الإنكار ، أي : أنردّ بعد موتنا إلى أوّل الأمر فنعود أحياءً كما كنّا ، والحافرة الحالة الأولى ، أنكروا البعث ثم زادوا استبعاداً فقالوا ﴿ **أإذا كنّا عظاماً نخرة** ﴾ أي : بالية ، والمعنى : أنرد إلى الحياة بعد أن صرنا عظاماً بالية ﴿ **قالوا تلك إذاً كرة خاسرة** ﴾ أي : قال منكر والبعث : رجعتنا إذن إنْ رجعنا رجعة ذات خسران أو خاسر أصحابها ، قال النسفي : والمعنى : أنها إن صحّت وبعثنا فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا ، وهذا استهزاء منهم ، قال تعالى في الردّ عليهم : ﴿ **فإنما هي زجرة واحدة** ﴾ أي : صيحة واحدة ، قال النسفي : أي : لا تحسبوا تلك الكرّة صعبة على الله عز وجل ؛ فإنها سهلة هيّنة في قدرته تعالى ، فما هي إلا صيحة واحدة ، يريد النفخة الثانية ﴿ **فإذا هم بالساهرة** ﴾ أي : فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً في جوفها . قال ابن كثير : قال ابن عباس : الساهرة الأرض كلها ، وقال ابن كثير : والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى .

كلمة في السياق :

أقسم الله عز وجل بطوائف من الملائكة على مجيء اليوم الآخر ، وذكر ما يحدث في ذلك اليوم من خوف وذلة للكافرين ، كما ذكر إنكار الكافرين لليوم الآخر ، وبيّن سهولة خلق ذلك اليوم على الله عز وجل ، ثمّ تأتي الفقرة الأولى من السورة ، وفيها ذكر قصة فرعون وموسى ، وفي ذكر هذه القصة ، في هذا السياق تحذير للكافرين وبيان لوجوب استجابة الناس لدعوة الرسول ، وبيان لمضمون دعوة الرسل .

الفقرة الأولى

وتمتدّ من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢٦) وهذه هي :

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

التفسير :

﴿ **هل أتاك حديث موسى** ﴾ قال النسفي : استفهام يتضمن التنبيه على أن هذا مما يجب أن يشيع ، والتشريف للمخاطب به ، وقال ابن كثير : أي : هل سمعت بخبره ، ﴿ **إذ ناداه ربه** ﴾ أي : كلّمه ﴿ **بالواد المقدس** ﴾ أي : المطهر ﴿ **طوى** ﴾ قال ابن كثير : هو اسم الوادي على الصحيح ، فقال له الله عز وجل : ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغىٰ** ﴾ أي : تجاوز الحدّ في الكفر والفساد . قال ابن كثير : أي : تجبّر وتمرّد وعتا ، ﴿ **فقل هل لك إلى أن تزكىٰ** ﴾ أي : تتطهر من الشرك والعصيان ، بالطاعة والإيمان ، وقال ابن كثير : (أي : قل له هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكّى به فتسلم وتطيع) ﴿ **وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾ قال النسفي : أي : وأرشدك إلى معرفة الله بذكر صفاته فتعرفه فتخشىٰ ؛ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة ، وقال ابن كثير : أي : أدلّك إلى عبادة ربك فتخشىٰ ، أي : فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعاً ، بعدما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير ، قال النسفي : بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه هل لك أن تنزل بنا ، وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه باللطف في القول ويستنزله بالمداراة عن عتوه كما أمر بذلك في

قوله تعالى : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ قال النسفي : أي : فذهب فأرى موسى فرعونَ العصا - أو العصا واليد البيضاء - لأنهما في حكم آية واحدة ، وقال ابن كثير : يعني : فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية ودليلاً واضحاً على صدق ما جاءه به من عند الله ﴿ فكذّب ﴾ أي : فرعون بموسى وبالآية الكبرى وسمّاهما ساحراً وسحراً ﴿ وعصى ﴾ الله . قال ابن كثير : أي : فكذّب بالحق وخالف ما أمر به من الطاعة ، وحاصله أنه كفر قلبه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره ، وعلمه بأنَّ ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علم القلب ، والإيمان عمله ، وهو الانقياد للحق والخضوع له ﴿ ثم أدبر ﴾ أي : تولّى عن موسى ﴿ يسعى ﴾ أي : يجتهد في مكايدته . قال ابن كثير : أي : في مقابلة الحق بالباطل ، وهو جمع السحرة ؛ ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات ﴿ فحشر ﴾ أي : فجمع السحرة وجنده ﴿ فنادى ﴾ أي : في قومه ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ أي : لا ربَّ فوقي ، وهذا يشير إلى أنه كانت لهم أصنام يعبدونها معه ، فجعل نفسه فوقها جميعاً ، ولم يعترف لله بالربوبية ﴿ فأخذه الله نكال ﴾ أي : تنكيل ﴿ الآخرة والأولى ﴾ أي : فعاقبه عقوبة الدنيا والآخرة ﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور ﴿ لعبرة ﴾ أي : لعظة ﴿ لمن يخشى ﴾ أي : لمن يتّعظ وينزجر .

كلمة في السياق :

١ - عرفنا من هذه القصة أن دعوة موسى عليه السلام تتضمن تزكية النفس وخشية الله عز وجل ، وذلك يكون بمعرفة الله وعبادته ، وجماع هذا كله التقوى ، فالتقوى أثر عن معرفة الله ، وزكاة النفس أثر عن معرفة الله وعن التقوى ، وتوضيح هذه القضية من خلال قصة موسى عليه السلام واضح الصلة في الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة عن المتقين .

٢ - في الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة يرد قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ وما ورد معنا في السورة له صلة بما أنزل من قبل ، وله صلة بالإيمان بالآخرة .

٣ - إن مجيء قصة موسى عليه السلام وفرعون في هذا السياق تحذير للذين يرفضون دعوة محمد ﷺ بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة . ومن ثَمَّ قال ابن كثير في بداية

هذه القصة : (يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون وأيده الله بالمعجزات ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك ، وكذب بما جئت به ، ولهذا قال في آخر القصة ﴿ **إن في ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾) .

٤ - يفهم من مجيء قصة موسى عليه السلام وفرعون في هذا السياق أن وضع هؤلاء المنكرين لليوم الآخر - الذين تحدثت عنهم مقدمة السورة - يشبه وضع فرعون وقومه مع موسى ، ويفهم من هذا أن الرفض للإيمان باليوم الآخر رفض لدعوة الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - أصلاً .

٥ - يلاحظ أن الفقرة اللاحقة من السورة تناقش الكافرين باليوم الآخر ، وتقيم عليهم الحجّة ، ومجيء قصة موسى وفرعون في الوسط يشير إلى أن ما حدث لفرعون درس للكافرين باليوم الآخر ، ودليل على صدق دعوة الرسل ، ودليل على مجيء اليوم الآخر أصلاً ، فتحقق واحد من وعيديْ الرسل دليل على تحقق الوعد الآخر .

٦ - ستبدأ بالفقرة اللاحقة مناقشة للكافرين ، وهذا يشير إلى أنّ ما ورد قبل ذلك كان بمثابة أساس وعظي لإيجاد الجو النفسي الذي يقبل به الإنسان الحجة القاطعة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (٢٧) حتى نهاية الآية (٤١) وهذه هي :

المجموعة الأولى

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

المجموعة الثانية

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الثانية :

﴿ **أأنتم** ﴾ يا منكري البعث ﴿ **أشدّ خلقاً** ﴾ أي : أصعب خلقاً وإنشاءً ﴿ **أم السماء** ﴾ أشدّ خلقاً ؟ ثم بيّن كيف خلقها فقال : ﴿ **بناها** ﴾ أي : الله عز وجل ﴿ **رفع سمكها** ﴾ قال النسفي : أي : أعلى سقفها ﴿ **فسوّاها** ﴾ أي : فعدّلها مستوية بلا شقوق ولا فطور ، أقول : إن من عرف أبعاد المجرات وكثرتها أدرك عظمة السماء ، وأدرك أن إعادة خلق الإنسان أسهل في تصورات العقل البشري من خلق هذه السماء كما هي ثم قال تعالى عن السماء : ﴿ **وأغطش ليلها وأخرج ضحاها** ﴾ أقول : أي : أذهب ليلها وأخرج نهارها بمعنى أنه لا ليل لها. وهذا هو واقع السماء إذ الليل وضع محلي لبعض الأجرام وبعد أن تحدّث تعالى عن خلق السماء بعظمتها تحدّث عن الأرض فقال : ﴿ **والأرض بعد ذلك** ﴾ أي : بعد السماء . أقول : في هذه الكلمة معجزة علمية كبيرة سنتحدث عنها في الفوائد ﴿ **دحاها** ﴾ أي : كوّرها وفي هذه الكلمة معجزة علمية أخرى ﴿ **أخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾ أي : كلأها ﴿ **والجبال أرساها** ﴾ قال ابن كثير : أي : قررها وأثبتها وأكدها في أماكنها ﴿ **متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾ أي : فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم . قال ابن كثير : (أي : دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ، ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل) . أقول : أقام السياق الحجّة على منكري البعث من خلال نقطة هي : إن

الكافرين ينكرون البعث لتصورهم أن ذلك صعب الحدوث ، فالله عز وجل أقام عليهم الحجة بأن خلق السماء والأرض بما في السماء والأرض من عظمة ودقة وحكمة أكبر في تصور الخلق من إعادة خلق الإنسان ، فكيف يستبعدون على قدرة الله عز وجل أن يعيد الله خلق الإنسان مرة ثانية .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بالأقسام على أن يوم القيامة آت ، ثمّ تحدّثت عمّا يجري يوم القيامة ، وذكرت تكذيب المكذبين فيه ، وذكّرت بوقوعه ، ووعظت بما جرى لفرعون ، ثم أقامت الحجّة على أن يوم القيامة آت ، ثمّ تأتي مجموعة تفصّل فيما يجري للناس يومذاك ، فلنر المجموعة الثانية من الفقرة الثانية .

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الثانية :

﴿ **فإذا جاءت الطامّة الكبرى** ﴾ قال ابن كثير : وهو يوم القيامة ، قال ابن عباس : سميت بذلك لأنها تطمّ على كل أمر هائل مفظع ﴿ **يوم يتذكّر الإنسان ما سعىٰ** ﴾ قال النسفي : (أي : إذا رأى أعماله مدونة في كتابه ، تذكّرها وكان قد نسيها ، أي : يتذكّر الإنسان سعيه ، قال ابن كثير : أي : حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره ، ﴿ **وبرّزت الجحيم لمن يرى** ﴾ قال النسفي : (فرآها الناس عياناً) ثم بيّن تعالى كيف يكون الأمر يوم تأتي الطامّة ، ويكون فيها ما يكون ﴿ **فأمّا من طغى** ﴾ أي : جاوز الحدّ فكفر ، قال ابن كثير : أي : تمرّد وعتا ﴿ **وآثر الحياة الدنيا** ﴾ أي : على الآخرة باتّباع الشهوات ، قال ابن كثير : أي : قدّمها على أمر دينه وأخراه ﴿ **فإن الجحيم** ﴾ أي : النار ﴿ **هي المأوى** ﴾ أي : المرجع والمقرّ له ، قال ابن كثير : أي : فإنّ مصيره إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ، ومشربه من الحميم ﴿ **وأما من خاف مقام ربه** ﴾ أي : مَنْ علم أن له مقاماً يوم القيامة لحساب ربه ﴿ **ونهى النفس عن الهوى** ﴾ أي : المؤذي ، أي : زجرها عن اتباع الشهوات ، والهوى المحرم هو ميل النفس إلى شهواتها المحرمة ، والمكروه هو ميلها إلى الشهوات المكروهة . قال ابن كثير : أي : خاف القيام بين يدي الله عز وجل ، وخاف حكم الله فيه ونهى نفسه عن هواها إلى طاعة مولاها ﴿ **فإن الجنة هي المأوى** ﴾ أي : المرجع ، قال ابن كثير : أي : منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن أقام الله عز وجل الحجة على الكافرين بأنّ يوم القيامة آتٍ ، بيّن حال الناس فيه ، فالطاغون المؤثرون للحياة الدنيا جزاؤهم النار ، والخائفون الله عز وجل ، الناهون النفس عن شهواتها المحرمة مصيرهم الجنّة ، وبهذا عرفنا باختصار سرّ النجاة وسرّ الهلاك ، فعرفنا ماهية التقوى ، ومن هنا ندرك صلة السورة بمحورها من سورة البقرة ، فالمجموعة فصّلت في موضوع التقوى فأرتنا باعثه وما يناقضه .

٢ - في الفقرة التي تحدثت عن موسى وفرعون ، رأينا قول الله عز وجل لموسى ﴿ **فقل هل لك إلى أن تزكى ٭ وأهديك إلى ربك فتخشى** ﴾ فتزكية النفس ، وخشية الله عز وجل هي ملاك دعوة موسى عليه السلام ، وقد رأينا في المجموعة الأخيرة أن خوف الله عز وجل ، ونهي النفس عن الهوى ، هما ركنا النجاة من النار ، مما يفيد أن تزكية النفس تعني نهي النفس عن شهواتها ، فالصلات بين فقرات السورة قائمة ، والصلات بين السورة ومحورها موجودة ، وهكذا نجد أن السورة في سياقها الرئيسي تعرِّفنا على اليوم الآخر الذي يجب أن نؤمن به ، كما تعرّفنا على حيثيات في التقوى ينبغي أن نفطن لها ، وبعد أن عرضت السورة موضوع اليوم الآخر ، ووعظت ، تأتي خاتمتها لتفنّد فكرة السؤال عن زمن يوم القيامة ؛ لأن ذلك لا يترتب عليه عمل ، بل الحكمة ألا يعرف الناس ذلك اليوم ليبقى الناس يعملون .

☆ ☆ ☆

خاتمة السورة

وتتألف من خمس آيات وهذه هي :

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

التفسير :

﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها** ﴾ قال النسفي : أي : متى إرساؤها ، أي : إقامتها ، يعني : متى يقيمها الله ويثبتها . أقول : شبّهت الساعة بسفينة سائرة ، ويسألون عن وقت إرسائها أي : استقرارها ، قال تعالى ردّاً على هذا السؤال : ﴿ **فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها** ﴾ قال النسفي : أي : في أيّ شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم ؟ أي : ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها في شيء ... ﴿ **إلى ربك منتهاها** ﴾ أي : منتهى علمها متى تكون لا يعلمها غيره ، وقال ابن كثير : أي : ليس علمها إليك ، ولا إلى أحد من الخلق بل مردّها ومرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذي يعلم وقتها على اليقين ﴿ **إنما أنت منذر من يخشاها** ﴾ قال النسفي : أي : لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة ، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائدها . وقال ابن كثير : أي : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذّبك وخالفك ﴿ **كأنهم يوم يرونها** ﴾ أي : الساعة ﴿ **لم يلبثوا** ﴾ في الدنيا ﴿ **إلا عشية** ﴾ أي : ما بين الظهر إلى غروب الشمس ﴿ **أو ضحاها** ﴾ أي : ضحى تلك العشية ، والضحى ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار ، قال ابن كثير : أي : إذا قاموا من قبورهم إلى الحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا ، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى يوم . أقول : فإذا كان الأمر كذلك فعليهم بالعمل ، فماذا يفيدهم عرفوا قربها أو بعدها ما دام أنها حاصلة وسيرونها وكأن قد .

كلمة في السياق :

١ - أصبح واضحاً أن للسورة سياقها الخاص وتسلسل معانيها ، فالقيامة آتية وهناك نفختان ، وسيحشر الناس في النفخة الثانية ، وقسم من الناس يحشرون خائفين ذليلة أبصارهم ، وهم الذين كانوا ينكرون يوم القيامة ، مكذبين في ذلك رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وقد أنذر الله هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب قوم فرعون من عذاب الدنيا والآخرة ، ثم أقام الحجة على هؤلاء بأن يوم القيامة آت ، ثم ذكر حال الناس يومذاك ، وسر النجاة ، وسر الخسار ، ثم أنكرت السورة على من يسأل عن وقت وقوع القيامة لأنه سؤال لا يترتب عليه عمل ، وليست الإجابة عنه داخلة في اختصاص الرسول عليه الصلاة والسلام .

٢ - وبعد أن اتضح لنا السياق الخاص للسورة ، فلنر صلتها بمحورها من سورة البقرة :

أ - ﴿ **الّمّ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ فصّلت السورة في التقوى فبينت أنها خوف الله وتزكية النفس ، أو أنها خوف الله عز وجل وترك الشهوات ، أو أنها ترك الطغيان وإيثار الآخرة على الدنيا ، وإنما عرفنا ذلك لأنّ النجاة علّقت على هذه المعاني ، وقد ختمت الفقرة الأولى من مقدمة سورة البقرة بقوله تعالى عن المتقين : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

ب - ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ذكرت السورة طرفاً من الغيب الذي يجب الإيمان به ، والعمل بمقتضاه ، وهيّجت على العمل بشكل عام .

جـ - ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ ذكرت السورة طرفاً مما أنزل على مَنْ قبل محمد ﷺ ، كما فصّلت في موضوع اليوم الآخر ، وأقامت الحجة في شأنه ، ودعت إلى اليقين فيه .

د - ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ ذكرت السورة من يستحق الفلاح وفصّلت فيه ، فللسورة صلة وثيقة بمحورها .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فالمدبّرات أمراً** ﴾ قال الألوسي : (وفي حمل

المدبرات على النجوم إيهام صحة ما يزعمه أهل الأحكام وجهلة المنجمين ، وهو باطل عقلاً ونقلاً ، كما أوضحنا ذلك فيما تقدم ، وكذا في حملها على النفوس الفاضلة المفارقة إيهام صحة ما يزعمه كثير من سخفة العقول ، من أن الأولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض ، وإنقاذ الغريق ، والنصر على الأعداء ، وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد ، على معنى أن الله تعالى فوّض إليهم ذلك ، ومنهم من خصّ ذلك بخمسة من الأولياء ، والكل جهل وإن كان الثاني أشد جهلاً) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل عن أبي بن كعب عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » فقال رجل : يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : « إذاً يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك » وقد روى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري بإسناده مثله ، ولفظ الترمذي وابن أبي حاتم : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ») .

٣ - بمناسبة قوله تعالى حكاية عن قول منكري البعث : ﴿ **أئنا لمردودون في الحافرة** ﴾ قال الألوسي : (ويقال لكل من كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرته وعليه قول الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب
معاذ الله من سفه وعار

يريد : أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والتصابي ، بعد أن شبت ، معاذ الله من ذاك سفهاً وعاراً ، ومنه المثل : النقد عند الحافرة ، فقد قيل : الحافرة فيه بمعنى الحالة الأولى وهي الصفقة أي : النقد حال العقد) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن سهل بن سعد الساعدي ﴿ **فإذا هم بالساهرة** ﴾ قال : أرض بيضاء عفراء ، خالية كالخبزة النقي ، وقال الربيع بن أنس ﴿ **فإذا هم بالساهرة** ﴾ يقول الله عز وجل : ﴿ **يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾ ويقول تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي**

نسفاً ● فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ ويوم نُسيِّر الجبال وترى الأرض بارزة ﴾) ، وقال الألوسي : (روى الضحاك عن ابن عباس أن الساهرة أرض من فضة لم يعص الله تعالى عليها قط ، يخلقها عز وجل حينئذ) .

٥ — هناك خلاف كثير حول فرعون موسى من هو ؟

من الأقوال في ذلك أنه رعمسيس الثاني ، ومن المعروف تاريخياً أنّ رعمسيس الثاني قد أصدر منشوراً يعلن فيه عن ربوبيته ، وقد عثر على نصّ هذا المنشور مكتوباً على أوراق البردي ، فهل لذلك صلة بما قاله الله عز وجل في سورة النازعات : ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ ؟ إن كان رعمسيس الثاني هو فرعون موسى فالأمر واضح ، وإلا فإن فكرة تأليه النفس عند الفراعنة كانت تتكرّر مرّة بعد مرّة .

٦ — في قوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ معجزتان علميتان فالدّحو في اللغة العربية يفيد التكوير ؛ ولذلك تسمّي العرب بيض النّعام في الرمل الأدحية أو الأدحوة ، والقول بكروية الأرض لم يكن معروفاً في جزيرة العرب حين تنزّل القرآن ، فالإشارة إليه دليل على أن القرآن من عند الله ، والمعجزة الثانية في الآية أنها ذكرت أن الأرض خلقت بعد المجرّات التي هي سماء بالاصطلاح اللغوي ، وهذا الاتجاه تجمع عليه النظريات العلمية الحديثة ، فكل النظريات العلمية الحديثة تعتبر أن نشأة الأرض تأخرت عن نشأة الكون ككل ، وقد خلط كثير من المفسرين بين السماوات السبع وبين السماء ككل ، فالسموات السبع غيبية ، وخلقها جاء متأخراً عن خلق الأرض بنص القرآن ، وأما السماء ككل والتي تعني مجرات هذا الكون وتوابعها فهذه قد تقدّم خلقها على خلق الأرض بنص آية النازعات ، وتلك من معجزات القرآن ، فلم يعرف في العلوم القديمة ولا في الكتب المتوارثة أن وجد كلام يتحدّث عن الأرض وعن السموات السبع وعن الكون بمثل هذه الدقة . بقي أن نبرهن على صحة ما اتجهنا إليه في فهم آية النازعات فنقول : هناك سموات سبع خلقت بعد الأرض قطعاً بنص القرآن : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهُنّ سبع سموات ﴾ ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ... وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ● ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ●

فقضاهنّ سبع سمٰوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزيّنّا السماء ﴾ فهذه الآيات تذكر أن السموات السبع خلقت بعد الأرض بينما آيات سورة النازعات تقول : ﴿ **والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾ فأن يقال إن هذه الأشياء كانت بعد خلق السمٰوات السبع ترد عليه سورة فصّلت بشكل واضح ، فلم يبق إلا أن نقول : إنّ هناك سموات سبعاً وأرضاً ، وإنّ هناك سماءً هي ما سوى ذلك من المجرات وغيرها ، فالسموات السبع خلقت بعد الأرض ، والأرض خلقت بعد السماء ، وهذا الذي نقوله ، والذي هو صريح القرآن ، والذي لا تحتمل النصوص غيره هو الذي يقوله العلم ، فعلماء الكون اليوم يقولون إن عمر الأرض أقل بكثير من عمر مجرات هذا الكون .

٧ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والجبال أرساها** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت ، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال : نعم الحديد ، قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار ، قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم الماء ، قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال : نعم الريح ، قالت : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها عن شماله ») . وبهذا ينتهي الكلام عن سورة النازعات ، فلننتقل إلى سورة عبس .

☆ ☆ ☆

سورة عبس

وهي السورة الثمانون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة التاسعة من قسم
المفصل ، وهي اثنتان وأربعون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة عبس ومحورها :

قلنا إن محور سورة عبس هما الآيتان السادسة والسابعة من سورة البقرة ، أي قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ ، والدليل على ذلك أن السورة تبدأ بعتاب رسول الله ﷺ لأنه أقبل على إنسان من النوع الذي لا ينفع معه الإنذار ، وعبس في وجه إنسان يستأهل الإنذار وختمت السورة بقوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة** ﴾ وما بين ذلك كلام له صلة في موضوع الإنذار ، وموقف الكافرين منه من ذلك قوله تعالى : ﴿ **كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره** ﴾ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **قُتل الإنسان ما أكفره** ﴾ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة** ﴾ .

....

ويلاحظ أن هناك تشابهاً بين سورة النازعات وسورة عبس ، ففي أواخر سورة النازعات يرد قوله تعالى : ﴿ **فإذا جاءت الطامة الكبرى** ﴾ وفي أواخر سورة عبس يرد قوله تعالى : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة** ... ﴾ ، وفي سورة النازعات يرد قوله تعالى : ﴿ **أأنتم أشد خلقاً ... والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾ وفي سورة عبس يرد قوله تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه** ... ﴾ وفي سورة النازعات يرد قوله تعالى : ﴿ **هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى** ... ﴾ وفي سورة عبس يرد قوله تعالى : ﴿ **وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى وهو يخشى** ﴾ . إنك لتجد التشابه في الجرس بين السورتين .

....

وسورة النازعات تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **إنما أنت منذر مَنْ يخشاها** ... ﴾ وفي بداية سورة عبس عتاب لرسول الله ﷺ إذ يعرض عمن يخشى ﴿ **وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى** ﴾ فسورة عبس تبدأ بعتاب رسول الله ﷺ ، إذ يعرض عمن يخشى ، ويقبل على من لا يخشى ، فالصلة واضحة بين نهاية سورة النازعات وبداية سورة عبس .

....

تتألف السورة من ثلاث فقرات :

الفقرة الأولى تستمر حتى نهاية الآية (١٠) .

الفقرة الثانية تستمر حتى نهاية الآية (٣٢) .

الفقرة الثالثة تستمر حتى نهاية الآية (٤٢) أي حتى نهاية السورة .

بين يدي سورة عبس :

قدّم الألوسي لسورة عبس بقوله : (وتسمى سورة الصاخة ، وسورة السفرة ، وسميت في غير كتاب سورة الأعمى ، وهي مكية بلا خلاف وآيها اثنتان وأربعون في الحجازي ، والكوفي ، وإحدى وأربعون في البصري ، وأربعون في الشامي والمدني الأول ، ولما ذكر سبحانه فيما قبلها ﴿ **إنما أنت منذر من يخشاها** ﴾ ذكر عز وجل في هذه من ينفعه الإنذار ومن لم ينفعه) .

الفقرة الأولى

وتمتد من الآية (١) حتى نهاية الآية (١٠) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

ملاحظة : لنفهم هذه الفقرة نذكر هاتين الروايتين في سبب نزولها : (روى الحافظ أبو يعلى في مسنده ... عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ **عبس وتولى** ﴾ جاء ابن أم مكتوم إلى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو يكلم أبي بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **عبس وتولى * أن جاءه الأعمى** ﴾ فكان النبي

ﷺ بعد ذلك يكرمه) . (وروى أبو يعلى وابن جرير ... عن عائشة قالت : أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدني ، قالت : وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين قالت : فجعل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يعرض عنه ، ويقبل على الآخر ويقول : « أترى بما أقول بأساً ؟ » فيقول : لا ، ففي هذا أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ . وقد روى الترمذي هذا الحديث بإسناده مثله) .

التفسير :

﴿ **عبس وتولى** ﴾ أي قطب بين جبينه غاضباً وأعرض ﴿ **أن جاءه الأعمى** ﴾ أي فعل ذلك لأنه جاءه الأعمى ﴿ **وما يدريك لعلّه يزكّى** ﴾ أي يتزكى ، قال النسفي : (أي : وأيّ شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى ... لعل هذا الأعمى يتطهّر بما يسمع منك من دنس الجهل) ، وقال ابن كثير : أي تحصل له زكاة وطهارة في نفسه ﴿ **أو يذكّر فتنفعه الذكرى** ﴾ أي : أو يتّعظ فتنفعه ذكراك ، أي : موعظتك ، قال النسفي : (أي إنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزك أو تذكر ولو دريت لما فرط ذلك منك) ﴿ **أما من استغنى** ﴾أي : من كان غنياً بالمال﴿ **فأنت له تصدّى** ﴾ أي تتصدى أي تتعرض بالإقبال عليه حرصاً على إيمانه ، قال ابن كثير : أي أما الغني فأنت تتعرّض له لعلّه يهتدي ، أقول : إن الاستغناء في الآية يدخل فيه الغنى بالمال الذي يترتب عليه الشعور بالاستغناء عن الله وعن رسوله ﷺ وعن الدعوة الإسلامية طغياناً ، ويدخل فيه الاستغناء بالنفس عن طلب الهداية بواسطة الافتقار إلى الله ، والافتقار إلى رسوله ﷺ ﴿ **وما عليك ألا يزكّى** ﴾ قال النسفي : (أي وليس عليك بأس في أن لا يتزكّى بالإسلام ، إن عليك إلا البلاغ) ، وقال ابن كثير : أي ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة أي طهارة نفس من الشرك ودنس الأخلاق ﴿ **وأما من جاءك يسعى** ﴾ أي يسرع في طلب الخير ﴿ **وهو يخشى** ﴾ الله ومقامه بين يديه ﴿ **فأنت عنه تلهّى** ﴾ أي تتلهى أي تتشاغل . قال ابن كثير في الآيتين : أي يقصدك ويؤمّك ليهتدي بما تقول له فأنت عنه تلهى أي تتشاغل ، قال ابن كثير : (ومن ههنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف والفقير والغني والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار ، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة) ، وقال النسفي : وروي أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قط ، ولا تصدّى لغني ، وروي أن الفقراء في مجلس الشورى كانوا

أمراء . قال ابن كثير في سبب نزول هذه الفقرة : (ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش ، وقد طمع في إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم – وكان ممن أسلم قديماً – فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، ويلح عليه ، وودّ النبي ﷺ أن لو كفّ ساعته تلك ، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته ، وعبس في وجه ابن أم مكتوم ، وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله تعالى ﴿ **عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى** ﴾) .

كلمة في السياق :

١ – في سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ . فهناك كفار هذا شأنهم ، وفي الفقرة التي مرّت معنا نجد رسول الله ﷺ يقبل على من هذا شأنه ، إذ وصفه الله عز وجل بقوله : ﴿ **أما من استغنى فأنت له تصدّى** ﴾ ، ويعرض عمن استجاب للإنذار وهو راغب إلى الله ورسوله في السير ، فعاتب الله رسوله ﷺ هذا العتاب الشديد ، وفي ذلك درس عظيم أن يقبل وارث النبوة على من أتاه طالباً التزكية والهداية كائناً من كان ، وألا يتشوّف لمن كان عندهم استغناء ، وفي قوله تعالى : ﴿ **وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى** ﴾ إشارة إلى أن الداعية إلى الله مهمته التزكية والتذكير ، فالفقرة إذن تعاتب رسول الله ﷺ أن يحجب الإنذار عن أهله ، وأن يضعه في غير أهله ، مفرطاً بذلك في حق الأهل ، وصلة ذلك بمحور السورة من سورة البقرة واضحة ، وقد علمنا من الفقرة صفة من صفات الكافرين الذين لا تنفع معهم الإنذار ، وهم الذين في قلوبهم استغناء .

٢ – ... ثمّ تأتي الفقرة الثانية ، وفيها نهي لرسوله ﷺ أن يعود لمثل ذلك ، وفيها توضيح لحقيقة الوحي وعزّته ، وفيها تبيان لطبيعة الإنسان ، ولفت نظر إلى مظاهر قدرة الله عز وجل ، وإنعامه التي تقتضي من الإنسان شكراً وعبادة ، وفي تبيان هذه المعاني في هذا السياق دروس في الإنذار ، ودروس للإنسان تهيّجه على قبول الإنذار وعدم الاستغناء ، وسنرى صلة ذلك كله بمحور السورة وبسياقها الخاص .

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (١١) إلى نهاية الآية (٣٢) وهذه هي :

الجزء الأول

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

الجزء الثاني

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

الجزء الثالث

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

تفسير الجزء الأول من الفقرة الثانية :

﴿ **كلا** ﴾ قال النسفي : ردع : أي : لا تعد إلى مثله ﴿ **إنها تذكرة** ﴾ أي : إن السورة أو الآيات السابقة موعظة يجب الاتعاظ بها ، والعمل بموجبها ، قال ابن كثير : (أي : هذه السورة أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم ، وقال قتادة والسدي يعني القرآن) . أقول : وهذا الذي أرجحه فالمعنى :

كلا إن آيات القرآن تذكرة وعظة ، ﴿ **فمن شاء ذكره** ﴾ قال النسفي : (والمعنى : فمن شاء الذكر والتذكر ألهمه الله تعالى إياه فذكر القرآن ، أي : قرأه وتذكر معانيه . وقال ابن كثير : أي : فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره ، ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه . أقول : فيكون المعنى : (فمن شاء أن يذكر هذا القرآن - بأن يأخذه ويتلوه ويعمل به - فعل) وكأن النص يقول : أيها الرسول لا يهمنك أمر من لم يذكره فإنه هو الخاسر ﴿ **في صحف مكرمة** ﴾ أي : إن هذا القرآن تذكرة في صحف مكرمة ، أي : إنها مثبتة في صحف منتسخة من اللوح . قال ابن كثير : أي : معظمة موقرة ﴿ **مرفوعة** ﴾ أي : عالية القدر ﴿ **مطهرة** ﴾ قال ابن كثير : أي : من الدنس والزيادة والنقص . وقال النسفي : (أي : عن مس غير الملائكة أو عما ليس من كلام الله) ﴿ **بأيدي سفرة** ﴾ أي : كَتَبَة ، قال النسفي : جمع سافر : أي : الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح ﴿ **كرام** ﴾ على الله أو عن المعاصي ﴿ **بررة** ﴾ أي : أتقياء ، جمع بار . قال ابن كثير : والصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعني بين الله وبين خلقه ، وفسر ابن كثير : الكرام البررة بقوله : أي : خلقهم كريم ، حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

كلمة في السياق :

١ - ذكرت الفقرة الأولى في السورة إعراض الرسول ﷺ عن الأعمى ، وإقباله على الكافر المستغني ، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ حرصاً على إيمان هذا الكافر المستغني ، وقد جاء هذا الجزء من الفقرة الثانية ليبين استغناء هذا القرآن عن المستغنين عنه ، وليبين أن هذا القرآن له الدرجة العليا في الكرامة في كل حال ، وفي هذا السياق ذكر الله عز وجل خصيصة من خصائص هذا القرآن وهو أنه تذكرة ، والملاحظ : أن هذا الجزء من الفقرة ترك المشيئة للإنسان في أن يتذكر ، وفي ذلك تهديد وإشعار بالاستغناء والعزة ، فكأن هذا الجزء يقول لرسول الله ﷺ : اعرف قيمة ما أوحيته إليك ولا يحملنك الحرص على الخلق على مخالفة أدبه .

٢ - ثم يأتي الجزء الثاني والثالث من الفقرة الثانية وفيهما كلام عن الطبيعة الكافرة وإقامة حجة ، وفي ذلك تعزية لرسول الله ﷺ ، وتسلية له على كفر الكافرين ، وتهييج للإنسان أن يتذكر ويشكر ، وكأن الله عز وجل يقول لرسول الله

ﷺ : هذا القرآن تذكرة ، وقد خلقت للإنسان الكثير مما يقتضي شكراً ، فإذا لم يتذكر ولم يشكر ، فلا عليك أن تحرص هذا الحرص على إسلام الكافرين المستغنين ، بحيث تعطّل حقوق المسلمين .

تفسير الجزء الثاني من الفقرة الثانية :

﴿ **قتل الإنسان** ﴾ أي : لعن الكافر ﴿ **ما أكفره** ﴾ قال النسفي : استفهام توبيخ أي : أيّ شيء حمله على الكفر ؟ أو هو تعجب ، أي : ما أشدّ كفره . قال ابن كثير : وهذا لجنس الإنسان المكذّب لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم ﴿ **من أيّ شيء خلقه** ﴾ أي : من أيّ شيء حقير خلقه ؟ وهو استفهام ومعناه التقرير ، ثمّ بيّن ذلك الشيء فقال : ﴿ **من نطفة خلقه فقدّره** ﴾ قال ابن كثير : أي : قدّر أجله ورزقه وعمله ، وشقي أو سعيد . أقول : قدّره على الصورة والشكل والحجم وغير ذلك من خلقه ﴿ **ثم السبيل يسّره** ﴾ أي : بيّن له سبيل الخير والشر . قال ابن كثير : أي : بيّناه له وأوضحناه وسهّلنا عليه علمه . أقول : وهناك قول آخر في الآية مضمونه أنه يسّر خروجه من بطن أمه ، والصحيح الأول ، قال ابن كثير : هو الأرجح . ﴿ **ثم أماته فأقبره** ﴾ قال النسفي : (أي : جعله ذا قبر يوارى فيه لا كالبهائم لا كرامة له) وقال الألوسي : ففي الآية إشارة إلى مشروعية دفن الإنسان ... وأما دفن غيره من الحيوانات فقيل هو مباح لا مكروه وقد يطلب لأمر مشروع يقتضيه كدفع أذى جيفته مثلاً) ﴿ **ثم إذا شاء أنشره** ﴾ أي : بعثه بعد موته ﴿ **كلا** ﴾ ردع للإنسان عن الكفر ﴿ **لمّا يقض ما أمره** ﴾ قال النسفي : أي : لم يفعل هذا الكافر ما أمره الله به من الإيمان ، وقال الألوسي : (والمعنى على ما قال غير واحد : لم يقض من أول زمان تكليفه إلى زمان إماتته وإقباره ، أو من لدن آدم عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده جميع ما أمره فلم يخرج من جميع أوامره تعالى ، إذ لا يخلو أحد عن تقصير ما ، ونقل هذا عن مجاهد وقتادة) ، وقال ابن جرير في الآية : يقول جل ثناؤه : كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدّى حقّ الله عليه في نفسه وماله ﴿ **لما يقض ما أمره** ﴾ يقول : لم يؤدّ ما فرض عليه من الفرائض لربه عز وجل ، وقال مجاهد في الآية : أي : لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض عليه ، وذهب ابن كثير مذهباً انفرد به في الآية رابطاً لها بما قبلها ، قال : إن المعنى : ﴿ **ثم إذا شاء أنشره** ﴾ أي : بعثه ﴿ **كلا لمّا يقض ما أمره** ﴾ أي : لا يفعله الآن

حتى تنقضي المدة ، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن سيوجد منهم ، ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً ، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم . أقول : والقول الأول أولى وقد أبعد ابن كثير فيما ذهب إليه .

كلمة في السياق :

١ - بدأ هذا الجزء بقوله تعالى : ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾ وانتهى بقوله تعالى : ﴿ **كلا لمّا يقض ما أمره** ﴾ ففي بداية هذا الجزء سُجّل على الإنسان كفره ، وفي نهايته سُجّل عليه ضعف قيامه بواجباته ، وفي الوسط ذكر الله تعالى ما تقوم به الحجة على الإنسان ، إذ يكفر أو يقصّر ، لقد ذكّر الله الإنسان بأصل نشأته ، وحسن تقدير الله لتركيبه ، ثم هدايته له ، ثم إكرامه بالقبر ، ثم الحكم عليه بالنشر ، وهذا كله يقتضي شكراً لا كفراً ولا تقصيراً ، فإذا كان الإنسان مع هذا كله يكفر ويقصّر ، فالذنب ذنبه ، وبالتالي فلا عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم من أمره شيئاً ، فلا يدفعنّك الحرص على إسلام الكافر إلى التقصير في حق المسلم .

٢ - ثمّ يأتي الجزء الثالث من الفقرة وفيه يلفت الله عز وجل نظر الإنسان إلى إنعامه عليه بكل ما يحتاجه ، مما يقتضي منه شكراً ، وقياماً بالواجب . وكأنّ هذا وحده كاف لتقوم الحجة ، فإذا لم يهتد ولم يشكر فالذنب ذنبه ، قال النّسفي مقدّماً للكلام عن هذا الجزء : (لمّا عدّد النّعم عليه في نفسه - أي : في الجزء السابق من ابتداء حدوثه إلى آن انتهائه - أتبعه ذكر النّعم فيما يحتاج إليه فقال : ﴿ **فلينظر** ... ﴾) .

تفسير الجزء الثالث من الفقرة الثانية :

﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه** ﴾ أي : الذي يأكله ويحيا به كيف دبّرنا أمره ﴿ **إنا صببنا الماء صباً** ﴾ قال النسفي : يعني المطر من السحاب ﴿ **ثمّ شققنا الأرض شقاً** ﴾ قال النسفي : أي : بالنبات . قال ابن كثير في الآيتين : أي : أسكنّاه فيها فيدخل في جوفها ويتخلل في أجزاء الحب المودع فيها ، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ﴿ **فأنبتنا فيها حباً** ﴾ كالبر والشعير وغيرهما مما يتغذّى به ﴿ **وعنباً وقضباً** ﴾ قال ابن كثير : والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة ، ويقال لها القت أيضاً ﴿ **وزيتوناً** ﴾ قال ابن كثير : وهو معروف ، وهو أُدْم وعصيره أُدْم ، ويستصبح به ويدّهن به ﴿ **ونخلاً** ﴾ قال ابن كثير : (يؤكل بلحاً بسراً ورطباً وتمراً ونيئاً ومطبوخاً ،

ويعتصر منه دبس ويصنع منه خلّ) ﴿ **وحدائق غلباً** ﴾ أي : غلاظ الأشجار ﴿ **وفاكهة وأباً** ﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكّه به من الثمار والأبّ : ما أنبتت الأرض مما تأكله الدوابّ ، ولا يأكله الناس ﴿ **متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾ أي : منفعة لكم ولأنعامكم . قال ابن كثير : أي : عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة .

كلمة في السياق :

١ - جاء هذا الجزء من الفقرة آمراً بالنظر إلى طعام الإنسان ، وطعام دوابّه كيف رتّب الله عز وجل أمره بعد ذكر كفر الإنسان وتقصيره في الجزء الثاني من الفقرة ، وفي ذلك دلالة على أن الإنسان لو نظر هذه النظرة ، وبنى عليها ما ينبغي لشكر ، ولم يكفر ، ولقام في الواجب ، ولم يقصّر ، وهكذا نجد أن الفقرة الثانية في أجزائها الثلاثة أدّبت المسلمين في أن يعرفوا قدر هذا القرآن ، وأن يعرفوا أنّ الحجة قائمة به على الكافرين ، وأن الكافرين بحاجة إليه ، وعرّفتنا على الطبيعة الإنسانية الكافرة المقصّرة ، وبيّنت لنا أن النظر في الإنسان وما أكرمه الله عز وجل به كاف لإقامة الحجة ، وجعل الإنسان على المحجة ، أما والإنسان لم يفعل فذلك ذنبه ، وبالتالي فلا ينبغي أن تضيع حقوق المسلمين بسبب الكافرين .

٢ - بمناسبة الجزء الأخير من الفقرة نحب أن نسجّل هنا ملاحظة هي : إن المعاني القرآنية تكون في كثير من الأحيان تسجيلاً لبداهة النظر الفطري ، ولفت نظر إلى مدلولاته ، وفي ذلك مظهر من مظاهر إعجاز هذا القرآن ، إذ لفت نظر الإنسان إلى كل شيء حوله وما ينبغي أن يبني عليه ، وكان ذلك بأعلى درجات البلاغة والبيان ، إن من تأمل هذه الظاهرة وحدها من ظواهر القرآن كفاه ذلك دليلاً على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل .

٣ - وبعد ما مَرَّ معنا في الفقرتين السابقتين تأتي الفقرة الأخيرة في السورة ، وهي تبني على ما ورد في الفقرتين السابقتين ، فالفقرة الأولى أظهرت لنا أن هناك كافراً يستغني ، ومؤمناً يفتقر ويرغب ، وفي الفقرة الثانية عرفنا أن هناك قرآناً يذكّر ، وأن هناك ناساً يتذكّرون ، وناساً لا يتذكّرون ، ومن ثَمَّ فإن الفقرة الثالثة تبيّن حال الطائفتين يوم القيامة ، وهي في أدائها لهذا المعنى ، كأنها تقول لرسول الله ﷺ : هذا حال الكافرين وحال المؤمنين يوم القيامة ؛ فمن الأولى بالحرص منكما على الآخر ؟ أنت الذي تدلّ على طريق النجاة ؟ أو ذلك الكافر المفتقر إليك لتدله على طريق النجاة ؟ فإذا

لم يفعل فدعه وشأنه ، وأقبل على الذي يحرص على طريق النجاة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة والأخيرة في السورة

وتمتد من الآية (٣٣) إلى نهاية الآية (٤٢) وهذه هي :

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢)

التفسير :

﴿ **فإذا جاءت الصاخة** ﴾ قال ابن كثير : الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة عظّمه الله وحذر منه ، قال ابن جرير لعله اسم النفخة في الصور ، وقال البغوي : الصاخة يعني صيحة يوم القيامة سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع أي : تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها) ﴿ **يوم يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه** ﴾ قال النسفي : لتبعات بينه وبينهم أو لاشتغاله بنفسه ﴿ **وصاحبته** ﴾ أي : وزوجته ﴿ **وبنيه** ﴾ قال النسفي : بدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه ، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أحب ، وقال ابن كثير : (أي : يراهم ويفر منهم ويبتعد منهم ؛ لأن الهول عظيم والخطب جليل ، قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أي بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنت ، وتثني بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين ، فتقول له : ما أيسر ما طلبت ولكن لا أطيق أن أعطيك

شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به ، فيقول : يا بني أيّ والد كنت لك ؟ فيثني عليه بخير . فيقول له : يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى ، فيقول ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ، يقول الله تعالى : ﴿ **يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه** ﴾ وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول : نفسي لا أسألك إلا نفسي ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول لا أسأله اليوم إلا نفسي ، لا أسأله مريم التي ولدتني ولهذا قال تعالى : ﴿ **يوم يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه** ﴾ قال قتادة الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب من هول ذلك اليوم .) ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن** ﴾ في نفسه ﴿ **يغنيه** ﴾ أي : يكفيه في الاهتمام به ويشغله عن غيره ﴿ **وجوه يومئذ مسفرة** ﴾ أي : مضيئة ، قال النسفي : من قيام الليل أو من آثار الوضوء ، قال ابن كثير : أي : يكون الناس هنالك فريقين وجوه مسفرة أي : مستنيرة ﴿ **ضاحكة مستبشرة** ﴾ أي : مسرورة فرحة من السرور في قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء هم أهل الجنة ﴿ **ووجوه يومئذ عليها غبرة** ﴾ أي : غبار ﴿ **ترهقها قترة** ﴾ أي : يعلو الغبرة سواد كالدخان ، قال النسفي : ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ﴿ **أولئك** ﴾ أي : أهل هذه الحالة ﴿ **هم الكفرة** ﴾ في حقوق الله ﴿ **الفجرة** ﴾ في حقوق العباد ، قال ابن كثير : أي : الكفرة في قلوبهم ، الفجرة في أعمالهم . قال النسفي : ولما جمعوا الفجور إلى الكفر جمع إلى سواد وجوههم الغبرة .

كلمة في السياق :

١ - في الفقرة الأخيرة تبيان لحال الناس يوم القيامة ، وفي ذلك تهييج على ترك الكفر ، وعلى القيام بالشكر ، وتبيان لحاجة الخلق إلى الله ، وافتقارهم إلى رسوله ﷺ ، وفي ذلك تتمة التذكير لرسول الله ﷺ ألا يدفعه الحرص على إسلام الكافرين إلى أن يقصّر في حقوق المسلمين المقبلين عليه ، وفي الفقرة كذلك بيان إلى أنه لا بدّ من كافر ومؤمن ، وفي ذلك درس لرسول الله ﷺ من أجل أن تستقر في نفسه هذه الحقيقة فلا تحمله الشفقة بخلق الله على التفريط بحق عباد الله ، حرصاً على إسلام الخلق كلهم ما دام الأمر في حكمة الله وقضائه كذلك ، نسأل الله أن يحيينا مؤمنين مسلمين محسنين متقين ، وأن يميتنا ويحشرنا على ذلك .

٢ — قلنا إن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ ولا شك أننا أخذنا دروساً كثيرة من السورة تعمّق فهمنا لآيتي سورة البقرة .

الفوائد :

١ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **عبس وتولّى * أن جاءه الأعمى** ﴾ ترجم الألوسي لعبد الله بن أم مكتوم فقال : (وكان أعمى وعمي بعد نور ، وقيل : ولد أعمى ، ولذا قيل لأمه : أم مكتوم ، أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد ابن المغيرة يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام ؛ رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال : يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى ، وكرّر ذلك ، ولم يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه ، فنزلت ، فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يكرمه ويقول إذا رآه : « مرحباً بمن عاتبني فيه ربي » ويقول : « هل لك من حاجة » واستخلفه صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة فكان يصلي بالناس ثلاث عشرة مرة ، كما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب عن أهل العلم بالسير ، ثم استخلف بعده أبا لبابة وهو من المهاجرين الأولين ، هاجر ابن أم مكتوم على الصحيح قبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووهم القرطبي في زعمه أنه مدني ، وأنه لم يجتمع بالصناديد المذكورين من أهل مكة ، وموته قيل : بالقادسية شهيداً يوم فتح المدائن أيام عمر رضي الله تعالى عنه ، ورآه أنس يومئذ وعليه درع وله راية سوداء ، وقيل : رجع منها إلى المدينة فمات بها رضي الله تعالى عنه ، وضمير عبس وما بعده للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلال له صلى الله تعالى عليه وسلم لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره ؛ لأنه لا يصدر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم مثله كما أن في التعبير عنه صلى الله تعالى عليه وسلم بضمير الخطاب في قوله سبحانه : ﴿ **وما يُدريك لعله يزكّى** ﴾ ذلك لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش ، والإقبال بعد الإعراض ، والتعبير عن ابن أم مكتوم بالأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وتشاغله بالقوم) . أقول : على الداعية إلى الله أن يقبل على كل المستجيبين

بالرعاية الكاملة ، فكم من إنسان لا تعطيه أهمية ويكون خيراً من مئات من الناس الذين يظن فيهم الخير ، ثمّ لا يخرج منهم شيء كثير .

٢ - علّق صاحب الظلال تعليقات طويلة على قوله تعالى : ﴿ **عبس وتولّى** ... ﴾ ونقتطف من كلامه ما يلي : (ولقد انفعلت نفس الرسول ﷺ لهذا التوجيه ، ولذلك العتاب . انفعلت بقوة وحرارة ، واندفعت إلى إقرار هذه الحقيقة في حياته كلها ، وفي حياة الجماعة المسلمة بوصفها هي حقيقة الإسلام الأولى .

وكانت الحركة الأولى له ﷺ هي إعلان ما نزل له من التوجيه والعتاب في الحادث . وهذا الإعلان أمر عظيم رائع حقاً . أمر لا يقوى عليه إلا رسول ، من أي جانب نظرنا إليه في حينه .

نعم لا يقوى إلا رسول على أن يعلن للناس أنه عوتب هذا العتاب الشديد ، بهذه الصورة الفريدة في خطإٍ أتاه ! وكان يكفي لأي عظيم - غير الرسول - أن يعرف هذا الخطأ وأن يتلافاه في المستقبل . ولكنها النبوة . أمر آخر . وآفاق أخرى !

لا يقوى إلا رسول على أن يقذف بهذا الأمر هكذا في وجوه كبراء قريش في مثل تلك الظروف التي كانت فيها الدعوة ، مع أمثال هؤلاء المستعزين بنسبهم وجاههم ومالهم وقوتهم ، في بيئة لا مكان فيها لغير هذه الاعتبارات ، إلى حد أن يقال فيها عن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » ... وهذا نسبه فيهم ، لمجرد أنه هو شخصياً لم تكن له رياسة فيهم قبل الرسالة !

ثم إنه لا يكون مثل هذا الأمر في مثل هذه البيئة إلا من وحي السماء . فما يمكن أن ينبثق هذا من الأرض ... ومن هذه الأرض بذاتها في ذلك الزمان !!

وهي قوة السماء التي دفعت مثل هذا الأمر في طريقه ؛ فإذا هو ينفذ من خلال نفس النبي ﷺ إلى البيئة من حوله ؛ فيقرر فيها بعمق وقوة واندفاع ، يطرد به أزماناً طويلة في حياة الأمة المسلمة .

لقد كان ميلاداً جديداً للبشرية كميلاد الإنسان في طبيعته ، وأعظم منه خطراً في قيمته ... أن ينطلق الإنسان حقيقة - شعوراً وواقعاً - من كل القيم المتعارف عليها في الأرض ، إلى قيم أخرى ، تتنزل له من السماء منفصلة منعزلة عن كل ما في الأرض من

قيم وموازين وتصورات واعتبارات وملابسات عملية ، وارتباطات واقعية ذات ضغط وثقل ، ووشائج متلبسة باللحم والدم والأعصاب والمشاعر . ثم أن تصبح القيم الجديدة مفهومة من الجميع ، مسلماً بها من الجميع . وأن يستحيل الأمر العظيم الذي احتاجت نفس محمد ﷺ كي تبلغه إلى التنبيه والتوجيه ، أن يستحيل هذا الأمر العظيم بديهية الضمير المسلم ، وشريعة المجتمع المسلم ، وحقيقة الحياة الأولى في المجتمع الإسلامي لآماد طويلة في حياة المسلمين .

إننا لا نكاد ندرك حقيقة ذلك الميلاد الجديد ؛ لأننا لا نتمثل في ضمائرنا حقيقة هذا الانطلاق من كل ما تنشئه أوضاع الأرض وارتباطاتها من قيم وموازين واعتبارات ساحقة الثقل إلى الحد الذي يخيل لبعض أصحاب المذاهب (التقدمية !) أن جانباً واحداً منها - هو الأوضاع الاقتصادية - هو الذي يقرر مصائر الناس وعقائدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعرفهم وتصورهم للحياة ! كما يقول أصحاب مذهب التفسير المادي للتاريخ في ضيق أفق ، وفي جهالة طاغية بحقائق النفس وحقائق الحياة !

إنها المعجزة . معجزة الميلاد الجديد للإنسان على يد الإسلام في ذلك الزمان) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى عن القرآن : ﴿ **كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، في صحف مكرّمة ، مرفوعة مطهّرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرؤه وهو عليه شاق ، له أجران » أخرجه الجماعة من طريق قتادة به) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وفاكهة وأباً** ﴾ قال ابن كثير : (فأما ما رواه ابن جرير عن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿ **عبس وتولى** ﴾ فلما أتى على هذه الآية ﴿ **وفاكهة وأباً** ﴾ قال : قد عرفنا الفاكهة فما الأب ؟ . فقال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف فهو إسناد صحيح ، وقد رواه غير واحد عن أنس به ، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله ﴿ **فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً** ﴾) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون

حفاة عراة مشاة غرلاً » قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ننظر - أو يرى - بعضنا عورة بعض ؟ قال : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه - أو قال : ما أشغله عن النظر - » . وقد رواه النسائي منفرداً به ... عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به . وقد رواه الترمذي ... عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « تحشرون حفاة عراة غرلاً » فقالت امرأة : أيبصر - أو يرى - بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » ثم قال الترمذي : وهذا حديث حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن ابن عباس رضي الله عنهما) . ولننتقل إلى السورة الثالثة في المجموعة التاسعة .

☆ ☆ ☆

سورة التكوير

وهـي الـسـورة الحادية والثمانـون بحسـب الرسـم القـرآني
وهي الـسورة الثالثة من المجموعة التاسعة من قسم
المفصل ، وهـي تسـع وعشـرون آية
وهـي مكيـة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم

بين يدي سورة التكوير :

قدّم الألوسي لسورة التكوير بقوله : (ويقال : سورة كورت . وسورة إذا الشمس كورت . وهي مكية بلا خلاف . وآيها تسع وعشرون آية ، وفي التيسير ثمان وعشرون . وفيها من شرح حال يوم القيامة - الذي تضمنه آخر السورة قبل - ما فيها ، وقد أخرج الإمام أحمد والترمذي وحسّنه والحاكم وصححه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت » أي : السور الثلاث وكفى بذلك مناسبة) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لهذه السورة : (هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة :

الأولى حقيقة القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل ، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش ، كما يشمل بني الإنسان .

والثانية حقيقة الوحي ، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله ، وصفة النبي الذي يتلقاه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه ، ومع المشيئة الكبرى التي فطرتهم ونزّلت لهم الوحي .

والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة . تنطلق من عقالها ، فتقلب كل شيء ، وتنثر كل شيء ؛ وتهيج الساكن وتروع الآمن ؛ وتذهب بكل مألوف ، وتبدّل كل معهود ؛ وتهز النفس البشرية هزاً عنيفاً طويلاً ، يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه ، وتتشبث به ، فإذا هي في عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار . ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا في حمى الواحد القهار ، الذي له وحده البقاء والدوام ، وعنده وحده القرار والاطمئنان ...

ومن ثَمَّ فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن ، لتلوذ بكنف الله ، وتأوي إلى حماه ، وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار ...

وفي السورة - مع هذا - ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة ، سواء في هذا الكون الرائع الذي نراه ، أو في ذلك اليوم الآخر الذي ينقلب فيه الكون بكل ما نعهده فيه من

أوضاع . وثروة كذلك من التعبيرات الأنيقة ! المنتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات . وتلتقي هذه وتلك في حيز السورة الضيق ، فتضغط على الحس وتنفذ إليه في قوة وإيحاء) .

كلمة في سورة التكوير ومحورها :

تأتي سورة التكوير بعد سورتين فصّلتا في مقدمة سورة البقرة وهي مبدوءة بـ (إذا) وتتحدّث عن اليوم الآخر في بدايتها ، فهي تشبه سورة الواقعة التي رأينا أنها فصّلت فيما بعد مقدمة سورة البقرة ، فمظنة محور سورة التكوير هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ... ﴾ وما بعدها . والملاحظ أن سورة التكوير تتألف من مقطعين ، الأول ينتهي بالآية (١٤) وفيه حديث عن يوم القيامة ، وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **علمت نفس ما أحضرت** ﴾ وفي ذلك تذكير للنفس البشرية بالعمل لذلك اليوم ، ثم يأتي المقطع الثاني من السورة وفيه قسم جوابه قوله تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ... ﴾ ثم يسير السياق حتى يأتي قوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾ ومن المعلوم أن الاستقامة مرتبطة بموضوع العبادة والتقوى ، ومن ههنا تأتي صلة السورة بمحورها من سورة البقرة ، فالسورة تهيّج على العبادة والتقوى والاستقامة على ذلك ، وعلى هذا فإننا نستطيع القول إن محور السورة من سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون * وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين * وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** ... ﴾ فلنر السورة .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويمتدّ حتى نهاية الآية (١٤) وهذا هو :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

التفسير :

﴿ **إذا الشمس كوّرت** ﴾ قال النسفي : (أي : ذهب بضوئها) وقال العوفي عن ابن عباس : أي : ذهبت ، قال ابن جرير بعد أن ذكر مجموعة أقوال : (والصواب من القول عندنا في ذلك ، أن التكوير : جمع الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة ، وجمع الثياب بعضها إلى بعض ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ **كوّرت** ﴾ جُمع بعضها إلى بعض ، ثم لفّت فرمي بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها) ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ قال النسفي : أي : تساقطت ، وقال ابن كثير : أي : انتثرت ... وأصل الانكدار الانصباب ﴿ **وإذا الجبال سُيّرت** ﴾ قال النسفي : (أي : سيرت عن وجه الأرض وأبعدت ، أو سيّرت في الجو تسيير السحاب) ، وقال ابن كثير : أي : زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً .

﴿ **وإذا العشار عطلت** ﴾ أي : أهملت ، والعشار من الإبل خيارها والحوامل منها التي وصلت في حملها إلى الشهر العاشر ، واحدتها عشراء ولايزال ذلك اسمها حتى تضع ...

قال ابن كثير : قيل : يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها كذلك لا سبيل لهم إليها . أقول : وهذا الذي نرجّحه ، وهو دليل على أن الإبل تبعث . ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ أي : جمعت من كل ناحية ، قال ابن كثير : يحشر كل شيء حتى الذباب ، رواه ابن أبي حاتم ، قال النسفي : قال قتادة : يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص فإذا قضي بينها ردت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم كالطاووس ونحوه ، أقول : لا يدخل في اسم الوحوش الذباب وغيره من الحشرات والجراثيم ، وقد رجحنا في سورة الأعراف أن ما يحشر هو ما كان من غير أصناف الحشرات والجراثيم وههنا ذكرت الوحوش ، وذكرت العشار ، ونؤثر أن نبقى عند النص . ﴿ **وإذا البحار سجّرت** ﴾ قال النسفي : أي : ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً . أقول : لا يبعد أن يكون المراد أنها ملئت كأثر من تفجر الأرض وزلزالها بمادة البراكين المتفجرة من باطن الأرض وهذا في هذا المقام أليق بالمعنى . وقد ذهب إليه بعضهم كما ذكر الألوسي . ﴿ **وإذا النفوس زُوِّجت** ﴾ أي : جمع كل شكل إلى نظيره ، وقد سئل عمر عن قوله تعالى : ﴿ **وإذا النفوس زُوِّجت** ﴾ قال : يقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، فذلك تزويج الأنفس . وقال أكثر من إمام في التفسير : إن المراد بتزويج الأنفس تزويجها بأبدانها يوم القيامة ﴿ **وإذا الموءُودة سئلت** ﴾ والموءُودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسّونها في التراب كراهية البنات . قال ابن كثير : فيوم القيامة تسأل الموؤودة على أيّ ذنب قتلت ؟ ليكون ذلك تهديداً لقاتلها ، فإنه إن سئل المظلوم فما ظن الظالم إذن . ﴿ **بأيّ ذنب قُتلت** ﴾ قال النسفي : وفيه دليل على أن أطفال المشركين لا يعذّبون ، وعلى أن التعذيب لا يكون بلا ذنب . ﴿ **وإذا الصحف نشرت** ﴾ أي : فتحت . قال ابن كثير : (قال الضحاك : أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله ، وقال قتادة : يا ابن آدم تملي فيها ثم تطوى ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته) . وقال النسفي : (والمراد صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته ، ثم تنشر إذا حوسب ، ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها أي : فرقت بينهم) . ﴿ **وإذا السماء كشطت** ﴾ قال السدي : أي : كشفت . وقال الألوسي : قلعت وأزيلت . وقال الضحاك : تكشط فتذهب . ﴿ **وإذا الجحيم سُعِّرت** ﴾ أي : أوقدت إيقاداً شديداً . ﴿ **وإذا الجنة أُزلفت** ﴾ أي : أدنيت من المتقين ، أي : قربت إلى أهلها ﴿ **علمت نفس ما أحضرت** ﴾ أي : علمت كل نفس ما أحضرت من خير وشر . قال ابن كثير : هذا هو الجواب أي : إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس

ماعملت وأحضر ذلك لها .. وقال ابن أبي حاتم ... لما نزلت ﴿ **إذا الشمس كوّرت** ﴾ . قال عمر لما بلغ ﴿ **علمت نفس ماأحضرت** ﴾ قال : لهذا أجري الحديث .

كلمة في السياق :

١ - ذكر الله عز وجل في المقطع السابق مشاهد من يوم القيامة ، وعظم مايجري فيه ليصل السياق إلى قوله تعالى : ﴿ **علمت نفس ما أحضرت** ﴾ وهي التي صب عليها السياق ، وفي ذلك تحذير للنفس البشرية أن تحضر شراً ، وتهييج لها من أجل أن تحضر خيراً ولذلك صلته بالمحور : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ من حيث إن سياق سورة التكوير يهيج على الطاعة والعمل فكأن السياق العام يقوله : ياأيها الناس إنما أمرتم بالعبادة والتقوى لأنه إذا قامت القيامة وكان كذا وكذا عندئذ تجد كل نفس ماأحضرت فأحضروا العبادة والتقوى .

٢ - ورد في المحور قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين ۝ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** ﴾ وقد جاء في سورة التكوير قوله تعالى : ﴿ **وإذا الجحيم سعّرت ۝ وإذا الجنة أزلفت ۝ علمت نفس ماأحضرت** ﴾ ولهذا صلاته بالمحور .

٣ - وبعد المقطع الأول من سورة التكوير يأتي المقطع الثاني ، ويبدأ بقسَم ويأتي بعد ذلك جوابه ﴿ **إنّه لقول رسول كريم** ﴾ أي : القرآن ، ثم يسير السياق حتى يصبّ على قوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين ۝ لمن شاء منكم أن يستقيم ...** ﴾ فالمقطع الثاني يذكرنا بالقرآن ويذكرنا بالاستقامة ، وفي ذلك تحديد لمنهاج العمل ، وأنه ينبغي أن يكون مستقيماً على ضوء كتاب الله ، ولذلك صلاته بالمحور :

فهناك ارتباط بين الاستقامة وبين العبادة والتقوى ، وفي المقطع تأكيد لكون القرآن من عند الله : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ فلنر المقطع الثاني .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢٩) وهذا هو :

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

التفسير :

﴿ **فلا أقسم** ﴾ أي : فأقسم ﴿ **بالخنَّس** ﴾ أي : الرواجع ﴿ **الجوار** ﴾ أي : السيارة ، ﴿ **الكُنَّس** ﴾ أي : الغُيَّب ، والراجح أن المراد بذلك الكواكب السيارة قال الألوسي : (وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ أنه قال : هي خمسة أنجم : زحل ، وعطارد ، والمشتري ، وبهرام يعني : المريخ ، والزهرة . أقول : هذه كانت معروفة عندهم ، ورجوعها وكناسها إما بالنسبة للإنسان في ليله ونهاره ، أو أن المراد بذلك رجوعها في سيرها ومسارها بشكل دائب ، والمراد بكناسها غيابها . ﴿ **والليل إذا عسعس** ﴾ أي : أقبل بظلامه ، ﴿ **والصبح إذا تنفَّس** ﴾ أي : إذا أضاء . ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ هذا جواب القسم . أي : إن القرآن لقول رسول كريم . أي : جبريل عليه السلام . قال النسفي : وإنما أضيف القرآن إليه لأنه هو الذي نزل به ، قال ابن كثير : يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي : ملك شريف ، حسن الخلق ، بهيّ المنظر ، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿ **ذي قوّة** ﴾ أي : قدرة على ما يكلف

لا يعجز عنه ولا يضعف ، وقال ابن كثير : أي : شديد الخلق ، شديد البطش والفعل ﴿ **عند ذي العرش** ﴾ أي : عند الله عز وجل ، ﴿ **مكين** ﴾ قال ابن كثير : أي : له مكانة عند الله عز وجل ، ومنزلة رفيعة ، ﴿ **مطاع ثَمَّ** ﴾ أي : هناك ، أي : في السموات يطيعه من فيها من الملأ الأعلى ، قال ابن كثير : أي : في السموات يعني : ليس هو من أفراد الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف معتنى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة ﴿ **أمين** ﴾ أي : على الوحي أو متصف بصفة الأمانة بشكل مطلق ، قال ابن كثير : وهذا عظيم جداً أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل . ﴿ **وماصاحبكم** ﴾ أي : محمد ﷺ ﴿ **بمجنون** ﴾ كما يزعم الكفرة ﴿ **ولقد رآه بالأفق المبين** ﴾ أي : البين . قال ابن كثير : يعني ولقد رأى محمد جبريل - الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح بالأفق المبين أي : البيّن وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء .. وفسر النسفي الأفق المبين بمطلع الشمس ﴿ **وماهو** ﴾ أي : محمد ﷺ ﴿ **على الغيب** ﴾ أي : على الوحي ﴿ **بضنين** ﴾ أي : ببخل على الوحي ، بل يبذله لكل أحد ، ولا يقتصر في التبليغ والتعليم ومنح كل ماهو مستعد له من العلوم ﴿ **وماهو بقول شيطان رجيم** ﴾ أي : طريد ، أي : ليس هو بقول بعض المسترقة للسمع مما يوحونه إلى أوليائهم من الكهنة ﴿ **فأين تذهبون** ﴾ قال ابن كثير : أي : فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه حقاً من عند الله عز وجل ... وقال قتادة : ﴿ **فأين تذهبون** ﴾ أي : عن كتاب الله عز وجل وعن طاعته ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ قال النسفي : أي : ما القرآن إلا عظة للخلق . وقال ابن كثير : أي : هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾ . قال النسفي : أي : القرآن تذكرة لمن شاء الاستقامة ، يعني أن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعوظين جميعاً . وقال ابن كثير : أي : لمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ أي : وماتشاءون الاستقامة إلا أن يشاء الله مالك الخلق . وقال ابن كثير : (أي : ليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله رب العالمين . قال سفيان الثوري عن سليمان بن موسى : لما نزلت هذه الآية ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾ قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى ﴿ **وماتشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾) . أقول : ومن سبب

نزول هذه الآية ندرك نقطة رئيسية في القضية التي حيرت الكثير ، وهي ارتباط المشيئة البشرية بالمشيئة الإلهية . والخلاصة في هذا الموضوع : إن كل شيء بمشيئة الله عز وجل ، وهذا لا يتنافى مع اختيار الإنسان ، كما رأينا في أكثر من مكان ، فإذا أضل الله أضل عدلاً ، وإذا هدى يهدي فضلاً ، ولولا أن كل شيء بمشيئة الله عز وجل لكان الله عز وجل مقهوراً بالمعصية ، وهذا لا يكون ، ومن ثم كان كل شيء بمشيئته ، وهذا لا يعني الإجبار ؛ فقد علم وأراد ، وأبرز بقدرته ، والعلم كاشف لا مجبر ، عَلِمَ ماذا سيفعل فلان فأراده فأبرزه بقدرته .

كلمة في السياق :

١ - هناك صلة بين العبادة ومعرفة أن التوفيق بيد الله عز وجل : ولذلك نقول في كل صلاة ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ وهناك صلة بين العمل والاستقامة وفي الحديث : « قل آمنت بالله ثم استقم » فهناك صلة إذن بين قوله تعالى في المقطع : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله ..** ﴾ وبين قوله تعالى في المحور : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ .

٢ - جاءت في المقطع ثلاثة أقسام (جمع قَسَم) على قوله تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ فالأقسام مؤكدة ، والآية فيها تأكيدان (إنّ) (واللام) فخمسة مؤكدات تنصبّ على أنّ هذا القرآن من عند الله ، وذلك - في العادة - يكون إذا كان المخاطب عنده شك ، ومن هنا ندرك العلاقة بين هذه الآيات وآيات المحور : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ فالآيات تؤكد أن هذا القرآن من عند الله ، وتلاحق الريب : ﴿ **وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين** ﴾ وهناك قراءة بالظاء ﴿ **وما هو على الغيب بظنين** ﴾ أي : بمتهم ، فالمقطع بيّن أنّ الثقة بهذا القرآن ينبغي ألا يكون لها حدود ، فجبريل الأمين هو الذي نقله عن الله عز وجل لمحمد الأمين ، غير المتهم على الوحي ، وغير البخيل به . فالسورة بمجموعها هيّجت على العبادة والتقوى والاستقامة ، ومعرفة الله عز وجل ، والعمل الصالح ، وذكرت الشيئين الأساسيين اللذين ينشق عنهما هذا كله : مجيء يوم القيامة ، والثقة بهذا القرآن .

الفــوائد :

١ - ذكر المقطع الأول من سورة التكوير اثني عشر مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، فزعم بعضهم أن ستة من هذه المشاهد تكون في الدنيا قبيل يوم القيامة ، وستة تكون بعد يوم القيامة ، ونسبوا هذا القول إلى بعض الأئمة ، وهو قول متهافت ، فكيف يصح أن يكون تكوير الشمس وانكدار النجوم متقدماً على يوم القيامة ؟ فإما أن السند غير صحيح إلى راويه ، وإما أن يكون عند راويه فهم خاطىء .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إذا الشمس كوّرت** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة» انفرد به البخاري ، وهذا لفظه ، وإنما أخرجه في كتاب بدء الخلق) .

وقال صاحب الظلال : (إن تكوير الشمس قد يعني برودتها ، وانطفاء شعلتها ، وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء . كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف . واستحالتها من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التي تبلغ ١٢٠٠٠ درجة ، والتي تحول جميع المواد التي تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة ملتهبة ... استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض ، وتكور لا ألسنة له ولا امتداد !.

قد يكون هذا ، وقد يكون غيره .. أما كيف يقع ، والعوامل التي تسبب وقوعه ، فعلم ذلك عند الله .)

أقول : سيكون هذا يوم ينفخ في الصور ، ويجمع الشمس والقمر .

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ قال صاحب الظلال : (وانكدار النجوم قد يكون معناه انتثارها من هذا النظام الذي يربطها ، وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها .. والله أعلم ماهي النجوم التي يصيبها هذا الحادث . وهل هي طائفة من النجوم القريبة منا .. مجموعتنا الشمسية مثلاً . أو مجرتنا هذه التي تبلغ مئات الملايين من النجوم .. أم هي النجوم جميعها والتي لا يعلم عددها ومواضعها إلا الله ؟ . فوراء ما نرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءات لها ، لا نعرف لها عدداً ولا نهاية ، فهناك نجوم سيصيبها الانكدار كما يقرر هذا الخبر الصادق الذي لا يعلم حقيقته إلا الله ..)

أقول : النجوم ههنا جنسها ، فالنجوم كلها في مجرات هذا الكون تنكدر يوم القيامة فيجمع بعضها إلى بعضه كما قال تعالى ﴿ **يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ فكما كان الكون كله نقطة واحدة ثم تمدد فإنه يعود كذلك والله أعلم .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإذا البحار سجّرت** ﴾ قال صاحب الظلال : (وأما تسجير البحار فقد يكون ملؤها بالمياه .. وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ **وإذا البحار فجّرت** ﴾ فتفجير عناصرها ، وانفصال الأيدروجين عن الأكسوجين فيها ، أو تفجير ذراتها على نحو مايقع في تفجير الذرة ،- وهو أشد هولاً - أو على أيّ نحو آخر . وحين يقع هذا فإن نيراناً هائلة لا يتصور مداها ، تنطلق من البحار . فإن تفجير قدر محدود من الذرات في القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا ؛ فإذا انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر ، فإن الإدراك البشري يعجز عن تصور هذا الهول !) .

أقول : الاتجاهات كثيرة في تفسير قوله تعالى ﴿ **وإذا البحار سجّرت** ﴾ ، وهل التسجير هنا هو التفجير الوارد في سورة الانفطار ؟ والذي أذهب إليه أن التفجير يسبق التسجير ، فالبحار ينفتح ماؤها على بعضه في مرحلة ثم يحدث شيء آخر هو التسجير الذي هو الملء والله أعلم .

٥ - فسر بعضهم ﴿ **وإذا البحار سجّرت** ﴾ بأن البحر هو الذي يكون جهنم ، وهذا في رأيي خطأ ، لأن الأحاديث تذكر أن الناس وهم في الموقف يؤتى بنار جهنم لها سبعون ألف زمام يجرها .. مما يشير إلى أن النار هذا السجن الضخم الهائل موجود حالياً في مكان ما ، ويؤتى بها إلى المحشر ، فالذي نرجّحه أن تسجير البحار يكون واحداً مما يحدث حتى تكون الأرض كلها كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد كما ورد في الحديث ، وذلك كأن تمتلىء بلابّة باطن الأرض .

٦ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإذا الموءودة سئلت** ﴾ ذكر الألوسي تحقيقاً طويلاً حول مآل الأطفال يوم القيامة ، وختم كلامه بقوله : (والذي أختاره : القول بأن الأطفال مطلقاً ، وكذا فرخ الزنا ، ومن جن قبل البلوغ في الجنة ، فهو الأخلق بكرم الله تعالى وواسع رحمته عز وجل ، والأوفق للحكمة بحسب الظاهر ، والأكثر تأييداً بالآيات ، ولا بعد في ترجح الأخبار الدالة على ذلك بما ذكر على الأخبار الدالة على

خلافه ، والقول بأن ما تضمنته هاتيك الأخبار كان منه عليه الصلاة والسلام- قبل علمه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن الأطفال في الجنة - بعيد عندي ، نعم جوز أن يكون قد أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم بأنهم من أهل النار ، بناء على إخبار الوحي به ، كإخباره بالوعيدات التي يعفو الله تعالى عنها من حيث إنه مقيد بشرط ، كأن لم يشملهم الفضل مثلاً لكنه لم يذكر معه كما لم يذكر معها لحكمة ، ثم أخبر عليه الصلاة والسلام بأنهم من أهل الجنة ؛ بناء على إخبار الوحي به أيضاً ، ويكون متضمناً للإخبار بأن شرط كونهم من أهل النار لا يتحقق ، فضلاً من الله تعالى وكرماً ، ويكون ذلك كالعفو عما يقتضيه الوعيد ، ومثل ذلك إخباره بما ذكر بناء على مشاهدة كونهم في الجنة عند إبراهيم عليه السلام فتأمل) .

٧ - هناك قراءتان في قوله تعالى : ﴿ **وماهو على الغيب بضنين** ﴾ القراءة الأولى بالضاد والثانية بالظاء أي : ﴿ **وماهو على الغيب بظنين** ﴾ أي : بمتهم وقد فرق عامة المفسرين بين كلمتي (الضنين) و(الظنين) كما رأينا ، وقال سفيان بن عيينة : ظنين وضنين سواء ، وعلى هذا القول فهناك صلة بين البخل والتهمة ، فلا محمد ﷺ متهماً في أمر البلاغ ، ولا بخيلاً به .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فأين تذهبون** ﴾ قال ابن كثير : (كما قال الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين وأمرهم فتلَوْا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب - الذي هو في غاية الهذيان والركاكة - فقال : ويحكم أين تذهب عقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل أي : من إله) .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ قال صاحب الظلال : (وذلك كي لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى ، التي يرجع إليها كل أمر . فإعطاؤهم حرية الاختيار ، ويسر الاهتداء ، إنما يرجع إلى تلك المشيئة . المحيطة بكل شيء كان أو يكون .

وهذه النصوص التي يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق ، يراد بها تصحيح التصور الإيماني وشموله للحقيقة الكبيرة : حقيقة أن كل شيء في هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله . وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته كتكل تقدير آخر وتدبير . شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة المطلقة لما يؤمرون ، والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون . فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس

القدرة على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان ..

ولابد من إقرار هذه الحقيقة في تصور المؤمنين ، ليدركوا ماهو الحق لذاته . وليلتجئوا إلى المشيئة الكبرى ، يطلبون عندها العون والتوفيق ، ويرتبطون بها في كل مايأخذون ومايدعون في الطريق !) .

كلمة أخيرة في سورة التكوير :

انتهت سورة عبس بقوله تعالى ﴿ **فإذا جاءت الصاخة** .. ﴾ وبدأت سورة التكوير بقوله تعالى ﴿ **إذا الشمس كورت** ... ﴾ فالصلة واضحة بين نهاية سورة عبس ، وبداية سورة التكوير ، ونلاحظ أن سورة التكوير انتهت بقوله تعالى : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم** ... ﴾ وأن في بداية سورة الانفطار : ﴿ ... **ياأيها الإنسان ماغرّك بربك الكريم** ... ﴾ والصلة بين التهييج على الاستقامة والمعاتبة على ترك الاستقامة واضحة ، فكل سورة تصل بسبب إلى مابعدها فلننتقل إلى سورة الانفطار .

☆ ☆ ☆

سورة الانفطار

وهي السورة الثانية والثمانون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة والأخيرة من المجموعة التاسعة من
قسم المفصل ، وهي تسع عشرة آية
وهي مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللّٰهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الانفطار :

قدم الألوسي لسورة الانفطار بقوله : (وتسمى سورة انفطرت ، وسورة المنفطرة . ولا خلاف في أنها مكية ، ولا في أنها تسع عشرة آية . ومناسبتها لما قبلها معلومة) .

وقدم صاحب الظلال هذه السورة بقوله : (تتحدث هذه السورة القصيرة عن الانقلاب الكوني الذي تتحدث عنه سورة التكوير ؛ ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى ، وسمتاً خاصاً بها ، وتتجه إلى مجالات خاصة بها تطوف بالقلب البشري فيها ؛ وإلى لمسات وإيقاعات من لون جديد ، هادىء عميق . لمسات كأنها عتاب . وإن كان في طياته وعيد !.

ومن ثم فإنها تختصر في مشاهد الانقلاب ، فلا تكون هي طابع السورة الغالب — كما هو الشأن في سورة التكوير — لأن جو العتاب أهدأ ، وإيقاع العتاب أبطأ . وكذلك إيقاع السورة الموسيقي . فهو يحمل هذا الطابع . فيتم التناسق في شخصية السورة والتوافق !

إنها تتحدث في المقطع الأول منها عن انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار وبعثرة القبور كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت ، في ذلك اليوم الخطير ..

وفي المقطع الثاني تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد ، لهذا الإنسان الذي يتلقى من ربه فيوض النعمة في ذاته وخلقه ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها . ولا يعرف لربه قدره ؛ ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك** ﴾ .

وفي المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار . فهي التكذيب بالدين — أي : بالحساب — وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود . ومن ثم يؤكد هذا الحساب توكيداً ، ويؤكد عاقبته وجزاءه المحتوم : ﴿ **كلا . بل تكذبون بالدين * وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون * إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم * يصلونها يوم الدين * وما هم عنها بغائبين** ﴾ ..

فأما المقطع الأخير ، فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل

حول فيه ، وتفرد الله سبحانه بأمره الجليل : ﴿ **وما أدراك ما يوم الدين ؟ * ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ * يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً * والأمر يومئذ لله** ﴾ ..

كلمة في سورة الانفطار ومحورها :

سورة الانفطار تفصّل في نفس محور سورة التكوير أي : في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً ...** ﴾ ومن ثم تصبّ مقدمتها في قوله تعالى : ﴿ **علمت نفس ما قدّمت وأخّرت** ﴾ فبدايتها تشبه بداية سورة التكوير ، وتصبّ في معنى شبيه بالمعنى الذي صبّ فيه المقطع الأول من سورة التكوير ، ففي سورة التكوير أجري الحديث لـ ﴿ **علمت نفس ما أحضرت** ﴾ كما قال عمر رضي الله عنه ، وههنا أجرى الحديث في مقدمة السورة لـ ﴿ **علمت نفس ما قدّمت وأخّرت** ﴾ وكما رأينا صلة ذلك في سورة التكوير بمحور السورة فالأمر ههنا كذلك ، بعد ذلك يأتي في سورة الانفطار قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم * الذي خلقك فسوّاك فعدلك ...** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم ...** ﴾ واضحة ..

وتختتم السورة بفقرة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم ..** ﴾ ومن المعلوم من سورة البقرة أن التقوى والبر شيء واحد ، يعلم ذلك من آية البر في سورة البقرة ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حُبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ فالكلام عن الأبرار والفجار في نهاية السورة مرتبط نوع ارتباط بمحور السورة الذي ذكرناه فإذ يقرر الله عز وجل ما أعد للأبرار والفجار ففي ذلك دعوة إلى البر الذي هو التقوى . وإلى العبادة التي هي طريق التقوى ، ولذلك صلاته بالمحور ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين * وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ...** ﴾ .

وقد سجلنا في نهاية الكلام عن سورة التكوير ملاحظة حول صلة نهاية سورة التكوير ببداية سورة الانفطار ، وذكرنا في مقدمة الكلام عن سورة التكوير الحديث

الذي جمع ما بين سور التكوير والانفطار والانشقاق على أنها تصور يوم القيامة وكأنه رأي عين ، فالصلات بين سورتي التكوير والانفطار كثيرة .

وكما أن سورة الواقعة المبدوءة بالكلام عن القيامة ، والمبدوءة بقوله تعالى : ﴿ إذا ﴾ كانت نهاية مجموعة فإن سورة الانفطار ، وهي مبدوءة بالكلام عن يوم القيامة وبـ ﴿ إذا ﴾ نهاية مجموعة كما ذكرنا من قبل .

تتألف السورة من أربع فقرات واضحة المعالم ومترابطة :

الفقرة الأولى حتى نهاية الآية (٥) .
الفقرة الثانية حتى نهاية الآية (٨) .
الفقرة الثالثة حتى نهاية الآية (١٢) .
الفقرة الرابعة حتى نهاية السورة أي حتى نهاية الآية (١٩) ونبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتد حتى نهاية الآية (٥) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)

التفسير :

﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ أي : انشقت . ﴿ **وإذا الكواكب انتثرت** ﴾ أي : تساقطت . ﴿ **وإذا البحار فجرت** ﴾ قال النسفي : أي : فتح بعضها إلى بعض ، وصارت البحار بحراً واحداً . قال ابن كثير : وقال الحسن : فجر الله بعضها في بعض فذهب ماؤها . أقول : على قول الحسن فإن هذا يفيد أن تفجير البحار عملية تتم من أعماق الأرض ، يترتب عليها ذهاب البحار ، وامتلاء مكانها بمادة أخرى . والله أعلم . ﴿ **وإذا القبور بعثرت** ﴾ قال النسفي : أي : بعثت وأخرج موتاها ﴿ **علمت نفس ما قدمت وأخرت** ﴾ أي علمت كل نفس برة وفاجرة ، ما عملت من طاعة وأخرت ، أي : وتركت فلم تعمل ، وهذا هو جواب : إذا السماء ... قال النسفي : إذا كان هذا حصل هذا .

كلمة في السياق :

١ - رأينا أن الفقرة الأولى أوصلت إلى قوله تعالى : ﴿ **علمت نفس ما قدمت وأخرت** ﴾ وهذا يفيد أن الفقرة تهيج النفس البشرية على أن تقدم خيراً ، وتؤخر شراً ، وخير ما تقدمه العبادة والتقوى ، قال تعالى : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ وقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾ فصلة الفقرة الأولى بمحور السورة واضحة ، فمحور السورة يقول : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ والفقرة الأولى تقول للنفس البشرية :

إنه إذا جاء يوم القيامة فستعلمين ماقدّمت وما أخّرت فقدّمي واعملي .

٢ - بعد أن بيّن الله عز وجل مايكون يوم القيامة من علم كل نفس ماقدمته وما أخرته ، يذكر الله عز وجل مايخاطب به الإنسان يوم القيامة ﴿ **ياأيها الإنسان ماغرّك ..** ﴾ والدليل على أن هذا الخطاب يكون للإنسان يوم القيامة ماذكره ابن كثير إذ قال : كما جاء في الحديث : يقول الله تعالى يوم القيامة : « ياابن آدم ماغرك بي ، ياابن آدم ماذا أجبت المرسلين » فلنر الفقرة الثانية .

☆ ☆ ☆
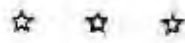
الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (٦) حتى نهاية الآية (٨) وهذه هي :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **ياأيها الإنسان** ﴾ . قال النسفي : قيل : الخطاب لمنكري البعث . **أقول** : هذا خطاب لكل كافر بدليل مايأتي ﴿ **ما غرّك بربك الكريم** ﴾ قال ابن كثير : هذا تهديد وقال النسفي : (أيّ شيء خدعك حتى ضيعت ماوجب عليك مع كرم ربك ، حيث أنعم عليك بالخلق والتسوية والتعديل ؟) وقال ابن كثير : المعنى في هذه الآية : ماغرك ياابن آدم بربك الكريم أي : العظيم ، حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لايليق ﴿ **الذي خلقك فسوّاك** ﴾ قال النسفي : (أي : فجعلك مستوي الخلق سالم الأعضاء) ﴿ **فعدلك** ﴾ قال النسفي : أي : عدل بعض أعضائك ببعض ، حتى اعتدلت ، فكنت معتدل الخلق ، متناسقاً ، وقال ابن كثير في الآية : أي : جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة ، منتصبا في أحسن الهيئات والأشكال ﴿ **في أي صورة ما شاء**

ركّبك ﴾ أي : في صورة اقتضتها مشيئته من الصور المختلفة في الحسن والقبح ، والطول والقصر . أي : عدلك في أيّ صورة من الصور ركّبك فيها . روى ابن أبي حاتم : أن عمر سمع رجلاً يقرأ ﴿ **ياأيها الإنسان ماغرّك بربك الكريم** ﴾ فقال عمر : الجهل . وروى أيضاً عن يحيى البكاء قال : سمعت ابن عمر يقرأ هذه الآية ﴿ **ياأيها الإنسان ماغرّك بربك الكريم** ﴾ ويقول : غرّه والله جهله) .

كلمة في السياق :

١ - رأينا في الفقرة السابقة هذا الخطاب الشديد للإنسان يوم القيامة ، والذي يفيد أن الإنسان الكافر قد غرّه شيء ما حتى ترك العمل مع كل ما فعله الله عز وجل له . ورأينا كلمة عمر رضي الله عنه التي تفيد أن الجهل هو السبب في ذلك ، وصلة ذلك بمحور السورة على الشكل التالي : أمر الله عباده في محور السورة بالعبادة والتقوى ، وعلل للأمر بعبادته بخلقه هذا الإنسان ، وإنعامه عليه ، ولكن كثيرين لايعبدون الله ولا يتقونه جهلاً منهم ، هؤلاء يقرعهم الله عز وجل على ذلك هذا التقريع .

٢ - في الفقرة الأولى من السورة هيّجت السورة على أن تقدّم كل نفس لنفسها ، والفقرة الثانية بيّنت أن مايقتضيه إنعام الله على الإنسان بهذا الخلق السوي المستقيم المعتدل . شيئاً آخر غير الكفران ، وهو معرفة الله عز وجل وتقواه ، لاحظ صلة قوله تعالى ههنا ﴿ **الذي خلقك فسوّاك** ﴾ بقوله تعالى في المحور ﴿ **الذي خلقكم** ﴾ .

٣ - وبعد أن هيجت الفقرتان الأولى والثانية على العمل الصالح والشكر الذي هو عبادة وتقوى ، من خلال عرض مشهدين من مشاهد يوم القيامة ، تأتي الفقرة الثالثة لتبيّن العلة الحقيقية في الاغترار بالله عز وجل ، هذه العلة هي التكذيب بيوم الدين ، فلنر الفقرة الثالثة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة

وتمتد من الآية (٩) إلى نهاية الآية (١٢) وهذه هي :

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾

يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

التفسير :

﴿ كلا ﴾ ردع عن العمل السيء والتقصير في الواجبات والاغترار ﴿ **بل تكذبون بالدين** ﴾ قال ابن كثير أي: إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء ﴿ **وإن عليكم لحافظين** ﴾ يحفظون أعمالكم وأقوالكم من الملائكة ﴿ **كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون** ﴾ فلا يكتبون إلا بعلم، وهم يعلمون يقيناً كل أفعالكم، وهم كرام، فقابلوهم بما يستحقون من الإكرام. قال ابن كثير: يعني: وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً، فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون جميع أعمالكم، قال النسفي في الفقرة كلها: (يعني: إنكم تكذبون بالجزاء، والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها ﴿ **يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم، وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور، وفيه إنذار وتهويل للمجرمين، ولطف للمتقين، وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين).

كلمة في السياق :

١ - بينت هذه الفقرة علة العمل السيء، وعلة الكفران والاغترار بأنها التكذيب باليوم الآخر، وأن هذا التكذيب الذي ينبع عنه العمل السيء والكفران قائم مع وجود الحفظة الكاتبين الذين يسجّلون كل شيء على الإنسان، فما أكثر جهل الكافر واغتراره وغفلته.

٢ - في ذكر الملائكة الكاتبين، ووصفهم بالكرام، تهييج على الإيمان والعمل الصالح، وبعث للنفس على العبادة والتقوى، أي: على التقديم لليوم الآخر، والشكر وترك العمل السيء، والكفران، كما أن فيه تحذيراً بآن واحد. وصلة ذلك بمحور السورة لا تخفى. فكأن السياق العام يقول: ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ فإن عليكم حافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون.

٣ - ثمّ تأتي الفقرة الرابعة والأخيرة. وهي تبني على كل ما قبلها من فقرات إذ

تتحدث عن حال الأبرار والفجار يوم القيامة ....

الأبرار الذين قدموا الخير ، والفجار الذين قدّموا الشر . الأبرار الذين أخروا الشر ، والفجار الذين أخروا الخير . الأبرار الذين لم يغتروا فشكروا وعبدوا واتقوا ، والفجار الذين اغتروا فكفروا ولم يشكروا ، فلم يعبدوا ، ولم يتقوا ، ولم يبروا . الأبرار الذين لا يكذبون بيوم الدين ، والفجار الذين يكذبون . الأبرار الذين علموا أن الملائكة يسجلون فأكرموهم ، ولم يؤذوهم وعلموا بما يليق بصحبة هؤلاء الملائكة ، والكفار الذين آذوا هؤلاء الملائكة ، ولم يقابلوهم بما يليق من إيمان وحسن صحبة . هؤلاء الفجّار ماهم يوم القيامة عندما تنفطر السماء ، وتنتثر الكواكب وتتفجر البحار ، وتبعثر القبور ؟ والأبرار وماهم في ذلك اليوم ؟ هذا الذي نرى عليه الجواب في الفقرة الرابعة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الرابعة

وتمتد من الآية (١٣) حتى نهاية الآية (١٩) أي نهاية السورة وهذه هي :

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

التفسير :

﴿ **إن الأبرار** ﴾ أي : المتقين . ﴿ **لفي نعيم** ﴾ أي : في الجنة . قال ابن كثير : يخبر الله تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ، ولم يقابلوه بالمعاصي .. ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم . ﴿ **وإن الفجار** ﴾ أي : الكفار ﴿ **لفي جحيم** ﴾ أي : في النار ﴿ **يصلونها يوم الدين** ﴾ أي : يدخلونها

يوم الجزاء، وهو اليوم الذي كانوا يكذبون فيه ﴿ **وماهم عنها بغائبين** ﴾ قال ابن كثير : أي : لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوماً واحداً . وقال النسفي : أي : لا يخرجون منها .. ثم عظّم شأن يوم القيامة فقال : ﴿ **وما أدراك ما يوم الدين** * **ثم ما أدراك ما يوم الدين** ﴾ كرره للتأكيد والتعظيم ثم فسره بقوله : ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً** ﴾ قال ابن كثير : (أي : لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ونذكر ههنا حديث «يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئاً») وقال النسفي : (أي : لا تستطيع دفعاً عنها ولا نفعاً لها بوجه ، وإنما تملك الشفاعة بالإذن ﴿ **والأمر يومئذ لله** ﴾ قال النسفي : أي : لا أمر إلا لله تعالى وحده ، فهو القاضي فيه دون غيره ، وقال ابن كثير : (وقال قتادة : والأمر - والله - اليوم لله ، لكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد) .

كلمة في السياق :

إن الأبرار هم المتقون بدليل آية البر في سورة البقرة ، والفجّار هم الذين يقابلون المتقين ، ومن السياق عرفنا بعض خصائص المتقين ، وبعض خصائص الفجار ، فالفقرة الأخيرة صبت فيها السورة كلها ، ومن ثم نلاحظ أنه جاء في الفقرة الأولى قوله تعالى ﴿ **علمت نفس ما قدّمت وأخّرت** ﴾ وجاء في الفقرة الأخيرة : ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً** ﴾ . وجاء في الفقرة الثالثة : ﴿ **بل تكذبون بالدين** ﴾ وجاء في الفقرة الأخيرة : ﴿ **يصلونها يوم الدين .. وما أدراك ما يوم الدين ...** ﴾ وكما أن الفقرة الأخيرة كانت مصباً للسورة كلها ، فإنها فصّلت في المحور . لقد جاء في المحور قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين * وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** ﴾ وههنا جاء قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجّار لفي جحيم** ﴾ فللسورة سياقها وهي مرتبطة بمحورها في السياق القرآني العام .

الفــوائد :

١ - بدأ ابن كثير الكلام عن السورة بقوله : (روى النسائي عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل فقال النبي ﷺ : «أفتّان أنت يا معاذ ؟ أين كنت عن

سبّح اسم ربك الأعلى ، والضحى ، وإذا السماء انفطرت ! » وأصل الحديث مخرج في الصحيحين ولكن ذكر (إذا السماء انفطرت) في أفراد النسائي . وقد تقدم من رواية عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال : « من سرّه أن ينظر إلى القيامة رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت ») .

٢ - يقع بعض الناس في خطأ عند قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم** ﴾ وقد سجل ابن كثير الخطأ والصواب في فهم هذه الآية فقال : (هذا تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب حيث قال : (الكريم) حتى يقول قائلهم : غرّه كرمه ، بل المعنى في هذه الآية ما غرّك يا ابن آدام بربك الكريم أي : العظيم حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء في الحديث يقول الله تعالى يوم القيامة « يا ابن آدم ما غرّك بي ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ » .

وقال بعض أهل الإشارة إنما قال : ﴿ **بربك الكريم** ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته كأنه لقنه الإجابة ، وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل ؛ لأنه إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة ، وأعمال الفجور . وقد حكى البغوي عن الكلبي ومقاتل أنهما قالا : نزلت هذه الآية في الأسود بن شريك ضرب النبي ﷺ ولم يعاقب في الحالة الراهنة فأنزل الله تعالى : ﴿ **ما غرّك بربك الكريم** ﴾ ؟) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **الذي خلقك فسوّاك فعدلك** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال : قال الله عز وجل « يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقة ؟ » .

٤ - في قوله تعالى : ﴿ **في أي صورة ماشاء ركبك** ﴾ اتجاهان : اتجاه يقول ما ذكرناه أي : في أيّ صورة من الحسن والقبح وغير ذلك يركبك مع كمال الاعتدال ، واتجاه آخر يقول : أي : كان قادراً على أن يركبك في صورة قرد أو غيره ، فكان ينبغي أن تقابل ذلك منه بالشكر ، ولكنك لم تفعل .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين** ﴾ قال ابن كثير :

(روى ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند حالتين الجنابة والغائط ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو ببعيره أو ليستره أخوه » وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار فوصله بلفظ آخر عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم ، الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط والجنابة والغسل ، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجرم حائط أو ببعيره » ثم قال : حفص بن سليمان وهو من رجال السند - لين الحديث وقد روي عنه واحتمل حديثه . وروى الحافظ أبو بكر البزار عن الحسن - يعني : البصري - عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفار إلا قال الله تعالى : قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » ثم قال البزار : تفرد به تمام بن نجيح وهو صالح الحديث (قلت) وثقه ابن معين وضعفه البخاري وأبو زرعة وابن أبي حاتم والنسائي وابن عدي ورماه ابن حبان بالوضع ، وقال الإمام أحمد : لا أعرف حقيقة أمره . وروى الحافظ أبو بكر البزار عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة يعرفون بني آدم — وأحسبه قال : ويعرفون أعمالهم — فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا أفلح الليلة فلان . نجا الليلة فلان ، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا : هلك الليلة فلان » ثم قال البزار : سلام هذا - وهو من رجال السند - أحسبه سلام المدائني وهو لين الحديث) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى ابن عساكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ») .

أقول : هذا جزء البر وعلامة من علاماته والرسول عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يعرّف الكلّ بالجزء؛ لتبيان أهمية الجزء كما في قوله ﷺ : « الحج عرفة » .

كلمة أخيرة في المجموعة التاسعة من قسم المفصل :

رأينا أن المجموعة التاسعة تتألف من أربع سور هي النازعات وعبس والتكوير والانفطار .

سورة النازعات هيجت على الخوف من الله عز وجل ، وعلى نهي النفس عن الهوى وعلى الخشية من اليوم الآخر . وجاءت سورة عبس لتعاتب رسول الله ﷺ على إقباله على كافر ، وإعراضه عن مؤمن لتحدد محالّ الإنذار الرئيسي ؛ ثم جاءت سورة التكوير تهيّج المؤمنين على العمل الصالح المحدد بكتاب الله عز وجل ، ولتهيّج على الاستقامة عليه ، ثم جاءت سورة الانفطار لتحذر من الجهل بالله الذي يؤدي بالإنسان إلى ترك العمل ، وقد رأينا أن السور الأربع فصّلت في الأساس والطريق ففصّلت سورتا النازعات وعبس في مقدمة سورة البقرة ، وفصّلت سورتا التكوير والانفطار في ما بعد ذلك أي : في الطريق .

وقد رأينا كيف أن كل سورة أوصلت إلى ما بعدها ، وقد أوصلت السورة الأخيرة إلى ما بعدها . أي : إلى سورة المطففين . فالملاحظ أن سورة الانفطار تنتهي بفقرة ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجّار لفي جحيم** ﴾ وأن سورة المطففين تتحدّث بتفصيل أكبر عن الأبرار والفجار ﴿ **كلا إن كتاب الفجّار لفي سجين ...** ﴾ ﴿ **كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ...** ﴾فلننتقل إلى سورة المطففين ومجموعتها .

☆ ☆ ☆

المجموعة العاشرة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المفصّل
وتشمل سورتي :
(المطففين ، والانشقاق)

كلمة في المجموعة العاشرة من قسم المفصل

المجموعة العاشرة تتألف من سورتين : المطففين والانشقاق ، والذي دلّنا على ذلك أنّ ما بعد سورة الانشقاق سورة مبدوءة بقسم ، وتلك علامة على بداية مجموعة جديدة ، ثم إن سورة الانشقاق تتحدث في بدايتها عن اليوم الآخر ، وهي مبدوءة بـ﴿ إذا ﴾ وتلك علامة مطردة على نهاية مجموعة ، ومن ثم تحددت سورة الانشقاق على أنها نهاية مجموعة وقبل سورة المطففين جاءت سورة الانفطار وفيها كلام عن اليوم الآخر ، وهي مبدوءة بـ﴿ إذا ﴾ فتحدد بذلك أن سورتي المطففين والانشقاق مجموعة واحدة .

....

والظاهر أن سورة المطففين تفصل في مقدمة سورة البقرة ، وأن سورة الانشقاق تفصّل في مابعد المقدمة ، والذي دلّنا على هذا أن كل سورة تتحدّث في مقدمتها عن اليوم الآخر ، وهي مبدوءة بـ﴿ إذا ﴾ فإنها تفصّل فيما بعد المقدمة مباشرة ، فلم يبق إلا أن تكون سورة المطففين تفصل في مقدمة سورة البقرة .

....

والملاحظ أنه لا توجد إلا سورتان في القرآن مبدوءتان بقوله تعالى ﴿ ويل ﴾ الأولى سورة المطففين . والثانية سورة الهمزة ، وسورة الهمزة تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، ولكنها ليست بداية مجموعة ، إذ هي مسبوقة بسورة (العصر) التي هي شريكتها في تفصيل مقدمة سورة البقرة وإذ لم تكن سورة المطففين مسبوقة بسورة تفصّل في المقدمة ، فمعنى هذا أنها بداية مجموعة ، وهي التي تفصّل في المقدمة من سورة البقرة .
فسر سورتي المجموعة العاشرة .

سورة المطففين

وهي السورة الثالثة والثمانون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة العاشرة من قسم
المفصل ، وهي ست وثلاثون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة التطفيف :

قدم الألوسي لسورة التطفيف بقوله : (ويقال لها سورة المطففين . واختلف في كونها مكية أو مدنية ، فعن ابن مسعود والضحاك أنها مكية ، وعن الحسن وعكرمة إنها مدنية وعليه السدي ، قال : كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص فنزلت ، وعن ابن عباس روايات ، فأخرج ابن الضريس عنه أنه قال آخر ما نزل بمكة سورة المطففين ، وأخرج ابن مردويه والبيهقي عنه أنه قال : أول ما نزل بالمدينة ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ ويؤيد هذه الرواية ماأخرجه النسائي وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح وغيرهم عنه قال : لما قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله تعالى ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك ، وفي رواية عنه أيضاً وعن قتادة أنها مكية إلا ثمان آيات من آخرها ﴿ **إن الذين أجرموا** ﴾ الخ . وقيل : إنها مدنية إلا ست آيات من أولها ، وبعض من يثبت الواسطة بين المكي والمدني يقول : إنها ليست أحدهما بل نزلت بين مكة والمدينة ؛ ليصلح الله تعالى أمر أهل المدينة قبل ورود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وآياتها ست وثلاثون بلا خلاف . والمناسبة بينها وبين ماقبلها أنه سبحانه لما ذكر فيما قبل السعداء والأشقياء ، ويوم الجزاء وعظم شأنه ، ذكر عز وجل هنا ماأعد جل وعلا لبعض العصاة ، وذكره سبحانه بأخس مايقع من المعصية وهو التطفيف الذي لايكاد يجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته ، مع اشتمال هذه السورة من شرح حال المكذبين المذكورين هناك على زيادة تفصيل كما لايخفى ، وقال الجلال السيوطي : الفصل بهذه السورة بين الانفطار والانشقاق التي هي نظيرتها من أوجه لنكتة لطيفة ألهمنيها الله تعالى ، وذلك أن السور الأربع هذه والسورتان قبلها والانشقاق لما كانت في صفة حال يوم القيامة ذكرت على ترتيب مايقع فيه ، فغالب ماوقع في التكوير ، وجميع ماوقع في الانفطار ، يقع في صدر يوم القيامة ، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ، ومقاساة الأهوال ، فذكره في هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى ، فتنشر الصحف ، فآخذ باليمين ، وآخذ بالشمال ، وآخذ من وراء ظهره ، ثم بعد ذلك يقع الحساب كما ورد بذلك الآثار ، فناسب تأخر سورة الانشقاق التي فيها إيتاء الكتب والحساب عن السورة التي فيها ذكر الموقف ، والسورة التي فيها ذكره عن السورة التي فيها ذكر مبادي أحوال

اليوم ، ووجه آخر وهو أنه جل جلاله لما قال في الانفطار : ﴿ **وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين** ﴾ وذلك في الدنيا ، ذكر سبحانه في هذه حال مايكتبه الحافظون ، وهو مرقوم يجعل في عليين أو سجين ، وذلك أيضاً في الدنيا كما تدل عليه الآثار ، فهذه حالة ثانية للكتاب ذكرت في السورة الثانية ، وله حالة ثالثة متأخرة عنهما وهي إيتاؤه صاحبه باليمين أو غيرها ، وذلك يوم القيامة ، فناسب تأخير السورة التي فيها ذلك عن السورة التي فيها الحالة الثانية ، انتهى وهو وإن لم يخل عن لطافة للبحث فيه مجال ، فتذكر) .

كلمة في سورة المطففين ومحورها :

تبدأ سورة المطففين بالكلام عن التطفيف بالميزان ، لتصل إلى الكلام عن الفجار لتصل إلى الكلام عن الأبرار ، لتصل إلى الكلام عن المجرمين وموقفهم من المؤمنين في الدنيا ، وحال هؤلاء المجرمين في الآخرة ، وحال المؤمنين فيها ، ومن هذا العرض الموجز للسورة ندرك أن السورة تتحدث عن المتقين ، وعن الكافرين ، ولكنها تبدأ بالكلام عن الكافرين ، ثم تتحدث عن المتقين ، ثم تتحدث عن الطرفين بآن واحد ، وهو منحى اعتدناه في تفصيل مقدمة سورة البقرة ، فالكلام عن المتقين يعمّق تصوّرنا عن الكافرين ، والكلام عن الكافرين يعمّق تصوّرنا عن المتقين ، وفي سورة المطففين كلام عن المتقين والكافرين بآن واحد ، ولذلك نقول : إن محور سورة المطففين هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

....

تبدأ السورة بذكر خلق من أخلاق الكافرين ، ثم تنتهي بالحديث عن الفجار والكفرة ، وعن بعض أخلاق الكافرين ، وعن ختم الله على قلوبهم ، وعن سبب ذلك ، ومن خلال ذلك نعرف بعض صفات المتقين المقابلة ، ثم إن السورة تتحدث عن الأبرار والمؤمنين ببيان مالهم عند الله عز وجل ، والملاحظ أن آخر مجموعة من مجموعات القرآن ، تبدأ بسورة العصر ، ثم تثني بسورة الهمزة وهي مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **ويل** ﴾

كسورة المطففين ، وسورة الهمزة ــ كما سنرى ــ تتحدث عن أخلاق الكافرين ، كما بدأت سورة المطففين ، ولكن سورة المطففين تؤدي دور سورتي العصر والهمزة بآن واحد ، فبينما سورة العصر تتحدث عن أخلاق الناجين عند الله عز وجل ، وتتحدث سورة الهمزة عن أخلاق الهالكين ، فإن سورة المطففين تتحدّث عن الناجين والهالكين ، ومن ثم فإنها تفصّل في مقدمة سورة البقرة كلها ، إن النفاق كفر ، فالكلام عن الكافرين يدخل فيه الكلام عن المنافقين ضمناً .

....

تتألف سورة المطففين من أربع فقرات واضحة المعالم ، مترابطة الصلات :
الفقرة الأولى تستمر حتى الآية (٦) .
الفقرة الثانية تستمر حتى الآية (١٧) .
الفقرة الثالثة تستمر حتى الآية (٢٨) .
الفقرة الرابعة تستمر حتى نهاية السورة أي : حتى نهاية الآية (٣٦) .
فلنبدأ عرض السورة لنرى سياقها الخاص ، ومحلها في تفصيل المحور .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتد حتى نهاية الآية (٦) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)

التفسير :

﴿ **ويل** ﴾ أي: خسارة وهلاك ﴿ **للمطففين** ﴾ قال النسفي : (أي: للذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن) وقال ابن كثير : والمراد بالتطفيف ههنا : البخس في المكيال والميزان ، إما بالازدياد ، إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم) ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك ، وهو الويل بقوله تعالى: ﴿ **الذين إذا اكتالوا على الناس** ﴾ أي: من الناس ﴿ **يستوفون** ﴾أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد . قال النسفي : (أي إذا أخذوا بالكيل من الناس يأخذون حقوقهم وافية تامة ، ولما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل (على) مكان (من) للدلالة على ذلك) ﴿ **وإذا كالوهم** ﴾ أي : كالوا للناس ﴿ **أو وزنوهم** ﴾ أي : وزنوا لهم ﴿ **يخسرون** ﴾ أي: ينقصون ﴿ **ألا يظن أولئك** ﴾ أي: الذين يفعلون ذلك ﴿ **أنهم مبعوثون ليوم عظيم** ﴾ يعني: يوم القيامة . قال النسفي : أدخل همزة الاستفهام على لا النافية توبيخاً، وليست هذه للتنبيه ، وقال ابن كثير : (أي: ماخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول كثير الفزع جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل ناراً حامية ؟) . قال النسفي : (وفيه إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخميناً أنهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة ، ولو ظنوا

أنهم يبعثون ما نقصوا في الكيل والوزن) ثم فسر الله عز وجل ذلك اليوم بقوله : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ قال النسفي : أي : لأمره وجزائه . وقال ابن كثير : أي : يقومون حفاة عراة غرلاً في موقف صعب حرج . ضيّق ضنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه .

كلمة في السياق :

١ - حدثنا الله عز وجل في هذه الفقرة عن خلق من أخلاق الكافرين ، وهو التطفيف في الكيل والميزان ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون** ﴾ مما يشير إلى أنهم لو كانوا يظنون ذلك ما فعلوه . فالتطفيف خلق من أخلاق الكافرين بشكل عام ، ويدخل في التطفيف معاني أخرى ينأى عنها المسلم ، وإن كانت ليست داخلة صراحة في النص ، ومن ثم قال النسفي في هذا المقام . (عن عبد الملك بن مروان أن أعرابياً قال له : لقد سمعت ما قال الله في المطففين ، أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنّك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن ونصب) .

ولئن كان التطفيف في الأصل خلقاً من أخلاق الكافرين والمنافقين ، فقد يواقعه المسلم ، وعليه أن يتوب إلى الله ، وأن يرد الحقوق إلى أصحابها إن عرفهم ، وإلا فليتصدّق وليدع وليستغفر .

٢ - بعد أن حدثنا الله عز وجل في الفقرة الأولى عن خلق من أخلاق الكافرين ، يحدّثنا عن الكافرين بشكل عام في الفقرة الثانية ، فكانت الفقرة الأولى مقدمة للكلام عن الفقرة الثانية .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (٧) إلى نهاية الآية (١٧) وهذه هي :

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

التفسير :

﴿ **كلا** ﴾ قال النسفي : ردع وتنبيه ، أي : ردعهم عما كانوا عليه من التطفيف ، والغفلة عن البعث والحساب ، ونبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه ، ثم أتبعه وعيد الفجّار على العموم . أقول : كلام النسفي يشير إلى ما ذكرناه من صلة سياق الفقرة الأولى بالثانية ، فالمطففون من الفجار ، بل هو خلق من أخلاقهم ، ولكن قد يتسلل هذا الخلق إلى مؤمن لغفلة أو ضعف إيمان ، أو مخالطة لبيئة فاسدة ، أو استمرار حال سابقة ، وتخصيص هذا الخلق من أخلاق الفجار بفقرة مستقلة تربية للمسلمين ، وتخليص لهم منه ، ومن ثم روى النسائي وابن ماجه ، في سبب نزول الفقرة الأولى عن ابن عباس قال : (لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك) . أقول : ولازالوا يحسنون بل هم اليوم في علمي أحسن الناس وزناً وكيلاً . وبعد أن ردع الله عز وجل الناس عن التطفيف الذي هو خلق من أخلاق الفجار ، قال مبيناً أمر الفجار : ﴿ **إن كتاب الفجّار** ﴾ قال

النسفي : أي : صحائف أعمالهم ﴿ **لفي سجين** ﴾ قال النسفي : سجين : كتاب جامع ، هو ديوان الشر ، دوَّن الله فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس ﴿ **وما أدراك ما سجين ؟. كتاب مرقوم** ﴾ قال النسفي : (أي : مسطور بيِّن الكتابة ، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه .. والمعنى : إن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان وسمي سجّيناً .. من السجن وهو الحبس والتضييق ؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم). أقول : هناك اتجاه آخر في تفسير هذه الآيات : وهو أن الله عز وجل قد قضى قضاءً مبرماً (أن الفجار لفي سجين) أي : لفي سجن ضيق ، فسجّين كسكيّر وشرّيب : بيّن السكْر والشرب . والمراد بالسجن هنا جهنم ، وأن كونهم في سجين شيء مرقوم ، أي : مكتوب مفروغ منه لا يزاد فيه أحد ، ولا ينقص منه أحد ، وعلى هذا القول فإن قوله تعالى : ﴿ **وما أدراك ما سجين** ﴾ تفخيم وتهويل لشأن جهنم ، وليس متصلاً بما بعده أي : بقوله تعالى : ﴿ **كتاب مرقوم** ﴾ فيكون المعنى الحرفي على هذا القول : كلا إنه مكتوب على الفجّار ، أن يكونوا في سجن جهنم وأن هذا المكتوب لا يبدل ولا يغير ، وما أدراك ما هذا السجن الذي قضي عليهم به ، وكتب عليهم به نتيجة لسوء أعمالهم ثم قال تعالى متهدداً لهم ، ومبيناً سبب هذا القضاء عليهم ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ وإذن فما كان قضاء الله عليهم إلا بسبب منهم ، قال ابن كثير : ثم قال تعالى مفسّراً للمكذبين والفجار الكفرة : ﴿ **الذين يكذّبون بيوم الدين** ﴾ أي : بيوم الجزاء والحساب ، قال ابن كثير : أي : لا يصدّقون بوقوعه ، ولا يعتقدون كونه ويستبعدون أمره . ﴿ **وما يكذّب به** ﴾ أي : بذلك اليوم ﴿ **إلا كل معتد** ﴾ أي : مجاوز للحد ﴿ **أثيم** ﴾ أي : مكتسب للإثم ، قال ابن كثير : أي : معتد في أفعاله من تعاطي الحرام والمجاوزة في تناول المباح ، والأثيم في أقواله إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا** ﴾ أي : القرآن . ﴿ **قال أساطير الأولين** ﴾ أي : خرافات السابقين وأباطيلهم . قال ابن كثير : أي : إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به ويظن به ، ظن السوء . فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل . ﴿ **كلا** ﴾ . قال النسفي : ردع للمعتدي الأثيم عن هذا القول ﴿ **بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ أي : غطاها كسبهم أي : غلب على قلوبهم حتى غمرها ما كانوا يكسبون من المعاصي . قال ابن كثير : أي : ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا : إن هذا القرآن أساطير الأولين . بل هو كلام الله ووحيه ، وتنزيله على رسول الله ﷺ ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس

قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا .. والرين يعتري قلوب الكافرين ، والغيم للأبرار ، والغين للمقربين ﴿ **كلا** ﴾ قال النسفي : ردع لهم عن الكسب الرائن على القلب ﴿ **إنهم عن ربهم** ﴾ أي : عن رؤيته ﴿ **يومئذ لمحجوبون** ﴾ قال النسفي : أي : لممنوعون ﴿ **ثم إنهم لصالوا الجحيم** ﴾ قال النسفي : (أي : ثم إنهم بعد كونهم محجوبين عن ربهم لداخلون النار) وقال ابن كثير : أي : ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ﴿ **ثم يقال هذا** ﴾ أي : هذا العذاب ﴿ **الذي كنتم به تكذبون** ﴾ أي : تكذبون به في الدنيا وتنكرون وقوعه . قال ابن كثير : أي : يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتصغير والتحقير .

كلمة في السياق :

١ - في سورة الانفطار تبين لنا أن علّة الاغترار بالله هي الجهل ، وأن علة ذلك التكذيب بيوم الدين ، وفي الفقرة التي مرّت معنا تبين لنا أن علة التكذيب بيوم الدين الاعتداء والإثم ، والتكذيب بآيات الله ، وأن هذا كله أورث ريناً على القلب ، وذلك مظهر من مظاهر الاتصال ما بين سورة المطففين والسورة السابقة عليها .

٢ - إن هناك صلة واضحة بين قوله تعالى عن الكافرين في محور السورة : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ وبين ما ورد في السورة ههنا : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم * ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون** ﴾ .

وإن هناك صلة ما بين قوله تعالى في المحور : ﴿ **إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ وبين الفقرة . فالفقرة بينت لنا علة الختم على القلوب ، وسبب وصول الكافرين إلى الحالة التي لا ينفع معها إنذار ، من اعتداء ، وإثم ، وإنكار لكتاب الله ، وتكذيب به ، وكسب سيء ..

٣ - عرفنا من صفات الفجار في الفقرتين السابقتين : أ - التطفيف في الميزان والمكيال . ب - التكذيب بيوم الدين جـ - الاعتداء ، د - الإثم هـ - اتهام كتاب الله بأنه أساطير الأولين . ويفهم من هذا أن الأبرار لا يطففون الميزان والمكيال ، وأنهم يؤمنون باليوم الآخر . وأنهم لا يتجاوزون ما حدّه الله عز وجل ، وأنهم لا يرتكبون الإثم ، وأنهم يؤمنون بكتاب الله عز وجل ؛ لاحظ صلة ذلك بمحور السورة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك**

الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ... ﴾ ، ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

ثم تأتي فقرة ثالثة من سورة المطففين تتحدث عما أعد الله عز وجل للأبرار ، وذلك مظهر فلاحهم ، فهي إذن تفصيل لفلاح الأبرار ، فلنر الفقرة الثالثة في السورة .

☆ ☆ ☆
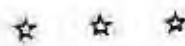
الفقرة الثالثة

وتمتد من الآية (١٨) حتى نهاية الآية (٢٨) وهذه هي :

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

التفسير :

﴿ **كلا** ﴾ قال النسفي : ردع عن التكذيب ﴿ **إن كتاب الأبرار** ﴾ قال النسفي : (أي : ما كتب من أعمالهم) والأبرار : هم المطيعون الذين لايطففون ، ويؤمنون بالبعث ، لأنه ذكر في مقابلة الفجار ﴿ **لفي عليّين** ﴾ قال النسفي : هو علَم أي : اسم علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما عملته الملائكة ، وصلحاء الثقلين ، سمي به لأنه

سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة ، أو لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريماً له ، وقال ابن كثير في تفسير الآية : (يقول تعالى حقاً إن كتاب الأبرار وهم بخلاف الفجار ﴿ **لفي عليين** ﴾ أي : مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجين) ﴿ **وما أدراك ما عليون** ﴾ قال النسفي : (أي : ما الذي أعلمك يا محمد ما عليون أيّ شيء هو) ﴿ **كتاب مرقوم** ﴾ أي : مسطور أو مُعْلَم ﴿ **يشهده المقربون** ﴾ قال النسفي : أي : تحضره الملائكة . قيل : يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء إذا رفع ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم** ﴾ أي : لفي تنعم في الجنان ، قال ابن كثير : أي يوم القيامة هم في نعيم مقيم ، وجنات فضل عميم ﴿ **على الأرائك** ﴾ متكئين ﴿ **ينظرون** ﴾ قال النسفي : أي : إلى كرامة الله ونعمه ، وإلى أعدائهم كيف يعذبون . قال ابن كثير : (وقيل معناه : ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ إلى الله عز وجل ، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم كما تقدم في حديث ابن عمر «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله عز وجل في اليوم مرتين») ﴿ **تعرف في وجوههم نضرة النعيم** ﴾ أي : بهجة التنعم وطراوته . قال ابن كثير : (أي : تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم أي : صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة مما هم فيه من النعيم العظيم .) . ﴿ **يُسقَون من رحيق** ﴾ أي شراب خالص لا غش فيه ﴿ **مختوم ختامه مسك** ﴾ قال النسفي : (أي : تختم أوانيه بمسك بدل الطين الذين يختم به الشراب في الدنيا .. أو مقطعه رائحة مسك أي : توجد رائحة المسك عند خاتمة شربه . أقول : أي : نكهته التي تبقى في الفم مسك ، قال ابن مسعود : أي : خلطه مسك ، وقال الحسن : أي : عاقبته مسك ، ﴿ **وفي ذلك** ﴾ أي : وفي الرحيق أو النعيم ﴿ **فليتنافس المتنافسون** ﴾ قال النسفي : أي : فليرغب الراغبون ، وذلك إنما يكون بالمسارعة إلى الخيرات ، والانتهاء عن السيئات . وقال ابن كثير : أي : وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون ، وليتباه ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون ﴿ **ومزاجه** ﴾ أي : ومزاج الرحيق ﴿ **من تسنيم** ﴾ قال النسفي : (هو علم لعين بعينها سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنّمه إذا رفعه ، لأنها أرفع شراب في الجنة أو لأنها تأتيهم من فوق وتنصب في أوانيهم) . وقال ابن كثير ، أي : ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم ، أي : من شراب يقال له تسنيم وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه .. ولهذا قال ﴿ **عيناً يشرب بها** ﴾ أي : منها

﴿ المقربون ﴾ قال النسفي : يشربها المقربون صرفاً وتمزج لأصحاب اليمين ، وقال ابن كثير : أي : يشربها المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمن مزجاً .

كلمة في السياق :

١ - وهكذا حدثنا الله عز وجل عن الفجار والأبرار ، ما لهؤلاء من عذاب ، وما لهؤلاء من نعيم ، وعرفنا خصائص هؤلاء وصفات أولئك ثمّ تأتي فقرة تحدثنا عن سبب استحقاق الأبرار لما استحقوه ، وعن سبب استحقاق الفجار لما استحقوه .

٢ - فصّلت لنا الفقرة الثالثة مظهراً من مظاهر فلاح المتقين ، بعد أن أرتنا الفقرة الثانية مظهراً من مظاهر خسار الكافرين ، ثمّ تأتي الفقرة الرابعة لتحدثنا عن موقف الكافرين من المتقين في الدنيا ، وما يعاقب به الكافرون في مقابل ذلك في الآخرة ، وما يجزاه المتقون في مقابل صبرهم على ذلك ، فلنر الفقرة الرابعة والأخيرة في السورة بعد أن عرفنا محلها في السياق الخاص والسياق العام .

☆ ☆ ☆

الفقرة الرابعة

وتمتد من الآية (٢٩) إلى نهاية السورة ، أي إلى نهاية الآية (٣٦) وهذه هي :

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

التفسير :

﴿ **إن الذين أجرموا** ﴾ أي : كفروا ﴿ **كانوا من الذين آمنوا يضحكون** ﴾ أي : في الدنيا استهزاءً بهم ﴿ **وإذا مرّوا بهم يتغامزون** ﴾ أي : يشير بعضهم إلى بعض بالغمز طعناً فيهم وعيباً لهم . قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين أي : يستهزئون بهم ، ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم أي : محتقرين لهم) . ﴿ **وإذا انقلبوا إلى أهلهم** ﴾ أي : إذا رجع الكفار إلى منازلهم ﴿ **انقلبوا فكهين** ﴾ أي : متلذذين بذكرهم والسخرية منهم قال ابن كثير : (وإذا انقلب أي : رجع المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين أي : مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحقرونهم ويحسدونهم) ﴿ **وإذا رأوهم** ﴾ أي : وإذا رأى الكافرون المؤمنين . ﴿ **قالوا إن هؤلاء لضالون** ﴾ قال ابن كثير : أي : لكونهم على غير دينهم ، وقال النسفي : (قالوا : خدع محمد هؤلاء فضلوا وتركوا اللذات لما يرجونه في الآخرة من الكرامات ، فقد تركوا الحقيقة بالخيال ، وهذا هو عين الضلال) ﴿ **وما أرسلوا عليهم حافظين** ﴾ قال

النسفي : (أي : وماأرسل الكفار على المؤمنين حافظين يحفظون عليهم أحوالهم، ويرقبون أعمالهم ، بل أمروا بإصلاح أنفسهم فاشتغالهم بذلك ، أولى بهم من تتبع غيرهم وتسفيه أحلامهم) . وقال ابن كثير : (أي : ومابعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم) ﴿ **فاليوم** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ كما ضحكوا منهم هنا مجازاة ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ قال ابن كثير : أي : إلى الله عز وجل في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته ﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ قال النسفي : هل جوزوا بسخريتهم بالمؤمنين في الدنيا إذ فعل بهم ما ذكر ، وقال ابن كثير : أي : هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟ يعني : قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

كلمة في السياق :

في مقدمة سورة البقرة كلام عن المتقين والكافرين ، وفي الفقرة الأخيرة من السورة بيان لموقف الكافرين من المتقين ، وما يعاقب الله عز وجل به الكافرين يوم القيامة مجازاة لهم على هذا الموقف، وعرفنا من صفات الفجار في الفقرة الأخيرة ضحكهم من المؤمنين ، وتغامزهم منهم ، وبصرهم ورؤيتهم أن أهل الإيمان على ضلال ، وفي مقابل ذلك عرفنا من خصائص الأبرار الإيمان، وهكذا أعطتنا سورة المطففين مزيد بيان إنْ في صفات الفجار أو في صفات المتقين . ولذلك صلاته بمحور السورة .

الفـوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن هلال بن طلق قال : بينا أنا أسير مع ابن عمر فقلت : مِنْ أحسن الناس هيئة وأوفاهم كيلا أهل مكة وأهل المدينة ، قال : حق لهم، أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾) .

أقول : وهذا دليل على أن أهل الإيمان بمجرد أن يُذكّروا يتذكّرون ، ولازال أهل المدينة وأهل مكة حتى الآن من أكرم خلق الله ميزاناً وأجودهم كيلاً .

وبمناسبة هذه الآية قال الألوسي: (وصح من رواية الحاكم والطبراني وغيرهما عن ابن عباس وغيره مرفوعاً: «خمس بخمس» قيل يا رسول الله وما خمس بخمس؟ قال: «ما نقض قوم العهد إلا سلط الله تعالى عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله تعالى إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»).

٢ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ۝ ليوم عظيم ۝ يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ قال ابن كثير: (روى الإمام مالك عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه» رواه البخاري من حديث مالك وعبد الله بن عون كلاهما عن نافع به، ورواه مسلم من الطريقين أيضاً، ولفظ الإمام أحمد عن نافع عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يوم يقوم الناس لرب العالمين لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة حتى إن العرق ليلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم». (حديث آخر) روى الإمام أحمد عن المقداد - يعني ابن الأسود الكندي - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين - قال: فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، ومنهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً» رواه مسلم. (حديث آخر) روى الإمام أحمد عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزاد في حرّها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور، يعرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق» انفرد به أحمد.).

أقول: إن الله عز وجل ذكر أن الشمس والقمر يجمعان، وذكر أن الشمس تكوّر، وذلك يكون قبل الحشر والموقف فإذا عرفنا هذا فالشمس التي تدنو من الخلائق في الحساب ينبغي أن تكون غير هذه الشمس، ومن ثم فلا يستغرب دنوها من رؤوس العباد هذا الدنو، وعلى كل فلليوم الآخر قوانين تختلف عن قوانين هذا العالم.

٣ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ قال ابن كثير: (وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد

زادت » فذلك قول الله تعالى : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ وقال الترمذي حسن صحيح . ولفظ النسائي : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب ، صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ ») .

٤ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ قال النسفي : (أي : عن رؤية ربهم لممنوعون ، والحجب : المنع ، قال الزجاج : في الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم ، وإلا لا يكون التخصيص مفيداً ، وقال الحسين بن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في العقبى عن رؤيته ، وقال مالك بن أنس رحمه الله : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه ، وقيل : عن كرامة ربهم ؛ لأنهم في الدنيا لم يشكروا نعمه فيئسوا في الآخرة عن كرامته مجازاة ، والأول أصح ؛ لأن الرؤية أقوى الكرامات ، فالحجب عنها دليل الحجب عن غيرها) . وقال ابن كثير : أي : هم يوم القيامة منزل ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم ، قال الإمام أبو عبد الله الشافعي : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ ، وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية . كما دل عليه منطوق قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة** ﴾ وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنان الفاخرة) .

٥ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يسقون من رحيق مختوم** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري – أراه قد رفعه إلى النبي ﷺ . قال : « أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، أيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة ») .

٦ – وبمناسبة الفقرة الأخيرة في السورة : ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ..** ﴾ يقول صاحب الظلال : (ونقف لحظة أمام هذا المشهد الذي يطيل القرآن عرض مناظره وحركاته – مشهد سخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا في الدنيا – كما أطال من قبل في عرض مشهد نعيم الأبرار وعرض مناظره ومناعمه . فنجد

أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عالٍ في الأداء التعبيري ، كما أنه فن عالٍ في العلاج الشعوري . فقد كانت القلة المسلمة في مكة تلاقي من عنت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق ، وكان ربهم لا يتركهم بلا عون ، من تثبيته وتسريته وتأسيته .

وهذا التصوير المفصل لمواجعهم من أذى المشركين ، فيه بلسم لقلوبهم . فربهم هو الذي يصف هذه المواجع . فهو يراها ، وهو لا يهملها – وإن أمهل الكافرين حيناً – وهذا وحده يكفي قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه . إن الله يرى كيف يسخر منهم الساخرون ، وكيف يؤذيهم المجرمون ، وكيف يتفكه بآلامهم ومواجعهم المتفكهون ، وكيف لا يتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون ! إن ربهم يرى هذا كله ، ويصفه في تنزيله ، فهو إذن شيء في ميزانه .. وهذا يكفي ! نعم هذا يكفي حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة موجوعة) .

ولننتقل إلى سورة الانشقاق .

☆ ☆ ☆

سورة الانشقاق

وهـي السـورة الرابعـة والثمانـون بحسـب الرسـم القـرآني
وهي السورة الثانية والأخيرة من المجموعة العاشرة من
قسم المفصل ، وهي خمس وعشرون آية
وهـي مكيـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الانشقاق :

قدّم الألوسي لسورة الانشقاق بقوله : (ويقال : سورة انشقت . وهي مكية بلا خلاف . وآيها ثلاث وعشرون آية في البصري والشامي ، وخمس وعشرون في غيرهما . ووجه مناسبتها لما قبلها يعلم مما نقلناه عن الجلال السيوطي فيما قبل . وأوجز بعضهم في بيان وجه ترتيب هذه السور الثلاث فقال : إن في انفطرت التعريف بالحفظة الكاتبين ، وفي المطففين مقر كتبهم ، وفي هذه عرضها في القيامة) .

كلمة في سورة الانشقاق ومحورها :

سورة الانشقاق نهاية المجموعة العاشرة ، بدليل ما ذكرناه من قبل من كونها مبدوءة بـ ﴿ **إذا** ﴾ وتتحدث في بدايتها عن اليوم الآخر ، وتأتي بعدها سورة البروج المبدوءة بقسَم ، وتلك علامة بداية مجموعة جديدة .

وتأتي سورة الانشقاق لتفصل فيما بعد مقدمة سورة البقرة ، أي : في قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وما بعدها حتى نهاية قوله تعالى : ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ..** ﴾ وسنرى كيف أنها تفصل في هذا المحور أثناء عرض السورة .

تنقسم السورة إلى مقطعين واضحين : المقطع الأول ينتهي بالآية (١٥) والمقطع الثاني ينتهي بنهاية السورة . والمقطع الأول يتألف من فقرتين كما سنرى ، وفي السورة كالعادة معانٍ جديدة لم تتعرض لها سورة أخرى ، فالسورة لها سياقها الخاص ، وصلتها بمحورها ومعانيها الخاصة بها .

والملاحظ أن سورة المطففين تتكلم في نهايتها عن استهزاء المجرمين بالمؤمنين ، وعاقبة المجرمين والمؤمنين . وأن سورة الانشقاق في مقطعها الأول تتحدّث عمّن يأخذ كتابه بيمينه ، وعمن يأخذ كتابه بشماله ، فالصلة واضحة بين نهاية سورة المطففين ، وبداية سورة الانشقاق . ولنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (١٥) وهذا هو:

الفقرة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)

الفقرة الثانية

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥)

تفسير الفقرة الأولى:

﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ وذلك يوم القيامة قال الألوسي: (وأخرج ابن أبي حاتم عن علي كرم الله وجهه أنها تنشق من جهة المجرة) قال النسفي: أي: تصدعت وتشققت ﴿ **وأذنت لربها** ﴾ قال ابن كثير: أي: استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق، وقال النسفي: (أي: سمعت وأطاعت وأجابت ربها إلى الانشقاق، ولم تأب ولم تمتنع ﴿ **وحقت** ﴾ أي: وحق لها أن تسمع وتطيع لأمر الله إذ هي مصنوعة مربوبة لله عز وجل، وقال ابن كثير: أي وحق لها أن تطيع أمره، لأنه

العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء ﴿ **وإذا الأرض مُدّت** ﴾ قال النسفي : أي : بسطت وسويت باندكاك جبالها وكل أمت فيها . أقول : وهل تبقى على كرويتها أم لا ؟ فإذا كانت تبقى على كرويتها يكون المراد بأنها تصبح كلها على سوية واحدة لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، وإذا كانت لا تبقى على كرويتها فالمراد - والله أعلم - جعلها كلها كأنها بساط واحد فتسع في ذلك ما لا تسع وهي كروية ﴿ **وألقت ما فيها وتخلّت** ﴾ أي : ورمت ما في جوفها وخلت غاية الخلو . قال ابن كثير : أي : ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم ﴿ **وأذنت لربها** ﴾ أي : سمعت له وأطاعت ﴿ **وحُقّت** ﴾ أي : حق لها أن تسمع وتطيع . فإذا كان ذلك فماذا يكون ؟ لم تذكر الفقرة الجواب . قال النسفي في تعليل ذلك : وحذف جواب إذا ؛ ليذهب المقدر كل مذهب أو اكتفاء بما علم بمثلها من سورتي التكوير والانفطار ، أو جوابه ، وما دل عليه ﴿ **فملاقيه** ﴾ الآتي بعد ذلك ، أي : إذا انشقت لاقى الإنسان كدحه . أقول : يحتمل أن يكون جواب إذا : فماذا أنت مقدم أيها الإنسان لذلك اليوم ، أو فكيف يكون حالك أيها الإنسان ذلك اليوم فاعمل إذن لذلك ، وقدم العبادة والتقوى .

كلمة في السياق :

١ - تحدثت الفقرة عن يوم القيامة ، وبعض ما يكون فيه ، وذكرت طاعة السماء والأرض لله ، وفي ذلك تهييج للإنسان على أن يطيع الله عز وجل ، وصلة ذلك بمحور السورة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ واضحة .

٢ - بعد الآية التي نقلناها من محور السورة في سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ..** ﴾ والملاحظ أن الفقرة التي مرّت معنا من سورة الانشقاق تتحدث عما يحدث للأرض والسماء ذلك اليوم .

٣ - تحدثت الفقرة الأولى عما يكون يوم القيامة ، فكان ذلك مقدمة واعظة توصل إلى الفقرة الثانية التي تخاطب الإنسان خطاباً مباشراً ، واعظة له وداعية له أن يكون من أهل اليمين ، وألا يكون من أهل الشمال فلنر الفقرة الثانية .

تفسير الفقرة الثانية من المقطع الأول :

﴿ **يا أيها الإنسان** ﴾ الخطاب عام لكل إنسان ﴿ **إنك كادح إلى ربك كدحاً** ﴾ قال ابن كثير : أي : إنك ساع إلى ربك سعياً ، وعامل عملاً ، وقال النسفي : أي : (إنك جاهد إلى لقاء ربك وهو الموت وما بعده من الحال المتمثلة باللقاء ﴿ **فملاقيه** ﴾ أي : فملاق عملك وكدحك . أو فملاق ربك فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك ﴿ **فأما من أوتي كتاب بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ قال النسفي : أي : سهلاً هيّناً وهو أن يجازى على الحسنات ويتجاوز عن السيئات ﴿ **وينقلب إلى أهله مسروراً** ﴾ أي : فرحاً ، قال النسفي : أي : وينقلب إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين ، أو إلى فريق المؤمنين أو إلى أهله في الجنة من الحور العين مسروراً ﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره** ﴾ قال ابن كثير : أي : بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ، وقال النسفي : قيل : تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ﴿ **فسوف يدعو ثبوراً** ﴾ أي : خساراً وهلاكاً ، أي : يقول ياثبوراه أي : ياهلاكاه ، ولا يأتيه الهلاك ﴿ **ويصلى سعيراً** ﴾ أي : ويدخل جهنم ﴿ **إنه كان** ﴾ في الدنيا ﴿ **في أهله** ﴾ أي : معهم ﴿ **مسروراً** ﴾ قال النسفي : أي : بالكفر يضحك ممن آمن بالبعث . قيل : أي : في تفسيرها : كان لنفسه متابعاً ، وفي مراتع هواه راتعاً ، وقال ابن كثير : أي : مرحاً لا يفكر في العواقب ، ولا يخاف مما أمامه ، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ﴿ **إنه ظنّ أن لن يحور** ﴾ أي : يرجع إلى ربه تكذيباً بالبعث . أقول : وهذا سر سروره في أهله ، سروراً جعله لا يبالي بقيد ولا عمل . ﴿ **بلى** ﴾ أي : ليرجعن ﴿ **إن ربه كان به بصيراً** ﴾ فسيجازيه على كل عمل وتصرف واعتقاد . قال ابن كثير ، يعني : بلى سيعيده كما بدأه ، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها بأنه كان له بصيراً أي : عليماً خبيراً .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن ذكر الله عز وجل في الفقرة الأولى مايكون من أمر السماء والأرض يوم القيامة ، خاطب الإنسان في الفقرة الثانية مبيناً أنه كادح للوصول إلى ذلك اليوم ، ويومذاك إما أن يكون من أصحاب اليمين ، وإما أن يكون من أصحاب الشمال ، وفي ذلك دعوة للإنسان كي يكدح من أجل أن يكون من أصحاب اليمين ، وذلك لا يكون إلا بالعبادة والتقوى ، وهذا مظهر من مظاهر صلة الفقرة بمحور السورة .

٢ - رأينا أن محور السورة يبدأ بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ ورأينا أن الفقرة الثانية . تبدأ بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الإنسان** ﴾ والصلة واضحة بين الخطابين ، ومن هذه الصلة ندرك معنى جديداً ومضمونه : إنك أيها الإنسان كادح في كل حال للوصول إلى الله عز وجل ، فليكن كدحك في عبادة مولاك وتقواه لتنال مرضاته ، ولو كان هذا على حساب سرورك الدنيوي في أهلك من أجل أن تنال السرور الأبدي مع أهلك في الآخرة ، ولا يكن كدحك فيما يخالف العبادة والتقوى ، فإنه وإن أدى هذا إلى سرورك في أهلك في الدنيا فإن عاقبة ذلك الحزن الطويل في الآخرة ، ومن ثم قال قتادة في الآية : إن كدحك يا ابن آدم لضعيف ، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل .

٣ - رأينا صلة المقطع الأول ببعضه بعضاً ، ورأينا صلة المقطع بمحور السورة ، ثم يأتي المقطع الثاني وهو يخاطب الناس جميعاً ، وفي ذلك مظهر من مظاهر اتصال السورة بالمحور المبدوء بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس** ... ﴾ وسنرى الصلة الوثيقة بين المقطعين الأول والثاني ، فبعد أن بين الله عز وجل ماذا ينتظر الإنسان ، خاطب الناس مؤكداً لهم أنهم واصلون إلى ما ذكره ، وأنّبهم على عدم سلوك الطريق فلننتقل إلى المقطع الثاني والأخير من السورة .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتدّ من الآية (١٦) إلى نهاية الآية (٢٥) وهذا هو :

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

التفسير :

﴿ **فلا أقسم** ﴾ أي : فأقسم ﴿ **بالشفق** ﴾ الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، قال عكرمة : الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء ﴿ **والليل وما وسق** ﴾ أي : جمع وضم ﴿ **والقمر إذا اتسق** ﴾ قال النسفي : أي : اجتمع وتم بدراً ﴿ **لتركبن** ﴾ قال النسفي : أيها الناس ﴿ **طبقاً عن طبق** ﴾ قال النسفي : أي حالاً بعد حال كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول . أقول : وقد قال بعض الملاحدة في هذه الآية : إنها تدل على تناسخ في الأرواح ، وهو فهم عجيب مبتور لايصدر عمن له أدنى بصر ، أو إدراك أو تأمل في هذا القرآن ، ولنا عودة على هذه الآية ، وعلى ماقالوه في الفوائد . ﴿ **فمالهم لايؤمنون** ﴾ والأمر كذلك . قال ابن كثير : أي : فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿ **وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون** ﴾ قال النسفي : أي : لايخضعون . قال ابن كثير : ومالهم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه - وهو هذا القرآن - لايسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً . أقول : وههنا سجدة كما سنرى في الفوائد . والمعنى العام : إذا كان الأمر كذلك من كون الإنسان سيركب طبقاً بعد طبق أي : حالاً بعد حال ؛ حتى يصل إلى الكبير المتعال ، فمال هؤلاء الكافرين لا يؤمنون ، وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ؟ أي إن الأمر مادام كذلك فإن هذا يقتضي منهم إيماناً وخضوعاً للقرآن ، ولكنهم بدلاً من أن يفعلوا ذلك يكذبون ﴿ **بل الذين كفروا يكذبون** ﴾ قال النسفي : أي : بالبعث والقرآن ، وقال ابن كثير : أي : من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ **والله أعلم بما يوعون** ﴾ فلا يخفى على الله أمرهم ، ومعنى الآية : والله أعلم بما يكتمون في صدورهم ، قال تعالى آمراً رسوله ﷺ : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ قال ابن كثير : أي : فأخبرهم يامحمد بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذاباً أليماً ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أي : لكن الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ **لهم أجر** ﴾ في الآخرة . ﴿ **غير ممنون** ﴾ قال النسفي : أي : غير مقطوع ، أو غير منقوص . وقد ختم صاحب الظلال الكلام عن هذه السورة بقوله : (وكل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات في سورة قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر . وهو مالا يعهد إلا في الكتاب العجيب ! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها في الحيز الكبير ولاتؤدى بهذه القوة، وبهذا التأثير .. ولكنه القرآن ميسر للذكر ؛ يخاطب القلوب

مباشرة من منافذها القريبة .. تنزيل العليم الخبير) .

كلمة في السياق :

١ - وضح أثناء عرض الآيات صلة آيات المقطع الثاني بالمقطع الأول ، وكما هيج المقطع الأول على الكدح في طريق الخير للوصول إلى رضوان الله عز وجل ، فإن المقطع الثاني هيج على الإيمان والسجود لقراءة القرآن ، والإيمان والعمل الصالح ، وصلة ذلك بالعبادة والتقوى من محور السورة واضحة .

٢ - في محور السورة من سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين * وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ . والمقطع الثاني من السورة بيّن أن الإنسان سينتقل من حال إلى حال ، وهذا يقتضي منه إيماناً وخضوعاً لهذا القرآن ، ولكن الكافرين لا يفعلون ، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ أن يبشرهم بالعذاب ، ثم بشر الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بما لهم عنده من الثواب المستمر ، ولو تأملت لوجدت صلة بين هذه المعاني والآيات الثلاث المذكورة من المحور وهكذا ذكّرت السورة بما يفصل في معاني المحور من سورة البقرة . ولكن بأسلوب جديد ، وأداء جديد ، وزيادات تتفرّد بها السورة عن كل سورة ، فالسورة الوحيدة في القرآن التي يذكر فيها أن أخذ أصحاب الشمال صحائفهم يكون من وراء ظهورهم هي هذه السورة ، وفيها معان أخرى أبرزت فيها إبرازاً جديداً ، وهكذا نجد سياق السورة الخاص سائراً في إطار السياق العام للقرآن ، مع تأدية السورة لمعان جديدة ، وهكذا دأب سور القرآن كلها فما أكثر ما في هذا القرآن من إعجاز ودلالات ، تدل على أنه من عند الله ﴿ **فما لهم لا يؤمنون وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون** ﴾ .

الفـوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا الأرض مُدّت** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير عن عليّ بن الحسين أن النبي ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة مدّ الله الأرض مدّ الأديم

حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه فأكون أول من يدعى ، وجبريل عن يمين الرحمن ، والله ما رآه قبلها ، فأقول : يارب إن هذا أخبرني أنك أرسلته إليّ فيقول الله عز وجل : صدق ، ثم أشفع فأقول : يارب عبادك عبدوك في أطراف الأرض قال : وهو المقام المحمود ») .

٢ - ومناسبة قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ قال ابن كثير : (أي : إنك ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً ﴿ **فملاقيه** ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . ويشهد لذلك مارواه أبو داود الطيالسي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريل : يامحمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ربك أي : فملاق ربك ومعناه : فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك ، وعلى هذا فكلا القولين متلازم) .

وقال صاحب الظلال بمناسبة هذه الآية : (﴿ **ياأيها الإنسان** ﴾ .. الذي خلقه ربه بإحسان ، والذي ميزه بهذه (الإنسانية) التي تفرده في هذا الكون بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه ، وأطوع لأمره من الأرض والسماء . وقد نفخ فيه من روحه ، وأودعه القدرة على الاتصال به ، وتلقي قبس من نوره ، والفرح باستقبال فيوضاته ، والتطهر بها ، أو الارتفاع إلى غير حد ، حتى يبلغ الكمال المقدر لجنسه ، وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة !

﴿ **ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ .. ياأيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كدحاً ، تحمل عبئك ، وتجهد جهدك ، وتشق طريقك .. لتصل في النهاية إلى ربك . فإليه المرجع وإليه المآب . بعد الكد والكدح والجهاد ..

ياأيها الإنسان .. إنك كادح حتى في متاعك .. فأنت لا تبلغه في هذه الأرض إلا بجهد وكد . إن لم يكن جهد بدن وكد عمل ، فهو جهد تفكير وكد مشاعر . الواجد والمحروم سواء . إنما يختلف نوع الكدح ولون العناء . وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الإنسان .. ثم النهاية في آخر المطاف إلى الله سواء .

ياأيها الإنسان ... إنك لا تجد الراحة في الأرض أبداً . إنما الراحة هناك . لمن يقدم لها

الطاعة والاستسلام .. التعب واحد في الأرض والكدح واحد ـــ وإن اختلف لونه وطعمه ـــ أما العاقبة مختلفة عندما تصل إلى ربك .. فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض .. وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكن كدح ولا كد ..

يأيها الإنسان .. الذي امتاز بخصائص ﴿ **الإنسان** ﴾ . ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذي خصك به الله ، اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه .

ولهذه اللمسة الكامنة في هذا النداء ، فإنه يصل بها مصائر الكادحين عندما يصلون إلى نهاية الطريق ، ويلقون ربهم بعد الكدح والعناء :

﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ، ويصلى سعيراً ، إنه كان في أهله مسروراً ، إنه ظن أن لن يحور ، بلى إن ربه كان به بصيراً** ﴾ ..) .

٣ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ قال ابن كثير : (أي : سهلاً بلا تعسير أي : لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة . وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من نوقش الحساب عُذّب » قالت : فقالت : أفليس قال الله تعالى : ﴿ **فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ قال : «ليس ذاك بالحساب ولكن ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عُذّب » وهكذا رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير من حديث أيوب السختياني به . وروى أحمد عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته : « اللهم حاسبني حساباً يسيراً » فلما انصرف ، قلت : يارسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال : «أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه إنه من نوقش الحساب ياعائشة يومئذ هلك» صحيح على شرط مسلم) .

٤ – يستدل بعض طوائف الملاحدة القائلين بالتناسخ ، على هذا التناسخ الملعون بقوله تعالى : ﴿ **لتركبن طبقاً عن طبق** ﴾ وهو استدلال أحمق ؛ لأن القول بالتناسخ ينفي ما تذكره السورة أصلاً من حشر الإنسان وحسابه . وهذه طريقة الملاحدة يأتون إلى نص يحتمل معاني فيعطونه معنى لا يحتمله ، ويلغون به القرآن كله ، ويقولون هذا هو حكم القرآن ، وإنما ينطلي خداعهم على جاهل أحمق ، إن هذا التناسخ الملعون عقيدة هندوسية تسربت إلى طوائف من ملاحدة المسلمين على تناقضه وتهافتها .

إن القول بأن الروح تنتقل من مخلوق إلى مخلوق آخر حسب عمل المخلوق الأول

مردود لمئات الوجوه منها .

أ - إن هذا القول لا يعطي تفسيراً ولا تعليلاً لتكاثر البشر إذ القائلون بهذه العقيدة على فرض أنها حق ، هم وحدهم إذا أحسنوا العمل يستحقون أن يكونوا بشراً لكنا نرى البشر يتكاثرون وهم بالنسبة لمجموع البشر لا يعدلون إلا رقماً صغيراً من عدد كبير .

ب - إن القول بالتناسخ يقتضي أن يكون للمخلوقات كلها درجة من الوعي والفهم والإدراك واحدة ، وهذا لا يقوله عاقل .

جـ - إن القول بالتناسخ يقتضي أن يكون عدد الأحياء واحداً في كل عصر ، ولكنا نجد أن الأحياء تتكاثر كلها أو تتناقص ، فلا تحافظ على عدد محدود .

د - إن القول بالتناسخ يلغي موضوع اليوم الآخر ، وموضوع محاسبة كل إنسان عن عمله فيه ، ويعطل النصوص التي تتحدث عن ذهاب كل روح إلى عالمها في البرزخ ، هذا وقد نقلنا نقاش الأستاذ المودودي لهذه العقيدة الفاسدة في كتابنا الإسلام الجزء الرابع فليراجع .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ **لتركبن طبقاً عن طبق** ﴾ .. (روى البخاري عن مجاهد قال : قال ابن عباس ﴿ **لتركبن طبقاً عن طبق** ﴾ : حالاً بعد حال قال هذا نبيكم ﷺ ، هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ ، وقال السدي ﴿ **لتركبن طبقا عن طبق** ﴾ أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل (قلت :) كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا : يارسول الله : اليهود والنصارى قال : « فمن ؟ » وهذا محتمل) .

هـ - هناك قراءتان أخريان في قوله تعالى : ﴿ **لتركبن طبقاً عن طبق** ﴾ قراءة بضم تاء (لتركبن) وقراءة بفتحها وبفتح الباء ، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب في الكلمة لمجموع البشرية ، وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله ﷺ ، وقد فسر بعضهم الطبق في القراءة التي تخاطب رسول الله بأنه السماء قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن الشعبي ﴿ **لتركبن طبقاً عن طبق** ﴾ قال : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء ، وهكذا روي عن ابن مسعود ومسروق وأبي العالية ﴿ **طبقاً عن طبق** ﴾ سماء بعد سماء . قلت : يعنون ليلة الإسراء ؟) .

أقول : ليس هناك من مانع أن يفسّر الطبق بالسماء على القراءة التي نقرؤها في قراءة

حفص، وعندئذ تكون في الآية معجزة غيبية، يدركها أبناء عصرنا الذين انتقلوا من حال إلى حال في تدرجهم في مسالك السماء بالمعنى اللغوي، وعلى هذا يكون السياق على الشكل التالي: ﴿ **فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق لتركبن** ﴾ يا معشر البشر ﴿ **طبقاً** ﴾ أي: سماء ﴿ **عن طبق** ﴾ أي: عن سماء، فكل موقع يوصلكم إلى ما بعده ﴿ **فما لهم لايؤمنون** ﴾ والقرآن يخبرهم عن مثل هذا ﴿ **وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون** ﴾ والقرآن يخاطبهم بمثل هذا.

٦ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **فما لهم لايؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون** ﴾ أقول: هذه إحدى مواطن سجدات القرآن الأربعة عشر التي يجب بسببها عند الحنفية السجود لله إذا تليت أو سمعت، والسجود عندهم واجب على التراخي: «روى مالك عن أبي سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم: ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها» رواه مسلم والنسائي من طريق مالك به. وروى البخاري عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ: ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ فسجد فقلت: له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه، وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي، وزاد النسائي وسفيان الثوري عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ و﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾).

٧ - عند قوله تعالى ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ قال ابن كثير: (قال ابن عباس: غير منقوص، وقال مجاهد والضحاك: غير محسوب، وحاصل قولهما أنه غير مقطوع كما قال تعالى ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ وقال السدي قال بعضهم: غير ممنون غير منقوص، وقال بعضهم: غير ممنون عليهم، وهذا القول الأخير عن بعضهم قد أنكره غير واحد؛ فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائماً سرمداً، والحمد لله وحده أبداً ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين).

كلمة أخيرة في المجموعة العاشرة من قسم المفصل:

سورة المطففين تحدثت عن الفجار والأبرار، وجاءت سورة الانشقاق، فبينت

للإنسان أنه كادح كل الكدح لملاقاة الله عز وجل ، ومن ثم طالبت السورة من خلال عرض ما لأهل اليمين ولأهل الشمال ، بالعمل الصالح ، وبينت سورة الانشقاق أن الإنسان متنقل من حال إلى حال في الدنيا ، وفي الآخرة ، ومن ثم فهذا يقتضي منه إيماناً وعملاً صالحاً . وأنذرت السورة من لم يؤمن ويعمل صالحاً ، وهكذا دعت سورة الانشقاق من خلال تبيان كدح الإنسان وانتقاله من حال إلى حال إلى السير في طريق البر والتخلي عن طريق الفجور ، فالسورتان تتكاملان لتؤديا دوراً واحداً في قضية الأساس والطريق .

وقد رأينا أن لكل سورة سياقها الخاص ، وصلتها بمحورها ، وأن كل سورة فيها جديد ، ورأينا صلة نهاية السورة الأولى ببداية الثانية ، وهكذا نجد أن السياق القرآني العام يذكّر هذه النفس البشرية مرة ومرة ومرة ، بمعنى ومعنى ومعنى ، وهكذا تأخذ النفس البشرية حظها من التذكير المحيط الشامل ، ومن ثم ندبت السنة إلى قراءة القرآن في الشهر مرة ؛ لتأخذ النفس البشرية حظها من هذا التذكير الشامل في كل شهر ، ويا حسرة على أولئك المحرومين من هذه النعمة فكيف بالمحرومين أصلاً من نعمة الإيمان بهذا القرآن .

☆ ☆ ☆

المجموعة الحادية عشرة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المفصّل
وتشمل سور :
البروج ، والطارق ، والأعلى ،
والغاشية

كلمة في المجموعة الحادية عشرة من قسم المفصل

تعرضت سورة المطففين في آخرها لاستهزاء المجرمين بالمؤمنين ، وأبرزت هذا المعنى ﴿ **وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين** ﴾ وجاءت سورة الانشقاق لتبين عقوبة هؤلاء المجرمين المنقلبين إلى أهليهم فكهين فقالت ﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً . ويصلى سعيراً . إنه كان في أهله مسروراً . إنه ظن أن لن يحور** ﴾ لاحظ إبراز سرور الكافر في أهله في نهاية سورة المطففين ، وأوائل سورة الانشقاق مع إبراز ما للكافرين وللمؤمنين في السورتين . وتأتي سورة البروج بعد ذلك لترينا نموذجاً من فعل الكافرين بالمؤمنين وفتنتهم إياهم ، ومايستحقونه نتيجة لذلك . كما تحدثنا عن المؤمنين العاملين وما لهم . وتحدثنا عما يستحقه المكذبون من بطش الله . فسورة البروج تأتي لتكمل سياق ماقبلها ، وتتصل بالمجموعة العاشرة بأكثر من وشيجة . وسنرى فيما بعد صلة كل سورة من سور المجموعة الحادية عشرة ببعضها .

لقد رأينا أن سور : الذاريات والطور والنجم كلها مبدوءة بقَسم ، وآتية في مجموعة واحدة ، وأنها كلها فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، وفي هذه المجموعة نرى سورتين كلا منهما مبدوءة بقسم ، وفي المجموعة اللاحقة نجد خمس سور في مجموعة واحدة ، تبدأ كل منها بقسم ، وكلها تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، ومن مثل هذا نستأنس أن سورتي البروج والطارق تفصّلان في مقدمة سورة البقرة .

....

وتأتي بعد هاتين السورتين سورة الأعلى وهي مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ وهذا يشير إلى أنها تفصّل في قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ .

وتأتي بعد ذلك سورة الغاشية ، وهي مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ وهي تشبه سورة الدهر مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾ وهذا يجعلنا نستأنس أن محور سورة الغاشية هو نفسه محور سورة الدهر ، وهي الآيات الآتية بعد مقدمة سورة البقرة وهذا كله سنراه تفصيلاً أثناء عرضنا للسور الأربع – سور المجموعة الحادية عشرة – فلنبدأ عرضها .

* * *

سورة البروج

وهي السورة الخامسة والثمانون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الحادية عشرة من
قسم المفصل ، وهي اثنتان وعشرون آية
وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللّٰهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا. إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة البروج :

قدم الألوسي لتفسير سورة البروج بقوله : (لا خلاف في مكيتها . ولا في كونها اثنتين وعشرين آية . ووجه مناسبتها لما قبلها باشتمالها - كالتي قبل - على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين ، مع التنويه بشأن القرآن وفخامة قدره ، وفي البحر أنه سبحانه لما ذكر أنه جل وعلا أعلم بما يجمعون لرسول الله ﷺ والمؤمنين من المكر والخداع ، وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى ، كالضرب والقتل والصلب والحرق بالشمس وإحماء الصخر ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه ، ذكر سبحانه أن هذه الشنشنة كانت فيمن تقدم من الأمم ، فكانوا يعذبون بالنار ، وأن المعذَّبين كان لهم من الثبات في الإيمان مامنعهم أن يرجعوا عن دينهم وأن الذين عذبوهم ملعونون ، فكذلك الذين عذبوا المؤمنين من كفار قريش ، فهذه السورة عظة لقريش ، وتثبيت لمن يعذبونه من المؤمنين . انتهى وهو وجه وجيه) .

أقول : في السورة عظة للعالمين ، وتثبيت للمؤمنين .

وقدّم صاحب الظلال لهذه السورة بقوله : (هذه السورة القصيرة تعرض حقائق العقيدة ، وقواعد التصور الإيماني ... تعرض أموراً عظيمة ، وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى ، وراء المعاني والحقائق المباشرة التي تعبّر عنها نصوصها حتى لتكاد كل آية - وأحياناً كل كلمة في الآية - أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة ..

والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو حادث أصحاب الأخدود .. والموضوع هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام - قيل : إنهم من النصارى الموحدين - ابتلوا بأعداء لهم طغاة شريرين ، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم ، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم . فشق الطغاة لهم شقاً في الأرض ، وأوقدوا فيه النار ، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقاً ، على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلّطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة ، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق . حريق الآدميين المؤمنين : ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾) .

كلمة في سورة البروج ومحورها :

محور سورة البروج - كما ذكرنا من قبل - هو مقدمة سورة البقرة ، ففي مقدمة سورة البقرة كلام عن الإيمان بالغيب ، وكما ذكرت سورة العنكبوت التي فصّلت في مقدمة سورة البقرة أن الإيمان بالغيب يقتضي اختباراً وامتحاناً من الله ، ومن ثم يسلّط الله عز وجل على المؤمنين من يسلّط وتأتي سورة البروج لتتحدّث عن عقاب هؤلاء الذين يفتنون المؤمنين ، وتتحدث في المقابل عن عطاء الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، فهي تعرّفنا على الله عز وجل ، وجلاله وانتقامه من المكذبين لتخلص إلى الكلام عن القرآن الكريم ، وبالتالي فهي تذكرنا بكثير من المعاني الواردة في مقدمة سورة البقرة ﴿ **الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ وسنرى صلة السورة بمحورها أثناء عرضها ..

....

تتألف سورة البروج من مقطعين يضمهما سياق واحد كالعادة .

المقطع الأول وينتهي بالآية (١١) .

المقطع الثاني وينتهي بالآية (٢٢) قبل السورة .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويمتدّ حتى نهاية الآية (١١) وهذا هو :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)

التفسير :

﴿ **والسماء ذات البروج** ﴾ قال ابن كثير : يقسم تبارك وتعالى بالسماء وبروجها ، وهي النجوم العظام ﴿ **واليوم الموعود** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **وشاهد** ﴾ في ذلك اليوم ﴿ **ومشهود** ﴾ أي : فيه ، قال النسفي : والمراد بالشاهد من يشهد فيه من الخلائق كلهم ، وبالمشهود فيه ما في ذلك اليوم من عجائب . قال النسفي : وجواب القسم محذوف يدل عليه ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ أي : لعن . كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون أي : إن من فعل الأخدود ملعون ، والأخدود : جمع خد وهو الشق العظيم في الأرض ، قال ابن كثير : (أي : لعن أصحاب الأخدود وجمعه

أخاديد وهي الحفر في الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهروهم ، وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم ، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً ، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها) .

والقول الأرجح هو أن هؤلاء هم مسلمو نجران الوارد ذكرهم في حديث الغلام والساحر الذي قصّه علينا رسول الله ﷺ كما سنراه في الفوائد ﴿ **النار ذات الوقود** ﴾ أي قتل أصحاب الأخدود . أصحاب النار ذات الوقود وفي قوله تعالى : ﴿ **ذات الوقود** ﴾ . وصف للنار بأنها عظيمة ، فقد اجتمع لها الحطب الكثير وأبدان الناس ﴿ **إذ هم عليها قعود** ﴾ قال النسفي : أي : لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها ، جلوساً على الكراسي ، يتلذذون بما يفعلون بالمؤمنين ﴿ **وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود** ﴾ أي : يشهدون فعلهم الأثيم ذلك بأنفسهم ، وفي ذلك تأكيد لرغبتهم الهائلة في التشفي ، أو يشهد بعضهم لبعض عند سيدهم أن أحداً منهم لم يفرّط فيما أمر به ، كشأن أجهزة المخابرات المتعددة في بعض البلدان ﴿ **وما نقموا منهم** ﴾ أي : وما عابوا منهم ، وما أنكروا ﴿ **إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾ أي : ما نقموا منهم إلا حقّه ألا ينقم منه ، بل أن يعظم أصحابه وهو الإيمان بالله العزيز الحميد . قال النسفي : (ذكر الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به وهو كونه عزيزاً غالباً قادراً يخشى عقابه ، حميداً منعماً يجب له الحمد على نعمته ويرجى ثوابه) . ﴿ **الذي له ملك السموات والأرض** ﴾ قال النسفي : (فكلّ من فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له تقريراً لأن من ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل وأن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب عظيم). ﴿ **والله على كل شيء شهيد** ﴾ هذا وعيد لهم يعني : إنه علم ما فعلوا وهو مجازيهم عليه .

كلمة في السياق :

بعد أن لعن الله عز وجل أصحاب الأخدود الذين فعلوا ما فعلوا بالمؤمنين ، تأتي آيتان هما بمثابة تعليق على الحادثة تتضمنان قاعدتين : الأولى في جزاء هؤلاء وأمثالهم ممن يفتن المؤمنين عن دينهم ، والثانية في جزاء أهل الإيمان .

القاعدة الأولى :

﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات** ﴾ أي : بلوهم بالأذى ليردّوهم عن دينهم ﴿ **ثم لم يتوبوا** ﴾ قال ابن كثير : (أي : لم يقلعوا عمّا فعلوا ويندموا على ما أسلفوا) قال الحسن البصري في هذا المقام : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ﴿ **فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ جزاء على كفرهم وفتنهم أهل الإيمان .

القاعدة الثانية :

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أي الذين اجتمع لهم الإيمان والعمل الصالح ، ومن السياق عرفنا أنّهم الصابرون على أذى الكافرين ﴿ **لهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ بخلاف ما أعدّ لأعدائه من الحريق والجحيم ، ولذلك قال : ﴿ **ذلك الفوز الكبير** ﴾ وأيّ فوز أكبر من الزحزحة عن النار ودخول الجنة !

كلمة في السياق :

١ - انصب السياق على لعن أصحاب الأخدود ، ثم استقر في المقطع الأول على القاعدتين المذكورتين اللتين فيهما حديث عن جزاء الكافرين والمؤمنين ، وصلة ذلك بالحديث عن المؤمنين والكافرين في بداية سورة البقرة لا تخفى .

٢ - وبعد المقطع الأول يأتي المقطع الثاني ، ويبدأ بالكلام عن بطش الله عز وجل وشدته ، وفي ذلك تسلية لأهل الإيمان ، وتهديد لأهل الطغيان ، ثم يختم المقطع بتقرير حقيقة الكافرين ، وتقرير حقيّة هذا القرآن . ويتألف المقطع الثاني من فقرتين .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (١٢) إلى نهاية السورة ، أي إلى نهاية الآية (٢٢) وهذا هو :

الفقرة الأولى

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾

الفقرة الثانية

بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

تفسير الفقرة الأولى من المقطع الثاني :

﴿ **إن بطش ربك لشديد** ﴾ قال النسفي : البطش الأخذ بالعنف فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم ، والمراد أخذه الظلمة والجبابرة بالعذاب والانتقام . وقال ابن كثير : أي : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله ، وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي . أقول : بعد أن قرر الله عز وجل شدة بطشه برهن على ذلك بقوله : ﴿ **إنه هو يبدىء ويعيد** ﴾ قال ابن كثير : أي : من قوته وقدرته التامة يبدىء الخلق ويعيده كما بدأ بلا ممانع ولا مدافع . وقال النسفي في الآية : أي : يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد أن صيرهم ترابا ، دل باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشه . أقول : ولكي يعرف المسلم أن لله تجليات الجمال ، كما له تجليات الجلال . أتبع ذلك بقوله ﴿ **وهو الغفور** ﴾ قال النسفي : (أي : الساتر للعيوب المعافي عن الذنوب) ﴿ **الودود** ﴾ قال النسفي :

(أي : المحب لأوليائه) وقال ابن كثير في الآية : (أي : يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أيّ شيء كان . والودود قال ابن عباس وغيره هو الحبيب) . ﴿ **ذو العرش** ﴾ أي : صاحب العرش ﴿ **المجيد** ﴾ أي : ذو المجد العظيم . ﴿ **فعّال لما يريد** ﴾ قال ابن كثير : أي : مهما أراد فعله لا معقّب لحكمه ، ولا يسئل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله . أقول : في الآيتين الأخيرتين دليل على أن بطشه عز وجل شديد ، وفي ذكر مغفرته ووده في سياق ذلك إيناس للمؤمن وهو يقرأ هذه المعاني التي فيها إنذار . ثم دل على بطشه بفعله بفرعون وثمود ، فقال : ﴿ **هل أتاك حديث الجنود** ﴾ أي : خبر الجموع الطاغية في الأمم الخالية ﴿ **فرعون وثمود** ﴾ أي : فرعون وقومه وثمود ، وما أكثرهم من جنود للكفر ، لكنهم لم يعجزوا الله عز وجل وبطش بهم قال ابن كثير : (أي : هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس ، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد ؟ وهذا تقرير لقوله تعالى : ﴿ **إن بطش ربك لشديد** ﴾ أي : إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً أخذ عزيز مقتدر) .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن ذكر الله عز وجل في المقطع الأول فتنة الكافرين للمؤمنين ، وبين جزاء المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، ذكّر ببطشه في الدنيا ، وبرهن عليه إنْ في التذكير بأسمائه وصفاته وأفعاله ، أو في فعله بالمكذبين السابقين ، وفي ذلك إنذار للكافرين الذين يفتنون المؤمنين بالعذاب الدنيوي ، زيادة على العذاب الأخروي ، وفي السياق نفسه ذكّر بمغفرته ووده ليستأنس المؤمنون ، ويتوب الكافرون .

٢ - وبعد هذا كله تأتي الفقرة الأخيرة من المقطع الثاني وهي تتألف من جزأين .

الفقرة الثانية من المقطع الثاني

تفسير الجزء الأول :

﴿ **بل الذين كفروا في تكذيب** ﴾ قال ابن كثير : أي : هم في شك وريب وكفر وعناد . ﴿ **والله من ورائهم محيط** ﴾ قال ابن كثير : أي : هو قادر عليهم ، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه . وقال النسفي : (أي : عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم

لا يعجزونه ، والإحاطة بهم من ورائهم مثل ؛ لأنهم لا يفوتونه كما لا يفوت الشيء المحيط به) .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن قرر الله عز وجل تعذيبه للكافرين وشدة بطشه بهم ، بيّن أن الكافرين مستمرون على تكذيبهم ، وذكّر بقدرته عليهم دائماً وأبداً ، وفي ذلك إنذار لهم وتسلية لأهل الإيمان .

٢ - في تقرير تكذيب الكافرين مع كل ما يتدرون به ، وما يرونه من انتقام الله نوع تفصيل لقوله تعالى في مقدمة السورة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

٣ - وبعد أن ذكر الله ما ذكر ممّا يبعد عن الكفر ، ويدفع إلى الإيمان ، وذكّر بعد ذلك بالطبيعة الكافرة ، يأتي الجزء الثاني من الفقرة الثانية ليقرّر أنّ هذا القرآن في الدرجة العليا من العظمة التي كان ينبغي أن ينتفي معها كل تكذيب ، ولكنها الطبيعة الكافرة .

تفسير الجزء الثاني :

﴿ **بل هو قرآن مجيد** ﴾ قال النسفي : (أي : بل هذا الذي كذّبوا به قرآن مجيد ، أي : شريف عالي الطبقة في الكتب ، وفي نظمه وإعجازه ليس كما يزعمون أنه مفترى وأنه أساطير الأولين) ﴿ **في لوح محفوظ** ﴾ أي : من وصول الشياطين ، فإذا كان القرآن هذا شأنه في المجد والحفظ فكيف يكفر به الكافرون ! أو يشك فيه الشاكّون ! ، وبهذا انتهت السورة .

كلمة في السياق :

قلنا إن السورة تفصّل في مقدمة سورة البقرة فلنر تفصيل ذلك :

أ - ﴿ **الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ وقد عرفنا من شأن القرآن أنه ﴿ **بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ** ﴾ فهو أعلى من أن يطاله التكذيب ، أو الشكوك .

ب - ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وقد رأينا ما للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ورأينا أن الإيمان يرافقه فتنة ، وفي ذلك تفصيل لقضية من لوازم الإيمان .

ج - ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ وقد رأينا في السورة مظاهر فلاح المؤمنين ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ .

د - ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ وقد رأينا في السورة بعض آثار الكفر . ورأينا نموذجاً للنفسية الكافرة ، وعرفنا بعض صفاتها ورأينا استحقاقها للعذاب الدنيوي والأخروي ، وهكذا فالسورة فصّلت في محورها تفصيلاً واضحاً مع أن لها سياقها الخاص الذي رأيناه أثناء عرضها ، والذي مضمونه إنذار الكافرين أن يفتنوا المؤمنين ، وتسلية المؤمنين الذين يتعرضون للفتنة ، وأن الله عز وجل سينصرهم من عدوهم بتعذيب هذا العدو في الدنيا والآخرة ، ومن قبل رأينا صلة سورة البروج بما قبلها ، وسنرى أثناء الكلام عن سورة الطارق صلتها بها .

الفـوائد :

١ - قدم ابن كثير لسورة البروج بقوله : (روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق . وروى أحمد عن أبي هريرة - أيضاً - أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء تفرد به أحمد) .

٢ - ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ واليوم الموعود . وشاهد ومشهود ﴾ أقوالاً كثيرة أقواها : (روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال في هذه الآية : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : الشاهد يعني يوم الجمعة ، ويوم مشهود يوم القيامة . وروى أحمد أيضاً عن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية . وشاهد ومشهود قال : الشاهد الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، والموعود يوم القيامة ، وقد روى عن أبي هريرة أنه قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، وكذلك قال الحسن وقتادة وابن زيد ، ولم أرهم يختلفون في ذلك ولله الحمد) .

وقال صاحب الظلال في قوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود** ﴾ : (تبدأ السورة - قبل الإشارة إلى حادث الأخدود - بهذا القسم : بالسماء ذات البروج ، وهي إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمة أي : قصورها المبنية ، كما قال : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون** ﴾ .. كما قال : ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها** ﴾ .. وإما أن تكون هي المنازل التي تنتقل فيها تلك الأجرام في أثناء دورانها ، وهي مجالاتها التي لا تتعداها في جريانها في السماء . والإشارة إليها يوحي بالضخامة . وهو الظل المراد إلقاؤه في هذا الجو .

﴿ **واليوم الموعود** ﴾ .. وهو يوم الفصل في أحداث الدنيا ، وتصفية حساب الأرض وما كان فيها . وهو الموعود الذي وعد الله بمجيئه ، ووعد بالحساب والجزاء فيه ، وأمهل المتخاصمين والمتقاضين إليه . وهو اليوم العظيم الذي تتطلع إليه الخلائق ، وترقبه لترى كيف تصير الأمور . ﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ .. في ذلك اليوم الذي تعرض فيه الأعمال ، وتعرض فيه الخلائق ، فتصبح كلها مشهودة . ويصبح الجميع شاهدين ، ويعلم كل شيء ، ويظهر مكشوفاً لا يستره ساتر عن القلوب والعيون ..

وتلتقي السماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود .. تلتقي جميعاً في إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذي يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود . كما توحي بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا الحادث . وتوزن فيه حقيقته ويصفى فيه حسابه .. وهو أكبر من مجال الأرض ، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود ..) .

٣ - هناك اختلاف كثير بين المفسرين حول هوية أصحاب الأخدود وأقوى الأقوال في ذلك أنهم من أهل نجران اليمن ، ويحملون قصة الغلام التي وردت في السنة على ذلك قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد عن صهيب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك : إني قد كبر سني وحضر أجلي فادفع إليّ غلاماً لأعلمه السحر ، فدفع إليه غلاماً كان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب ، فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ماحبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حبسني أهلي ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسني الساحر ،

فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس ، فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر ، قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ، ورماها فقتلها ، ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك فقال : أي بني أنت أفضل مني ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ ، فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان للملك جليس فعمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفني ، فقال : ما أنا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك ، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس فقال الملك يا فلان من ردّ عليك بصرك ؟ فقال ربي ، فقال : أنا ؟ قال : لا ، ربي وربك الله ، قال : ولك رب غيري ، قال : نعم ، ربي وربك الله ، فلم يزل حتى دل على الغلام ، فبعث إليه فقال أي بنيّ بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال : ما أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل ، قال : أنا ؟ قال : لا ، قال : أو لك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله ، فأخذه أيضاً بالعذاب فلم يزل به حتى دل على الراهب ، فأتى بالراهب فقال : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه ، وقال للأعمى : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض ، وقال للغلام : ارجع عن دينك ، فأبى فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ؟ وقال : إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه إلا فدهدهوه ، فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون ، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك ، فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله تعالى ، فبعث به مع نفر في قرقور ، فقال : إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر ، فلججوا به البحر ، فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله تعالى ثم قال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي ، قال : وما هو ؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل : بسم الله رب الغلام ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني . ففعل ووضع السهم في كبد قوسه ثم رماه وقال : بسم الله رب الغلام ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام . فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ؟ فقد والله نزل بك ، قد

آمن الناس كلهم ، فأمر بأفواه السكك فخدّت فيها الأخاديد ، وأضرمت فيها النيران وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها ، قال : فكانوا يتعادون ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكأنما تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي : اصبري ياأماه فإنك على الحق » .

وهكذا رواه مسلم في آخر الصحيح ، ورواه النسائي واختصر أوله ، وقال ابن كثير : (وقال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه حدث أن رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته فوجد عبد الله بن التامر تحت دفن فيها قاعداً واضعاً يده على ضربة في رأسه ممسكاً عليها بيده ، فإذا أخذت يده عنها تنبعث دماً ، وإذا أرسلت يده ردت عليها فأمسكت دمها وفي يده خاتم مكتوب فيه ربي الله فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره ، فكتب عمر إليهم أن أقروه على حاله وردوا عليه الذي كان عليه ففعلوا) .

٤ - عند قوله تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث الجنود** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون قال : مرّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ : ﴿ **هل أتاك حديث الجنود** ﴾ فقام يستمع فقال : « قد جاءني ») .

أقول : في ذلك أدب عظيم في كيفية تلقي هذا القرآن والتجاوب معه .

٥ - عند قوله تعالى : ﴿ **فعّال لما يريد** ﴾ قال ابن كثير : (كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له وهو في مرض الموت هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم ، قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لي : إني فعّال لما أريد) . ولننتقل إلى سورة الطارق .

☆ ☆ ☆

سورة الطارق

وهـي الســورة الســادسة والثمانــون بحســب الرســم القــرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الحادية عشرة من
قسم المفصل ، وهي سبع عشرة آية
وهــي مكيـــة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الطارق :

قدم الألوسي لسورة الطارق بقوله : (مكية بلا خلاف . وهي سبع عشرة آية على المشهور ، وفي التيسير ست عشرة ولما ذكر سبحانه فيما قبلها تكذيب الكفار للقرآن نبه تعالى شأنه هنا على حقارة الإنسان ، ثم استطرد جل وعلا منه إلى وصف القرآن ثم أمر سبحانه نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بإمهال أولئك المكذبين) .

كلمة في سورة الطارق ومحورها :

تتألف سورة الطارق من فقرتين واضحتي المعالم كل منهما مبدوءة بقسم . الأولى مبدوءة بقوله تعالى: ﴿ **والسماء والطارق** ﴾ والثانية مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات الرجع ..** ﴾ في الأولى يأتي جواب القسم مقرراً لوجود الملائكة مكلفين بحفظ الإنسان ، وبحفظ عمله ، ثم يأتي لفت نظر للإنسان إلى نشأته ليتذكر رجعته ، وفي الثانية يأتي جواب القسم مقرراً لجديّة هذا القرآن ، وكونه فاصلاً بين الحق والباطل ، ثم يأتي تبيان لموقف الكافرين في الكيد لهذا الدين ، وإنذارهم ، وكل ذلك تفصيل لمقدمة سورة البقرة ، فالسورة تفصّل إما في الآيات الواردة في المتقين ، أو في الآيات الواردة في الكافرين .

لقد ختمت سورة البروج بقوله تعالى : ﴿ **بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ** ﴾ ويأتي في مقدمة سورة الطارق قوله تعالى: ﴿ **والسماء والطارق * وماأدراك ما الطارق * النجم الثاقب * إن كل نفس لما عليها حافظ** ﴾ وبين النهاية والبداية نوع صلة ، فحفظ اللوح مرتبط بحفظ السماء ، وحفظ اللوح من مظاهر قدرة الله التي من مظاهرها حفظ كل نفس ، أو حفظ عملها بالمكلفين من ذلك من الملائكة . وصلة قوله تعالى : ﴿ **بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ** ﴾ بقوله تعالى عن القرآن في سورة الطارق : ﴿ **إنه لقول فصل * وماهو بالهزل** ﴾ كذلك واضحة . ولفت نظر الإنسان إلى نشأته في سورة الطارق: ﴿ **فلينظر الإنسان مِمَّ خلق** ﴾ له صلة بقوله تعالى في سورة البروج : ﴿ **بل الذين كفروا في تكذيب ..** ﴾ . وهكذا نجد أن الصلات كثيرة بين سورة البروج وسورة الطارق ، والملاحظ أن سورة الطارق تنتهي بالخطاب لرسول الله ﷺ ﴿ **فمهّل الكافرين ..** ﴾ وتبدأ سورة الأعلى بعدها بخطابه ﷺ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فالصلة بين نهاية سورة الطارق وبداية سورة الأعلى كذلك واضحة .

تمتدّ الفقرة الأولى في السورة حتى نهاية الآية (١٠) .

وتمتدّ الفقرة الثانية حتى نهاية الآية (١٧) أي : إلى نهاية السورة فلنبدأ عرض السورة .

الفقرة الأولى

وتمتدّ من الآية (١) حتى نهاية الآية (١٠) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)

التفسير :

﴿ **والسماء والطارق** ﴾ ثم عظم أمر الطارق بقوله : ﴿ **وما أدراك ما الطارق** ﴾ ثم فسّر الطارق بقوله ﴿ **النجم الثاقب** ﴾ قال النسفي : (أي : المضيء ، كأنه يثقب الظلام فينفذ فيه ، ووصف بالطارق لأنه يبدو بالليل كما يقال للآتي ليلاً طارق ، أو لأنه يطرق الجنّي أي: يصكّه) أقول : على هذا المعنى الأخير يكون المراد بالنجم الثاقب النيازك أو الشهب ، وثقوبه يحتمل أن يكون المراد به ثقبه لجو الأرض ، أما إذا أريد به مجرد النجم الذي يثقب بضوئه ، فيحتمل أن يكون المراد بطروقه طروقه جو الأرض ، لأنه من المعلوم أنّ بين وجود النجم ووصول نوره إلى جو الأرض أو إلى الجانب الآخر من الكون زمناً طويلاً قد يصل إلى آلاف السنين الضوئية ، فإذا وصل إلى جو من الأجواء يكون قد طرقه ، وذلك بثقوب ضوئه ، وجواب القَسَمين هو قوله تعالى :

﴿ **إن كل نفس لمّا** ﴾ أي : إلا ﴿ **عليها حافظ** ﴾ قال النسفي : (أي : يحفظها من الآفات ، أو يحفظ عملها ورزقها وأجلها . فإذا استوفى ذلك مات ، وقيل : هو كاتب الأعمال) . أقول : لم يذكر ابن كثير إلا المعنى الأول فقال : أي : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات .. ﴿ **فلينظر الإنسان ممّ خلق** ﴾ أي : من أيّ شيء خلق ؟ والجواب : ﴿ **خلق من ماء دافق** ﴾ يعني : المنيّ يخرج دفعاً من الرجل . قال النسفي : والدفق صبّ فيه دفع ﴿ **يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ قال صاحب القاموس : (الصُّلب : عظم من لدن الكاهل إلى العجب) . أقول : العجب يكون في منتهى العصعص ، والترائب جمع تريبة قال صاحب القاموس : (والترائب عظام الصدر أو ماولي الترقوتين منه ، أو ما بين الثديين والترقوتين ، أو أربع أضلاع من يمنة الصدر ، وأربع من يسرته ، أو اليدان والرجلان والعينان ، أو موضع القلادة) ولنا عودة على الآية في الفوائد ﴿ **إنه** ﴾ أي : إن الخالق ﴿ **على رجعه** ﴾ أي : على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق . أي : إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة ﴿ **لقادر** ﴾ لأنه من قدر على البداءة قدر على الإعادة ، قال النسفي : أي : لبيّن القدرة لا يعجز عنه ، ثم بيّن متى تكون هذه الإعادة فقال : ﴿ **يوم تُبلى السرائر** ﴾ قال النسفي : أي : ماأسر في القلوب من العقائد والنيّات ، وماأخفي من الأعمال . وقال ابن كثير : أي : يوم القيامة تبلى فيه السرائر ، أي : تظهر وتبدو ، ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً ﴿ **فماله** ﴾ أي : الإنسان يوم القيامة ﴿ **من قوة** ﴾ أي : في نفسه على دفع ماحلّ به . ﴿ **ولا ناصر** ﴾ أي : يعينه ويدفع عنه ، قال ابن كثير : أي : لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ولا يستطيع له أحد ذلك .

كلمة في السياق :

١ - أقسم الله عز وجل بما أقسم به على أنه جعل على كل نفس حافظاً ، ثم قال ﴿ **فلينظر الإنسان ممّ خلق** ﴾ ومجيء هذا الأمر في هذا السياق فيه دليل على أن الله عز وجل جعل على كل نفس حافظاً ، كما أنّه دليل على اليوم الآخر الذي من خصائصه أن السرائر تكتشف به ، وأن الإنسان لا قوة له من نفسه ، ولا ناصر له من غيره ، وما المراد بالإنسان هنا ؟ الظاهر أن المراد بالإنسان هنا الكافر ؛ لأن المؤمن ينصره الله في الدنيا والآخرة .

٢ - إن مجيء قوله تعالى عن الكافر يوم القيامة : ﴿ **فماله من قوة ولا ناصر** ﴾ في

سياق قوله تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مِمّ خلق** ﴾ تذكير للإنسان : بحالته الأولى إذ لاقوة له ولاناصر ، فالصلات بين الفقرة على أشدّها .

٣ - في هذه الفقرة كلام عن حفظ الإنسان بالملائكة ، أو حفظ أعماله بالملائكة ، وفي ذلك نوع تفصيل للإيمان بالغيب ، وفي الفقرة كلام عن إعادة الإنسان يوم القيامة ، وبعض مايكون في هذا اليوم ، وفي ذلك نوع تفصيل لموضوع اليوم الآخر ، ولذلك كله صلة بالآيات الأولى من سورة البقرة ﴿ **يؤمنون بالغيب .. وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ ثمّ تأتي الفقرة الثانية ، وهي مبنية على ماورد في الأولى فلنرها .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (١١) حتى نهاية الآية (١٧) وهذه هي :

الجزء الأول

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾

الجزء الثاني

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

تفسير الجزء الأول :

﴿ **والسماء ذات الرجع** ﴾ أي : ذات الإرجاع لأنها ترجع المطر إلى الأرض ، وترجع الصوت إلى الأرض ، كما هو معلوم في عصرنا ﴿ **والأرض ذات الصدع** ﴾

أي : ذات الانشقاق فتشقق بالنبات وتتشقق بالبراكين ﴿ **إنه** ﴾ قال النسفي : أي : إن القرآن ﴿ **لقول فصل** ﴾ أي : فاصل بين الحق والباطل ﴿ **وماهو بالهزل** ﴾ أي : باللعب والباطل . قال النسفي : يعني : إنه جد كله ، ومن حقه - وقد وصفه الله بذلك - أن يكون مهيباً في الصدور ، معظماً في القلوب ، يرتفع به قارئه وسامعه أن يُلِمَّ بهزل أو يتفكه بمزاح .

كلمة في السياق :

١ - وجه النسفي الآيات بأن المراد بالضمير : القرآن - كما رأينا - وعلى هذا الأساس فصلة الآيات بما قبلها من حيث إن ماقبلها ذِكْر مضامين قرآنية ، فجاءت هذه الآيات لتبين أن القرآن كله جد ، وقول فصل ، ومن ذلك ماذكر في الفقرة الأولى فعلى الإنسان أن يؤمن باليوم الآخر ، وأن يعمل لذلك اليوم ، وأن يشكر الله على وجود الحفظ ، ويتصرف بأدب مع هؤلاء الحفظة ، هذا ماله علاقة بصلة الآيات بما قبلها ، وأما ماله علاقة بصلة الآيات بمحور السورة فمن حيث إن محور السورة ورد فيه قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ وهذه الآيات وصفت القرآن : ﴿ **إنه لقول فصل * وماهو بالهزل** ﴾ فالصلة واضحة بين الآيات ومقدمة سورة البقرة .

٢ - يمكن أن توجّه الآيات التي مرّت معنا بما يلي :

﴿ **والسماء ذات الرجع * والأرض ذات الصدع * إنه** ﴾ أي : إنه ماذكر في الفقرة الأولى من معان ﴿ **لقول فصل * وماهو بالهزل** ﴾ وبناء عليه فإن عليك أيها الإنسان أن تعمل للآخرة بجد ، فالأمر ليس هزلاً .

٣ - وبعد تقرير كل ماتقدم يأتي الجزء الثاني في الفقرة وهو يتحدث عن الكافرين ، فنفسره ثم نر محله في السياق .

تفسير الجزء الثاني :

﴿ **إنهم** ﴾ أي : إن الكافرين ﴿ **يكيدون كيداً** ﴾ أي : يعملون المكايد في إبطال أمر الله ، وإطفاء نور الحق ، أي : يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن ، والصدّ عن سبيل الله عز وجل ﴿ **وأكيد كيداً** ﴾ قال النسفي : (وأجازيهم جزاء كيدهم

باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون فسمّي جزاء الكيد كيداً كما سمي جزاء الاعتداء والسيئة اعتداء وسيئة ، وإن لم يكن اعتداء وسيئة ، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى إلا على وجه الجزاء كقوله : ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ ﴿ **يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾) . ﴿ **فمهّل الكافرين** ﴾ قال النسفي : أي : لا تدعُ بهلاكهم ، ولا تستعجل به ، وقال ابن كثير : أي أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿ **أمهلهم** ﴾ قال النسفي : (أي : أنظرهم فكرر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير ﴿ **رويداً** ﴾ أي : مهلاً يسيراً . قال ابن كثير : (أي : قليلاً أي : وسترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك) .

كلمة في السياق :

تأتي الآيات الأخيرة عارضة حال الكافرين الذين بدلاً من أن يؤمنوا ويعملوا يكيدون ، وبالتأمل في هذا المعنى تدرك صلة الآيات الأخيرة بما قبلها . إذا علمت هذا تدرك أنّ السورة سيقت لتصب في المعنى الأخير الذي له صلة بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ . إن صلة الآيات الأخيرة بهاتين الآيتين واضحة ، فالكافرون بدلاً من أن يتعظوا بالإنذار يكيدون ، والموقف المقابل لذلك هو إمهالهم لينتقم الله منهم . وهكذا نجد أن السورة فصّلت في مقدمة سورة البقرة نوع تفصيل ، مع احتفاظها بسياقها الخاص ، وصلاتها بما قبلها وما بعدها ، وذكرها جديداً من مثل قوله تعالى : ﴿ **والسماء والطارق** ﴾ ومن مثل قوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات الرجع ..** ﴾ وقد رأينا أن للطارق وللرجع معاني معاصرة تدخل فيها دون تكلّف ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن الذي لا تنتهي عجائبه .

الفـوائد :

١ - قدم ابن كثير للكلام عن سورة الطارق بقوله : (روى عبد الله بن الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصى حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول : ﴿ **والسماء والطارق** ﴾ حتى ختمها ، قال : فوعيتها في الجاهلية ، وأنا مشرك ، ثم قرأتها في الإسلام ، قال : فدعتني ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا

الرجل ؟ فقرأتها عليهم فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم مايقول حقاً لاتبعناه . وروى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء فقال النبي ﷺ : «أفتّان أنت يا معاذ ! ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق والشمس وضحاها ونحوها ؟») .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والسماء والطارق** ﴾ قال صاحب الظلال : (هذا القَسَم يتضمن مشهداً كونياً وحقيقة إيمانية . وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثني بالاستفهام المعهود في التعبير القرآني : ﴿ **وما أدراك ما الطارق** ﴾ .. وكأنه أمر وراء الإدراك والعلم . ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته : ﴿ **النجم الثاقب** ﴾ الذي يثقب الظلام بشعاعه النافذ . وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم . ولا سبيل إلى تحديد نجم بذاته من هذا النص ، ولا ضرورة لهذا التحديد . بل إن الإطلاق أولى ؛ ليكون المعنى : والسماء ونجومها الثاقبة للظلام ، النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء . ويكون هذه الإشارة إيحاؤها حول حقائق السورة وحول مشاهدها الأخرى ..) .

٣ - هناك معارك علمية قديماً وحديثاً تدور حول قوله تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان ممّ خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ والأمر لا يحتاج إلى كل هذا ؛ فالصّلب في القاموس ينتهي بنهاية العصعص ، والترائب تطلق على أشياء كثيرة منها عظام الرجلين . قال ابن كثير : وعن الضحاك : (الترائب بين الثديين والرجلين والعينين) ولا أستبعد أن يكون المراد بالترائب في الآية عظام الحوض والفخذين ، فمزج المني معروف ، ومركز تجمع المني بعد خروجه من الخصيتين في هذه المنطقة ، وقد ذكر الله عز وجل مركز تجمع المني بأنه بين الصلب والترائب ، فهو في المنطقة بين العصعص وعظام المنطقة السفلى من الوسط ، بين العصعص وعظم العانة ، والذي دعا إلى الغلط في هذا الموضوع تصورات خاطئة منها أن الصلب يطلق على منطقة الظهر ، وأن كلمة الترائب خاصة بالمرأة ، وكل ذلك ليس صحيحاً ، وبناءً على هذه التصورات الخاطئة حاول بعضهم أن يرجع بالإنسان إلى مرحلة ما ، عندما كان جنيناً ، فكانت خصيتاه - في مرحلة ما - في ظهره ، وهذا كما قلنا سببه التصور الخاطئ عن الصّلب . إذ خصية الرجل بين الصلب والترائب ، ومبيض المرأة بين الصلب والترائب والمني يخرج متدفقاً ، وبويضة المرأة تخرج مع ماء يتدفق يقول الدكتور محمد علي البار في مقال نشره في العدد (٥٤) من مجلة الأمان : (تقترب هذه الحويصلة المليئة بالماء الأصفر من حافة المبيض ،

فتنفجّر عند تمام نموّها وكمالِه ، فتندلق المياه على أقتاب البطن ، ويتلقف البوق ، وهو نهاية قناة الرحم (وتدعى أيضاً قناة فالوب) البويضة فيدفعها دفعاً دقيقاً حتى تلتقي بالحيوان المنوي ... هذا الماء يحمل البويضة كما يحمل ماء الرجل الحيوانات المنوية) فلا إشكال في كل الأحوال والله أعلم . وننتقل إلى تفسير سورة الأعلى .

☆ ☆ ☆

سورة الأعلى

وهي السورة السابعة والثمانون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الحادية عشرة من
قسم المفصل ، وهي تسع عشرة آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة الأعلى ومحورها :

بعد مقدمة سورة البقرة يأتي قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ . وتبدأ سورة الأعلى بقوله تعالى : ﴿ **سبّح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوّى ..** ﴾ والصلة واضحة بين بداية السورة ومحورها ، فالسورة تبدأ بالأمر بعمل من أعلى أنواع العبادة ، ثم تسير في طريقها الخاص وسياقها الخاص فيما يخدم هذا الأمر في الدرجة الأولى ، وسنرى بالتفصيل صلة السورة كلها بمحورها .

....

تتألف السورة من ثلاث فقرات :

الفقرة الأولى : وتستمر حتى نهاية الآية (٥) .
الفقرة الثانية : وتستمر حتى نهاية الآية (١٣) .
الفرة الثالثة : وتستمر حتى نهاية الآية (١٩) .

....

بعد أن أكد الألوسي مكيّة سورة الأعلى قال : (وهي تسع عشرة آية بلا خلاف . ووجه مناسبتها لما قبلها أنه ذكر في سورة الطارق خلق الإنسان ، وأشير إلى خلق النبات بقوله تعالى : ﴿ **والأرض ذات الصدع** ﴾ وذكر ههنا في قوله تعالى: ﴿ **خلق فسوى** ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ **أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى** ﴾ وقصة النبات هنا أوضح وأبسط ، كما أن قصة خلق الإنسان هناك كذلك ، نعم إن مافي السورة أعم من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات) .

أقول : سنرى في الفوائد النصوص الواردة في سورة الأعلى وهي كثيرة فنر السورة .

الفقرة الأولى

وتمتد من الآية (١) حتى نهاية الآية (٥) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

التفسير :

﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ أي : قل سبحان ربي الأعلى ، ومن ثم قال رسول الله ﷺ لما نزلت : اجعلوها في سجودكم . والمعنى : نزه ربك الأعلى عما لا يليق به ، والاسم في هذه الحالة صلة ﴿ **الذي خلق** ﴾ كل شيء ﴿ **فسوّى** ﴾ قال ابن كثير : أي : خلق الخليقة وسوّى كل مخلوق في أحسن الهيئات . وقال النسفي : (أي : خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ، ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم حكيم أو سوّاه على ما فيه منفعة ومصلحة) . ﴿ **والذي قدّر فهدى** ﴾ قال النسفي : أي : قدر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه ، وعرفه وجه الانتفاع به ، وقال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها ﴿ **والذي أخرج المرعى** ﴾ أي : أنبت ما ترعاه الدواب ، قال ابن كثير : أي : من جميع صنوف النباتات والزروع ﴿ **فجعله غثاءً** ﴾ أي : يابساً هشيماً . ﴿ **أحوى** ﴾ أي : أخضر إلى السواد .

كلمة في السياق :

١ - أمرت الفقرة بتسبيح اسم الله الأعلى ، وعرّفت على الله عز وجل بمظاهر من خلقه ، من خلق وتسوية وتقدير وهداية وإخراج للمرعى وتصييره إلى ما يؤول إليه ، وفي ذلك تعليل لاستحقاق التسبيح ، وتدليل على أنه الأعلى .

٢ - رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ . وقد رأينا أن الفقرة أمرت بنوع من العبادة هو التسبيح ، وعللت لهذا الأمر ، وذكرت الخلق والتسوية والتقدير ، وإخراج المرعى ، وكل ذلك معانٍ لها صلة بمحور السورة . ثمّ تأتي الفقرة الثانية .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (٦) إلى نهاية الآية (١٣) وهذه هي :

الجزء الأول

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾

الجزء الثاني

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾

تفسير الجزء الأول :

﴿ **سنقرئك فلا تنسى** ﴾ قال ابن كثير : وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ، وقال النسفي : أي : سنعلمك القرآن حتى لا تنساه . ﴿ **إلا ما شاء الله** ﴾ أن ينسخه . وقال النسفي : وهذا بشارة من الله لنبيه أن يحفظ عليه الوحي حتى لا ينفلت منه شيء إلا ماشاء الله أن ينسخه فيذهب به عن حفظه برفع

حكمه وتلاوته ﴿ **إنه يعلم الجهر وما يخفى** ﴾ قال ابن كثير : أي : يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء . وقال النسفي : (أي : إنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل مخافة التفلت ، والله يعلم جهرك معه ، وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر ، أو ما تقرأ في نفسك مخافة النسيان ، أو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم ، وما ظهر وما بطن من أحوالكم) .

أقول : أي : ومن كان يعلم الجهر وما يخفى قادر على الإقراء وعدم الإنساء ﴿ **ونيسّرك لليسرى** ﴾ أي : ونوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل ، أي : للشريعة السمحة التي هي أيسر الشرائع ، بأن نوفقك لعمل الجنة ، وقال ابن كثير : أي : نسهّل عليك أفعال الخير وأقواله ، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر .

كلمة في السياق :

١ – في هذا الجزء من الفقرة وعدان من الله لرسوله ﷺ : عدم الإنساء ، والتيسير ، وقد جاء هذان الوعدان بعد الفقرة الآمرة بالتسبيح . ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن بين التسبيح وبين عدم الإنساء والتيسير صلة ، وفي ذلك درس لأفراد هذه الأمة ، وخاصة لطلبة العلم أن يكثروا من التسبيح لينالوا حظهم من تثبيت العلم والتيسير .

٢ – وإذا عرفنا الصلة بين التسبيح ، والإقراء بلا نسيان ، والتيسير ، يأتي الجزء الثاني من الفقرة الثانية وهي تأمر رسول الله ﷺ بالتذكير حيث تنفع الذكرى . فلنر الجزء الثاني من الفقرة الثانية .

تفسير الجزء الثاني :

﴿ **فذكر** ﴾ قال النسفي : أي : عظ بالقرآن ﴿ **إن نفعت الذكرى** ﴾ أي : ذكّر حيث تنفع التذكرة ، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم ، فلا يضعه صاحبه عند غير أهله . ﴿ **سيذكّر** ﴾ أي : سيتعظ ويقبل التذكرة ﴿ **من يخشى** ﴾ الله سوء العاقبة ، قال ابن كثير : أي : سيتعظ بما تبلغه يا محمد مَنْ قلبه يخشى الله ، ويعلم أنه ملاقيه ﴿ **ويتجنبها** ﴾ أي : ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿ **الأشقى** ﴾ الكافر أو الذي هو

أشقى الكفرة لتوغله في العداوة ﴿ **الذي يصلى النار الكبرى** ﴾ أي: يدخل نار جهنم ، والصغرى هي نار الدنيا ﴿ **ثم لايموت فيها** ﴾ فيستريح من العذاب ﴿ **ولايحيا** ﴾ أي: حياة يتلذذ بها . قال ابن كثير : أي : لايموت فيستريح ، ولايحيا حياة تنفعه ، بل هي مضرة عليه ، لأن بسببها يشعر بما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال .

كلمة في السياق :

١ - أمرت الفقرة الأولى بالتسبيح ، وجاء الجزء الأول من الفقرة الثانية واعداً رسول الله ﷺ بالإقراء بلا نسيان ، وبالتيسير ، وبعد ذلك جاء الأمر بالتذكير حيث يتوقع نفع التذكير ، وقد بين هذا الجزء من الفقرة أن الذي ينتفع بالذكرى هو من يخشى الله وعذابه ، وأن الأشقى هو وحده الذي لا يتذكر ، ولا يضر إلا نفسه ، فالجزء الأخير أمر بالتذكر ودلّ على محله المناسب له وهناك صلة بين التسبيح باسم الله الأعلى ، وبين الإقراء بلا نسيان والتيسير ، وبين ذلك كله والتذكير ، فالتسبيح أساس ، وثبات العلم والتيسير أثر . ويأتي بعد ذلك التذكير الناجح .

٢ - رأينا أن الجزء الأخير من الفقرة الثانية حدّد من يقبل التذكرة ، ومن لا يقبلها ، وعاقبة من لم يقبلها ثمّ تأتي الفقرة الثالثة والأخيرة لتبين عاقبة من قبل الذكرى وعمل بمقتضاها ، والسبب الحقيقي لرفض الذكرى . فلنر الفقرة الثالثة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة

وتمتدّ من الآية (١٤) إلى نهاية الآية (١٩) وهذه هي :

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

التفسير :

﴿ **قد أفلح** ﴾ أي : نال الفوز ﴿ **من تزكى** ﴾ قال النسفي : أي : تطهر من الشرك أو تطهر للصلاة ، أو أدى الزكاة . قال ابن كثير : أي : طهّر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وتابع ما أنزل الله على الرسول ﷺ ﴿ **وذكر اسم ربه** ﴾ قال النسفي : وكبّر للافتتاح ﴿ **فصلى** ﴾ الصلوات الخمس ، وقال ابن كثير : أي : أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله ، وامتثالاً لشرع الله ، وهناك اتجاهات أخرى في النص فيها أن التزكي محدد بالشهادتين ، والمراد بذكر الله والصلاة ، الصلوات الخمس ، ومنها أن المراد بذكر الله عز وجل ذكر الله في الطريق إلى المصلى يوم العيد ، والمراد بالصلاة صلاة يوم العيد خاصة ، وكلها معانٍ يكمّل بعضها بعضاً ، والآيتان تحتملها كلها ، ومن مجيئها بعد الجزء الثاني من الفقرة الثانية ندرك أن المظهر الأول للانتفاع بالتذكير هو التزكي وإقامة الصلاة ، وبعد هذا كله يذكر الله عز وجل العلة الرئيسية لرفض التذكير والتزكية والصلاة ، وهي إيثار الحياة الدنيا ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا** ﴾ قال النسفي : (أي : على الآخرة فلا تفعلون ما به تفلحون . والمخاطب به الكافرون ، دليله قراءة أبي عمرو ﴿ **يؤثرون** ﴾ بالياء) وقال ابن كثير : أي : تقدمونها على أمر الآخرة وتبدونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم ﴿ **والآخرة خير وأبقى** ﴾ قال النسفي : (أي : أفضل في نفسها وأدوم) قال ابن كثير : أي : ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى فإن الدنيا دانية فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريباً ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد ﴿ **إن هذا** ﴾ أي : هذا المعنى الوارد في الفقرة الأخيرة من قوله تعالى ﴿ **قد أفلح** .. ﴾ قال ابن كثير : أي : مضمون هذا الكلام ﴿ **لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى** ﴾ فهو معنى سجّله الله عز وجل فيما أوحاه إلى رسله عليهم الصلاة والسلام ، فالنفس البشرية هي النفس البشرية في كل العصور .

كلمة في السياق :

١ - رأينا من خلال عرض السورة صلة فقراتها ببعضها ، وصلة معانيها ببعضها بعضاً ، ورأينا من خلال عرض السورة أنها أمرت بالتسبيح ، وبيّنت أن الفلاح في تزكية النفس والصلاة وارتباط هذا كله بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ واضح المعالم؛ فالتزكية والصلاة مرتبطتان بالتقوى والعبادة .

٢ - بدأت السورة بالأمر بالتسبيح باسم الله الأعلى ، وقد رأينا أثر هذا الأمر وما يترتب عليه في موضوع الإقراء والتيسير ، وانبثاق التذكير كأثر عن ذلك ، والفلاح المتمثل بالتزكية والصلاة ، إنما هو أثر التذكير ، ومجيء ذكر الفلاح وربطه بالتزكية والصلاة ، إنّما هو أثر التذكير ، ومجيء ذكر الفلاح وربطه بالتزكية والصلاة في سياق الأمر بالتسبيح لا يخفى ، فالتسبيح جزء من الصلاة ، وهو طريق إلى تزكية النفس ، فبقدر استقرار التنزيه في النفس البشرية تكون تزكيتها ، وبقدر ما تسبّح النفس يكون استقرار التنزيه ، وصلة ذلك كله بمحور السورة واضحة .

٣ - وههنا نحب أن نسجل ملاحظة مستمدة من السياق ، فلقد رأينا كيف أن الأمر بالعبادة الذي جاء بعد مقدّمة سورة البقرة لتفصّل فيه ، ونلاحظ أن سوراً كاملة تفصّل في جانب من جوانب العبادة هو الصلاة ، أو تفصّل في جزء منها ، فسورة الواقعة كانت حصيلتها الدعوة إلى قول (سبحان الله العظيم) الذي أمر رسول الله ﷺ أن نجعله في ركوعنا ، وسورة الأعلى كانت حصيلتها الدعوة إلى قول : (سبحان ربي الأعلى) الذي أمر رسول الله ﷺ أن نجعلها في سجودنا . ورأينا سوراً فصّلت في المقدمة ، ركّزت في قضايا مرتبطة بالصلاة ، ومن ثمّ ندرك كيف أن الصلاة هي المظهر الأعلى للعبادة .

الفـوائد :

١ - قدم ابن كثير لسورة الأعلى بالتدليل على أنها مكية ، ثم نقل الأحاديث الواردة فيها قال : (والدليل على ذلك أي : على أنها مكية ما رواه البخاري عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئاننا القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في

عشرين ، ثم جاء النبي ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء فما جاء حتى قرأت ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ في سورة مثلها . وروى الإمام أحمد ... عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ تفرد به أحمد . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً ـــ هكذا وقع في مسند الإمام أحمد إسناد هذا الحديث ، وقد رواه مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي والنسائي عن النعمان بن بشير به ، قال الترمذي : وكذا رواه الثوري ومسعر عن حبيب بن سالم عن أبيه النعمان ولا يعرف لحبيب رواية عن أبيه ، وقد رواه ابن ماجه بإسناده عن حبيب بن سالم عن أبيه عن النعمان به كما رواه الجماعة فالله أعلم ، ولفظ مسلم وأهل السنن : كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية ، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما ، وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن أبزى ، وعائشة - أم المؤمنين - أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى ، وقل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، زادت عائشة : والمعوذتين . وهكذا روي هذا الحديث من طريق جابر وأبي أمامة صدى بن عجلان وعبد الله بن مسعود ، وعمران بن حصين ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن إياس بن عامر قال : سمعت عقبة بن عامر الجهني لما نزلت ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ : « اجعلوها في ركوعكم » فلما نزلت ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ قال : « اجعلوها في سجودكم » ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث ابن المبارك عن موسى بن أيوب به . وروى الإمام أحمد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ قال : « سبحان ربي الأعلى » وهكذا رواه أبو داود بسنده عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً . وقال الثوري عن السدي عن عبد خير قال : سمعت علياً قرأ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فقال : « سبحان ربي الأعلى » . وقال ابن جرير عن أبي إسحق الهمداني أن ابن عباس كان

إذا قرأ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ يقول : سبحان ربي الأعلى ، وإذا قرأ ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ فأتى على آخرها ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾ يقول : سبحانك وبلى ، وقال قتادة : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأها قال : « سبحان ربي الأعلى ») .

٣ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذي قدّر فهدى** ﴾ نقل صاحب الظلال الصفحات الطوال من كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) . عن هداية المخلوقات ثمّ ختم الكلام بقوله : (وهذه النماذج التي اقتطفناها من كلام ذلك العالم ليست سوى طرف صغير من الملاحظات التي سجلها البشر في عوالم النبات والحشرات والطيور والحيوان . ووراءه حشود من مثلها كثيرة .. وهذه الحشود لا تزيد على أن تشير إلى جانب صغير من مدلول قوله تعالى : ﴿ **الذي خلق فسوى * والذي قدّر فهدى** ﴾ .. في هذا الوجود المشهود الذي لا نعرف عنه إلا أقل من القليل . ووراء عالم الغيب الذي ترد لنا عنه لمحات فيما يحدثنا الله عنه ، بالقدر الذي يطيقه تكويننا البشري الضعيف) .

٤ – وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ونيسّرك لليسرى** ﴾ كتب صاحب الظلال الصفحات الطوال عن اليسرى التي يُسّر لها رسول الله ﷺ في سلوكه ، وطبيعته ، وشريعته (اليسر في يده ، واليسر في لسانه ، واليسر في خطوه، واليسر في عمله ، واليسر في تصوّره ، واليسر في تفكيره ، واليسر في أخذه للأمور ، واليسر في علاجه للأمور ، اليسر مع نفسه، واليسر مع غيره) .

٥ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فذكّر إن نفعت الذكرى** ﴾ قال ابن كثير : (أي : ذكّر حيث تنفع التذكرة ، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم ، وقال : حدّث الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله) .

٦ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون ولا يحيون ، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم في النار فيدخل عليهم الشفعاء فيأخذ الرجل الضبارة فينبتهم – أو قال – ينبتون – في نهر الحيا – أو قال الحياة – أو قال الحيوان – أو قال نهر الجنة فينبتون – نبات الحبة في حميل السيل » قال : وقال النبي ﷺ : « أما ترون الشجرة تكون خضراء ،

ثم تكون صفراء ثم تكون خضراء ؟» قال : فقال بعضهم : كأن النبي ﷺ كان بالبادية . وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار - الذين هم أهلها - فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس - أو كما قال - تصيبهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فيميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً ، أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة فيقال : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» قال : فقال رجل من القوم حينئذ : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية ، وروى مسلم مثله ورواه أحمد أيضاً عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : «إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة حتى يصيروا فحماً ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة فيرش عليهم من أنهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل» . وقد قال الله تعالى إخباراً عن أهل النار ﴿ **ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ (الزخرف: ٧٧) وقال تعالى ﴿ **لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ (فاطر: ٣٦) إلى غير ذلك . من الآيات في هذا المعنى) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلّى** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى الحافظ أبو بكر البزار عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ : ﴿ **قد أفلح من تزكى** ﴾ قال : «من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله»﴿ **وذكر اسم ربه فصلّى** ﴾ قال : «هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها» ثم قال : لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه ، وكذا قال ابن عباس : إن المراد بذلك الصلوات الخمس ، واختاره ابن جرير . وروى ابن جرير عن أبي خلدة قال : دخلت على أبي العالية فقال لي : إذا غدوت غداً إلى العيد فمر بي ، قال : فمررت به فقال : طعمت شيئاً ؟ قلت : نعم قال : أفضت على نفسك من الماء ؟ قلت نعم قال فأخبرني ما فعلت بزكاتك ! قلت قد وجهتها قال : إنما أردتك لهذا ثم قرأ ﴿ **قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء (قلت) وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ، ويتلو هذه الآية ﴿ **قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل ، وهو يريد الصلاة ، فليقدم بين يدي صلاته زكاة فإن الله تعالى يقول : ﴿ **قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى** ﴾

وقال قتادة في هذه الآية : ﴿ **قد أفلح من تزكى ۞ وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ : زكى ماله وأرضى خالقه) .

وقال النسفي : (أي : تطهّر من الشرك ، أو تطهّر للصلاة ، أو أدّى الزكاة . تفعّل من الزكاة كتصدّق من الصدقة ﴿ **وذكر اسم ربه** ﴾ وكبّر للافتتاح فصلّى الخمس وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ، وعلى أنها ليست من الصلاة ، لأن الصلاة عطفت عليها وهو يقتضي المغايرة ، وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلى له ، وعن الضحاك : وذكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى صلاة العيد) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا ۞ والآخرة خير وأبقى** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له» وروى ابن جرير عن عرفجة الثقفي قال : استقرأت ابن مسعود ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ فلما بلغ ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا** ﴾ ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة ، فسكت القوم فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وهذا منه على وجه التواضع والهضم ، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو والله أعلم . وقد روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : «من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا مايبقى على مايفنى» تفرد به أحمد) .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن هذا لفي الصحف الأولى ۞ صحف إبراهيم وموسى** ﴾ قال ابن كثير : (روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال لما نزلت ﴿ **إن هذا لفي الصحف الأولى ۞ صحف إبراهيم وموسى** ﴾ قال النبي ﷺ : «كان كل هذا - أو كان هذا - في صحف إبراهيم وموسى» ثم قال : لا نعلم أسند الثقات عن عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس غير هذا ، وحديثاً آخر رواه مثل هذا . وروى النسائي عن عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ قال : كلها في صحف إبراهيم وموسى ، ولما نزلت ﴿ **وإبراهيم الذي وفّى** ﴾ قال : وفي إبراهيم ﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ يعني : إن هذه الآية كقوله تعالى في سورة النجم : ﴿ **أم لم يُنبَّأ بما في صحف موسى ۞ وإبراهيم الذي وفّى** ۞

ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى ﴾ الآيات إلى آخرهن . وهكذا قال عكرمة فيما رواه ابن جرير عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ يقول : الآيات التي في سبح اسم ربك الأعلى . وقال أبو العالية : قصة هذه السورة في الصحف الأولى ، واختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ إن هذا ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ﴾ ثم قال تعالى ﴿ إن هذا ﴾ أي : مضمون هذا الكلام ﴿ لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ وهذا الذي اختاره حسن قوي وقد روي عن قتادة وابن زيد نحوه والله أعلم) .

وقال النسفي : (هذه إشارة إلى قوله : ﴿ قد أفلح ﴾ إلى ﴿ أبقى ﴾ أي : إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف ، أو إلى ما في السورة كلها ، وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة لأنه جعله مذكوراً في تلك مع أنّه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة) .

أقول : جواز قراءة القرآن في الصلاة بغير اللغة العربية وجه في حالة العجز عن حفظ شيء من القرآن لغير العربي ، ويقتصر فيه على الحدّ الأدنى الذي لابدّ منه .

١٠ – قال النسفي : (وفي الأثر في صحف إبراهيم : « ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه ») .

ولننتقل إلى سورة الغاشية .

☆ ☆ ☆

سورة الغاشية

وهي السورة الثامنة والثمانون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة والأخيرة من المجموعة الحادية عشرة
من قسم المفصل ، وهي ست وعشرون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الغاشية :

قدّم الألوسي لسورة الغاشية بقوله : (مكية بلا خلاف . وعدة آياتها ست وعشرون كذلك . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم كما أخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير يقرأها في الجمعة مع سورتها . ولما أشار سبحانه فيما قبل إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالاً بسط الكلام ههنا) .

وقدم صاحب الظلال لهذه السورة بقوله : (هذه السورة واحدة من الإيقاعات العميقة الهادئة . الباعثة إلى التأمل والتدبر ، وإلى الرجاء والتطلع ، وإلى المخافة والتوجس ، وإلى عمل الحساب ليوم الحساب !.

وهي تطوّف بالقلب البشري في مجالين هائلين : مجال الآخرة وعالمها الواسع ، ومشاهدها المؤثرة . ومجال الوجود العريض المكشوف للنظر ، وآيات الله المبثوثة في خلائقه المعروضة للجميع . ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين الهائلتين بحساب الآخرة ، وسيطرة الله ، وحتمية الرجوع إليه في نهاية المطاف .. كل ذلك في أسلوب عميق الإيقاع ، هادىء ، ولكنه نافذ . رصين ، ولكنه رهيب !) .

وقال ابن كثير بين يدي سورة الغاشية : (قد تقدم عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة . وروى الإمام مالك عن ضمرة بن سعيد عن عبيد الله بن عبد الله أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية ورواه أبو داود والنسائي كلاهما عن مالك به ، ورواه مسلم وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة) .

كلمة في سورة الغاشية ومحورها :

رأينا أن سورة الأعلى فصّلت في قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** .. ﴾ وسورة الغاشية الآتية بعدها تفصّل في نفس المحور ، ولكن بشكل جديد ، فالمحور يأمر بعبادة الله عز وجل خالق الإنسان والسماء والأرض ، مبيّناً أن عبادة الله وحده هي التي توصّل إلى الغاية . أما العبادة الخاطئة فإنها لاتوصل إلا إلى النار ، وسورة الغاشية تعرض علينا صورتين : صورة لعباد

عاملين ولكنهم يشركون في عبادتهم ، وصورة للعباد الموحدين ، تعرض علينا السورة هؤلاء وهؤلاء ، ثم تلفت النظر إلى توحيد الله عز وجل ، ثم تختم بالأمر لرسول الله ﷺ بالتذكير ، ومن ثم فهي تفصّل في المحور ، ولكن تفصيل - كالعادة - جديد .

رأينا أن سورة الأعلى ورد في أواخرها قوله تعالى : ﴿ **فذكّر إن نفعت الذكرى** **سيذكر من يخشى** **ويتجنبها الأشقى** **الذي يصلى النار الكبرى** **ثم لايموت فيها ولايحيى** **قد أفلح من تزكى** **وذكر اسم ربه فصلى** .. ﴾ والملاحظ أن سورة الغاشية تحدّثنا عن شقاء أهل النار ، وماهم فيه ، وعن فلاح أهل الجنة وماهم فيه ، فالسورة ترتبط بما قبلها برباط وثيق ، والأمر بالتذكير ورد في سورة الأعلى وسورة الغاشية ، ورد في سورة الأعلى في أواسط السورة ، وورد في سورة الغاشية في خاتمتها وهذا يوحي بأن السورتين لهما سياق عام واحد فمحور السورتين واحد .

تتألف السورة من فقرتين واضحتي المعالم والصلات . الأولى تنتهي بالآية (١٦) والثانية تنتهي بالآية (٢٦) أي : بنهاية السورة . الفقرة الأولى تتألف من مقدمة ومجموعتين ، والفقرة الثانية تتألف من مجموعتين فلنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتدّ من بداية السورة حتى نهاية الآية (١٦) وهذه هي :

مقدمة الفقرة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾

المجموعة الأولى

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ

ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

المجموعة الثانية

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

تفسير مقدمة الفقرة الأولى :

﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ أي : قد أتاك حديث الغاشية ، والغاشية هي الداهية التي تغشى الناس بشدائدها ، وتلبسهم أهوالها يعني القيامة ، قال ابن كثير : الغاشية من أسماء يوم القيامة .. لأنها تغشى الناس وتعمهم .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بهذا السؤال الذي جوابه نعم . كما ورد في الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم .. عن عمرو بن ميمون قال : مرّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ فقام يستمع ويقول : « نعم ، قد جاءني » . وإذ كان الجواب معلوماً فقد انتقلت الفقرة مباشرة لتعرض علينا حال الكافرين فيها ، وحال المؤمنين .

تفسير المجموعة الأولى :

﴿ **وجوه يومئذ** ﴾ أي : يوم إذ غشيت الغاشية ﴿ **خاشعة** ﴾ أي : ذليلة لما اعترى أصحابها من الخزي والهوان . قال النسفي : وإنّما خصّ الوجه لأنّ الحزن والسرور إذا استحكما في النسّ أثرا في الوجه ﴿ **عاملة ناصبة** ﴾ قال ابن كثير : (أي : قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه وصَلِيت يوم القيامة ناراً حامية .. وعن عكرمة والسدي : عاملة في الدنيا بالمعاصي ، ناصبة في النار بالعذاب والإهلاك ، والنّصب : التعب . روى الحافظ

أبو بكر البرقاني عن جعفر قال: سمعت أبا عمران الجوني يقول: مَرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدار راهب، قال: ناداه: يا راهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي فقيل له: ياأمير المؤمنين مايبكيك من هذا ؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه ﴿ **عاملة ناصبة** ، **تصلى ناراً حامية** ﴾ فذاك الذي أبكاني . وقال البخاري: قال ابن عباس ﴿ **عاملة ناصبة** ﴾: النّصارى) أقول: تخصيصها بالنصارى ذكر لبعض مايدخل فيها فكل عاملة ناصبة في زعمها بعبادتها لله دون أن تكون عبادتها صحيحة منبثقة عن عقيدة صحيحة فإنها تدخل في الآية. ﴿ **تصلى ناراً حامية** ﴾ أي: حارة شديدة الحر . قال النسفي : (أي: تدخل ناراً قد أحميت مدداً طويلة . فلا حرّ يعدل حرّها)، أقول : هذا جزاؤها مع ماعملت من الصوم الدائب والتهجّد الواصب، فليعرف من لم يعرف أنّه لابد من الاعتقاد الصحيح ﴿ **تُسقىٰ من عين آنية** ﴾ أي: من عين ماء قد انتهى حرّها وغليانها ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع** ﴾ قال سعيد بن جبير: هو الزقوم . أقول : وعلى هذا القول فمن خصائص الزقوم أنها تشبه الضريع، وهو نبت يقال له الشبرق فإذا يبس فهو ضريع وهو سمٌّ قاتل . قال عكرمة في وصف ضريع الدنيا : وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض، وعلى هذا الاتجاه يكون الزقوم والغسلين والضريع شيئاً واحداً، أما إذا كان المراد بالزقوم والغسلين والضريع أشياء مختلفة فإن المسألة كما قال النسفي : (والعذاب ألوان، والمعذبون طبقات فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع، فلا تناقض بين هذه الآية وبين قوله ولا طعام إلا من غسلين) وعلى هذا فضلّال العباد طعامهم الوحيد الضريع، والخاطئون طعامهم الوحيد الغسلين، والآثمون طعامهم الوحيد الزّقوم — والله أعلم . قال سعيد عن قتادة في الآية: أي: ليس لهم طعام إلا من شر الطعام وأبشعه وأخبثه ﴿ **لا يسمن ولا يغني من جوع** ﴾ قال النسفي : (أي: منفعتا الغذاء منتفيتان عنه، وهي إماطة الجوع، وإفادة السمن في البدن) وقال ابن كثير : يعني لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور .

كلمة في السياق :

وهكذا رأينا عذاب العابدين العاملين الكافرين : ذل ونار، وماء حارّ وضريع، فالله عز وجل إذ أمر بالعبادة والتقوى إنما أمر بعبادته وحده، وتقواه وحده على شريعته

ومنهجه ، فمن عبده مشركاً به غيره ، أو عبده على غير هذه الشريعة بعد نزولها فهو في النار .

بعد أن بيّن الله عز وجل في المجموعة الأولى جزاء العاملين الناصبين الكافرين تأتي الآن المجموعة الثانية وفيها ذكر جزاء العاملين العابدين المتقين المقبولين عند الله عز وجل .

تفسير المجموعة الثانية :

﴿ **وجوه يومئذ** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **ناعمة** ﴾ أي : متنعمة في لين العيش ، قال ابن كثير : أي : يعرف النعيم فيها ﴿ **لسعيها راضية** ﴾ أي : قد رضيت عملها ، قال ابن كثير : وإنما حصل لها ذلك بسعيها . وقال النسفي : أي : رضيت بعملها وطاعتها لمّا رأت ماأدّاهم إليه من الكرامة والثواب ﴿ **في جنة عالية** ﴾ عالية المقدار والبناء . قال ابن كثير : أي : رفيعة بهية في الغرفات آمنون ﴿ **لاتسمع فيها** ﴾ أي : لاتسمع فيها هذه الوجوه ، أو لاتسمع فيها أيها المخاطب ﴿ **لاغية** ﴾ قال ابن كثير : أي : لاتسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو . . وقال النسفي : ﴿ **لاتسمع فيها لاغية** ﴾ أي : لغواً ، أو كلمة ذات لغوة ، أو نفساً تلغو ولايتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة ، وحمد الله على مارزقهم من النعيم الدائم ﴿ **فيها عين جارية** ﴾ قال ابن كثير : أي : سارحة وهذه نكرة في سياق الإثبات ، وليس المراد بها عيناً واحدة ، وإنما هذا جنس ، يعني : فيها عيون جاريات . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال ــ أو من تحت جبال ــ المسك » . ﴿ **فيها سرر مرفوعة** ﴾ قال النسفي : من رفعة المقام والسّمك ليرى المؤمن بجلوسه عليه أي : على السرير ، جميع ماخوّله ربّه من الملك والنعيم ، وقال ابن كثير : أي : عالية ناعمة كثيرة الفرش ، مرتفعة السمك ، عليها الحور العين : قالوا : فإذا أراد وليّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ﴿ **وأكواب** ﴾ جمع كوب وهو القدح ، وقيل : آنية لاعروة لها ﴿ **موضوعة** ﴾ قال النسفي : أي : بين أيديهم ليتلذذوا بها بالنظر إليها ، أو موضوعة على حافّات العيون ، معدّة للشرب . وقال ابن كثير : يعني أواني الشرب معدّة مرصدة لمن أرادها ﴿ **ونمارق** ﴾ أي : وسائد ﴿ **مصفوفة** ﴾ . قال النسفي : أي : بعضها إلى جنب بعض مسانِد ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة ، واستند إلى الأخرى ﴿ **وزرابي** ﴾ جمع زَرْبيَّة وهي البساط ﴿ **مبثوثة** ﴾ قال ابن كثير : ومعنى مبثوثة :

أي: ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها . فصار معنى الآية : وبسط عراض فاخرة مبسوطة ، أو مفرّقة في المجالس .

كلمة في السياق :

١ - وهكذا بيّن الله عز وجل ، ما لعباده المتقين عنده يوم القيامة من نعمة ورضى وجنات ، وعيون وسرر وأكواب ووسائد وبسط في مقابل عملهم السليم الصحيح في الدنيا .

٢ - قلنا إن محور سورة الغاشية قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وقد رأينا في المجموعة الأولى جزاء العباد المنحرفين ، ورأينا في المجموعة الثانية جزاء العباد المتقين ، لاحظ صلة ذلك بارتباطات المحور : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** .. ﴾ .

٣ - بعد الفقرة السابقة تأتي المجموعة الأولى من الفقرة الثانية ، وفيها لفت نظر للإنسان إلى بعض مخلوقات الله عز وجل التي تستلزم المعرفة لله عز وجل ، وتستوجب العمل الصالح شكراً . فلنر الفقرة الثانية بمجموعتيها .

☆ ☆ ☆
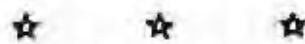
الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (١٧) إلى نهاية الآية (٢٦) وهذه هي :

المجموعة الأولى

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾

المجموعة الثانية

فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

تفسير المجموعة الأولى :

﴿ **أفلا ينظرون** ﴾ أرجع النسفي الضمير إلى الكافرين، وأرجعه ابن كثير إلى الناس عامة ﴿ **إلى الإبل كيف خلقت** ﴾ قال ابن كثير : (فإنها خلق عجيب، وتركيبها غريب فإنها في غاية القوّة والشدّة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها) . ﴿ **وإلى السماء كيف رفعت** ﴾ قال النسفي : رفعاً بعيد المدى ثم نجومها تكثر هذه الكثرة فلا تدخل في حساب الخلق . ﴿ **وإلى الجبال كيف نصبت** ﴾ قال النسفي : نصباً ثابتاً فهي راسخة .. وقال ابن كثير : أي : جعلت منصوبة فإنها ثابتة راسخة لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن ﴿ **وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ قال ابن كثير : (أي : كيف سطحت ومدّت ومهّدت) .

كلمة في السياق :

١ - جاءت هذه الآيات بعد ذكر جزاء العاملين الكافرين، والعاملين المؤمنين، وقبل المجموعة الآمرة بالتذكير، ومن السياق ندرك المراد من لفت النظر إلى هذه المخلوقات أنه البعث على التوحيد والتمهيد للتذكير. قال النسفي : (ويجوز أن يكون المعنى : أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول، ويؤمنوا به، ويستعدوا للقائه) .

٢ - محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل**

من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ تلاحظ أن المحور علّل لوجوب العبادة ، وطالب بالتوحيد بناءً على أن الله عز وجل هو خالق الإنسان والأرض والسماء ، ومنزل الماء ، وفي المجموعة التي مرّت معنا لفت الله عز وجل النظر بخلق الإبل على ما هي عليه ، وبرفع السماء ، ونصب الجبال ، وبسط الأرض للتدليل على وحدانيته ، وللإنكار على من يشرك به غيره في عبادته ، وفي ذلك دعوة لعباده جميعاً أن يعبدوه وحده ولذلك صلاته بمحور السورة .

....

تفسير المجموعة الثانية :

﴿ **فذكّر** ﴾ قال ابن كثير : أي : فذكر يا محمد الناس بما أرسلت إليهم ﴿ **إنما أنت مذكر** ﴾ قال النسفي : أي : ليس عليك إلا التبليغ ﴿ **لست عليهم بمسيطر** ﴾ قال ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أي : لست عليهم بجبار ، أي : لست تخلق الإيمان في قلوبهم ، وقال ابن زيد : لست بالذي تكرههم على الإيمان ﴿ **إلا** ﴾ أي : لكن ﴿ **من تولّى وكفر** ﴾ . قال ابن كثير : أي : تولّى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه ﴿ **فيعذّبه الله العذاب الأكبر** ﴾ وهو عذاب جهنم ، والمعنى العام : لست بجبار عليهم ، ولكنّ الله عز وجل هو الذي له القهر فيعذّب من تولى وكفر العذاب الأكبر ، وهناك اتجاه آخر تقديره : فذكر إلا من تولى وكفر ، فهذا سيعذبه الله عز وجل ، وليس عليك تذكيره ﴿ **إنّ إلينا إيابهم** ﴾ أي : رجوعهم ، وفائدة تقديم الجار والمجرور التشديد في الوعيد ، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ﴿ **ثم إن علينا حسابهم** ﴾ قال ابن كثير : أي : نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن بيّن الله عز وجل عاقبة المشركين ، وعاقبة المؤمنين ، وأقام الحجة على الكافرين ، أمر الله عز وجل رسوله بالتذكير ، وبيّن له أن الله عز وجل سيتولى الحساب والعقاب .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ **إلا من تولى وكفر** ﴾ بيان لموقف بعض الناس من الأمر بالعبادة والتقوى إذ يتولّون ويكفرون ، ولذلك صلته بمحور السورة .

الفــوائد :

١ - في تفسير قوله تعالى : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ ذكرنا قولاً واحداً إلا أن للمفسرين اتجاهات أخرى . قال النسفي : (أي : تعمل في النار عملاً تتعب فيه ، وهو جرها السلاسل والأغلال ، وخوضها في النار ، كما تخوض الإبل في الوحل وارتقاؤها دائبة في صعود من نار ، وهبوطها في حدور منها ، وقيل : عملت في الدنيا أعمال السوء والتذت بها وتنعمت ، فهي في نصب منها في الآخرة ، وقيل : هم أصحاب الصوامع ومعناه : إنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب) .

٢ - عند قوله تعالى : ﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ قال ابن كثير : ونذكر ههنا هذا الحديث الذي رواه أبو بكر بن أبي داود عن كريب أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل من مشمر للجنة فإن الجنة لا حصر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ، ونعمة ، في محلة عالية بهية ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال « قولوا إن شاء الله » قال القوم : إن شاء الله ، ورواه ابن ماجه) .

٣ - عند قوله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل ﴾ قال ابن كثير : وكان شريح القاضي يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت .

أقول : وفي هذا لفتة عظيمة من القاضي الكريم أن يعطي كل خطاب قرآني مدلوله العملي كان شيخنا محمد الحامد رحمه الله يتأمل الفاكهة ويقول : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ وبمناسبة هذه الآيات قال ابن كثير : (وهكذا أقسم ضمام في سؤاله على رسول الله ﷺ كما رواه الإمام أحمد حيث روى عن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد إنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : « صدق » قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » قال : من خلق الأرض ؟ قال : « الله » قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله »

قال : فبالذي خلق السماء والأرض ، ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال : « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال : « صدق » قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ، قال : « صدق » قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً قال : « صدق » قال : ثم ولى فقال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئاً ولا أنقص منهن شيئاً ، فقال النبي ﷺ : « إن صدق ليدخلن الجنة » وقد رواه مسلم) .

ومناسبة هذه الآيات قال النسفي : (وتخصيص هذه الأربعة باعتبار أن هذا خطاب للعرب ، وحثّ لهم على الاستدلال ، والمرء إنما يستدل بما تكثر مشاهدته له ، والعرب تكون في البوادي ، ونظرهم فيها إلى السماء والأرض والجبال والإبل ، فهي أعز أموالهم ، وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر الحيوانات ، ولأنها تجمع جميع المآرب المطلوبة من الحيوان : وهي النسل ، والدر ، والحمل ، والركوب ، والأكل بخلاف غيرها ، ولأن خلقها أعجب من غيرها فإنه سخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لا تعارض ضعيفاً ولا تمانع صغيراً ، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار ، وجعلها بحيث تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت وتجرها إلى البلاد الشاحطة ، وصبّرها على احتمال العطش حتى إن ظمأها ليرتفع إلى العشر فصاعداً ، وجعلها ترعى كل نابت في البراري مما لا يرعاه سائر البهائم) .

قال صاحب الظلال : (وتجمع هذه الآيات الأربعة القصار ، أطراف بيئة العربي المخاطب بهذا القرآن أول مرة . كما تضم أطراف الخلائق البارزة في الكون كله . حين تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال (ممثلة لسائر الحيوان) على مزية خاصة بالإبل في خلقها بصفة عامة وفي قيمتها للعربي بصفة خاصة .

إن هذه المشاهد معروضة لنظر الإنسان حيثما كان .. السماء والأرض والجبال والحيوان .. وأيّاً كان حظ الإنسان من العلم والحضارة فهذه المشاهد داخلة في عالمه وإدراكه . موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها .

إن المشهد الكلي يضم مشهد السماء المرفوعة والأرض المبسوطة . وفي هذا المدى المتطاول تبرز الجبال « منصوبة » السنان لا راسية ولا ملقاة ، وتبرز الجمال منصوبة السنام .. خطان أفقيان وخطان رأسيان في المشهد الهائل في المساحة الشاسعة . ولكنها

لوحة متناسقة الأبعاد والاتجاهات ! على طريقة القرآن في عرض المشاهد ، وفي التعبير بالتصوير على وجه الإجمال) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل ، ثم قرأ : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر** ﴾ وهكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان ، والترمذي ، والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما من حديث سفيان بن سعيد الثوري به بهذه الزيادة . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من رواية أبي هريرة بدون ذكر هذه الآية) .

وبمناسبة هذه الآية قال صاحب الظلال : (﴿ **لست عليهم بمسيطر** ﴾ .. فأنت لاتملك من أمر قلوبهم شيئاً ، حتى تقهرها وتقسرها على الإيمان . فالقلوب بين أصابع الرحمن ، لايقدر عليها إنسان .

فأما الجهاد الذي كتب بعد ذلك فلم يكن لحمل الناس على الإيمان . إنما كان لإزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس . فلا يمنعوا من سماعها . ولا يفتنوا عن دينهم إذا سمعوها . كان لإزالة العقبات من طريق التذكير . الدور الوحيد الذي يملكه الرسول .

وهذا الإيحاء بأن ليس للرسول من أمر هذه الدعوة شيء إلا التذكير والبلاغ يتكرر في القرآن لأسباب شتى . في أولها إعفاء أعصاب الرسول من حمل هَمّ الدعوة بعد البلاغ ، وتركها لقدر الله يفعل بها ما يشاء . فإلحاح الرغبة البشرية بانتصار دعوة الخير وتناول الناس لهذا الخير ، إلحاح عنيف جداً يحتاج إلى هذا الإيحاء المتكرر بإخراج الداعية نفسه ورغائبه هذه من مجال الدعوة ، كي ينطلق إلى أدائها كائنة ما كانت الاستجابة ، وكائنة ما كانت العاقبة . فلا يعني نفسه بهمّ من آمن وهمّ من كفر . ولا يشغل باله بهذا الهم الثقيل حين تسوء الأحوال من حول الدعوة ، وتقل الاستجابة ، ويكثر المعرضون والمخاصمون) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن علي بن خالد أن أبا أمامة الباهلي مرّ على خالد بن

يزيد بن معاوية فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله» تفرد بإخراجه الإمام أحمد).

٦ - ونختم هذه الفوائد بالتذكير بأنّ قوله تعالى: ﴿ **وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ لا ينفي كروية الأرض إذ إن كروية الأرض مقررة في أكثر من مكان في كتاب الله فتسطيح الأرض لا ينفي كرويتها فهي ممدودة مبسوطة، وهي فراش للإنسان وهي كروية مع هذا كله.

كلمة أخيرة في سورة الغاشية ومجموعتها الحادية عشرة:

سورة الغاشية حذّرت من العبادة الخاطئة مع الكفر، وهيجت على العبادة الصالحة مع الإيمان، ولفتت النظر إلى ما يستوجب الإيمان، وأمرت رسول الله ﷺ بالتذكير مع الاعتقاد بأن الله عز وجل سيتولى تعذيب الكافرين، وتأتي سورة الغاشية بعد سورة الأعلى التي أمرت بنوع من العبادة المؤدّية إلى تزكية النفس، وجاءت سورة الأعلى بعد سورتين تحدثتا عن قضية الإيمان والعمل الصالح، وما يستتبع ذلك من مواقف إيمانية أو مواقف كافرة، ومن هذا العرض السريع ندرك تكامل المجموعة مع بعضها..

فسورة البروج بينت أن الإيمان والعمل الصالح يرافقهما ابتلاء يصل إلى حد القتل والتحريق، وسورة الطارق بينت جديّة الكلمة القرآنية، وجاءت سورة الأعلى تأمر بالتسبيح، والتذكير وتزكية النفس، وكلها معان تساعد على تحمّل المحنة وتحمّل ثقل الوحي، وجاءت سورة الغاشية لتبين أنّ العمل غير المقيّد بقيود الوحي وغير المنبثق عن الإيمان الصحيح لا ينجي صاحبه، فلابد من إيمان صحيح وعمل صحيح للنجاة، وهذا كله يرينا تكامل المجموعة مع بعضها، كما يرينا كيف أن المجموعة تضيف صرحاً جديداً في بناء التصورات الإسلامية الصحيحة، وفي بناء التقوى، وفي التحرير من الكفر وأخلاقه.

والملاحظ أن سورتي الأعلى والغاشية كلاهما تذكّر في الطريق، وكل منهما أمرت رسول الله ﷺ بالتذكير الذي فيه دلالة على الطريق ﴿ **فذكّر إن نفعت الذكرى** ﴾ ﴿ **فذكّر إنما أنت مذكّر** ﴾ فكونك تذكر بالطريق فكأنك أخذت باليد إلى الإسلام كله، وذلك من مظاهر التكامل في المجموعة. فلو أنك تأملت الأمر بالتذكير في كل من

السورتين الأخيرتين لرأيت أنّ كلاً من الأمرين يكمّل الآخر .

هذا وقد رأينا أن في كل سورة جديداً ، وأن ما بين كل سورة وما قبلها وما بعدها صلات ، وأن لكل سورة سياقها الخاص ، وأن لكل سورة صلة بمحورها ضمن السياق القرآني العام .

ولننتقل إلى المجموعة الثانية عشرة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية عشرة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المفصّل
وتشمل سور :
الفجر ، والبلد ، والشمس ،
والليل ، والضحى ،
والشرح

كلمة في المجموعة الثانية عشرة من قسم المفصل

تتألف المجموعة الثانية عشرة من ست سور خمس منها مبدوءة بقَسَم ، والأخيرة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ألم نشرح** ﴾ ويأتي بعدها سورة مبدوءة بقَسَم ، وهذا الذي دلّنا على البداية والنهاية .

تتصل بداية السورة الأولى من المجموعة الثانية عشرة بنهاية السورة التي قبلها بصلة واضحة ، فنهاية سورة الغاشية : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر . إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم ..** ﴾ . وبداية سورة الفجر : ﴿ **والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . هل في ذلك قسم لذي حجر . ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصبّ عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد** ﴾ لاحظ انتهاء سورة الغاشية بخطاب رسول الله ﷺ وابتداء سورة الفجر بخطاب رسول الله ﷺ ، ولاحظ قوله تعالى في سورة الغاشية : ﴿ **لست عليهم بمصيطر . إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر** ﴾ وقوله تعالى في سورة الفجر : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ .

مرت معنا من قبل مجموعة الذاريات ، وقد رأينا أن فيها ثلاث سور متواليات كلها مبدوءة بقَسَم ، وهذه المجموعة التي بين أيدينا مجموعة الفجر فيها خمس سور متواليات كلها مبدوءة بقَسَم ، وهذا يجعلنا نستأنس بأنّ محور السور الخمس هو مقدمة سورة البقرة ، كما كانت المقدمة هي محور السور الثلاث من مجموعة الذاريات ومحور كل سورة مبدوءة بقَسَم ..

وإذا كانت السور الخمس المبدوءة بقَسَم تفصّل في مقدمة سورة البقرة فإن سورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ تفصّل فيما بعد المقدمة مباشرة أي : في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ..** ﴾ ومن ثم نجد فيها ﴿ **فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب** ﴾ .

فالسور الخمس حدّدت معالم في الخير وسورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ ذكرت الطريق للتحقق فيها . ولنبدأ عرض المجموعة ..

☆ ☆ ☆

سورة الفجر

وهـي الـسـورة التاسـعة والثمانـون بحـسب الرسـم القـرآني
وهي السـورة الأولى من المجموعة الثانية عشرة من
قسم المفصل ، وهـي ثلاثون آية
وهــي مكيــة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلّٰهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة الفجر :

قال ابن كثير عن سورة الفجر : هي مكية ثم قال : (روى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ صلاة ، فجاء رجل فصلى معه فطوّل ، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذاً فقال : منافق ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فسأل الفتى ، فقال : يا رسول الله جئت أصلي معه فطوّل علي فانصرفت وصليت في ناحية المسجد ، فعلفت ناقتي ، فقال رسول الله ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ أين أنت من سبّح اسم ربك الأعلى - والشمس وضحاها - والفجر - والليل إذا يغشى ») .

وقال الألوسي في تقديمه لسورة الفجر : (ولما ذكر سبحانه فيما قبلها ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة** ﴾ ﴿ **ووجوه يومئذ ناعمة** ﴾ أتبعه تعالى بذكره لطوائف المكذبين من المتجبرين الذين وجوههم خاشعة ، وأشار جل شأنه إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله سبحانه فيها : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة** ﴾ وأيضاً فيها مما يتعلق بأمر الغاشية ما فيها ، وقال الجلال السيوطي : لم يظهر لي في وجه ارتباطها سوى أن أولها كالأقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها ، أو على ما تضمنته من الوعد والوعيد ، هذا مع أن جملة ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك** ﴾ مشابهة لجملة ﴿ **أفلا ينظرون** ﴾ وهما كما ترى) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لهذه السورة : (هذه السورة في عمومها حلقة في الهتاف بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر .. ولكنها تتضمن ألواناً شتى من الجولات والإيقاعات والظلال ، ألواناً متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحناً واحداً متعدد النغمات موحد الإيقاع !

في بعض مشاهدها جمال هادىء رفيق ندي السمات والإيقاعات ، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرفيقة ، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا تلك المشاهد .. ﴿ **والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر ...** ﴾ .

وفي بعض مشاهدها شد وقصف . سواء مناظرها أو موسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف : ﴿ **كلا . إذا دكت الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ .

وفي بعض مشاهدها نداوة ورقة ورضى وطمأنينة . تتناسق فيها المناظر والأنغام ، كهذا الختام : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في**

عبادي وادخلي جنتي ﴾ .

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين ، وإيقاعها بين بين . بين إيقاع القصص الرخي وإيقاع المصرع القوي : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد** ﴾ .

وفيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية ، وقيمه غير الإيمانية . وهي ذات لون خاص في السورة تعبيراً وإيقاعاً : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعَّمه فيقول : ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانن** .. ﴾ .

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات . وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم : ﴿ **كلا . بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلاً لمًّا * وتحبون المال حباً جماً** ﴾ ..

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم . فقد جاء بعده : ﴿ **كلا إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً** .. ﴾ الخ .. فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير !

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة . وإيقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها .. كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافي . بحسب تنوع المعاني والمشاهد . فالسورة من هذا الجانب نموذج واف لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني . فوق مافيها عموماً من جمال ملحوظ مأنوس !) .

كلمة في سورة الفجر ومحورها :

تعظ السورة في ابتدائها وتنذر ، ثم تتحدث عن بعض طبائع الإنسان ، منكرة على هذه الطبائع ، ثم تذكّر الإنسان بيوم القيامة ، وتذكّر النوعية المرشحة للإكرام في هذا اليوم . والسورة تحذر من بأس الله وعذابه ، وتحذّر من الفهم الخاطىء لأفعال الله عز وجل ، وتنكر على عدم إكرام اليتيم ، وعلى عدم الحض على طعام المسكين ، وتنكر على أكل المال إلا حلالاً خالصاً ، وتنكر على الحب الكثير للمال ، وتذكّر بوجوب التقديم

لليوم الآخر ، وتتحدث عن النفس المطمئنة ، فالسورة ضمن سياقها الخاص ، تربي على التقوى ، وتحرّر مما يدافيها ، ومن ههنا تأتي صلتها بمقدمة سورة البقرة التي تتحدث عن المتقين ، وعن الكافرين ، وعن المنافقين . إذ السورة تفصّل في أخلاق كافرة لتدعو - من خلال ذلك - إلى أخلاق المتقين ، وكل ذلك ضمن وحدتها الخاصة بها .

تتألف السورة من ثلاث فقرات .
الفقرة الأولى تنتهي بنهاية الآية (١٤) .
الفقرة الثانية تنتهي بنهاية الآية (٢٠) .
الفقرة الثالثة تنتهي بنهاية الآية (٣٠) .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتبدأ من الآية (١) وتنتهي بنهاية الآية (١٤) وهذه هي :

المجموعة الأولى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾

المجموعة الثانية

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الأولى :

﴿ **والفجر** ﴾ الفجر هو الصبح . وهل المراد بالقسم وقت الفجر ، أو صلاته ، أو فجر يوم النحر خاصة من بين الأيام ؟ أو المراد به جميع النهار ؛ لأنه جزء منه ؟ أقوال نعتمد أقواها الأول ﴿ **وليال عشر** ﴾ قال ابن كثير : والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ قال النسفي : شفع كل الأشياء ووترها ، أو شفع هذه الليالي ووترها ، أو شفع الصلاة ووترها ، أو يوم النحر لأنه اليوم العاشر ويوم عرفة لأنه اليوم التاسع ، أو الخلق والخالق . ﴿ **والليل إذا يسر** ﴾ أي : يجري أي : يمضي . أقول : في إسناد السرى إلى الليل إشارة إلى دوران الأرض ﴿ **هل في ذلك** ﴾ أي :

المقسم به في الأشياء المذكورة سابقاً ﴿ **قسم** ﴾ أي: مقسم به ﴿ **لذي حجر** ﴾ أي: لذي عقل. قال ابن كثير: وإنما سمّي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ...، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، أو بنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم. وقال النسفي في قوله تعالى: ﴿ **هل في ذلك قسم لذي حجر** ﴾ (أي: هل تحقق عنده أن تعظيم هذه الأشياء بالإقسام بها: أو هل في إقسامي بها إقسام لذي حجر، أي: هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه، أو هل في القسم بهذه الأشياء قسم مقنع لذي عقل ولب، والمقسم عليه محذوف وهو قوله: ليعذبن، يدل عليه قوله: ﴿ **ألم تر** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فصبّ عليهم ربك سوط عذاب** ﴾).

كلمة في السياق:

١ – رأينا في هذه الآيات أقساماً وتعظيماً لهذه الأقسام، ولا نرى جواباً، ورأينا أن النسفي قدر الجواب أخذاً من الآيات التالية ففهم أن الجواب (لتعذبن) ورأينا من كلام ابن كثير أنّه لايقدّر جواباً، وإنّما يعتبر أنّ مجرد عرض الأقسام، وتعظيم مايكون فيها، هو المراد، ومن ثم فإن ذكر هذه الأقسام، وتعظيم مضمونها، هو الذي يريد أن يؤديه السياق لنا، والذي أراه أن جواب القسم يفهم من الآيات التالية من قوله تعالى: ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ والذي يدلنا على ذلك أن الفقرة الثانية تبدأ بقوله تعالى: ﴿ **فأما الإنسان** .. ﴾ مما يشير إلى أن السياق في الفقرة الأولى كان يصبّ في التعريف على الله عز وجل، وجلاله وعلى هذا يمكن أن نقدر الجواب: إنّ ربك لمحاسب ومعاقب.

٢ – في ذكر مواسم العبادة، وبعض أوقاتها، وفي جواب القسم المقدر، ذكر بعض جوانب الغيب الذي يجب الإيمان به، ولذلك صلته بقوله تعالى في مقدمة سورة البقرة: ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة** ﴾ وهذا أول مظهر من مظاهر صلة السورة بمقدمة سورة البقرة، فلنر المجموعة الثانية في الفقرة الأولى.

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الأولى :

﴿ **ألم تر** ﴾ قال النسفي : أي : ألم تعلم يا محمد علماً يوازي العيان في الإيقان ؟ وهو استفهام تقرير ﴿ **كيف فعل ربك بعاد** ﴾ أي : قوم هود عليه السلام ثم فسّرها بقوله تعالى : ﴿ **إرم** ﴾ قال النسفي : تسمية لهم باسم جدّهم ﴿ **ذات العماد** ﴾ أي : قبيلة إرم ذات العماد فالمعنى أنهم كانوا بدواً أهل عمد ، قال ابن كثير تعليلاً لوصفهم هذا : لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشدّ الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً ﴿ **التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ قال ابن كثير : أي : القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوّتهم وشدّتهم وعظم تركيبهم . أقول : هذا ماذهب إليه ابن كثير واختاره ابن جرير . وهو قول قتادة في تفسير هذه الآية . ﴿ **وثمود الذين جابوا** ﴾ أي : قطعوا أو خرقوا أو نحتوا أو حفروا ﴿ **الصخر بالواد** ﴾ قال النسفي : أي : بوادي القرى أي : قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً . أقول : وآثارهم لازالت موجودة معروفة في منطقة العلا الحالية من الجزيرة العربية شمالي المدينة المنوّرة ﴿ **وفرعون ذي الأوتاد** ﴾ قال النسفي : أي : ذي الجنود الكثيرة ، قال ابن كثير : قال العوفي عن ابن عباس : الأوتاد : الجنود الذين يشدّون له أمره ، أقول : وذهب مجاهد إلى أنّه وصف كذلك ؛ لأنه كان يوتد الأناس بالأوتاد تعذيباً لهم . أقول : اللفظ يحتمل الإشارة إلى تمكنه أو الإشارة إلى ظلمه ، وعلى الأول يجري كلام ابن عباس ، وإلى الثاني ذهب مجاهد . ﴿ **الذين** ﴾ أي : عاد وثمود وفرعون ﴿ **طغوا** ﴾ أي : تجاوزوا الحدّ ﴿ **في البلاد** ﴾ التي كانت تحت سلطان كل منهم ﴿ **فأكثروا فيها الفساد** ﴾ أي : بالكفر والقتل والظلم ، قال ابن كثير : أي : تمرّدوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس ﴿ **فصبّ عليهم ربك سوط عذاب** ﴾ قال النسفي : (هذا مجاز إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه إذ الصبّ يشعر بالدوام والسوط بزيادة الإيلام ، أي : عذبوا عذاباً مؤلماً دائماً) وقال ابن كثير : أي : أنزل عليهم رجزاً من السماء ، وأحل بهم عقوبة لايردّها عن القوم المجرمين ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ قال النسفي : (المرصاد هو المكان الذي يترقب فيه الرصد مفعال من رصده ، وهذا مثل لإرصاده العباد وأنهم لايفوتونه ، وأنه عالم بما يصدر منهم وحافظه ، فيجازيهم عليه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر) . وقال ابن كثير : (قال ابن عباس يسمع ويرى يعني : يرصد خلقه فيما يعملون ، ويجازي كلا بسعيه في الدنيا والأخرى وسيعرض الخلائق

كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ، ويقابل كلا بما يستحقه وهو المنزه عن الظلم والجور) .

كلمة في السياق :

١ - واضح أن الفقرة بمجموعتيها تريد أن تعرفنا على الله عز وجل وعلى جلاله من خلال الأقسام ، ومن خلال فعله في الأمم المكذبة ، والدليل على ذلك ما جاء بعد الأقسام وما جاء في بداية المجموعة الثانية ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد** ﴾ . وفي التعريف على جلال الله عز وجل من خلال الأقسام وتعظيمها ، ومن خلال فعله تعالى بالطاغين دعوة إلى الخوف منه وإلى خشيته ، ودعوة إلى تعظيم ما به أقسم بالقيام بحقّه ، ودعوة إلى ترك الطغيان والفساد ، وذلك كله دعوة ضمنية إلى التقوى وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ...** ﴾ في مقدمة سورة البقرة واضحة ، فلا خلاص من الطغيان والفساد إلا بالتقوى التي من أركانها الالتزام بكتاب الله عز وجل ، والاهتداء بهديه ، وذلك لا يكون بلا إيمان وصلاة وإنفاق .

٢ - بعد أن عرّفنا الله عز وجل على جلاله في الفقرة الأولى ، وعرّفنا على فعله بالطاغين المفسدين ، يعرفنا الله عز وجل على الطبيعة البشرية التي لم تهذبها خشية ولا مغفرة ولا تقوى ، وفي ذلك دعوة لتطهير النفس البشرية من هذه المعاني ، ودعوة لها للتحقق بما يقابل ذلك فلنر الفقرة الثانية .

* * *

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢٠) وهذه هي :

فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا

تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

التفسير :

﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه** ﴾ أي : إذا اختبره ﴿ **ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن** ﴾ أي : فضّلني بما أعطاني ، يرى الإكرام في كثرة الحظ في الدنيا ﴿ **وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه** ﴾ أي : ضيّقه عليه وجعله بمقدار بلغته وكفايته ﴿ **فيقول ربي أهانن** ﴾ أي : إذا امتحنه بالفقر فقدر عليه رزقه ليصبر قال : ربي أهانن ، فيرى الهوان في قلة الحظ من الدنيا لأنه لا تهمّه إلا العاجلة ، وما يلذّه وينعّمه فيها . قال ابن كثير : يقول تعالى منكراً على الإنسان في اعتقاده إذا وسّع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له ، وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان .. وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه ، وضيّق عليه في الرزق ، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له . قال النسفي : فرد عليه زعمه بقوله ﴿ **كلا** ﴾ قال ابن كثير : أي : ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا ، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيّق على من يحب ومن لا يحب . وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالتين . إذا كان غنيًا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيراً بأن يصبر ، وقال النسفي : أي ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلته ، بل الإكرام في التوفيق إلى الطاعة ، والإهانة في الخذلان . ﴿ **بل لا تكرمون اليتيم** ﴾ قال النسفي : أي : بل هناك شرّ من هذا القول ، وهو أن الله يكرمهم بالغنى ، فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم وحضّ أهله على طعام المسكين . وقال ابن كثير : فيه أمر بالإكرام له ﴿ **ولا تحاضون على طعام المسكين** ﴾ قال ابن كثير : يعني : لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحث بعضهم بعضاً في ذلك ﴿ **وتأكلون التراث أكلاً لمًّا** ﴾ قال النسفي : أي : وتأكلون الميراث أكلاً ذا لمٍّ وهو الجمع بين الحلال والحرام ، وكانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان ، ويأكلون تراثهم مع تراثهم ، وقال ابن كثير : أي : من أيّ جهة حصل لهم من حلال أو حرام . ﴿ **وتحبون المال حباً جماً** ﴾ أي : كثيراً شديداً مع الحرص ، ومنع الحقوق .

كلمة في السياق :

١ - يربط النسفي بين هذه الفقرة والتي قبلها ، أي : بين قوله تعالى : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ وبين : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ..** ﴾ بقوله : أي : الواجب لمن ربه بالمرصاد أن يسعى للعاقبة ، ولا تهمّه العاجلة ، وهو ، أي : الإنسان قد عكس .

٢ - بعد أنّ حدّثنا الله عز وجل في الفقرة الأولى عن ذاته وجلاله ، وأفعاله وانتقامه حدّثنا في الفقرة الثانية عن الإنسان وفهمه الخاطىء لأفعال الله عز وجل ، وأنه أي : الإنسان زيادة على فهومه الخاطئة فإن له أعمالاً خاطئة كذلك ، عدم إكرام اليتيم ، وترك الحضّ على طعام المسكين ، وهو مع هذا يأكل ما هبّ ودبّ ، ويحبّ المال حبًّا كثيراً ، الإنسان لا يؤدي الواجب ، ولا يفهم عن الله عز وجل والله عز وجل بالمرصاد ، ومما ذكرناه في هذه الفقرة والفقرة السابقة ندرك سياق السورة الخاص .

٣ - عرّفتنا الفقرة الأخيرة على الطبيعة البشرية التي لم يهذبها وحي ، كيف أنها لا تفهم عن الله عز وجل ولا تعمل الخير ، وتفرّط في الواجبات ، وفي ذلك تفهيم لنا أن الوحي لابدّ منه للإنسان كي يعرف أفعال الله عز وجل ويدرك حكمها ، وكي يعمل الخير ويضبط رغباته على ميزان الشرع وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **الۤمۤ • ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ واضحة .

٤ - دعت الفقرة الإنسان إلى اعتبار الفقر والغنى امتحاناً يقابل بالشكر والصبر . وللصلاة دورها في الإعانة على الصبر ، وهي المظهر الأكمل للشكر وصلة ذلك بقوله تعالى في محور السورة : ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ قائمة .

٥ - دعت الفقرة بمفهومها إلى إكرام اليتيم ، والحضّ على طعام المسكين ، وصلة ذلك بمحور السورة ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ في مقدمة سورة البقرة واضحة .

٦ - أنكرت الفقرة على من يأكل الميراث بالباطل ، وعلى من يحب المال حبًّا كثيراً يدفعه إلى منع الحقوق ، وأكل الحرام ، وصلة ذلك بالتقوى واضحة ، ومما مرّ ندرك صلة ما مرّ معنا في السورة بموضوع التقوى والتربية عليها ملكة وسلوكاً ؛ فلا تقوى إلا بمراقبة الله وخشيته ، ولا تقوى إلا بإيمان ، وعمل صالح وفهم صحيح لأفعال الله عز وجل ، وكل ذلك له صلة بالآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة ، وعلينا أن نلاحظ أن موضوع الإيمان بالغيب أخذ كثيراً في الفقرتين الأولى والثانية إذ التعريف على الله عز

وجل ، وعلى أفعاله تفصيل لأهم ركن من أركان الإيمان بالغيب ، فلنتذكر بداية سورة البقرة لنتذكر صلتها بما مرّ معنا ﴿ الٓمٓ ۞ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ۞ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

فلننتقل إلى الفقرة الثالثة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة

وتمتد من الآية (٢١) إلى نهاية السورة ، أي نهاية الآية (٣٠) وهذه هي :

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

التفسير :

﴿ كلا ﴾ قال النسفي : (ردع لهم عن ذلك . أي : عن ترك إكرام اليتيم ، وترك الحض على طعام المسكين ، وعن أكلهم التراث بالباطل ، وحبهم المال الشديد وإنكار لفعلهم ، ثم أتى بالوعيد ، وذكر تحسرهم على ما فرّطوا فيه حين لا تنفع الحسرة ، فقال ﴿ إذا دُكّت الأرض دكّاً دكّاً ﴾ أي : دكاً بعد دك أي : كُرِّر عليها الدك ، أي : الزلزال حتى عادت جبالها هباءً منبثاً ، ووطئت الأرض ومهّدت وسويت الأرض والجبال ، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ قال ابن

كثير : فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً ، وقال النسفي : أي : ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس ﴿ **وجيء يومئذ بجهنم** ﴾ روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » ﴿ **يومئذ يتذكر الإنسان** ﴾ أي : يتعظ أي : يومئذ يتذكر الإنسان عمله ، وماكان أسلفه في قديم دهره وحديثه ، فيتعظ ﴿ **وأنّى له الذكرى** ﴾ قال ابن كثير : أي : كيف تنفعه الذكرى ، وقال النسفي : أي : ومن أين له منفعة الذكرى ﴿ **يقول** ﴾ يومئذ ﴿ **ياليتني قدمت لحياتي** ﴾ هذه هي حياة الآخرة ، قال النسفي : أي : ياليتني قدّمت الأعمال الصالحة في الحياة الفانية لحياتي الباقية ، وقال ابن كثير : يعني : يندم على ماكان سلف منه من المعاصي إن كان عاصياً ، ويودُّ لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعاً ، كما روى الإمام أحمد ... عن محمد بن عمرة ... عن رسول الله ﷺ قال : « لو أنّ عبداً خرّ على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة ، ولودّ أنّه ردّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب » ﴿ **فيومئذ لايعذب عذابه أحد** ﴾ قال ابن كثير : أي : ليس أحد أشدّ عذاباً من تعذيب الله مَنْ عصاه ﴿ **ولايوثق وثاقه أحد** ﴾ قال ابن كثير : أي : وليس أحد أشدّ قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربّهم عز وجل . قال النسفي : قال صاحب الكشاف في الآيتين : أي : لا يعذّب أحد أحداً كعذاب الله ولا يوثق أحد أحداً كوثاق الله . قال ابن كثير : وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين ، فأمّا النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ **ياأيتها النفس المطمئنة** ﴾ . قال النسفي : أي : الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلايخالجها شك ... وإنما يقال لها ذلك عند الموت ، أو عند البعث ، أو عند دخول الجنة ﴿ **ارجعي إلى ربك** ﴾ قال ابن كثير : أي : إلى جواره وثوابه وماأعدّ لعباده في جنته ﴿ **راضية** ﴾ أي : في نفسها أو راضية من الله بما أوتيت ﴿ **مرضية** ﴾ قال ابن كثير : أي : قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاها ﴿ **فادخلي في عبادي** ﴾ أي : في جملتهم . قال النسفي : أي : في جملة عبادي الصالحين فانتظمي في سلكهم ﴿ **وادخلي جنتي** ﴾ أي : مع الصالحين . قال ابن كثير : وهذا يقال لها عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضاً ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك ههنا .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن بيّن الله عز وجل في الفقرة الأولى أنه بالمرصاد ، ووصف في الفقرة الثانية الطبيعة البشرية التي لم يهذبها وحي ، ودعا في هذا البيان ضمناً إلى خشيته وإلى الصبر والشكر والإنفاق ، وأكل الحلال ، وأداء الحقوق ، بيّن في الفقرة الثالثة ما يكون يوم القيامة من عذاب للكافرين ، وإكرام للمؤمنين ، وفي ذلك دعوة للإنسان كي ينأى عن الكفر وأخلاقه ، وكي يقبل على الإيمان وأخلاقه .

٢ - وصف العذاب الشديد للكافر بقوله تعالى : ﴿ **فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ أي : فيوم القيامة لا يعذّب أحد كعذاب الله ولا يوثق أحد كوثاق الله عز وجل وفي ذلك تفصيل لقوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ فالفقرة الأخيرة فصّلت - فيما فصّلت - العذاب العظيم للكافرين .

٣ - في الفقرة الأخيرة بيان لمن يستحق الرضى من الله عز وجل ويستحق الدخول في عباد الله الصالحين ويستحق دخول الجنة وهو صاحب النفس المطمئنة أي: التي لا ريب عندها والتي اطمأنت بالإيمان وذلك لا يكون إلا إذا اطمأنت ببرد اليقين في شأن القرآن وشأن الإيمان بالغيب وشأن الإيمان بالوحي كله وشأن الإيمان باليوم الآخر ، ولذلك صلته بمحور السورة من مقدمة سورة البقرة فلنتأمل ذلك

﴿ **الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

فالنفس المطمئنة هي النفس التقية . والفقرة الأخيرة بينت كذلك مظهراً من مظاهر الفلاح الذي وعد الله عز وجل به المتقين . وهكذا نجد أن السورة فصّلت في مقدمة سورة البقرة إن في كلامها عن المتقين ، أو في كلامها عن الكافرين ، وكما فصّلت السورة في محورها فقد كان لها سياقها الخاص كما رأينا .

٤ - دعت السورة بمجموعها إلى مراقبة الله عز وجل وإلى خشيته ، وإلى الصبر إذا

أفقر ، وإلى الشكر إذا أغنى ، وإلى إكرام اليتيم ، وإلى الحضّ على طعام المسكين ، وإلى أكل الحلال ، وأداء الحقوق ، وإلى الاعتدال في حبّ المال والدنيا ، وإلى الوصول إلى اليقين والاطمئنان ، وكل ذلك قضايا في التقوى ، كما حذّرت من عكس هذه الأخلاق ، ومن الطغيان والفساد ، وكل ذلك من أخلاق الكفر .

الفـوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وليال عشر** ﴾ قال ابن كثير : (والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة كما قاله ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً : « ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » يعني : عشر ذي الحجة . قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء » . وقيل المراد بذلك العشر الأول من المحرم حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد . وقد روي عن ابن عباس ﴿ **وليال عشر** ﴾ قال : هو العشر الأول من رمضان ، والصحيح القول الأول روى الإمام أحمد عن جابر عن النبي ﷺ قال : « إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر » ورواه النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زيد ابن الحباب به وهذا إسنادٌ رجاله لا بأس بهم وعندي أن المتن في رفعه نكارة ، والله أعلم) .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ أقوال كثيرة أجملناها في التفسير وههنا ننقل مجموع هذه الأقوال كما عرضها ابن كثير : (وقوله تعالى : ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة لكونه التاسع ، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر ، وقاله ابن عباس وعكرمة والضحاك أيضاً . (قول ثان) وروى ابن أبي حاتم عن واصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله تعالى : ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ قلت : صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا ولكن الشفع يوم عرفة ، والوتر ليلة الأضحى . (قول ثالث) روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد بن عوف أنه سمع عبد الله بن الزبير يخطب الناس فقام إليه رجل فقال : ياأمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر فقال : الشفع قول الله تعالى : ﴿ **فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه** ﴾ والوتر قوله تعالى : ﴿ **ومن تأخر فلا إثم عليه** ﴾ . وقال ابن جريج : أخبرني محمد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام التشريق ، والوتر آخر أيام التشريق . وفي الصحيحين من رواية أبي هريرة عن

رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » . (قول رابع) قال الحسن البصري وزيد بن أسلم : الخلق كلهم شفع ووتر ، أقسم تعالى بخلقه . وهو رواية عن مجاهد والمشهور عنه الأول ، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ قال : وتر واحد ، وأنتم شفع ، ويقال : الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب . (قول خامس) روى ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ قال : الشفع الزوج ، والوتر الله عز وجل ، وقال أبو عبد الله عن مجاهد : الله الوتر وخلقه الشفع ، الذكر والأنثى ، وقال ابن نجيح عن مجاهد قوله : ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ كل شيء خلقه الله شفع ، السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر ، ونحو هذا ، ونحا مجاهد في هذا ما ذكروه في قوله تعالى : ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾ أي : لتعلموا أن خالق الأزواج واحد . (قول سادس) قال قتادة عن الحسن : والشفع والوتر هو العدد منه شفع ومنه وتر . (قول سابع في الآية الكريمة) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق ابن جريج ، ثم قال ابن جرير : وروي عن النبي ﷺ خبر يؤيد القول الذي ذكرنا عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « الشفع اليومان ، والوتر اليوم الثالث » ، وهكذا ورد هذا الخبر بهذا اللفظ ، وهو مخالف لما تقدم من اللفظ في رواية أحمد والنسائي وابن أبي حاتم وما رواه هو أيضاً ، والله أعلم . قال أبو العالية والربيع بن أنس وغيرهما : هي الصلاة منها شفع كالرباعية والثنائية ، ومنها وتر كالمغرب فإنها ثلاث ، وهي وتر النهار ، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل . وقد روى عبد الرزاق عن عمران بن حصين ﴿ **والشفع والوتر** ﴾ قال : هي الصلاة المكتوبة منها شفع ومنها وتر ، وهذا منقطع وموقوف ، ولفظه خاص بالمكتوبة ، وقد روي متصلاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولفظه عام . روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر فقال : « **هي الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر** ») .

٣ – عند قوله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ قال ابن كثير : (فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها أو أعمدة بيوتهم للبدو أو سلاحاً يقاتلون به أو طول الواحد منهم فهم قبيلة وأمة من الأمم وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع ، المقرونون بثمود كما ههنا ، والله أعلم .

ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ **إرم ذات العماد** ﴾ مدينة إما دمشق – كما روي عن

سعيد بن المسيب وعكرمة - أو إسكندرية - كما روي عن الطبراني - أو غيرهما ، ففيه نظر فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد** ﴾ إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان ؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذ ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد ، لأن المراد: الإخبار عن مدينة أو إقليم . وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية عن ذكر مدينة يقال لها إرم ذات العماد مبنية بلبن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها وإن حصباءها لآلىء وجواهر ، وترابها بنادق المسك ، وأنهارها سارحة ، وثمارها ساقطة ، ودورها لا أنيس بها ، وسورها وأبوابها تصفر ليس بها داع ولا مجيب ، وإنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك العقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كلا بل لا تكرمون اليتيم** ﴾ قال ابن كثير : (جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ثم قال بأصبعه - أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وروى أبو داود عن سهل - يعني ابن سعيد - أن رسول الله ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وقرن بين أصابعه الوسطى والتي تلي الإبهام) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجاء ربك والملك صفاً صفاً** ﴾ . قال ابن كثير : (يعني : لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه بعد ما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم حتى تنتهي النوبة إلى محمد ﷺ فيقول : « أنا لها أنا لها » فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء فيشفعه الله تعالى في ذلك وهي أول الشفاعات وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً) .

٦ - عند قوله تعالى : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾

قال: نزلت وأبو بكر جالس فقال: يارسول الله ماأحسن هذا فقال: «أما إنه سيقال لك هذا». ثم روى عن سعيد بن جبير قال: قرأت عند النبي ﷺ: ﴿ **ياأيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾ فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن هذا لحسن، فقال له النبي ﷺ: «أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت» وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن ابن يمان به، وهذا مرسل حسن. ثم روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير - أيضاً - قال: مات ابن عباس بالطائف فجاء طير لم ير على خلقته، فدخل نعشه ثم لم ير خارجاً منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي** ﴾ ورواه الطبراني ..

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك»).

☆ ☆ ☆

سورة البلد

وهـــي الـــــورة التســـعون بحـــــب الرســـم القــرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الثانية عشرة من
قسم المفصل ، وهي عشرون آية
وهـي مكيـــة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

قال الألوسي عن سورة البلد : (وهي عشرون آية بلا خلاف . ولما ذم سبحانه فيما قبلها من أحب المال وأكل التراث أكلاً لمّاً ، ولم يحض على طعام المسكين ، ذكر جل وعلا فيها الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة ، وإطعام في يوم ذي مسغبة ، وكذا لما ذكر عز وجل النفس المطمئنة هناك ، ذكر سبحانه ههنا بعض ما يحصل به الاطمئنان) .

وقال صاحب الظلال : (تضم هذه الصورة الصغيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ذات الإيحاءات الدافعة واللمسات الموحية . حشد يصعب أن يجتمع في هذا الحيز الصغير في غير القرآن الكريم ، وأسلوبه الفريد في التوقيع على أوتار القلب البشري بمثل هذه اللمسات السريعة العميقة) .

كلمة في سورة البلد ومحورها :

تبدأ سورة البلد بقسم وهذا يحدّد أنّها تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، ومن ثم نجدها تتحدث عن دعوى الإنفاق ، وتعالجها ، وتدعو إلى الإيمان والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة ، كما تتحدث عن الكافرين ، وهي معانٍ لها صلة بمقدمة سورة البقرة .

والملاحظ أن بين سورتي . الفجر والبلد تكاملاً فسورة الفجر تقول: ﴿ **كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضّون على طعام المسكين** ﴾ وسورة البلد تقول : ﴿ **يقول أهلكت مالاً لبداً** ... ﴾ وتقول : ﴿ **فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة** .. ﴾ .

فسورة الفجر تنكر على من لا يفعل ، وسورة البلد تدعو إلى العمل . وكما ختمت سورة الفجر بالكلام عن الكافرين والمؤمنين يوم القيامة ، فكذلك ختمت سورة البلد : ﴿ **أولئك أصحاب الميمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة** ﴾ .

فالسورتان تتكاملان مع بعضهما ، وسنرى أنهما تتكاملان مع مجموعتهما ، ولنبدأ عرض السورة ، وسنعرضها عرضاً واحداً متحدّثين خلال العرض عن السياق العام والخاص للسورة .

سورة البلد

وتتألف من عشرين آية وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠)

التفسير :

﴿ **لاأقسم بهذا البلد** ﴾ أي: أقسم بمكة ﴿ **وأنت حِلٌّ بهذا البلد** ﴾ أي: أقسم بمكة وأنت حل بها غير محرم ، وإنما الحل بها هو المقيم ، فكأن المعنى : أقسم بمكة وأنت مقيم بها ﴿ **ووالد وما ولد** ﴾ أي: وآدم وولده ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في كبد** ﴾ قال سعيد بن جبير : أي: في شدة وطلب معيشة ، وقال الحسن البصري : أي: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة . وقال ذو النون المصري : أي: لم يزل مربوطاً بحبل القضاء مدعواً إلى الائتمار والانتهاء . أقول: هذا جواب القسم ، أقسم الله عز وجل

بمكة ، أم القرى في حال كون ساكنها رسول الله ﷺ حلالاً فيها ؛ لينبه على قيمتها العظمى حال وجود الرسول فيها ، وأقسم بآدم – أبي البشر – وبولده على أنه خلق الإنسان في مكابدة ، وفي ذلك تذكير للإنسان أنه لم يخلق عبثاً ، ولم يخلق للراحة بل خلق في التعب والمكابدة ليعلم أن له مهمة ، وأنه مكلّف .

كلمة في السياق :

١ - في الأقسام التي مرّت معنا وجوابها تذكير بمجموعة أمور ، بعظمة هذا البيت ، وبعظمة رسول الله ﷺ الذي يزداد بوجوده هذا البيت عظمة ، وبعظمة آدم عليه السلام ، وكرامة ذريته ، وتذكير بحال الإنسان في عيشه المكابد ؛ ليستدل به على أصل مهمّته في الحياة ، ولذلك صلته بموضوع الإيمان بالغيب ، وموضوع لزوم التقوى ، وضرورة الاهتداء بكتاب الله ، والعمل فيه أي : بالآيات الأولى من سورة البقرة .

٢ - بعد القسم على أنّ الإنسان خلق في كبد يأتي قوله تعالى :

﴿ **أيحسب** ﴾ أي : الإنسان ﴿ **أن لن يقدر عليه أحد** ﴾ أي : أيظن الإنسان مع أنه خلق في مكابدة ممّا يدلّ على أنّه محاط به ، أنه لن يستطيع أحد أن يقهره ، وأن يغلبه ، وأن يفعل به ما يشاء ، ومن ثمّ فلا يقوم بتكليف ، ولا يحسب حساباً ليوم آخر مع أنّ حاله وغرقه في التعب طوال حياته ، كان ينبغي أن يدله على أنه مقدور عليه محاط به من الله عز وجل .

كلمة في السياق :

١ - عرفنا من الآية الأخيرة : أنّ من تصورات الإنسان الفاسدة شعوره وحسبانه أن أحداً ما لا يستطيع عليه ، ومن ههنا ندرك سبباً من أسباب الفرار من التكليف ، الفرار الذي تنقضه شواهد حال الإنسان في المكابدة .

٢ - وبعد أن بيّن الله عز وجل لنا هذا التصور الفاسد عند الإنسان يبيّن لنا أنّ الإنسان يجمع مع هذا الحسبان الدعاوى الباطلة .

﴿ **يقول أهلكت مالاً لبداً** ﴾ قال ابن كثير : أي : يقول ابن آدم : أنفقت مالاً لبداً أي كثيراً . وقال النسفي : جمع لبدة وهو ما تلبّد أي : كثر واجتمع . قال تعالى رادّاً على

هذا الإنسان دعواه ومبيناً أن دعواه عليها رقيب بصير فقال: ﴿ **أيحسب أن لم يره أحد** ﴾ قال مجاهد: أيحسب أن لم يره الله عز وجل. أقول: أي: أيحسب هذا المدّعي أنّ الله غير موجود حتى يدّعي هذه الدعاوى الكاذبة.

كلمة في السياق:

١ - وهكذا عرفنا أن الإنسان له تصورات فاسدة، ودعاوى كبيرة، وأن دعاواه الكبيرة أثر عن جهله بأن الله قريب. وأن تصوراته الفاسدة أثر عن عدم ملاحظة حاله، ولو أن الإنسان تذكّر حاله وتذكّر رقابة الله عز وجل عليه لانتفت عنده هذه التصورات وهذه الدعاوى. وهكذا عرفنا أنّ دواء هذه التصورات، وهذه الدعاوى هو ماذكرته الآيات من تذكر الإنسان حاله في المكابدة، ومن تذكّر الإنسان رقابة الله عز وجل عليه.

٢ - ثمّ تأتي فقرة تذكّر الإنسان بما يعرف به أنّ الله قادر عليه، وأن الله عز وجل يراه، وتذكّر الإنسان بما يعرف به أنّه مكلّف.

﴿ **ألم نجعل له** ﴾ أي: للإنسان ﴿ **عينين** ﴾ أي: يبصر بهما المرئيات ﴿ **ولساناً** ﴾ أي: ينطق به فيعبّر به عما في ضميره ﴿ **وشفتين** ﴾ قال ابن كثير: يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه، وقال النسفي: يستر بهما ثغره، ويستعين بهما على النّطق والأكل والشرب والنفخ ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ أي: طريقي الخير والشر المفضيين إلى الجنة والنار.

كلمة في السياق:

جاءت الفقرة السابقة كدليل على ما قبلها، وكمقدمة لما بعدها فهي دليل على أن الله عز وجل يرى، ودليل على أنّه قادر على الإنسان، وهي مقدمة لمطالبة الإنسان بعمل الخير الذي تطالب به الفقرة اللاحقة، فالفقرة اللاحقة تطالب الإنسان بعتق الرقاب والإطعام والإيمان والتواصي بناءً على ما جاء في هذه الفقرة، فالفقرة ذكرت عطاء الله العظيم للإنسان، وهذا يقتضي من الإنسان أن يقابل ذلك بشكر.

﴿ **فلا اقتحم العقبة** ﴾ الاقتحام هو الدخول والمجاوزة بشدّة ومشقة، جعل الأعمال الصالحة عقبة وعملها اقتحاماً لها لما في ذلك من معاناة في مجاهدة النفس ﴿ **وما**

أدراك ما العقبة ﴾ هذا تعظيم لشأن العقبة التي ينبغي أن تقتحم، ثم فسّرها بثلاثة أشياء :

١ - ﴿ فك رقبة ﴾ أي : إعتاق رقبة أو المساعدة على إعتاقها .

٢ - ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ أي : ذي مجاعة ﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ أي : ذا قرابة ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ أي : ذا افتقار فهو من فقره لصق في التراب، وأصبح التراب مأواه .

٣ - ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ أي : كان من المؤمنين العاملين . والمتواصين بالصبر على أذى الناس، وبالرحمة بهم، أو تواصوا بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات ، والمحن التي يبتلى بها المؤمن وتواصوا بالتراحم فيما بينهم ﴿ أولئك ﴾ أي : الموصوفون بهذه الصفات ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ أي : أصحاب اليمين .

كلمة في السياق :

بعد أن ذكّر الله عز وجل الإنسان بأمهات من نعمه عليه . طالبه أن يشكر هذه الأيادي بالأعمال الصالحة من فك الرقاب ، وإطعام اليتامى والمساكين ثم بالإيمان الذي هو أصل كلّ طاعة، وأساس كل خير، وبالصبر الذي بدونه لا يكون إيمان، وبالرحمة التي هي من أعظم ثمرات الإيمان، وبالتواصي الذي به يستمر السير، وإذ بيّن الله عزّ وجل هذا وعرفنا أنّ المتصفين بهذه الصفات هم أصحاب اليمين يعرفنا الآن على أصحاب الشمال .

﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾ أي : بالقرآن أو بدلائلنا ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ أي : أصحاب الشمال ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أي : مطبقة ، أي : مغلقة الأبواب ، قال ابن كثير : أي : مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها .

كلمة في السياق :

١ - عرفنا من السورة أن هناك أصحاب يمين وأصحاب شمال ، وأن أصحاب

الشمال هم الكافرون بآيات الله ، وأن أصحاب اليمين هم المؤمنون المتواصون بالصبر والمرحمة ، المعتقون للرقاب ، المطعمون لليتامى والمساكين ، شكراً لله على ما أعطاهم من نعم ، وصلة ذلك بمقدمة سورة البقرة واضحة ، فمقدمة سورة البقرة تحدثت عن المتقين والكافرين ، والسورة فصّلت في ذلك .

٢ – عرّفتنا السورة أن الإنسان الذي لم يهذّبه وحي يتصوّر أنّه لاتكليف ولاأحد يقدر عليه . وأنّه يدعي الإنفاق ولا ينفق ، وأنه يكفر بآيات الله ، وأنه لا يساعد في فك الرقاب ، ولا يطعم ولا يؤمن ، ولا يوصي بصبر ولا رحمة ، مع أنّ نشأته وحاله ونعم الله عز وجل عليه ؛ كل ذلك يدعوه إلى غير ذلك .

٣ – عرفتنا السورة أن الطريق إلى أن يعرف الإنسان قدرة الله عز وجل عليه هو أن يرى كيف أنه خلق في مكابدة ، وأن الطريق إلى ترك الدعوى ، أن يعرف رؤية الله عز وجل له . وأن الطريق إلى فعل الخيرات والإيمان ، والتواصي بالصبر والرحمة هو تذكر الإنسان لما أعطاه الله له من العينين واللسان والشفتين ، وهدايته إياه إلى طريق الخير والشر . وهكذا أرتنا السورة أن الإنسان مكلّف ، وأرتنا جوانب من التكليف ، وأرتنا طبيعة الإنسان الذي يرفض التكليف ، وقد رأينا صلة السورة بعضها ببعض ، فلنر ما فصّلته السورة من مقدمة سورة البقرة تفصيلاً :

– ﴿ **الٓمٓ ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .
رأينا في السورة عقوبة الذي يكفر بآيات الله عز وجل ، ورأينا في السورة ضرورة شعور الإنسان بأنه مكلف وأنّه مقدور عليه .

– ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ .
رأينا في السورة أن من صفات أصحاب اليمين الإيمان ، والتواصي بالصبر والمرحمة اللذين هما أثران من آثار الإيمان .

– ﴿ **ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .
رأينا في السورة حضّها على أنواع من الإنفاق ﴿ **فلا اقتحم العقبة .. فك رقبة .. أو إطعام في يوم ذي مسغبة** ﴾ .

– ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ .

رأينا في السورة جزاء الكافرين بآيات الله عز وجل .

- ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

رأينا في السورة مظهراً من مظاهر فلاح المتقين فهم أصحاب اليمين .

- ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

رأينا في السورة مظهراً من مظاهر العذاب العظيم للكافرين ﴿ **عليهم نار مؤصدة** ﴾ .

وهكذا نجد أن السورة هذّبت الإنسان على معان ، وأبعدته عن معان ، وكان في ذلك نوع تفصيل لمقدمة سورة البقرة ، هذا مع أن للسورة سياقها الخاص ، وصلتها بما قبلها ، كما رأينا ، وبما بعدها كما سنرى .

فلننقل الآن بعض الفوائد .

الفـوائد :

١ - فهم بعضهم من قوله تعالى : ﴿ **لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد** ﴾ أن في ذلك وعداً لرسول الله ﷺ بأنه سيفتح مكة ، وتكون له حلالاً ، قال النسفي : (﴿ **وأنت حل بهذا البلد** ﴾ أي : وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ، ذلك أن الله تعالى فتح عليه مكة ، وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ، ولا أحلت له ، فأحل ما شاء وحرم ما شاء ، قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار أبي سفيان ، ونظير قوله : وأنت حل في الاستقبال ، قوله : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ وكفاك دليلاً على أنه للاستقبال أن السورة مكية بالاتفاق وأين الهجرة من وقت نزولها فما بال الفتح) .

أقول : على هذا القول : فإن في الآية بشارة وإخباراً بغيب ، والله أعلم .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في كبد** ﴾ قال صاحب الظلال : (في مكابدة ومشقة ، وجهد وكد ، وكفاح وكدح .. كما قال في السورة الأخرى : ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ ..

الخلية الأولى لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكدح والنصب لتوفر لنفسها

الظروف الملائمة للحياة والغذاء - بإذن ربها - ومازال كذلك حتى تنتهي إلى المخرج، فتذوق من المخاض - إلى جانب ماتذوقه الوالدة - ماتذوق. وما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق في مخرجه من الرحم!.

ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمرّ. يبدأ الجنين ليتنفس هذا الهواء الذي لاعهد له به، ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية! وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة! ويعاني في إخراج الفضلات حتى يروض أمعاءه على هذا العمل الجديد! وكل خطوة بعد ذلك كبد، وكل حركة بعد ذلك كبد. والذي يلاحظ الوليد عندما يهمّ بالحبو وعندما يهم بالمشي يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة.

وعند بروز الأسنان كبد. وعند انتصاب القامة كبد. وعند الخطو الثابت كبد. وعند التعلم كبد. وعند التفكر كبد. وفي كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشي سواء!.

ثم تفترق الطرق، وتتنوع المشاق، هذا يكدح بعضلاته. وهذا يكدح بفكره. وهذا يكدح بروحه. وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء. وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف... وهذا يكدح لملك أو جاه، وهذا يكدح في سبيل الله. وهذا يكدح لشهوة ونزوة. وهذا يكدح لعقيدة ودعوة. وهذا يكدح إلى النار. وهذا يكدح إلى الجنة.. والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحاً إلى ربه فيلقاه! وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء. وتكون الراحة الكبرى للسعداء).

٣ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **ألم نجعل له عينين • ولساناً وشفتين • وهديناه النجدين** ﴾ قال ابن كثير: (وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي الربيع الدمشقي عن مكحول قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: ياابن آدم قد أنعمت عليك نعماً عظاماً لاتحصي عددها، ولاتطيق شكرها، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما، وجعلت لهما غطاء فانظر بعينيك إلى ماأحللت لك، وإن رأيت ماحرمت عليك فأطبق عينيك غطاءهما، وجعلت لك لساناً، وجعلت له غلافاً فانطق بما أمرتك وأحللت لك فإن عرض عليك ماحرمت عليك فأغلق عليك لسانك، وجعلت لك فرجاً وجعلت لك ستراً فأصب بفرجك ماأحللت لك فإن عرض عليك

ماحرمت عليك فأرح عليك سترك ، ابن آدم إنك لاتحمل سخطي ولا تطيق انتقامي !) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ . قال ابن كثير : (وروى ابن جرير عن أبي رجاء قال : سمعت الحسن يقول : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « ياأيها الناس إنهما النجدان : نجد الخير ، ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » وكذا رواه حبيب بن الشهيد ، وأبو معمر ، ويونس بن عبيد ، وأبو وهب عن الحسن مرسلاً وهكذا أرسله قتادة) .

وبمناسبة هذه الآية قال صاحب الظلال : (أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ .. ليختار أيهما شاء ، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أيّ النجدين . والنجد : الطريق المرتفع . وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء ، وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقاً لحكمة الله في الخلق ، وإعطاء كل شيء خلقه ، وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود .

وهذه الآية تكشف عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ، كما أنها تمثل قاعدة (النظرية النفسية الإسلامية) هي والآيات الأخرى في سورة الشمس : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دساها** ﴾) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة** ﴾ قال ابن كثير : روى أحمد عن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة قال : قلت له حدّثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم قال : سمعته يقول : « من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار ، ومن أنفق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أيّ باب شاء منها ») .

روى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة فقال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت

المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة. فقال: يا رسول الله أوليستا بواحدة؟ قال: «لا، إن عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها. والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير».

٦ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة** ﴾ قال ابن كثير: (كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن سلمان بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة» وقد رواه الترمذي والنسائي وهذا إسناد صحيح).

٧ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة** ﴾ قال ابن كثير: (كما جاء في الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» وفي الحديث الآخر: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس». وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو يرويه قال: «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا»).

وبمناسبة هذه الآية قال صاحب الظلال: (والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة. والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته. درجة تماسك الجماعة المؤمنة، وتواصيها على معنى الصبر، وتعاونها على تكاليف الإيمان. فهي أعضاء متجاوبة الحس، تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه، فيوصي بعضها بعضاً بالصبر على العبء المشترك، ويثبت بعضها بعضاً فلا تتخاذل، ويقوي بعضها بعضاً فلا تنهزم. وهذا أمر غير الصبر الفردي. وإن يكن قائماً على الصبر الفردي. وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة. وهو ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام، ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة.

وكذلك التواصي بالمرحمة. فهو أمر زائد على المرحمة. إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به، والتحاض عليه، واتخاذه واجباً جماعياً فردياً في الوقت ذاته، يتعارف عليه الجميع، ويتعاون عليه الجميع.

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه. وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما يبرز

أحاديث رسول الله ﷺ ؛ لأهميته في تحقيق حقيقة هذا الدين ، فهو دين جماعة ، ومنهج أمة ، مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردي فيه وضوحاً كاملاً ..) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة** ﴾ كما قال ابن كثير : (وقال قتادة : (مؤصدة) مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد ، وقال أبو عمران الجوني : إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره فأوثقوه بالحديد ، ثم أمر بهم إلى جهنم ، ثم أوصدوها عليهم أي : أطبقوها قال : فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبداً ، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبداً ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبداً ، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبداً . رواه ابن أبي حاتم .

ولننتقل إلى سورة والشمس وضحاها .

☆ ☆ ☆

سورة الشمس

وهي السورة الحادية والتسعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الثانية عشرة من
قسم المفصل ، وهي خمس عشرة آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

بين يدي سورة الشمس :

قدم ابن كثير لسورة الشمس وضحاها بقوله : (تقدم حديث جابر الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : «هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى ؟») .

وقال الألوسي في تقديمه لهذه السورة : (ولما ختم سبحانه السورة المتقدمة بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، أعاد جل شأنه في هذه السورة الفريقين على سبيل الفذلكة بقوله سبحانه : ﴿ **قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسّاها** ﴾ وفي هذه ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ وهو كالبيان لقوله تعالى في الأولى : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ على أول التفسيرين ، وختم سبحانه الأولى بشيء من أحوال الكفرة في الآخرة وختم جل وعلا هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا) .

وقال صاحب الظلال : (هذه السورة القصيرة ذات القافية الواحدة ، والإيقاع الموسيقي الموحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التي تبدأ السورة والتي تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التي تتضمنها السورة . حقيقة النفس الإنسانية ، واستعداداتها الفطرية ، ودور الإنسان في شأن نفسه ، وتبعته في مصيرها .. هذه الحقيقة التي يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة .

كذلك تتضمن قصة ثمود ، وتكذيبها بإنذار رسولها ، وعقرها للناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها . وهي نموذج من الخيبة التي تصيب من لا يزكي نفسه ، فيدعها للفجور ، ولا يلزمها تقواها : كما جاء في الفقرة الأولى في السورة : ﴿ **قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾ ..) .

كلمة في سورة الشمس :

في مقدمة سورة البقرة يختم الكلام عن المتقين بقوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ وفي سورة الشمس تأتي أقسام جوابها : ﴿ **قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسّاها** ﴾ فتحدّد سورة الشمس طريق الفلاح ، وطريق الخسران ، فبالتقوى يكون الفلاح ، وبتزكية النفس يكون الفلاح ، فالمقامان واحد ، ثم تحدثنا سورة الشمس عن أمة كذبت فعوقبت في الدنيا ، ولذلك صلته كذلك بمحور

السورة من سورة البقرة ، ومن هذا ندرك أن سورة الشمس المبدوءة بقسم تفصّل في مقدمة سورة البقرة . ككل سورة مبدوءة بقسم ، وهو معنى سنبرزه بالتفصيل أثناء عرض السورة .

في سورة البلد ورد قوله تعالى : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ وفي سورة الشمس يأتي قوله تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ وفي سورة البلد دعوة إلى اقتحام العقبة ، وهي عقبة نفسية ينبغي أن نقتحم بالعمل الصالح ، وفي سورة الشمس دعوة لتزكية النفس : ﴿ **قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾ فالمقامان متكاملان .

وفي سورة الفجر يرد قوله تعالى : ﴿ **وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد** ﴾ وفي سورة الشمس يأتي قوله تعالى : ﴿ **كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ،** .. ﴾ فهنا تشرح سورة الشمس مظهراً من مظاهر طغيان ثمود وإفسادها . فالسورة إذن تكمل المعاني الواردة في مجموعتها .

فسورة الفجر تهيء لسلوك الطريق ، وسورة البلد تحدد معالم في الطريق ، وسورة الشمس تبين صلة الطريق بتزكية النفس ، وأن الفلاح معلّق على ذلك ، وهكذا نجد سور المجموعة كل منها تكمّل الأخرى ، وكل منها لها سياقها الخاص. وسيتضح لنا هذا بشكل أوسع كلما خطونا خطوة في العرض ، وسنعرض سورة الشمس على مرحلتين ، كل مرحلة نعرض فيها فقرة منها ؛ لأنها تتألف من فقرتين واضحتي المعالم مترابطتين ، الفقرة الأولى تنتهي بنهاية الآية (١٠) . والفقرة الثانية تنتهي بنهاية الآية (١٥) أي : بنهاية السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتدّ من بداية السورة حتى نهاية الآية (١٠) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

التفسير :

﴿ **والشمس وضحاها** ﴾ للشمس دائماً ضحى . ففي أيّ لحظة من اللحظات يكون على وجه الأرض ضحى للشمس ، وقد أقسم الله عز وجل في هذه الآية بالشمس وضحاها الدائم ، وفي ذلك معجزة من معجزات هذا القرآن ﴿ **والقمر إذا تلاها** ﴾ أي : إذا جاء بعد الشمس مباشرة ، وذلك يكون عندما يكون القمر بدراً فإنه يأتي بعد الشمس مباشرة ﴿ **والنهار إذا جلّاها** ﴾ أي : إذا جلا الشمس . قال النسفي : أي : جلا الشمس وأظهرها للرائين . أقول : وفي ذلك معجزة كونية أخرى ، إذ الظاهر . أن الشمس هي التي تجلي النهار ، وذلك يكون لو كانت الأرض ثابتة ، أما والأرض تدور حول محورها فإنّ النهار هو الذي يجلّي الشمس ويظهرها ، فدورة الأرض هي التي تخفي الشمس أو تبديها ؛ ولغياب هذا المعنى عن المفسرين قديماً اضطرب كلامهم في تفسير الآية . فتأوّل بعضهم الآية وصرف بعضهم الضمير عن الشمس . قال النسفي : وقيل الضمير للظلمة أو للدنيا أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر . أقول : وما قاله النسفي في عود الضمير إلى الظلمة قريب . ﴿ **والليل إذا يغشاها** ﴾ قال ابن كثير : يعني : إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق ، وقال النسفي : أي : يستر الشمس فتظلم الآفاق .

أقول: فالليل إذن هو الذي يستر الشمس ويحجبها، وليست هي التي تحتجب، وذلك مرتبط بموضوع دوران الأرض، فالآية تكمّل المعنى السابق؛ ففيها معجزة كونية مع الإعجاز ﴿ **والسماء وما بناها** ﴾ قال ابن كثير: يحتمل أن تكون (ما) ههنا مصدرية بمعنى: والسماء وبنائها. وهو قول قتادة، ويحتمل أن تكون بمعنى (مَنْ) يعني: والسماء وبانيها وهو قول مجاهد ﴿ **والأرض وما طحاها** ﴾ قال مجاهد: طحاها أي: دحاها. أقول: والدحو فيه معنى الكروية وعامة المفسّرين فسر الطحو والدحو بالبسط فقط وهو غفلة عن مجموع ما تستعمل له هاتان الكلمتان في اللغة العربية، فالأدحية والأدحوة مبيض النّعام في الرمال، ومبيض النعام في الرمال فيه معنى الكروية، وتقدير الكلام: والأرض وطحوها أو والأرض وطاحيها وهو الله عز وجل. ﴿ **ونفس وما سوّاها** ﴾ قال ابن كثير: أي: سوية مستقيمة على الفطرة القويمة ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ قال النسفي: أي: فأعلمها طاعتها ومعصيتها، أفهمها أن أحدهما حسن والآخر قبيح، وقال ابن كثير: أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها أي: بيّن ذلك لها وهداها إلى ما قدّر لها ﴿ **قد أفلح مَنْ زكّاها . وقد خاب مَن دساها** ﴾ هذا جواب القسم، ومعنى: زكاها طهّرها وأصلحها وجعلها زاكية، ومعنى دسّاها نقصها وأخفاها بالفجور، قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾: يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه أي: بطاعة الله كما قال قتادة وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ويروى نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير. أقول: وهو المعنى الذي لا يحتمل غيره وقال ابن كثير في قوله تعالى ﴿ **وقد خاب من دسّاها** ﴾: أي: دسّسها أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي، وترك طاعة الله عز وجل. أقول: إن ربط الفلاح بالتزكية، والخسران بالتدسية قضية أخروية دنيوية فلا فلاح في دنيا وأخرى إلا بتزكية النفس، ولا خسران في الدنيا والأخرى أفظع من تدسيتها، واستعمال لفظ التزكية والتدسية يشير إلى أن التزكية تنمية للنفس، بينما التدسية إخفاء لها وكبت فلا تنمو النفس البشرية إلا بالإسلام، ومتى ترك الإنسان الإسلام فإنه يخسر نفسه ويخنقها في أطر من الحيوانية الرخيصة.

كلمة في السياق:

١ - علقت الفقرة السابقة الفلاح بتزكية النفس والخسران بتدسيتها ولكنها لم تفصّل في كيفية التزكية والتدسية، وبالربط بين السورة ومحورها نعرف طريقة التزكية

والتدسية فمحور السورة يقول : ﴿ الۤمۤ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

فهذا هو طريق التزكية ، والتحقق بهذه المعاني هو التزكية ، ومحور السورة يقول : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ .

فهذا طريق التدسية : رفض الإنذار ، وعدم الاستفادة منه .

٢ - وكما عرفنا ماهية التزكية من خلال الرّبط بمحور السورة فإننا نعرفه مما قبلها ، ومما بعدها ، ففي سورة البلد ورد قوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين . فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة . يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة . ثمّ كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ فهكذا نجد الخير وهو نفسه التقوى ، وفيه زكاة النفس ، وسنرى في سورة الليل : ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴾ ممّا يشير إلى أنّ سورة الليل تفصّل في موضوع التزكية وهو شيء بديهي ، فمادامت سورة الشمس وسورة الليل تفصلان في محور واحد فلابد أن يكون التكامل بين المعاني قائماً .

٣ - مما ذكرنا تتضح صلة السورة بما قبلها وما بعدها من سور مجموعتها ، كما تتضح صلة السورة بمحورها من سورة البقرة .

لاحظ قوله تعالى في السورة : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وصلته بالكلام عن المتقين والكافرين في أول سورة البقرة . ولاحظ قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ وصلته بالكلام الوارد عن الكافرين والمتقين هناك .

٤ - من قوله تعالى : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دسّاها ﴾ نعلم أن التدسية فجور ، وأن التزكية تقوى ، وهناك صلة بين الفجور ورفض الإنذار ، وبين التزكية والاهتداء بكتاب الله والصلاة والزكاة والإيمان ، وهي المعاني التي تعرضت لها مقدمة سورة البقرة .

٥ - بعد أن قرر الله عز وجل أن الفلاح بتزكية النفس ، وأن الخسران بتدسيتها ،

تأتي الفقرة الثانية في السورة لترينا نموذجاً على التدسية والفجور ، ونتائجهما من الخسران فهي نموذج على الخسران الذي يصيب أهل التدسية والفجور ، فلنر الفقرة الثانية .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (١١) إلى نهاية السورة ، أي إلى نهاية الآية (١٥) وهذه هي :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

التفسير :

﴿ **كذبت ثمود بطغواها** ﴾ قال النسفي : أي : بطغيانها إذ الحامل لهم على التكذيب طغيانهم . وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذّبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي . أقول : دلّت الآية على أنّه مما ينبثق عن الطغيان تكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وعرفنا من السياق أنّ الطغيان فجور ، وتدسية للنفس ، وأنّ التكذيب للرسل فجور وتدسية للنفس ﴿ **إذ انبعث أشقاها** ﴾ أي : أشقى القبيلة قام بأمر ذبح الناقة الذي يمثل ذروة الطغيان والتكذيب أي : التدسية والفجور فالتعبير بالانبعاث لهذا القصد اللعين فيه إشارة إلى التصميم الخبيث المنبثق عن طغيان شديدة بواعثه ﴿ **فقال لهم رسول الله** ﴾ أي : صالح عليه السلام ﴿ **ناقة الله وسقياها** ﴾ قال ابن كثير : أي : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ﴿ **وسقياها** ﴾ أي : لا تعتدوا عليها في

سقياها فإن لها شِرْب يوم ولكم شِرْب يوم معلوم ﴿ **فكذّبوه** ﴾ أي: فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا ﴿ **فعقروها** ﴾ أي: فعقروا الناقة ، والعاقر واحد ولكن لرضاهم به اعتبروا جميعاً عاقرين ، وكذلك الأمر في كل من يرضى عن معصية؛ فإنه يكون شريكاً فيها وإن لم يمارسها . قال ابن كثير في الآية : أي: كذّبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم . ﴿ **فدمدم عليهم ربهم** ﴾ أي: فغضب عليهم فأهلكهم هلاك استئصال ﴿ **بذنبهم** ﴾ أي: بسبب ذنبهم وهو تكذيبهم الرسول وعقرهم الناقة ﴿ **فسواها** ﴾ . قال النسفي : أي: فسوّى الدمدمة عليهم ، لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم ، وقال ابن كثير : أي: فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء ﴿ **ولايخاف عقباها** ﴾ قال النسفي : أي: ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة أي: فعل ذلك غير خائف أن تلحقه تبعة من أحد، كما يخاف من يعاقب من الملوك . وقال ابن كثير : قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة .

كلمة في السياق :

١ - رأينا في هذه الفقرة نموذجاً على الفجور وعلى تدسية النفس وعلى خسران أصحاب ذلك ولذلك صلته بسياق السورة الخاص .

٢ - عرفنا من الفقرة أن التكذيب أثر الطغيان ، وأن التكذيب ينبثق عنه من الشرور والآثام والفظائع الكبير والكثير فعلّة المشكلات طغيان النفس .

٣ - في مقدمة سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

ومن الفقرة الأخيرة عرفنا أن الختم على القلوب هو عقوبة على فعل العبد ، فهؤلاء ثمود وهم نموذج على الكفر الخالص الذي لا ينفع معه إنذار . هؤلاء طغيانهم جرّهم إلى التكذيب وتكذيبهم جرّهم إلى الاعتداء على ناقة الله ومن ثم ندرك سبباً من أسباب ختم الله عز وجل على قلوب الكافرين .

مما مرّ عرفنا سياق السورة الخاص ، وصلتها بمحورها وصلتها بما قبلها وما بعدها .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والليل إذا يغشاها** ﴾ قال ابن كثير : (وقال بقية بن الوليد عن صفوان حدثني يزيد بن حماد قال : إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله : غشي عبادي خلقي العظيم ، فالليل يهاب والذي خلقه أحق أن يهاب . رواه ابن أبي حاتم) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ قال ابن كثير : (أي : خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله** ﴾ وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » أخرجاه من رواية أبي هريرة وفي صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعي عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » .

وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾ قال صاحب الظلال : (وهذه الآيات الأربع ، بالإضافة إلى آية سورة البلد السابقة : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ .. وآية سورة الإنسان : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ . تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام .. وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان كقوله تعالى في سورة (صٓ) : ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾ .. كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التي تقرر التبعة الفردية : كقوله تعالى في سورة المدثر : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ .. والآيات التي تقرر أن فعل الله بالإنسان له صلة بواقع هذا الإنسان ، كقوله تعالى في سورة الرعد : ﴿ **إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم** ﴾ .

ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها ..

إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال . فهو قادر

على التمييز بين ماهو خير وماهو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء . وأن هذه القدرة كامنة في كيانه ، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة : ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ . ويعبر عنها بالهداية تارة . ﴿ **فهديناه النجدين** ﴾ .. فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد .. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك . ولكنها لا تخلقها خلقاً . لأنها مخلوقة فطرة وكائنة طبعاً ، وكامنة إلهاماً .

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان . هي التي تناط بها التبعة . فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها . وتغليبه على استعداد الشر .. فقد أفلح . ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب : ﴿ **قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها** ﴾ ..

وهنالك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه . توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء . فهي حرية تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تكليف ، ومنحة يقابلها واجب .

ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي ، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف . فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له عن موجبات الإيمان . ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله ، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة .. وبذلك يتضح له الطريق وضوحاً كاشفاً لا غبش فيه ولا شبهة فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه . وهذه في جملتها هي مشيئة الله بالإنسان . وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام)

وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الطبراني عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ وقف ثم قال : « اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها » . وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم : قال كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر ، اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ،

أنت وليها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن . رواه مسلم بسنده عن زيد بن أرقم) .

٣ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إذ انبعث أشقاها** ﴾ قال ابن كثير : (أي : أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف عاقر الناقة ، وهو أحيمر ثمود وهو الذي قال الله تعالى : ﴿ **فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر** ﴾ الآية ، وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم شريفاً في قومه نسيباً رئيساً مطاعاً . كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن زمعة قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : « إذ انبعث أشقاها ، انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة » ورواه البخاري في التفسير ، ومسلم في صفة النار ، والترمذي ، والنسائي في التفسير من سننيهما وكذا ابن جرير وابن أبي حاتم عن طوق عن هشام بن عروة به . وروى ابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : « ألا أحدثك بأشقى الناس » قال : بلى قال : « رجلان : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذا ــ يعني قرنه ــ حتى تبتل منه هذه » يعني : لحيته) .

☆ ☆ ☆

ولننتقل إلى سورة الليل .

سورة الليل

وهي السورة الثانية والتسعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة من المجموعة الثانية عشرة من
قسم المفصل ، وهي إحدى عشرة آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

بين يدي سورة الليل :

قدّم ابن كثير لسورة الليل بقوله : (تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ « فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » .

وقال الألوسي في تقديمه لهذه السورة :

(ولما ذكر سبحانه فيما قبلها ﴿**قد أفلح** ..﴾ الخ ، ذكر سبحانه فيها من الأوصاف ما يحصل به الفلاح وما يحصل به الخيبة ، ففيها نوع تفصيل لذلك ، لا سيما وقد عقّب جل وعلا ذلك بشيء من أنواع الفلاح وأنواع الخيبة والعياذ بالله تعالى) .

وقال صاحب الظلال : (في إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء . ولما كانت هذه الحقيقة متنوعة المظاهر : ﴿ **إن سعيكم لشتى** * **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى** * **وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى** ﴾ .. وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة : ﴿ **فأنذرتكم ناراً تلظى** * **لا يصلاها إلا الأشقى** * **الذي كذّب وتولى** * **وسيجنبها الأتقى** * **الذي يؤتي ماله يتزكى** .. ﴾ .

لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين ، وذات اتجاهين .. كذلك كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذا لونين في الكون وفي النفس سواء : ﴿ **والليل إذا يغشى** * **والنهار إذا تجلى** ﴾ .. ﴿ **وما خلق الذكر والأنثى** ﴾ .. وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني) .

كلمة في سورة الليل ومحورها :

تبدأ سورة الليل بقَسَم ﴿ **والليل** ﴾ وذلك كما رأينا علامة على أنها تفصّل في مقدمة سورة البقرة أي : في شأن المتقين والكافرين في قضية التقوى والكفر ، ومن ثم نجد فيها قوله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى** ﴾ ونجد فيها : ﴿ **وسيجنبها الأتقى** ﴾ ونجد فيها : ﴿ **فأنذرتكم ناراً تلظى** * **لا يصلاها إلا الأشقى** ﴾ مما يشير إلى ما ذكرناه .

والسورة تتصل بمجموعتها بكثير من الروابط ، ففي سورة البلد : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ وفي سورة الشمس : ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ ونجد في سورة الليل : ﴿ **إن سعيكم لشتى** * **فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره**

لليسرى .. ﴾ وفي سورة الشمس ورد قوله تعالى: ﴿ **قد أفلح من زكّاها** ﴾ وفي سورة الليل نجد قوله تعالى ﴿ **وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى** ﴾ فسورة الليل تكمّل المعاني الواردة في سور مجموعتها وهو شيء عادي مادامت تفصّل في نفس المحور .

تتألف السورة من فقرتين : الفقرة الأولى تستمر حتى نهاية الآية (١١) والفقرة الثانية تستمر حتى نهاية السورة أي : إلى نهاية الآية (٢١) ، ولنبدأ عرض السورة .

الفقرة الأولى

وتمتدّ من بداية السورة حتى نهاية الآية (١١) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾

التفسير :

﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ قال ابن كثير : أي : إذا غشى الخليقة بظلامه ، أي : إذا غطّاها وواراها ظلامه ﴿ **والنهار إذا تجلى** ﴾ أي : ظهر بزوال ظلمة الليل . قال ابن كثير : أي : بضيائه وإشراقه ﴿ **وما خلق الذكر والأنثى** ﴾ قال النسفي : أي : والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد . قال ابن كثير : ولمّا كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضاً متضاداً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إنّ**

سعيكم لشتى ﴾ هذا جواب القسم ، والمعنى : إن عملكم مختلف . قال ابن كثير : أي : أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضاً ، ومتخالفة فمن فاعل خيراً ومن فاعل شراً . قال النسفي : وبيان الاختلاف فيما فصّل على أثره ﴿ **فأما من أعطى** ﴾ أي : حقوق ماله ﴿ **واتقى** ﴾ ربّه فاجتنب محارمه ، وأدّى ماافترض . قال ابن كثير : أي : أعطى ماأمر بإخراجه واتقى الله في أمره ﴿ **وصدّق بالحسنى** ﴾ قال النسفي : (أي : بالملة الحسنى . وهي ملّة الإسلام ، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة ، أو بالكلمة الحسنى وهي لاإله إلا الله) ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ قال النسفي : (أي : فسنهيئه للملة اليسرى ، وهي العمل بما يرضاه ربه) . قال ابن كثير : قال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وأما من بخل** ﴾ بماله ﴿ **واستغنى** ﴾ عن ربه فلم يتقه ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى ﴿ **وكذّب بالحسنى** ﴾ قال ابن كثير : أي : بالجزاء في الدار الآخرة . وقال النسفي : (أي : بالإسلام أو الجنة) ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ . قال النسفي : (أي : للخلة المؤدية إلى النار فتكون الطاعة أعز شيء عليه وأشدّ ، أو سمّى طريقة الخير باليسرى ؛ لأن عاقبتها اليسر ، وطريقة الشر بالعسرى ، لأن عاقبتها العسر أو أراد بها طريقي الجنة والنار) ﴿ **ومايغني عنه ماله إذا تردّى** ﴾ أي : وما ينفعه ماله إذا هلك أو تردّى في القبر أو في جهنم أي : سقط .

كلمة في السياق :

١ - عرفنا من الفقرة أن العطاء والتقوى والتصديق بالجنة جزاؤه التيسير للخير والجنة ، وأن البخل والاستغناء عن الله عز وجل ، والتكذيب بالجنة ، جزاؤه التيسير في طريق الشر والنار ، وأن هذا أو هذا هو السبب الأصيل في اختلاف أعمال العباد ، وعلى هذا فبداية السير إلى الله عز وجل الإنفاق والتقوى والإيمان . ولذلك صلته بمحور السورة : ﴿ **الٓمٓ . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

ثم نعلم أن بداية السير في طريق الكفر هو البخل والاستغناء عن الله عز وجل والتكذيب بالجنة ولذلك صلته بمحور السورة من سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى**

أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ .

٢ - ورد في سورة الشمس قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾ وقد عرفنا من الفقرة طريق التزكية والتدسية ، وورد في سورة البلد السابقة على سورة الشمس : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ وقد رأينا في الفقرة ماهو سبب الهداية إلى طريق الخير ، وماهو السبب في الهداية إلى طريق الشر ، فسورة الليل تكمّل مجموعتها وتزيد في البيان .

٣ - ثمّ تأتي فقرة ثانية تكمّل وتفصّل وتنذر ، فبعد أن بيّن الله عز وجل سبب التيسير إلى الجنة . وذكر سبب التيسير في طريق النار ، تأتي الفقرة الثانية مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إن علينا للهدى** ... ﴾ لنبيّن أنّ الله عز وجل بيّن ، وأنّ الإنسان هو الذي يختار طريق الخير أو طريق الشر بسلوك أيّ الطريقين ، فلنر الفقرة الثانية .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (١٢) إلى نهاية (٢١) أي إلى نهاية السورة وهذه هي :

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

التفسير :

﴿ **إن علينا للهدى** ﴾ قال قتادة أي: تبيين الحلال والحرام، وقال النسفي: (أي: إن علينا الإرشاد إلى الحق بنصب الدلائل وبيان الشرائع) ﴿ **وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾ قال ابن كثير: أي: الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما. وقال النسفي: (فلا يضرنا ضلال من ضل، ولاينفعنا اهتداء من اهتدى، أو أنهما لنا فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق) ﴿ **فأنذرتكم** ﴾ أي: فخوّفتكم ﴿ **ناراً تلظّى** ﴾ أي: تتلهّب ﴿ **لايصلاها إلا الأشقى** ﴾ أي: لايدخلها للخلود فيها إلا الكافر، قال ابن كثير: أي: لايدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى. ثم فسّره فقال: ﴿ **الذي كذّب** ﴾ أي: بقلبه ﴿ **وتولّى** ﴾ أي: عن العمل بجوارحه وأركانه ﴿ **وسيجنّبها** ﴾ أي: وسيُبعد عنها ﴿ **الأتقى** ﴾ أي: المؤمن العامل. قال ابن كثير: أي: وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسّره بقوله: ﴿ **الذي يؤتي ماله** ﴾ أي: للفقراء ﴿ **يتزكّى** ﴾ من الزكاء أي: يطلب أن يكون عند الله زكياً لايريد به رياءً ولاسمعة. وقال ابن كثير: (أي: يصرف ماله في طاعة ربه؛ ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا. قال أبو عبيدة: الأشقى بمعنى الشقي، وهو الكافر، والأتقى بمعنى التقي، وهو المؤمن؛ لأنه لايختص بالصليّ أشقى الأشقياء، ولا بالنّجاة أتقى الأتقياء) ثمّ أكمل الله عز وجل وصف الأتقى فقال: ﴿ **وما لأحد عنده من نعمة تجزى** ﴾ أي: ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفاً فهو يعطي مقابلة ذلك، وإنما دفعه لذلك ﴿ **إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى** ﴾ قال ابن كثير: أي: طمعاً في أن يحصل له رؤية في الدار الآخرة في روضات الجنات. ﴿ **ولسوف يرضى** ﴾ هذا وعد بالثواب الذي يرضيه ويقر عينه. قال ابن كثير: أي: ولسوف يرضى من اتّصف بهذه الصّفات.

كلمة في السياق :

١ - في هذه الفقرة بيّن الله عزّ وجلّ أن الله بيّن والإنسان يختار. فقال: ﴿ **إن علينا للهدى** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى في محور السورة: ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ واضحة فهذا القرآن فيه الهدى وعلى الإنسان أن يختار.

٢ - وفي هذه الفقرة بيّن الله عز وجل أن اختيار الهدى لايترتب عليه ضرر، لأن الله هو مالك كل شيء ﴿ **وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى عن

المتقين: ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ واضحة.

٣ - في هذه الفقرة أنذر الله عز وجل عباده ناره التي يصلاها الأشقى ويجنبها الأتقى وصلة ذلك بقوله تعالى عن المتقين ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ وبقوله تعالى عن الكافرين: ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ واضحة.

٤ - وصف الله عز وجل الأتقى في الفقرة بالإنفاق الخالص وصلة ذلك بقوله تعالى عن المتقين في مقدمة سورة البقرة: ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ واضحة. وتخصيص هذه الصفة بالذكر؛ لأن الإنفاق في سبيل الله هو البرهان على التقوى، قال عليه الصلاة والسلام «والصدقة برهان». فإذا اتضحت هذه المعاني كلها. عرفنا صلة السورة بمقدمة سورة البقرة، ومن قبل عرفنا صلة السورة بما قبلها، والآن فلنلخّص السياق الخاص للسورة:

٥ - عرفنا في الفقرة الأولى سرّ اختلاف الناس في العمل، وأنّ مرجعه إلى موقف رئيسي هو البخل والعطاء، والتقوى والاستغناء، والتكذيب والتصديق يترتب على هذا أو ذاك تيسير إلى طريق الخير أو طريق الشر، ثمّ بيّن الله عز وجل في الفقرة الثانية أن الله يبيّن، وعلى الإنسان أن يختار، ثمّ أنذر الله عز وجل من يختار طريق الضلال، وبشّر من يختار طريق الهداية، ومرة ثانية ذكر أنّ الإنفاق في سبيل الله عز وجل أصل أصيل في الطريق، وأن من يفعل ذلك فسيكافئه الله عز وجل وسيرضيه؛ وبهذا نكون قد عرفنا السياق الخاص للسورة، وعرفنا صلة السورة بمحورها، وصلتها بما قبلها، وسنرى صلتها بما بعدها.

الفـوائد:

١ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **إن سعيكم لشتى * فأما من أعطى واتقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى** ﴾ قال صاحب الظلال: (إن سعيكم لشتى.. مختلف في حقيقته، مختلف في بواعثه، مختلف في اتجاهه. مختلف في نتائجه.. والناس في هذه الأرض تختلف طبائعهم، وتختلف مشاربهم، وتختلف تصوراتهم، وتختلف اهتماماتهم، حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص.

هذه حقيقة. ولكن هناك حقيقة أخرى. حقيقة إجمالية تضم أشتات البشر جميعاً،

وتضم هذه العوالم المتباينة كلها . تضمها في حزمتين اثنتين ، وفي صفين متقابلين ، تحت رايتين عامتين . ﴿ **من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى** ﴾ .. و ﴿ **من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى** ﴾ .. من أعطى نفسه وماله . واتقى غضب الله وعذابه . وصدّق بهذه العقيدة التي إذا قيل ﴿ **الحسنى** ﴾ كانت اسماً لها وعلماً عليها .

ومن بخل بنفسه وماله . واستغنى عن الله وهداه . وكذب بهذه الحسنى ..

هذان هما الصفان اللذان يلتقي فيهما شتات النفوس ، وشتات السعي ، وشتات المناهج ، وشتات الغايات . ولكل منهما في هذه الحياة طريق .. ولكل منهما في طريقه توفيق !) .

٢ - عند قوله تعالى : ﴿ **وصدّق بالحسنى** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى قال : « الحسنى الجنة ») .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ في المؤمن و ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ في الكافر . قال ابن كثير : (والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل يجازي من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدّر ، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة .

(رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه) روى الإمام أحمد عن طلحة بن عبيد الله ابن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن أبيه قال : سمعت أبي يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول : قلت لرسول الله ﷺ : يارسول الله أنعمل على مافرغ منه أو على أمر مؤتنف ؟ قال : « بل على أمر قد فرغ منه » قال ففيم العمل يارسول الله ؟ قال : « كل ميسر لما خلق له » .

(رواية علي رضي الله عنه) روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال : « مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » فقالوا : يارسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : « اعملوا فكل ميسّر لما خلق له » ثم قرأ ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى** ﴾ إلى قوله ﴿ **للعسرى** ﴾ .

(حديث آخر) روى ابن جرير عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان بنداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين :

أبيهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً» وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى** ﴾ ورواه ابن أبي حاتم ...

روى ابن جرير - ذاكراً أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه - عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني أراك تعتق أناساً ضعفاء فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك؟ فقال: أي أبت إنما أريد - أظنه قال - ماعند الله، قال: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى** ﴾ ...).

٤ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **فأنذرتكم ناراً تلظى** ﴾ روى ابن كثير: (روى الإمام أحمد عن سماك بن حرب قال: سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: «أنذرتكم النار» حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا، قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه. وروى الإمام أحمد عن أبي إسحاق قال: سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه» رواه البخاري. وروى مسلم عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل مايرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً»).

٥ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **لا يصلاها إلا الأشقى** ﴾ قال ابن كثير: (روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي» قيل: ومن الشقي؟ قال: «الذي لا يعمل بطاعة ولا يترك لله معصية» وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى» قالوا: ومن يأبى يارسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» ورواه البخاري.

٦ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى ...** ﴾ قال ابن كثير: (وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولاشك أنه

داخل فيها وأولى الأمة بعمومها ؛ فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى :
﴿ **وسيجنبها الأتقى ۝ الذي يؤتي ماله يتزكى ۝ وما لأحد عنده من نعمة تجزى** ﴾
ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذّالاً لأمواله في طاعة مولاه ، ونصرة رسول الله ﷺ فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل ، ولهذا قال له عروة بن مسعود – وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية – : أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك ، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم ، ولهذا قال تعالى :
﴿ **وما لأحد عنده من نعمة تجزىٰ ۝ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى** ﴾ .
وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير » فقال أبو بكر يارسول الله ماعلى من يدعى منها ضرورة ، فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : « نعم وأرجو أن تكون منهم ») .

☆ ☆ ☆

سورة الضحى

وهـي الـسـورة الثالثة والتسعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الخامسة من المجموعة الثانية عشرة من
قسم المفصل ، وهي إحدى عشرة آية
وهـي مكيـة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة الضحى :

قدّم ابن كثير لسورة الضحى بقوله : (روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقري قال : قرأت على عكرمة بن سليمان وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد فلما بلغت والضحى قالا لي : كبّر حتى تختم مع خاتمة كل سورة ، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك ، وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك ، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك ، وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك ، فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة ، وكان إماماً في القراءات . فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال : لا أحدث عنه ، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال : هو منكر الحديث ، لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة فقال : أحسنت وأصبت السنة ، وهذا يقتضي صحة هذا الحديث . ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته فقال بعضهم : يكبر من آخر ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ وقال آخرون : من آخر ﴿ **والضحى** ﴾ وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ، ويقتصر ، ومنهم من يقول : الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر . وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاء الملك فأوحى إليه ﴿ **والضحى ⋅ والليل إذا سجى** ﴾ السورة بتمامها كبّر فرحاً وسروراً ، ولم يروَ بإسناد ذلك حكم عليه بصحة ، ولا ضعف ، فالله أعلم) .

وفي أسباب نزول هذه السورة قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن الأسود بن قيس قال : سمعت جندباً يقول : اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتت امرأة فقالت : يامحمد ماأرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله عز وجل : ﴿ **والضحى ⋅ والليل إذا سجى ⋅ ماودّعك ربك وماقلى** ﴾ رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه . وقد ذكر بعض السلف - منهم ابن إسحاق - أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها ، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح ﴿ **فأوحى إلى عبده ماأوحى** ﴾ قال : قال له هذه : ﴿ **والضحى ⋅ والليل إذا سجى** ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودّعه ربه وقلاه فأنزل الله : ﴿ **ماودّعك ربك وماقلى** ﴾) .

وقدّم الألوسي هذه السورة بقوله : (مكية . وآيها إحدى عشرة آية بلا خلاف . ولما ذكر سبحانه فيما قبلها ﴿ **وسيجنبها الأتقى** ﴾ وكان سيد الأتقين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، عقّب سبحانه ذلك بذكر نعمه عز وجل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال الإمام : لما كانت الأولى سورة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، وهذه سورة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، عقّب جل وعلا بها ، ولم يجعل بينهما واسطة ، ليعلم أن لا واسطة بين رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والصديق رضي الله تعالى عنه ، وتقديم سورة الصديق على سورته عليه الصلاة والسلام لا يدل على أفضليته منه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ألا ترى أنه تعالى أقسم أولاً بشيء من مخلوقاته سبحانه ، ثم أقسم بنفسه عز وجل في عدة مواضع منها السورة السابقة على ما علمت ، والخدم قد تتقدم بين يدي السادة ، وكثير من السنن أمر بتقديمه على فروض العبادة ، ولا يضر النور تأخره عن أغصانه ، ولا السنان كونه في أطراف مرانه ، ثم إن ما ذكره زهرة ربيع لا تتحمل الفرك كما لا يخفى) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لهذه السورة : (هذه السورة بموضوعها ، وتعبيرها ، ومشاهدها ، وظلالها وإيقاعها ، لمسة من حنان . ونسمة من رحمة . وطائف من ود . ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع ، وتنسم بالروْح والرضى والأمل . وتسكب البرد والطمأنينة واليقين .

إنها كلها خالصة للنبي ﷺ كلها نجاء له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين . كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود ، وألطاف من القربى ، وهدهدة للروح المتعب ، والخاطر المقلق ، والقلب الموجوع) .

كلمة في سورة الضحى ومحورها :

تنتهي سورة الليل بقوله تعالى : ﴿ **ولسوف يرضى** ﴾ ويأتي في سورة الضحى قوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ ومر معنا في سورة الليل قوله تعالى : ﴿ **وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾ ويأتي في سورة الضحى قوله تعالى : ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى** ﴾ ومَرّ معنا في سورة الليل قوله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى** .. ﴾ ، ﴿ **الذي يؤتي ماله يتزكى** ﴾ ويأتي في سورة الضحى قوله تعالى : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر** .. ﴾ ومن هذا ندرك صلة سورة الضحى بسورة الليل قبلها .

ومن قبل في سورة الفجر التي هي بداية المجموعة الثانية عشرة مرّ معنا قوله تعالى: ﴿ **كلا بل لاتكرمون اليتيم ولاتحاضّون على طعام المسكين** ﴾ ثم مرّ معنا في سورة البلد قوله تعالى: ﴿ **فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فكّ رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة** .. ﴾ وههنا نجد ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر** .. ﴾ ومن ههنا ندرك أن الصلة بين سورة الضحى ومجموعتها واضحة .

في سورة البلد مرّ معنا قوله تعالى: ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ وفي سورة الشمس مرّ معنا قوله تعالى: ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ وفي سورة الليل مرّ قوله تعالى: ﴿ **إن سعيكم لشتى** ﴾ وفي سورة الضحى يأتي قوله تعالى: ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ وفي ذلك تكامل في المعاني ما بين سور المجموعة الواحدة .

تبدأ سورة الضحى بقسم وهو علامة على أن السورة تفصّل في مقدمة سورة البقرة وذلك شيء رأيناه مطّرداً في السياق القرآني العام ، وعند التأمل في السورة نجدها خطاباً لرسول الله ﷺ ، وعندما نتأمل مقدمة سورة البقرة نجد فيها أكثر من خطاب لرسول الله ﷺ : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك** ﴾ ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ فسورة الضحى تخاطب الرسول ﷺ الذي أنزل عليه القرآن ليكون القدوة العليا في التقوى وفي الشكر .

في السور السابقة على سورة الضحى كان هناك حضٌّ على معانٍ ، وفي سورة الضحى خطاب بمعان لرسول الله ﷺ القدوة العليا للمتقين ، لتكون الأسوة موجودة فيها ، وليعلم الناس أن أحداً ما لا يخرج عن الخطاب بهذه المعاني بل يطالب بها أكرم الخلق على الله عز وجل . فيا ويل الذين يرون أنفسهم خارجين عن خطاب الشرع ، ولعنة الله عليهم وعلى أئمتهم الذين أحلّوا لهم الحرام ، وحرّموا عليهم الحلال فتابعوهم ، فجعلوا أنفسهم أرباباً وتابعهم الأتباع فأشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً . ومن السورة التي يتوجه فيها الخطاب لرسول الله ﷺ ندرك أنّ النعمة تقتضي شكراً يتمثل بعمل لا يستثنى من ذلك أحد ، حتى رسول الله ﷺ يطالب بذلك أكثر من غيره ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا» .

إن السورة بمجموعها تربّي سيد الخلق الأسوة العليا ولذلك فهي من جانب خطاب

لكل إنسان، فيما ليس من خصوصيّاته عليه الصلاة والسلام، فلتر السورة ولنعرضها عرضاً واحداً.

سورة الضحى

وهي إحدى عشرة آية وهذه هي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

التفسير:

﴿ **والضحى** ﴾ قال ابن كثير: وهذا قسم منه تعالى بالضحى، وماجعل فيه من الضياء، وقال النسفي: المراد به وقت الضحى، وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس ﴿ **والليل إذا سجى** ﴾ أي: سكن فأظلم وادلهم. قال ابن كثير: وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا. قال النسفي: وجواب القسم ﴿ **ما ودّعك ربك** ﴾ أي: ماتركك ﴿ **وماقلى** ﴾ أي: وما أبغضك. قال النسفي: أي: ماتركك منذ اختارك، وما أبغضك منذ أحبك، والتوديع مبالغة في الودع، لأن من ودّعك مفارقاً فقد بالغ في تركك ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى** ﴾ قال النسفي: (أي: ماأعد الله لك في الآخرة من المقام المحمود، والحوض المورود، والخير الموعود، خير مما أعجبك في الدنيا، وقيل: وجه اتصاله بما قبله أنه لما كان في ضمن التوديع والقلى أن الله مواصلك

بالوحي إليك ، وأنك حبيب الله ، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك لتقدمه على الأنبياء ، وشهادة أمته على الأمم ، وغير ذلك ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ** ﴾ في الآخرة من الثواب ومقام الشفاعة وغير ذلك) . ﴿ **فترضى** ﴾ فما أعظمها من بشارة له ولأمته ﷺ ثم قال تعالى - يعدّد نعمه على عبده ورسوله محمد ﷺ - فقال : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى** ﴾ قال النسفي : (والمعنى : ألم تكن يتيماً حين مات أبواك فآواك إلى عمك أبي طالب ، وضمّك إليه حتى كفلك وربّاك) ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ قال النسفي : (أي : وجدك غير عالم ، ولا واقف على معالم النبوة ، وأحكام الشريعة وما طريقه السمع ﴿ **فهدى** ﴾ أي : فعرفك الشرائع والقرآن .. ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حق ووقوع في غي ، فقد كان عليه الصلاة والسلام من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان ، وقاذورات أهل الفسق والعصيان) ﴿ **ووجدك عائلاً** ﴾ أي فقيراً ﴿ **فأغنى** ﴾ قال ابن كثير : أي : كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه ، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر .

كلمة في السياق :

ما صلة قوله تعالى : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾ بما قبلها أي بقوله تعالى : ﴿ **ما ودّعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ ؟ قال النسفي : (عدّد عليه نعمه من أول حاله ليقيس المرتقب من فضل الله على ما سلف منه ، لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير ، ولا يضيق صدره ولا يقلّ صبره) أقول : وسنرى صلة تعداد النعم عليه ﷺ بما بعدها من خلال ما سننقله من كلام ابن كثير ، ولنعد إلى التفسير .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾ : كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله عز وجل .

قال تعالى: ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ قال النسفي : أي : فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه ، وقال ابن كثير : أي : كما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم ، أي : لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسن إليه ، وتلطف به ، وقال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم . ﴿ **وأما السائل فلا تنهر** ﴾ قال النسفي : أي : فلا تزجره ، فابذل قليلاً أو رد جميلاً ، وعن السدي : المراد طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره) . أقول : عدم نهر السائل عن العلم يدخل في الآية وليس وحده مراداً بها . قال ابن كثير : (أي : وكما كنت ضالاً فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد) . أقول : ويحتمل أن يكون المعنى كما كنت فقيراً فأغنيناك فلا تنهر الفقير إذا جاءك سائلاً ، وقال ابن إسحاق في الآية : فلا تكن جباراً ولا متكبراً ، ولا فحاشاً ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله ، وقال قتادة : يعني : ردّ المسكين برحمة ولين . أقول : لو قال قتادة بدل (ردّ) خاطب لكان ذلك أجود ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدّث** ﴾ قال النسفي : أي : حدث بالنبوة التي آتاك الله ، وهي أجلّ النعم ، والصحيح أنها تعم جميع نعم الله عليه ، ويدخل تحته تعليم القرآن والشرائع . وقال ابن كثير : أي : وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله فحدث بنعمة الله عليك . أقول : الأمر بالتحديث بنعم الله عز وجل أعمّ من أن يكون المراد به نعمة دنيوية أو دينية . إن الحديث عن النعم كلها ظاهرة وباطنة أدب النبوة ، وأدب المسلم ، كما سنرى في الفوائد ، وبهذا انتهت السورة .

كلمة في السياق :

١ – إنّ السورة تذكّر رسول الله ﷺ باليتم والفقر والغفلة ، وتأمره بناءً على ذلك الأوامر المذكورة ، وهي بذلك تذكّر المسلم من طرف خفي بأن رسول الله ﷺ كان يتيماً فارحموا اليتامى ، وأكرموهم ، وأن رسول الله ﷺ كان فقيراً ، فارحموا الفقراء وأكرموهم ، وتواصوا في شأنهم خيراً ، وأن رسول الله ﷺ كان غافلاً قبل النبوة فاعطفوا على الغافلين وعلّموهم ، وصلة ذلك بالمعاني التي وردت في السور السابقة لا تخفى .

٢ – إن الأمر لرسول الله ﷺ أمر لأمته ما لم ينصّ على خصوصيته ﷺ بهذا الأمر ، ومن ثم فهذه الأوامر ينبغي أن تأخذ مداها في التطبيق .

٣ – رأينا من السورة أن النعمة تقتضي شكراً ، فهذا رسول الله ﷺ يمنّ الله عليه

بالنعمة ، ويطالبه بشكرها عملاً . وتلك سنة الله عز وجل ﴿ **اعملوا آل داود شكراً** ﴾ .

٤ – إن خطاب رسول الله ﷺ بقوله تعالى : ﴿ **ما ودّعك ربك وما قلى** .. ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى** .. ﴾ تذكير للمسلمين بأن هذا هو رسولكم يامسلمون ، منعَم عليه من الله عز وجل ، ومأمور من الله جل جلاله – وهو قدوتكم في الصبر ، وفي الشكر ، وفي كل خير – فتابعوه ، وآمنوا به ، وآمنوا بما أنزل عليه من وحي وهدى واقتدوا به في شأنه كله ، وصلة ذلك بمقدمة سورة البقرة وهي : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ . إن صلة ذلك بهذه الآيات واضحة ، عدا عن كون السورة فصّلت في قضايا إيمانية ، وقضايا مرتبطة بالإنفاق ، وقضايا مرتبطة باتباع الكتاب ، وقضايا مرتبطة بالإيمان باليوم الآخر ، وقضايا مرتبطة بالفلاح في اليوم الآخر ، ونعله بهذا كله اتضح لدينا صلة السورة بالسور قبلها ، كما اتضح لنا سياقها الخاص ، وصلتها بمحورها وسنرى صلتها بما بعدها فيما بعد .

الفـوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى** ﴾ (قال ابن كثير : وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار ، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها إطراحاً كما هو معلوم بالضرورة من سيرته ، ولما خير عليه السلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل اختار ماعند الله على هذه الدنيا الدنية . روى الإمام أحمد عن عبد الله – هو ابن مسعود – قال : اضطجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حصير فأثر في جنبه فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت : يارسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مالي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها » ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المسعودي وقال الترمذي : حسن صحيح) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ قال ابن كثير: (أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته وفيما أعدّ له من الكرامة ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف وطينه مسك أذفر كما سيأتي . وروى الإمام أبو عمرو الأوزاعي عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: عرض على رسول الله ﷺ ماهو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً فسرّ بذلك فأنزل الله ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريقه، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا مايقال إلا عن توقيف ، وقال السدي عن ابن عباس: من رضاء محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقال الحسن: يعني بذلك الشفاعة ، وهكذا قال أبو جعفر الباقر ، وروى أبو بكر ابن أبي شيبة عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى») .

٣ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى** ﴾ قال ابن كثير: (وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه ، وقيل: بعد أن ولد عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين ، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره، ويرفع من قدره ويوقره، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل ، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه ، وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ قال ابن كثير: (وقوله تعالى: ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ كقوله: ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا** ﴾ الآية ومنهم من قال: إن المراد بهذا أن النبي ﷺ ضل في شعاب مكة ، وهو صغير ثم رجع، وقيل: إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام ، وكان راكباً ناقة في

الليل ، فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق ، حكاهما البغوي) .

أقول : القول الأول هو الذي عليه المعوّل .

٥ - عند قوله تعالى : ﴿ **ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾ قال النسفي : ووجدك فقيراً فأغناك بمال خديجة ، أو بما أفاء عليك من الغنائم . أقول : إن ذكر الغنائم في هذا المقام بعيد جداً ؛ فالسورة مكية ، وتتحدّث عن شيء حدث ، والغنائم كانت في المدينة ، وغناه عليه السلام بمال خديجة من حيث إنه كان يعمل فيه ، فالرسول ﷺ كان يعمل من كسب يده ، وإنما رأس المال من خديجة قبل النبّوة وبعدها ، إلا أن ظروف الدعوة بعد النبّوة ، وصدق أمنا خديجة رضي الله عنها ، وتفانيها في خدمة دعوة الله عز وجل ، وخدمة رسول الله ﷺ أفنيا الكثير من مالها . وبمناسبة الآية المذكورة ؛ أشار ابن كثير إلى معنى آخر للغنى ، قال ابن كثير : (وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه » . أقول : هذا جزء من غنى رسول الله ﷺ والمراد بالآية أعم من ذلك .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدّث** ﴾ قال ابن كثير : (كما جاء في الدعاء المأثور النبوي : « واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتمها علينا » وروى ابن جرير عن أبي نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدّث بها .

وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ على المنبر : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » وإسناده ضعيف . وفي الصحيحين عن أنس أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله ! قال : « لا مادعوتم الله لهم ، وأثنيتم عليهم » وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » ورواه الترمذي وقال : صحيح . وروى أبو داود عن جابر عن النبي ﷺ قال : « من أبلي بلاء فذكره فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره » تفرد به أبو داود . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله

قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطي عطاءً فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره » تفرد به أبو داود ، وقال مجاهد : يعني النبوة التي أعطاك ربك وفي رواية عنه : القرآن . وقال ليث : عن رجل عن الحسن بن علي ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ قال : ما عملت من خير فحدث إخوانك ، وقال محمد ابن إسحاق : ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها ، واذكرها ، وادع إليها ، قال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ماأنعم الله به عليه من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله وافترضت عليه الصلاة فصلى) .

☆ ☆ ☆

سورة الشرح

وهي السورة الرابعة والتسعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة السادسة والأخيرة من المجموعة الثانية
عشرة من قسم المفصل ، وهي ثماني آيات
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا. إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قال الألوسي في سورة الشرح : وآيها ثمان بالاتفاق . وهي شديدة الاتصال بسورة الضحى ، حتى إنه روي عن طاووس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : هما سورة واحدة .. والحق أن مدار مثل ذلك ، الرواية لا الدراية ، والمتواتر : كونهما ، سورتين والفصل بينهما بالبسملة . نعم هما متصلتان معنى جداً) .

وقال صاحب الظلال : (نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى ، وكأنها تكملة لها ، فيها ظل العطف الندي . وفيها روح مناجاة الحبيب للحبيب ، وفيها استحضار مظاهر العناية ، واستعراض مواقع الرعاية ، وفيها البشرى باليسر والفرج ، وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق ..) .

كلمة في سورة ألم نشرح ومحورها :

تنتهي سورة الضحى بقوله تعالى : ﴿ **وأما اليتيم** ... ﴾ ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ وتبدأ سورة الشرح بقوله تعالى : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** .. ﴾ فالأوامر الثلاثة التي وردت في سورة الضحى تتوسط بين تذكير بالنعم ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى** .. ﴾ ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ... ﴾ فصلة السورتين ببعضهما لا تخفى ..

وسورة الضحى من أولها إلى آخرها خطاب لرسول الله ﷺ ، وكذلك سورة الشرح ، كلها خطاب لرسول الله ﷺ وهذا مظهر آخر من مظاهر الصلة بين السورتين .

رأينا أن سورة الضحى والسور الأربع قبلها فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، وكانت كلها مبدوءة بقسم ، وسورة الشرح لا تبدأ بقسم ، بينما تأتي بعدها سورة ﴿ **والتين** ﴾ وهي مبدوءة بقسم ، مما يشير إلى أن سورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ هي نهاية مجموعتها ، وبالتأمل في معانيها نجد أنها تفصل فيما بعد مقدمة سورة البقرة ، أي : في قوله تعالى : : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ بدليل أن السورة تنتهي بقوله تعالى ﴿ **فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب** ﴾ وكما أن الآية التي جاءت بعد مقدمة سورة البقرة دلّت على أن الطريق إلى التقوى هو العبادة ، فإنّ سورة الشرح تدل على الطريق الذي به يتحقق رسول الله ﷺ ، ومن يتأسى به بكل المعاني العليا التي حضت عليها السور الخمس السابقة على سورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ إن التحقق بالخصائص العليا من إكرام اليتيم ، والحضّ على طعام

المسكين ، وأكل الحلال ، والزهد في المال ، ومعرفة الله عز وجل ، واقتحام عقبات النفوس بالإعتاق ، والإطعام ، والإيمان ، والتواصي بالصبر والمرحمة ، والعطاء عامة ، والتقوى ، والتصديق بالحسنى ، وترك البخل ، وعدم الإعراض والتكذيب بالجنة ، والخطاب الحسن للسائلين ، والرفق باليتامى ، والتحديث عن نعم الله ، إن هذه المعاني العليا إنما يتحقق بها من إذا فرغ من شأن الدنيا تعب في العبادة ورغب إلى الله في الدعاء .

﴿ **فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب** ﴾ ومن ثم فإن سورة (ألم نشرح) تشرح الطريق لرسول الله ﷺ وهو القدوة العليا لكل مسلم ليتأسّ بذلك المسلمون ، وعلى قدر أخذ المسلم من هذا المقام يتحقق بالمعاني العليا التي ذكرتها السور السابقة .

إن للسورة - ككل سورة - سياقها الخاص ، وصلتها بمحورها وصلتها بما قبلها وما بعدها ، فلنر ذلك كله في عرضنا للسورة .

☆ ☆ ☆

سورة الشرح

وهي ثمان آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ قال النسفي : استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار ، فأفاد إثبات الشرح ، فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ... أو فسحناه بما

أودعناه العلوم والحكمة حتى وسع هموم النبوّة ودعوة الثقلين . فأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى والجهل . وقال ابن كثير : يعني إنا شرحنا لك صدرك ، أي : نوّرناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً . كقوله : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصرار ولا ضيق ﴿ **ووضعنا عنك وزرك** ﴾ أي : حملك الثقيل ، قال ابن كثير : بمعنى : ﴿ **ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر** ﴾ وقال النسفي : أي : وخففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها ، وقيل : ترك الأفضل مع إتيان الفاضل والأنبياء يعاتبون بمثلها . ﴿ **الذي أنقض ظهرك** ﴾ . قال ابن كثير : أي : أثقلك حمله . وقال النسفي : أي : أثقله حتى سُمع نقيضه وهو صوت الانتقاض ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ قال النسفي : (ورفع ذكره أن قرن بذكر الله في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والخطب والتشهد وفي غير موضع من القرآن : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ ﴿ **ومن يطع الله ورسوله** ﴾ ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه** ﴾ وفي تسميته رسول الله ونبي الله ومنه ذكره في كتب الأولين) .

وبعد أن عدّد الله عزّ وجلّ بعض نعمه على رسوله ﷺ ومنها تخفيف الحمل ، تأتي فقرة تبين أنّ سنته المطّردة أن يجعل مع العسر يسراً ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **فإن مع العسر يسراً** ﴾ قال ابن كثير : أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ، ثم أكّد هذا الخبر ﴿ **إن مع العسر يسراً** ﴾ . قال النسفي : (كأنه قال : خوّلناك ما خوّلناك فلا تيأس من فضل الله فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسراً ، أي : إن مع الشدة يسراً) قال النسفي : وجيء بلفظ (مع) لغاية مقاربة اليسر العسر زيادة في التسلية ولتقوية القلوب . وقال سعيد بن جبير عن قتادة : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشّر أصحابه بهذه الآية ، فقال : « لن يغلب عسر يسرين » . قال ابن كثير : ومعنى هذا أن العسر معرّف في الحالتين فهو مفرد ، واليسر منكّر . فتعدّد ولهذا قال : « لن يغلب عسر يسرين » يعني قوله : ﴿ **فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً** ﴾ فالعسر الأول عين الثاني واليسر تعدّد .

عددت الفقرة الأولى بعض نعم الله عز وجل على رسوله ﷺ ثم ذكرت الفقرة الثانية سنّة مطّردة لله عز وجل في مرافقة اليسر للعسر حتى يزيله ، وفي ذلك نعمة

أخرى ، وعدة من الله عز وجل فإذا فهم هذا كله فإن الفقرة الأخيرة تأتي آمرة رسول الله ﷺ بالعبادة شكراً لله عز وجل على نعمه ، وكطريق يساعد على تحمّل العسر حتى يتلاشى . قال تعالى : ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ قال النسفي : أي : إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الرب ﴿ **وإلى ربك فارغب** ﴾ قال النسفي : أي : واجعل رغبتك إليه خصوصاً ، ولا تسأل إلا فضله متوكّلاً عليه . وقال ابن كثير في الآيتين : (أي : إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة ، وقم إليها نشيطاً فارغ البال ، وأخلص لربك النّية والرغبة) . أقول : وفي الآيتين أقوال أخرى سنراها في الفوائد . والذي أرجحه أنه أمر لرسول الله ﷺ بالتعب في العبادة بعد الفراغ من أشغال الدنيا والدعوة . وأن يقبل على الله عز وجل بالدعاء ، فإن العبادة والدعاء زاد الطريق لتجاوز المحنة ، ومظهر العبودية الخالصة لله عز وجل شكراً له ، وواضح أن المراد بالتعب التعب في الصلاة ، فالصلاة هي ذروة العبادة .

كلمة في السياق :

وضح لنا من خلال عرض السورة سياقها الخاص ، ورأينا أنها تأمر بالصلاة والدعاء ، وذلك يعرفنا على أن الصلاة والدعاء داخلان في العبادة ، فهي تفصيل لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ومن صلة السورة بالمحور نعلم أنّ هذا طريق للتقوى التي فصّلت فيها السور الخمس السابقة على سورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ من مجموعتها .

الفـوائد :

١ — ذهب بعضهم ذهاباً بعيداً إلى أن المراد بالشرح في الآية حادثة شق الصدر ، وهو معنى بعيد . ومع هذا فقد ذكره ابن كثير ونحن ننقله للفائدة . قال ابن كثير : (وقيل : المراد بقوله : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء كما تقدم من رواية مالك بن صعصعة وقد أورده الترمذي ههنا ، وهذا وإن كان واقعاً ليلة الإسراء ، كما رواه مالك بن صعصعة ، ولكن لا منافاة ، فإن من جملة شرح صدره الذي فعل بصدره ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً ، فالله أعلم .

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن أبي بن كعب أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يارسول الله ماأول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال : «لقد سألت ياأبا هريرة ، إني في الصحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لاأجد لأحدهما مسّاً ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه ، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر ، فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال : أغد واسلم ، فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير» .

لاحظ أن ابن كثير قدّم لهذا القول بكلمة (وقيل) التي تفيد التضعيف فحادثة شق الصدر واقعة تكرّرت في حياة رسول الله ﷺ ولكن سورة الشرح لاتتحدّث عنها بل تتحدّث عن شرح الصدر بالإسلام ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ .

٢ - عند قوله تعالى : ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ قال ابن كثير : (قال مجاهد : لاأذكر إلا ذكرت معي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وروى ابن جرير عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أتاني جبريل فقال : إن ربي وربك يقول : كيف رفعت ذكرك ؟ قال : الله أعلم ، قال : إذا ذكرتُ ذكرتَ معي» وكذا رواه ابن أبي حاتم بإسناده . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله قلت : قد كان قبلي أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من يحيي الموتى ، قال : يامحمد ألم أجدك يتيماً فآويتك ؟ قلت : بلى يارب ، قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قلت : بلى يارب ، قال : ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قلت : بلى يارب ، قال : ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت بلى يارب» . وروى أبو نعيم في دلائل النبوة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «لما فرغت مما أمرني به من أمر

السموات والأرض قلت: يارب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته ، جعلت إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، وسخرت لداود الجبال ، ولسليمان الريح والشياطين ، وأحييت لعيسى الموتى ، فما جعلت لي ؟ قال : أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله أني لا أذكر إلا ذكرت معي ؟ وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً ولم أعطها أمة ؟ وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وحكى البغوي عن ابن عباس ومجاهد أن المراد بذلك الأذان يعني : ذكره فيه) .

٣ - عند قوله تعالى : ﴿ **فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال : كان النبي ﷺ جالساً وحياله جحر فقال : «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه» فأنزل الله عز وجل : ﴿ **فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً** ﴾ ورواه أبو بكر البزار . في مسنده ولفظه : «لو جاء العسر حتى يدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يخرجه» ثم قال : ﴿ **فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً** ﴾ ثم قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح (قلت) وقد قال فيه أبو حاتم الرازي : في حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل عن عبد الله بن مسعود موقوفاً . وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال : كانوا يقولون : لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين . وروى ابن جرير عن الحسن قال : خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك وهو يقول : «لن يغلب عسر يسرين ، لن يغلب عسر يسرين ، فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً» وكذا رواه عن الحسن مرسلاً وقال سعيد عن قتادة : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية فقال : «لن يغلب عسر يسرين» ومعنى هذا أن العسر معرّف في الحالين فهو مفرد ، واليسر منكّر فتعدد ، ولهذا قال : «لن يغلب عسر يسرين» يعني قوله : ﴿ **فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً** ﴾ فالعسر الأول عين الثاني واليسر تعدد . وروى الحسن بن سفيان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «نزل المعونة من السماء على قدر المئونة ، ونزل الصبر على قدر المصيبة») .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب** ﴾ . قال النسفي : (أي : فإذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الرب ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء ، واختلف أنه قبل السلام أو بعده ، ووجه الاتصال بما قبله أنه لما عدد عليه نعمه السالفة ، ومواعيده الآتية بعثه على

الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض، ولا يخلي وقتاً من أوقاته منها فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى) . وقال ابن كثير : (أي : إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة ، ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان» وقوله ﷺ : «إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدؤوا بالعشاء» قال مجاهد في هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصب لربك وفي رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك . وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل ، وابن عباس نحوه، وفي رواية عن ابن مسعود ﴿ **فانصب * وإلى ربك فارغب** ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : فإذا فرغت فانصب يعني في الدعاء . وقال زيد ابن أسلم والضحاك ﴿ **فإذا فرغت** ﴾ أي: من الجهاد ﴿ **فانصب** ﴾ أي: في العبادة. ﴿ **وإلى ربك فارغب** ﴾ قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل) .

كلمة أخيرة في المجموعة الثانية عشرة من قسم المفصل :

رأينا أن المجموعة الثانية عشرة قد فصّلت في الأساس والطريق ، فأقامت صرحاً جديداً في موضوع إقامة التقوى، وتحرير الإنسان من الكفر . ففصّلت في التقوى ، ومايدخل فيها ، وفصّلت في الكفر ومايدخل فيه ، وفصّلت في الطريق إلى التقوى ، وحررت من الكفر وأخلاقه، فأضافت إلى المجموعات السابقة عليها معاني جديدة ، وأكّدت معاني مذكورة من قبل .

وقد رأينا أن كلّ سورة من سور القرآن فيها جديد ، وهذا معنى أحببنا تركيزه ولفت النظر إليه في المجموعات الأخيرة حتى لا يفهم فاهم أن شيئاً من القرآن يغني عن بقية القرآن ، نعم إن كل جزء من أجزاء القرآن ، وكل مجموعة من مجموعاته ، تذكّر بالمعاني القرآنية ، كلها، فمن هذه الحيثية فكل جزء من القرآن بل السورة الواحدة منه كافية للتذكير لمن أراد أن يتذكّر ، ولكن القرآن بمجموعه هو الذي به كمل الدين ، وهو الذي به تمّ تفصيل كل شيء ، وبيان كل شيء ، فلا يحيط الإنسان بمجموع مايلزمه من المعاني القرآنية إلا بمجموع القرآن .

وقد رأينا في المجموعة الثانية عشرة مااعتدنا أن نراه في كل مجموعة من تكامل وصلات ، كما رأينا أن لكل سورة منها سياقها الخاص ، وصلتها بما قبلها ومابعدها ، ولننتقل إلى مجموعة جديدة هي المجموعة الثالثة عشرة .

* * *

المجموعة الثالثة عشرة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المفصّل

وتشمل سور :

التين ، والعلق ، والقدر ،
والبينة ، والزلزلة

كلمة في المجموعة الثالثة عشرة من قسم المفصل

تتألف المجموعة الثالثة عشرة من خمس سور ، وقد دلنا على بدايتها ونهايتها أكثر من شيء ، فأول سورة فيها مبدوءة بقسم ، وتلك علامة على مجموعة جديدة ، كما أنه بعد سورة الزلزلة تأتي سورة العاديات ، وهي مبدوءة بقسم مما يشير إلى أن سورة الزلزلة نهاية مجموعتها . والملاحظ أن سورة الزلزلة تتحدث عن الساعة ، وهي مبدوءة ﴿ **بإذا** ﴾ وقد رأينا من قبل أن كل سورة بدأت بإذا كانت نهاية مجموعة ، وهذا يجعلنا نستأنس أنّ سورة الزلزلة هي نهاية مجموعتها .

وعلى هذا فإن المجموعة الثالثة عشرة بدايتها سورة التين ، ونهايتها سورة الزلزلة ، فهي تفصّل – ككل مجموعة – في مقدمة سورة البقرة إلى حيث يقف تفصيلها الذي تقودنا إليه المعاني ، وواضح من المجموعة أن سورة التين تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وأن سورة العلق تفصّل في ما بعد المقدمة مباشرة ، أي : في قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وتأتي سورة القدر لتفصّل في قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا** ﴾ وتأتي سورة البيّنة لتفصّل في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من سورة البقرة ، وتأتي سورة الزلزلة لتفصّل في الآية بعد ذلك : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ . وكل ذلك سنراه بالتفصيل ، فلنبدأ عرض المجموعة سورة سورة .

☆ ☆ ☆

سورة التين

وهي السورة الخامسة والتسعون بحسب الرسم القرآني

وهي السورة الأولى من المجموعة الثالثة عشرة من

قسم المفصل، وهي ثماني آيات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة التين ومحورها :

سورة التين تفصِّل في مقدمة سورة البقرة . وهي تتحدث عن الإنسان وكال خلقته وردّه إلى أسفل سافلين ، إلا إذا كان مؤمناً عاملاً للصالحات ، كما تقيم الحجة على الكافرين بالبعث . ولذلك كله صلته بالكلام عن المتقين والكافرين في مقدمة سورة البقرة كما سنرى ذلك تفصيلاً .

سورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ انتهت بقوله تعالى : ﴿ **فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب** ﴾ وسورة التين يأتي فيها قوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون** ﴾ فالصلة واضحة بين نهاية سورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ وبداية سورة التين فسورة ﴿ **ألم نشرح** ﴾ تأمر بالعمل الصالح ، وسورة التين تبيّن أنه لا خلاص من السقوط إلا بالإيمان والعمل الصالح .

وقال الألوسي عن سورة التين : (وآيها ثمان آيات في قولهم جميعاً . ولما ذكر سبحانه في السورة السابقة حال أكمل النوع الإنساني بالاتفاق ، بل أكمل خلق الله عز وجل على الإطلاق صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذكر عز وجل في هذه السورة حال النوع ، وما ينتهي إليه أمره ، وما أعد سبحانه لمن آمن منه بذلك الفرد الأكمل ، وفخر هذا النوع المفضل صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشرّف وعظّم وكرّم) .

فلنمر السورة .

☆ ☆ ☆

سـورة التـين

وهي ثمان آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **والتين** ﴾ قال مجاهد : هو تينكم هذا ﴿ **والزيتون** ﴾ . قال مجاهد وعكرمة : هو هذا الزيتون الذي تعصرون . قال النسفي : أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين الأشجار المثمرة ﴿ **وطور سينين** ﴾ أي : وجبل سيناء وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿ **وهذا البلد الأمين** ﴾ قال ابن كثير : يعني : مكة .. ولاخلاف في ذلك . قال النسفي : (ومعنى القسم بهذه الأشياء : الإبانة عن شرف البقاع المباركة ، وماظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والأولياء ، فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه ، والطور : المكان الذي نودي منه موسى ، ومكة مكان البيت الذي هو هدى للعالمين ، ومولد نبينا ومبعثه صلوات الله عليهم أجمعين ، أو الأولان قسم بمهبط الوحي على عيسى ، والثالث على موسى ، والرابع على محمد عليهم السلام) .

وقال ابن كثير : (وقال بعض الأئمة - أي : في الأقسام الأربعة - : هذه محالّ ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار (فالأولى) محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام

(والثاني) طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران (والثالث) مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قالوا : وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء — يعني : الذي كلم الله عليه موسى بن عمران — وأشرق من ساعير — يعني : جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى — واستعلن من جبال فاران يعني : جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهم) .

﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ قال ابن كثير : هذا هو المقسم عليه . (وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل ، منتصب القامة سوي الأعضاء حسنها) وقال النسفي : أي : في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه ﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ قال ابن كثير : أي : إلى النار ... أي : ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار ، إن لم يطع الله ويتبع الرسل ، وقال النسفي : (أي : ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية أن رددناه أسفل من سفل ، خلقاً وتركيباً يعني : أقبح من قبح صورة وهم أصحاب النار ، أو أسفل من سفل من أهل الدركات ، أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في حسن الصورة والشكل حيث نكّسناه في خلقه فقوس ظهره بعد اعتداله ، وابيضّ شعره بعد سواده ، وتشنن جلده ، وكلّ سمعه وبصره ، وتغير كل شيء منه ، فمشيه دلف ، وصوته خفات ، وقوته ضعف ، وشهامته خرف) .

أقول : وقد ردّ ابن كثير هذا القول الأخير ، ولو اختاره ابن جرير ، فقال : (ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك ، لأن الهرم قد يصيب بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه كقوله تعالى : ﴿ **والعصر ۝ إن الإنسان لفي خسر ۝ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فهؤلاء لا يردون إلى أسفل سافلين بل ﴿ **فلهم أجر غير ممنون** ﴾ أي : غير مقطوع) . أقول : وهذا يؤكد كلام ابن كثير بأن المراد ردّه أسفل سافلين في الآخرة ، بدليل أن المستثنين ذكر مآلهم في الآخرة ، فما ذهب إليه ابن جرير وجه ضعيف . ﴿ **فما يكذّبك بعد بالدين** ﴾ أي : بالجزاء في المعاد . قال النسفي : (الخطاب للإنسان على طريقة الالتفات ، أي : فما سبب تكذيبك - بعد هذا البيان القاطع والبرهان الساطع - بالجزاء ؟ أو المعنى : إن خلق الإنسان من نطفة ، وتقويمه

بشراً سوياً ، وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي ، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر ، لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق ، وأن من قدر على خلق الإنسان وعلى هذا كله لم يعجز عن إعادته ، فما سبب تكذيبك بالجزاء ، أو الخطاب لرسول الله ﷺ أي : فمن ينسبك إلى الكذب بعد هذا الدليل ؟ فما بمعنى : مَنْ) .

أقول : إن ابن كثير لم يذكر إلا الاتجاه الأول مع ملاحظة أنه لا يفسّر ﴿ **أسفل سافلين** ﴾ بما ذكره النسفي . قال ابن كثير : (فما يكذبك - أي : يابن آدم - بعد بالدين أي : بالجزاء في المعاد ، ولقد علمت البداءة ، وعرفت أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى : فأيّ شيء يحملك على التكذيب بالمعاد ، وقد عرفت هذا ؟ روى ابن أبي حاتم عن منصور قال : قلت لمجاهد : ﴿ **فما يكذبك بعد بالدين** ﴾ عنى به النبي ﷺ ؟ قال : معاذ الله ، عنى به الإنسان ، وهكذا قال عكرمة وغيره) .

﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ قال ابن كثير : (أي : أما هو أحكم الحاكمين لا يجور ، ولا يظلم أحداً ؟ ومن عدله أن يقيم القيامة ، فينتصف المظلوم في الدنيا ممّن ظلمه) وقال النسفي : هذا وعيد للكفار ، وأنه يحكم عليهم بما هم أهله ، وهو من الحكم والقضاء) والله أعلم .

كلمة في السياق :

١ - دللت السورة على اليوم الآخر بكمال خلق الإنسان ، وبكمال عدل الله عز وجل ، فكمال خلق الإنسان يقتضي تكليفاً ، وهذا يقتضي مجازاة للمحسن بإحسانه ، وللمسيء بإساءته ، وهذا يقتضي يوماً آخر ، وكمال عدل الله يقتضي محاسبة ، وفصل قضاء بين المحسنين والمسيئين ، وهذا يقتضي يوماً آخر ، وأمام هذا وهذا فقد عجّبت السورة من أن يوجد أحد يكذِّب باليوم الآخر .

٢ - بيّنت السورة أن الناجين هم المؤمنون العاملون ، وأن الهلكى في ذلك اليوم هم من ليسوا كذلك . وفي ذلك دعوة إلى الإيمان والعمل الصالح .

٣ - إنّ القسم بالطور ومكة في سورة يتحدث بها عن اليوم الآخر واضح المناسبة فعدا عن كون كمال خلق الإنسان يدل على اليوم الآخر ، فإن رسالات الله في الطور ومكة ومنابت التين والزيتون تؤكد ذلك .

٤ – في الجمع في القسم بين التين والزيتون ، وبين الطور ومكة ، تذكير للإنسان بنوعين من النعم : نعمة الفاكهة والأدم ، ونعمة الرسالة ، وكان ذلك بين يدي التذكير بنعمة حسن تركيبه ، ومن هذا النموذج على التناسب بين القسم والمُقسم عليه ، وسياق السورة ، يستطيع القارىء أن يعرف حكمة مجيء الأقسام في سورها .

٥ – عرفنا مما مرّ السياق الخاصّ للسورة ، فلنر صلة السورة بمحورها من سورة البقرة ، أي : بمقدمة سورة البقرة :

في مقدمة كتابنا (الرسول ﷺ) تحدّثنا عن كون الإنسان مخلوقاً متفرداً ، ومن جملة تفردِه تفرده في خلقته ، واستدللنا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ وفصّلنا في ذلك ، وقلنا في النهاية : إن القاعدة الكلية : على قدر ما تعطي تطالب ومن ثم فأنت مكلّف أيها الإنسان ، وفي كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) برهنّا على أنّ ما يطالب به كل إنسان هو التقوى ، وتقوى كل إنسان بحسب مسؤوليته ، إذا أدركنا هذه المعاني ندرك صلة سورة (والتين) بمقدمة سورة البقرة التي تتحدث عن الكافرين والمتقين ، فأنت أيها الإنسان خلقت في أحسن تقويم ، هذا يقتضي تكليفاً وحساباً ، التكليف هو التقوى التي مدارها على الإيمان والعمل الصالح ، والحساب سيأتي يوم القيامة . فإذا كفرت لك النار ، وإذا اتقيت فلك الأجر الدائم أي : الخلود في الجنة . دعنا الآن نتذكر مقدمة سورة البقرة وخاصة ماورد فيها في شأن المتقين والكافرين . ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

في هذه الآيات يمكن أن نرجع أمر التقوى إلى الإيمان والعمل الصالح . وأن نرجع الكفر الذي يرافقه رفض الإنذار إلى إنكار اليوم الآخر ، وقد فصّلت سورة التين في ذلك فحضّت على الإيمان والعمل الصالح ، وأقامت الحجة على منكري اليوم الآخر ، وهذا يأتي في سياق تذكير الإنسان بأنه مكلف . وهكذا نجد أن سورة التين فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، فأعطتنا جديداً ، إذ ذكرت سبب التكليف ، وأقامت الحجة على أن اليوم الآخر آتٍ ، وأقامت الحجة على الكافرين ، وحضّت على التقوى ، وبهذا كله

يتضح لدينا كيف أن للسورة سياقها الخاص ، وصلتها بمحورها ، ومن قبل ذكرنا صلتها بما قبلها ، وسنرى فيما بعد صلتها بما بعدها . وقد رأينا أن فيها جديداً كثيراً ككل سورة في القرآن .

الفـوائد :

١ - قدم ابن كثير لسورة التين بقوله : (قال مالك وشعبة عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب : كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه ، أخرجه الجماعة في كتبهم) .

٢ - يستدل القائلون بالتناسخ على هذا التناسخ المزعوم المشؤوم الملعون بقوله تعالى : ﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ ولا ندري كيف يستدل بهذه الآية على ذلك ، مع العلم أن القول بالتناسخ إلغاء لموضوع الإيمان باليوم الآخر ، بينما السورة تصبّ في التدليل على اليوم الآخر ، والقرآن كله يصبّ في التدليل على اليوم الآخر ، فكيف يستدل بآية على ما ينقض سورتها ، وعلى ما ينقض القرآن كله ، والقرآن لا يتناقض . والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، والقول بأن الآية تفيد التناسخ نقض للقرآن كله . فضلاً عن أنه يجعل القرآن متناقضاً ، إن أئمة الإسلام مجمعون على أنّ هذه الآية ليس لها إلا تفسيران ، فإما أنّها في الآخرة ، أو في الدنيا ، فردّه إلى أسفل سافلين إن كان في الدنيا ، فذلك ما يحدث للإنسان من هرم وعجز وشيخوخة ، وعلى هذا فالاستثناء في الآية التي تأتي بعد ذلك استثناء منقطع . ويكون المعنى كما قال النسفي : (أي : ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى والزمنى فلهم ثواب غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة) .

هذا إذا فسّرت الآية على أن المراد بها الدنيا ، وإن كان المراد بها الآخرة فواضح ، ولو أنّ إنساناً تأمّل أدنى تأمّل للسورة لرآها تنقض كلام الملحدين هؤلاء من وجوه كثيرة ويكفي أن نذكر ما يلي : قال تعالى : ﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون** ﴾ . فإذا كانت المسألة تناسخاً فإن الأجر يكون ممنوناً أي : مقطوعاً : لأن الإنسان في دورة التناسخ سيموت ، ولكنني أستدرك بعد هذا فأقول : إنما يفلح الخطاب مع أناس يعقلون وهؤلاء - والله - لا يعقلون .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ قال ابن كثير : (وقد

قدمنا في حديث أبي هريرة مرفوعاً «فإذا قرأ أحدكم ﴿**والتين والزيتون**﴾ فأتى آخرها ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ فليقل : وأنا على ذلك من الشاهدين ») .

☆ ☆ ☆

ولننتقل إلى تفسير سورة العلق .

سورة العلق

وهي السورة السادسة والتسعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الثالثة عشرة من
قسم المفصل ، وهي تسع عشرة آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة العلق ومحورها :

بعد مقدمة سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ . وبعد سورة التين تأتي سورة العلق مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق** ﴾ لاحظ قوله تعالى : ﴿ **خلق الإنسان من علق** ﴾ وصلته بقوله تعالى : ﴿ **الذي خلقكم والذين من قبلكم** ﴾ وصلة : ﴿ **إقرأ** ﴾ بقوله : ﴿ **اعبدوا** ﴾ فالقراءة عبادة عندما تكون تحقيقاً لأمر الله عز وجل ، ونجد في السورة قوله تعالى : ﴿ **أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى** ﴾ وصلة ذلك بكلمة التقوى الواردة في آية المحور واضحة ، ثم إن السورة تختم بقوله تعالى : ﴿ **كلا لا تطعه واسجد واقترب** ﴾ ذلك واضح الصلة بقوله تعالى : ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ وسنرى صلة السورة بمحورها بالتفصيل أثناء عرضها .

رأينا أن سورة التين تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **فما يكذبك بعدُ بالدين** ﴾ ورأينا أن أحد الاتجاهين في تفسيرها أن الخطاب لرسول الله ﷺ وتقديره : فمن يكذبك بعد هذا البيان يامحمد في أمر اليوم الآخر والجزاء والحساب ؟ وأن الاتجاه الآخر في الآية : فما يحملك أيها الإنسان على التكذيب بالحساب؟ وتأتي سورة العلق بعد ذلك لتخاطب رسول الله ﷺ ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ فإن القراءة المأمور بها هي الدليل على أن يوم الدين آت فللسورة صلتها الواضحة بما قبلها .

وسورة التين فصّلت في مقدمة سورة البقرة . وكما أن الآية التي جاءت بعد مقدمة سورة البقرة فصّلت في الطريق للتحقّق بالتقوى ، والتحرّر من الكفر والنفاق ، فإنّ سورة العلق تأتي لتحقق بما دعت إليه سورة التين ، ولتحرّر مما أنذرت منه سورة التين ، ومن المعلوم أن سورة العلق - وخاصة بدايتها - كانت أول مانزل من القرآن ، فأن نراها في محلها تتفق مع ترتيب هذا القرآن ، وبما ينسجم مع نظامه ، فذلك دليل على أن القرآن ترتيبه توقيفي ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ليس للصنعة البشرية فيه نصيب .

لقد رأينا في سورة التين كلاماً عن الإنسان وعن خلقه في أحسن تقويم ، وعن الصوارف التي تصرفه عن القيام بالتكليف ، ونلاحظ أن سورة العلق تكمل الحديث ﴿ **كلا إنّ الإنسان ليطغى ۞ أن رآه استغنى إنّ إلى ربك الرجعى** ﴾ . وهكذا تتكامل سور المجموعة الثالثة عشرة مع بعضها . فلنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

السورة

وتتألف من تسع عشرة آية وهذه هي :

الفقرة الأولى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

الفقرة الثانية

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾

تفسير الفقرة الأولى :

﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ أي: خلق كل شيء، ثم خصص من بين المخلوقات في الذكر الإنسان فقال: ﴿ **خلق الإنسان من علق** ﴾ أي: من علقة، أي: من حيوان منوي، أو المراد بذلك المرحلة الأولى للجنين بعد التقاء الحيوان المنوي بالبويضة، والسؤال: ماذا يقرأ ؟ فالرسول ﷺ الذي وُجّه له الخطاب أول مرة لايقرأ. أقول: يفهم من السياق، أنّ المراد بالقراءة قراءة المخلوقات بالتفكر والتأمّل فيكون المعنى - والله أعلم -: اقرأ هذا الكون وهذا الإنسان باسم الله عز وجل، ملاحظاً أنّه الخالق، وهو معنى أخذه بعضهم وأعطاه مضموناً عملياً، وجعله أساساً في السير إلى الله عز وجل، ونقطة انطلاق ﴿ **اقرأ وربك الأكرم** ﴾ أي: الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كريم، أقول: هذا وعد من الله عز وجل لمن قرأ الكون والمخلوقات باسمه تعالى أن يكرمه بالإكرام العظيم، حيث يفتح عليه من العلوم مالم يفتحه على غيره، فما من إنسان يقرأ الكون باسم الله عز وجل، إلا ويعطيه الله عز وجل من العلوم دقيقها وجليلها ﴿ **الذي علّم بالقلم** ﴾ أي: علّم الكتابة بالقلم، أو علّم العلوم الكثيرة المتولّد بعضها من بعض بواسطة القلم ﴿ **علّم الإنسان مالم يعلم** ﴾. قال ابن كثير: وأنّ من كرمه تعالى أن علّم الإنسان مالم يعلم فشرّفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البريّة آدم على الملائكة. أقول: لعل معنى الآية أن الله عز وجل هو الذي علّم الإنسان العلوم الكثيرة التي ماكان للإنسان أن يعلمها لولا توفيق الله عز وجل وعطاؤه، فصار المعنى العام للآيات الثلاث: اقرأ الكون والإنسان باسم الله عز وجل، فإنك إن قرأت فإن الله عز وجل الذي علّم الإنسان بالقلم، الذي علّم الإنسان مالم يعلم، سيتكرّم عليك بالعلوم الكثيرة العظيمة، وهكذا أكدت هذه الآيات ما ورد في الآيتين الأوليين من الأمر بالقراءة، ووعدت القارىء بالإكرام، وهذا معنى فطن له بعضهم، وأعطوه حقّه، فأكرم الله صالحيهم بإكرامات خاصة؛ ولأن هذه الآيات الخمس هي أول مانزل من القرآن فلنقف عندها.

الفـوائد :

١ – عند قوله تعالى : ﴿ **اقرأ وربك الأكرم ۝ الذي علّم بالقلم ۝ علّم الإنسان مالم يعلم** ﴾ قال النسفي : (وكأنه ليس وراء التكرّم بإفادة الفوائد العلمية تكرّم .. فدلّ على كمال كرمه بأنّه علّم عباده مالم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة ، ومادونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليل إلا أمر القلم والخط لكفى) .

٢ – قال ابن كثير في الآيات الخمس : (روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : أول مابدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبّب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه ، فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : « فقلت ماأنا بقارىء – قال – فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ماأنا بقارىء فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ماأنا بقارىء ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ حتى بلغ ﴿ **مالم يعلم** ﴾ قال : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال : ياخديجة « مالي ؟ » وأخبرها الخبر وقال : « قد خشيت على نفسي » فقالت له : كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها ، وكان امرأ قد تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي ، وكتب بالعربية من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت خديجة : أيْ ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ؟ فقال ورقة : ابن أخي ، ماترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ، ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : « أوَ مخرجيّ هم؟ » فقال ورقة : نعم لم

يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل ؛ لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقاً ، فيسكن بذلك جأشه ، وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين . فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان مالم يعلم ؛ فشرفه وكرمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية - آدم - على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان ، ذهني ولفظي ورسمي . والرسمي يستلزمهما من غير عكس فلهذا قال : ﴿ **اقرأ وربك الأكرم ۝ الذي علّم بالقلم ۝ علم الإنسان مالم يعلم** ﴾ وفي الأثر : « قيدوا العلم بالكتابة » وفيه أيضاً : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يكن يعلم ») .

قال صاحب الظلال معلقاً على حادثة ابتداء الوحي : (وقفت هنا أمام هذا الحادث الذي طالما قرأناه في كتب السيرة وفي كتب التفسير ، ثم مررنا به وتركناه ، أو تلبثنا عنده قليلاً ثم جاوزناه !.

إنه حادث ضخم . ضخم جداً . ضخم إلى غير حد . ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته ، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا .

إنه حادث ضخم بحقيقته ، وضخم بدلالته . وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعاً . وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد - بغير مبالغة - هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل . ماحقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة ؟.

حقيقته أن الله جل جلاله ، العظيم الجبار القهار المتكبر ، مالك الملك كله ، قد تكرم - في عليائه - فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان ، القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يُرى اسمه : الأرض . وكرم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي ، ومستودع حكمته ، ومهبط كلماته ، وممثل قدره الذي يريده - سبحانه - بهذه الخليقة .

وهذه حقيقة كبيرة . كبيرة إلى غير حد . تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان – قدر طاقته – عظمة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية . ويتصور في ظلها حقيقة العبودية المحدودة الحادثة الفانية . ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنساني ؛ ويتذوق حلاوة هذا الشعور ؛ ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال .. وهو يتصور كلمات الله ، تتجاوب بها جنبات الوجود كله ، منزّلة لهذا الإنسان في ذلك الركن المنزوي من أركان الوجود الضئيلة .

وما دلالة هذا الحادث ؟

دلالته – في جانب الله سبحانه – أنه ذو الفضل الواسع ، والرحمة السابغة ، الكريم الودود المنان . يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة ، سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة .

ودلالته – في جانب الإنسان – أن الله – سبحانه – قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها ، ولا يملك أن يشكرها . وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راكعاً ساجداً .. هذه .. أن يذكره الله ، ويلتفت إليه ، ويصله به ، ويختار من جنسه رسولاً يوحي إليه بكلماته . وأن تصبح الأرض .. مسكنه .. مهبطاً لهذه الكلمات التي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوع وابتهال .

فأما آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشرية كلها فقد بدأت منذ اللحظة الأولى . بدأت في تحويل خط التاريخ ، منذ أن بدأت في تحويل خط الضمير الإنساني .. منذ أن تحدّدت الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه .. إنها ليست الأرض وليس الهوى .. إنما هي السماء والوحي الإلهي .

ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة . في كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة . عاشوا يتطلعون إلى الله مباشرة في كل أمرهم ، كبيره وصغيره . يحسون ويتحركون تحت عين الله . ويتوقعون أن تمتد يده – سبحانه – فتنقل خطاهم في الطريق خطوة خطوة . تردهم عن الخطأ وتقودهم إلى الصواب .. وفي كل ليلة كانوا يبيتون في ارتقاب أن يتنزل عليهم من الله وحي يحدثهم بما في نفوسهم ، ويفصل في مشكلاتهم ، ويقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك !

إنه الحادث الفذ في تلك اللحظة الفريدة . الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه

الأرض وانتهى عهد . والذي كان فرقاناً في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل . والذي سجلته جنبات الوجود كله وهي تتجاوب به . وسجله الضمير الإنساني . وبقي أن يتلفت هذا الضمير اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها . وأن يذكر دائماً أنه ميلاد جديد للإنسانية لم يشهده إلا مرة واحدة في الزمان ..) .

كلمة في السياق :

١ - قال تعالى في محور السورة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ . وقد جاءت الآيات الخمس لتأمر بقراءة الكون والإنسان باسم الله عز وجل ، ووعدت على هذه القراءة بالإكرام بالعلم من الله الذي علّم الإنسان بواسطة وبغير واسطة ، ومن صلة الفقرة بمحورها نعلم أن قراءة الكون والحياة باسم الله عز وجل عبادة من العبادات الموصلة للتقوى .

٢ - ذكر محور السورة خلق الإنسان ، وجَعْلَ الأرض فراشاً ، والسماء بناءً ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج الثمرات به ، وكل ذلك مما ينبغي أن يقرأه الإنسان باسم الله عز وجل ، ولاشك أن هذه القراءة تفضي إلى الشكر والتوحيد والتقوى والعبادة . وفي الآيات الخمس التي مرت معنا في سورة العلق ذكّرنا الله عز وجل أنّه الخالق ، وأنه الذي خلق الإنسان من علق ، وأنّه الأكرم ، وأنّه الذي علّم بالقلم ، وأنه الذي علّم الإنسان مالم يعلم ، وهي معان تقتضي عبودية واعترافاً لله عز وجل بالفضل وقياماً بالشكر ، والتزاماً بالتقوى ، ولكن الإنسان بدلاً من أن يقابل النعم الخاصة والعامة بالعبادة والتقوى ، أي : بالشكر ، فإنّه يزداد طغياناً كلما زاد غنى . وهذا الذي سجّلته الفقرة الثانية .

....

تفسير الفقرة الثانية :

﴿ **كلا** ﴾ كلمة يراد بها الردع ، وهي في هذا السياق تفيد أن ناساً لا يقرأون

الكون والحياة باسم الله عز وجل، ولا يرتبون على ذلك ما ينبغي أن يترتب، وأن هناك ناساً لا يشكرون نعمة الله عز وجل في التعليم والخلق والعطاء، ومن ثم قال تعالى: ﴿ **إن الإنسان ليطغى أن رآه** ﴾ أي: أن رأى نفسه ﴿ **استغنى** ﴾ بمال أو علم أو جاه، فبدلاً من أن ينسب ذلك إلى الله لا ينسبه، وبدلاً من أن يشكر الله عز وجل بالعبادة والتقوى يكفره. قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه واستغنى وكثر ماله) ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال: ﴿ **إن إلى ربك الرجعى** ﴾ أي: إلى الله المصير والمرجع وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيم أنفقته؟. وقال النسفي: (هذا تهديد للإنسان من عاقبة الطغيان على طريقة الالتفات.. أي: إن رجوعك إلى ربك، فيجازيك على طغيانك).

ذكرت الآيات الثلاث طبيعة الإنسان الكافر، وأنذرته ووصفت هذه الطبيعة بالطغيان كلما رأى نفسه مستغنياً، ثم يعرض الله عز وجل علينا نموذجاً لطغيان الإنسان.

أ - ﴿ **أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى** ﴾ هذا أول مظهر من مظاهر الطغيان، أن ينهى إنسان إنساناً عن الصلاة عبادة لله عز وجل، والخطاب في الآية الأولى لرسول الله ﷺ لافتاً نظره إلى طغيان هذا الإنسان، وأنه نموذج على الطغيان كأثر عن رؤية الاستغناء.

ب - ﴿ **أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى** ﴾ والخطاب هنا على رأي النسفي للرسول ﷺ، وهو الذي نرجحه، والذي يراه ابن كثير أن الخطاب لهذا الناهي قال: أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريقة المستقيمة في فعله، أو أمر بالتقوى بقوله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته. أقول: الذي أرجحه أن الخطاب للرسول ﷺ: ألا ترى أن هذا الإنسان لو كان على الهدى أو أمر بالتقوى أليس ذلك أجود له وأحسن بدلاً من أن ينهى عن الهدى وعن التقوى بنهيه عن الصلاة، فدلّت الآيتان على أنّ من مظاهر الطغيان عدم الاهتداء، وعدم الأمر بالتقوى.

ج - ﴿ **أرأيت** ﴾ يا محمد ﴿ **إن كذّب** ﴾ هذا الناهي عن الصلاة ﴿ **وتولّى** ﴾ أي: أعرض أي: كذّب بالحق وأعرض عنه ﴿ **ألم يعلم بأن الله يرى** ﴾ قال النسفي: أي: ويطّلع على أحواله من هداه وضلاله، فيجازيه على حسب حاله، وهذا وعيد.

وقال ابن كثير : (أي : أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ، ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتمّ الجزاء !!) .

كلمة في السياق :

١ - رأينا أن من مظاهر الطغيان النهي عن الصلاة ، وترك الهدى ، وترك الأمر بالتقوى والتكذيب والإعراض عن دعوة الله عز وجل ، وهذا هو الذي يقابل به أكثر الخلق نِعَم الله عز وجل ، وقد ذكّر الله عز وجل هؤلاء برؤية الله إياهم ليكفّوا ويزجروا ، والنموذج الأرذل لهؤلاء هو أبو جهل ، وهو الذي نزلت فيه الآيات ، قال ابن كثير : نزلت في أبي جهل - لعنه الله - توعّد النبيّ ﷺ على الصلاة عند البيت .

٢ - دعا الله عز وجل في محور السورة الناس جميعاً للعبادة والتقوى ، وفي هذا الجزء من الفقرة الثانية رأينا أن هناك ناساً يقابلون نعم الله عز وجل بالطغيان ، فبدلاً من أن يصلوا ويعبدوا ينهون عن الصلاة ، وبدلاً من أن يهتدوا ويأمروا بالتقوى يفعلون العكس ، وبدلاً من أن يصدّقوا ويعملوا يكذّبون ويعرضون . ومن هذا الملحظ ندرك صلة مامرّ معنا من الفقرة الثانية بمحور السورة .

٣ - من قوله تعالى تعقيباً على مواقف هذا الطاغي الناهي : ﴿ **ألم يعلم بأن الله يرى** ﴾ ندرك أن سبب الطغيان والنهي عن الصلاة ، وسبب عدم الهدى والتقوى ، وسبب التكذيب والتولّي ، هو الجهل بالله عز وجل والغفلة عنه ، ولذلك فإن تربية النفس البشرية على مراقبة الله عز وجل ، والسير بها إلى ذلك هو السرّ الأعظم في تطهير النفس البشرية من كل أمراضها ، وهذا كذلك مما فطن له صالحو الصوفية . فركّزوا عليه فوصلوا في علم التربية الإسلامية إلى مالم يصل إليه غيرهم .

٤ - بعد أن عرض الله عز وجل نموذجاً على طغيان الطغاة ومن ذلك عرفنا أن الطاغي ينهى عن الصلاة ، فإنّ جزءاً جديداً من الفقرة الثانية يأتي مهدداً هذا الإنسان مبيناً له عقوبته .

....

﴿ **كلا** ﴾ ردع لهذا الطاغي الناهي ﴿ **لئن لم ينته** ﴾ قال النسفي : عمّا هو فيه . وقال ابن كثير : أي: لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ **لنسفعاً بالناصية** ﴾ الناصية : مقدّم الرأس قال النسفي : (أي : لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار ، والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدّة) ﴿ **ناصية كاذبة خاطئة** ﴾ أي: كاذب صاحبها في مقاله ، خاطىء في أفعاله . ﴿ **فليدع** ﴾ يومئذ ﴿ **ناديه** ﴾ النادي : المجلس الذي يجتمع فيه القوم ، والمراد أهل النادي . قال ابن كثير : أي: قومه وعشيرته ، أي : ليدعهم يستنصر بهم ﴿ **سندع الزبانية** ﴾ قال ابن كثير : وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب أحزبنا أو حزبه . قال النسفي : (والزبانية لغة : الشرط ، الواحد زبينة من الزبن وهو الدفع ، والمراد ملائكة العذاب) .

....

وبعد أن ذكّر الله عز وجل هذا الطاغي النّاهي عن الخير ووعظه وأنذره ، تأتي الآية الأخيرة في السورة تنهى رسول الله ﷺ عن طاعة هذا الإنسان وتأمره بالسجود والتقرّب إلى الله ، وهو خطاب للأمة كلها قال تعالى : ﴿ **كلا لاتطعه** ﴾ قال النسفي : أي: اثبت على ماأنت عليه من عصيانه ﴿ **واسجد** ﴾ أي: ودم على سجودك ، يريد الصلاة ﴿ **واقترب** ﴾ قال النسفي : أي: وتقرّب إلى ربك بالسجود فإن أقرب مايكون العبد إلى ربه إذا سجد . وقال ابن كثير : يعني يا محمد لاتطعه فيما ينهاك عنه . عن المداومة على العبادة وكثرتها ، وصلّ حيث شئت ولاتباله ، فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس ، واسجد واقترب .

كلمة في السياق :

١ - أمر محور السورة من سورة البقرة الناس جميعاً بعبادة الله ، وترك الشرك شكراً له عز وجل ، ومن سورة العلق تعلم أن الناس أمام هذا الأمر قسمان : عباد متقون ، وطغاة كافرون ، وذلك من مظاهر صلة السورة بمحورها .

٢ - فصّلت السورة في محورها فأرتنا بعض مظاهر من العبادة ، وأمرت بمعانٍ تقابل مواقف الذين لايستجيبون لأمر الله عز وجل ، والخلاصة العملية للسورة أنها تأمر

بقراءة الكون والحياة باسم الله عز وجل ، وتنهى عن طاعة الكافرين ، وتأمر بالسجود والتقرّب إلى الله عز وجل .

٣ - وقد رأينا أثناء عرضنا للسورة سياقها الخاص ، وصلتها بمحورها وصلتها بما قبلها ، وسنرى صلتها بما بعدها فيما بعد وقد رأينا أن فيها الجديد الكثير .

الفـوائد :

١ - في وجه المناسبة بين سورتي التين والعلق قال الألوسي : (ولما ذكر سبحانه في سورة التين خلق الإنسان في أحسن تقويم بيّن عز وجل هنا أنه تعالى خلق الإنسان من علق ، فكان ماتقدم كالبيان للعلة الصورية ، وهذا كالبيان للعلة المادية ، وذكر سبحانه هنا أيضاً من أحوال الإنسان في الآخرة ماهو أبسط مما ذكره عز وجل هناك) .

٢ - عند قوله تعالى : ﴿ **فليدع ناديه ، سندع الزبانية** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه فبلغ النبي ﷺ فقال : « لئن فعل لأخذته الملائكة » . وكذا رواه الترمذي والنسائي في تفسيريهما ، وهكذا رواه ابن جرير بإسناده . وروى أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير وهذا لفظه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمرّ به أبو جهل بن هشام فقال : يامحمد ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعّده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره فقال : يامحمد بأيّ شيء تهددني ؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً فأنزل الله ﴿ **فليدع ناديه ، سندع الزبانية** ﴾ وقال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . وقال الترمذي : حسن صحيح) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كلا لا تطعه واسجد واقترب** ﴾ قال ابن كثير : (كما ثبت في الصحيح عند مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » وتقدم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ و﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾) .

٤ - من الأمراض التي ظهرت في القرنين الأخيرين - كأثر عن التقدم العلمي - شعور الإنسان باستغنائه عن الله عز وجل ، ولذلك كانت الدعوة إلى ترك العبادة في هذين القرنين على أشدّها ، وقد تأثر في ذلك الكثيرون من أبناء المسلمين ، فتركوا الصلاة ، واستهانوا بأمر دينهم ، ومن مثل هذا ندرك سرّ مجيء قوله تعالى : ﴿ **كلا**

لاتطعه واسجد واقترب ﴾ في سياق السورة التي جاء فيها : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾ إنّ في السورة الدّواء الناجع لمواجهة دعوات الطغيان في كل العصور ، وإن من أهم مانداوي به دعوات عصرنا المادية ماذكرته السورة في بدايتها وفي نهايتها : ﴿ **اقرأ باسم ربّك الذي خلق** ﴾ ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ ولذلك كان من المهم جداً أن يكون لكل منا حظه الكبير من قراءة الكون باسم الله ، ومن السجود الكثير لله ، أعرف بعض الناس أصابتهم شكوك وهواجس فدُلّوا على أن يعطوا لأنفسهم فرص تأمل كثيرة في أجزاء هذا الكون سفليّه وعلويّه ، وكلّما استذكروا جزءاً منه ذكروا اسم الله ، وتذكّروا أنّه الخالق ، وكان لذلك أثره في شفاء قلوبهم وزيادة إيمانهم ويقينهم .

☆ ☆ ☆

سورة القدر

وهي السورة السابعة والتسعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الثالثة عشرة من
قسم المفصل ، وهي خمس آيات
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلّٰهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللّٰهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة القدر :

قدّم صاحب الظلال لسورة القدر بقوله : (الحديث في هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التي سجلها الوجود كله في فرح وغبطة وابتهال . ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى . ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد ﷺ . ليلة ذلك الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته ، وفي دلالته ، وفي آثاره في حياة البشرية جميعاً ، العظمة التي لا يحيط بها الإدراك البشري : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾.

والنصوص القرآنية التي تذكر هذا الحديث تكاد ترف وتنير . بل هي تفيض بالنور الهادىء الساري الرائق الودود . نور الله المشرق في قرآنه : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾ ونور الملائكة والروح وهم في غدوهم ورواحهم طوال الليلة بين الأرض والملأ الأعلى : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر** ﴾ .. ونور الفجر الذي تعرضه النصوص متناسقاً مع نور الوحي ونور الملائكة ، وروح السلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السارية في هذا الوجود : ﴿ **سلام هي حتى مطلع الفجر** ﴾ .

والليلة التي تتحدث عنها السورة وهي الليلة التي جاء ذكرها في سورة الدخان : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم** ﴾ . والمعروف أنها ليلة من ليالي رمضان ، كما ورد في سورة البقرة : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن * هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾ .. أي : التي بدأ فيها نزول القرآن على قلب الرسول ﷺ ليبلغه إلى الناس . وفي رواية ابن إسحاق أن أول الوحي بمطلع سورة العلق كان في شهر رمضان ، ورسول الله ﷺ يتحنّث في غار حراء) .

كلمة في سورة القدر ومحورها :

بعد الآيتين اللتين شكلتا محور سورة العلق من سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة**

أعدت للكافرين ﴾ لاحظ قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ ثم لاحظ بداية سورة القدر : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾ فالصلة واضحة بين السورة والمحور وسنرى ذلك بالتفصيل .

بدأت سورة العلق بقوله تعالى : ﴿ **اقرأ** ﴾ وانتهت بقوله تعالى : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ فالخطاب متوجه إلى رسول الله ﷺ في بداية السورة ، ونهايتها وسورة القدر تتحدّث عن القرآن المنزّل على محمد ﷺ ، وهذا أول مظهر من مظاهر الصلة بين سورتي القدر والعلق ، إلا أن الصلة العظمى تظهر في كون سورة العلق أول مانزل من القرآن ، وتأتي سورة القدر لتبيّن أن هذا القرآن الذي ابتدىء بسورة العلق ، أنزله الله في ليلة القدر . فالصلات بين سورة القدر والسورة قبلها متعدّدة . تلك أمرت بقراءة الكون باسم الله ، وأمرت بالسجود والاقتراب ، وهذه ذكرت ليلةً ، العمل فيها يعدل ألف مرة ثواب العمل فيما سواها .

* * *

سـورة القـدر

وتتألف من خمس آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

التفسـير :

﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾ قال النسفي : عظّم القرآن حيث أسند إنزاله إليه دون

غيره ، وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء بالتنبيه عليه ، ورفع مقدار الوقت الذي أنزل فيه .. ومعنى ليلة القدر : ليلة تقدير الأمور ، وقضائها ، والقدر بمعنى : التقدير أو سميت بذلك لشرفها على سائر الليالي .. قال ابن كثير : (يخبر تعالى أنه أنزل القرآن في ليلة القدر وهي الليلة المباركة التي قال الله عز وجل : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة مباركة** ﴾ وهي ليلة القدر ، وهي من شهر رمضان كما قال تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن** ﴾ قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ، ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها) . فقال : ﴿ **وما أدراك ما ليلة القدر** ﴾ قال النسفي : أي : لم تبلغ درايتك غاية فضلها ، ثم بيّن ذلك أي : فضلها بقوله : ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ ليس فيها ليلة القدر . قال النسفي : وسبب ارتفاع فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من تنزّل الملائكة والروح ، وفعل كل أمر حكيم ، ﴿ **تنزّل الملائكة** ﴾ أي : إلى السماء الدنيا أو إلى الأرض ﴿ **والروح** ﴾ قال النسفي : أي : جبريل أو خلق غير الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة أو الرحمة ﴿ **فيها** ﴾ أي : في هذه الليلة . قال ابن كثير : (أي : يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ، ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له ، وأما الروح فقيل : المراد به ههنا جبريل عليه السلام ، فيكون من باب عطف الخاص على العام ، وقيل : هم ضرب من الملائكة) . والله أعلم ..

﴿ **بإذن ربهم من كل أمر** ﴾ قال النسفي : أي : تنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل ﴿ **سلام هي** ﴾ قال النسفي : أي : ما هي إلا سلامة .. أي : لا يقدّر الله فيها إلا السلامة والخير ، ويقضي في غيرها بلاء وسلامة ، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلّمون على المؤمنين ، قيل : لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة ، وقد حرم من السلام الذين كفروا ﴿ **حتى مطلع الفجر** ﴾ أي إلى وقت طلوع الفجر فهي تمتدّ من غياب الشمس إلى طلوع الفجر .

كلمة في السياق :

١ - عرّفنا الله عز وجل على فضل ليلة القدر في هذه السورة ؛ لنعرف بذلك فضيلة

هذا القرآن الذي أنزله في تلك الليلة ، إنْ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا أو من السماء إلى الأرض في ابتداء إنزاله على محمد ﷺ .

٢ - ومن إشعارنا بعظمة هذا القرآن من خلال تعظيم ليلة نزوله نعرف أن هذا القرآن من العظمة بحيث إنه فوق الشكوك والريب ، فالسورة دعوة إلى الإيمان بهذا القرآن ، ومن ثم ندرك صلة السورة بمحورها من سورة البقرة ﴿ **وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا** ﴾ ومن هذا القرآن الذي أنزلناه في ليلة القدر . ﴿ **فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ .

الفــوائد :

١ - بمناسبة ذكر ليلة القدر . قال النسفي : (وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان . كذا روى أبو حنيفة رحمه الله عن عاصم عن ذرّ أن أبيّ بن كعب كان يحلف على ليلة القدر أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان ، وعليه الجمهور ، ولعل الداعي إلى إخفائها أن يحيي من يريدها الليالي الكثيرة طلباً لموافقتها ، وهذا كإخفاء الصلاة الوسطى ، واسمه الأعظم ، وساعة الإجابة في الجمعة ، ورضاه في الطاعات ، وغضبه في المعاصي وفي الحديث : « من أدركها يقول : **اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعف عني** ») .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ قال ابن كثير : (وقال سفيان الثوري : بلغني عن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ، قال : عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر ، رواه ابن جرير . وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ، ليس في تلك الشهور ليلة القدر ، وهكذا قال قتادة بن دعامة والشافعي وغير واحد ، وقال عمرو بن قيس الملائي : عمل فيها خير من عمل ألف شهر ، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، هو اختيار ابن جرير ، وهو الصواب لا ماعداه ، وهو كقوله ﷺ : « رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل » رواه أحمد وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة ، ونية صالحة أنه يكتب له عمل سنة أجر صيامها وقيامها إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما حضر رمضان قال رسول

الله ﷺ : « قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم » ورواه النسائي من حديث أيوب به ، ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ») .

٣ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **سلام هي حتى مطلع الفجر** ﴾ قال ابن كثير : (روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر : « ليلة سمحة طلقة لا حارة ولا باردة وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء » وروى ابن أبي عاصم النبيل بإسناده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إني رأيت ليلة القدر فأنسيتها وهي في العشر الأواخر من لياليها ، وهي طلقة بلجة ، لا حارة ولا باردة ، كأن فيها قمراً ، لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها ») .

أقول : لعلّ هذه العلامات الكونية تكون كذلك في منطقة من الأرض ، أو في سنة بعينها في عصره عليه الصلاة والسّلام .

٤ – عقد ابن كثير فصولاً متعدّدة في نهاية الكلام عن سورة القدر ونحن نختار ههنا نبذاً من كلامه : (اختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة أو هي من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين . قال أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري : حدثنا مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ رأى أعمار الناس قبله ، أو ما شاء الله من ذلك فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر . وقد أسند من وجه آخر ، وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وقد نقله صاحب العدة – أحد أئمة الشافعية – عن جمهور العلماء ، فالله أعلم . وحكى الخطابي عليه بالإجماع ونقله الراضي جازماً به عن المذهب ، والذي دلّ عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضين كما هي في أمتنا .

روى الإمام أحمد بن حنبل عن مرثد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها ، قلت : يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره ؟ قال : « بل هي في رمضان » قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال : « بل هي إلى يوم القيامة » قلت في أيّ رمضان هي ؟ قال : « التمسوها في العشر الأُوَل والعشر الأُخَر » ثم

حدث رسول الله ﷺ وحدث ، ثم اهتبلت غفلته قلت : في أيّ العشرين هي ؟ قال : « ابتغوها في العشر الأواخر ، لاتسألني عن شيء بعدها » ثم حدث رسول الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت : يارسول الله أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أيّ العشر هي ؟ فغضب عليّ غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته وقال : « التمسوها في السبع الأواخر ، لاتسألني عن شيء بعدها » ورواه النسائي بإسناده، ففيه دلالة على ماذكرناه ، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبي ﷺ .. وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها ويكون الاجتهاد في العشر الأخير أكثر ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ، ثم اعتكف أزواجه من بعده . أخرجاه من حديث عائشة ، ولهما عن ابن عمر : كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيى الليل ، وأيقظ أهله ، وشدّ المئزر . أخرجاه ، ولمسلم عنها : كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر مالا يجتهد في غيره ، وهذا معنى قولها وشد المئزر ، وقيل : المراد بذلك اعتزال النساء ، ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين لما رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شدّ مئزره واعتزل نساءه . انفرد به أحمد . وقد حكي عن مالك رحمه الله أن في جميع ليالي العشر تطلب ليلة القدر على السواء لايترجح منها ليلة على أخرى : رأيته في شرح الرافعي رحمه الله ، والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات وفي شهر رمضان أكثر ، وفي العشر الأخير منه ، ثم في أوتاره أكثر ، والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني ، ولما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة أن عائشة قالت : يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟ قال : « قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن بريدة عن عائشة قالت : قلت : يارسول الله أرأيت إن علمت أيّ ليلة القدر ماأقول فيها ؟ قال : « قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » وهذا لفظ الترمذي ثم قال : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ورواه النسائي أيضاً من طريق سفيان الثوري عن عائشة قالت : قلت : يارسول الله أرأيت إن وافقت ليلة القدر ماأقول فيها ؟ قال : « قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني ») .

وهي السورة الثامنة والتسعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة من المجموعة الثالثة عشرة من
قسم المفصل ، وهي ثماني آيات
وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة البينة ومحورها :

رأينا في آخر الآيتين - اللتين كان جزء منهما محور سورة القدر - قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين** ﴾ ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون * إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحق من ربهم وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

ففي هذه الآيات حديث عن الكافرين والمؤمنين ، وفي سورة البينة حديث عن الكافرين واستمرارهم على عنادهم ، وبشارة للمؤمنين ، فسورة البينة تفصّل في هذه الآيات المذكورة كما سنرى ، فهذه محورها .

رأينا أن سورة القدر بدأت بقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر ..** ﴾ فهي حديث عن القرآن ، والملاحظ أن سورة البيّنة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيّمة** ﴾ فسورة البيّنة تبدأ بالكلام عن عدم انفكاك أهل الكتاب والشرك عما هم فيه إلا ببعثة الرسول المنزل عليه القرآن ، كما تتحدث عن موقف هؤلاء من الرسول والقرآن بعد ما بعث الرسول ، وأنزل عليه القرآن . فالصلة واضحة بين سورة القدر وسورة البيّنة . قال الألوسي : (ووجه مناسبتها لما قبلها أن قوله تعالى فيها ﴿ **لم يكن الذين** ﴾ الخ كالتعليل لإنزال القرآن ، كأنه قيل : إنا أنزلناه لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفاً مطهرة وهي ذلك المنزل فلا تغفل) .

☆ ☆ ☆

سورة البيّنة

وتتألف من ثماني آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ هم اليهود والنصارى ﴿ **والمشركين** ﴾ قال ابن كثير : والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم . أقول : كل من ليس من أهل الكتاب وليس مسلماً فهو مشرك . وقد دلّ النص على أنّ أهل الكتاب والمشركين كلهم كافرون ﴿ **منفكين** ﴾ قال النسفي : (أي : منفصلين عن الكفر)

﴿ **حتى تأتيهم البينة** ﴾ قال النسفي : (أي: الحجة الواضحة والمراد محمد ﷺ ، يقول : لم يتركوا كفرهم حتى يبعث محمد ﷺ ، فلما بعث أسلم بعض ، وثبت على الكفر بعض) قال ابن كثير : ثمّ فسّر البيّنة بقوله : ﴿ **رسول من الله** ﴾ أي : محمد ﷺ ﴿ **يتلو صحفاً مطهرة** ﴾ أي: يقرأ عليهم هذا الرسول صحفاً مطهرة من الباطل ﴿ **فيها** ﴾ أي: في هذه الصحف ﴿ **كتب قيمة** ﴾ أي: مكتوبات مستقيمة ، ناطقة بالحق والعدل . قال ابن جرير في الآية : أي: في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ؛ لأنها من عند الله عز وجل ﴿ **وماتفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة** ﴾ هذه الآية تبيّن أن أهل الكتاب تفرقوا في أمر رسول الله ﷺ بعد ماجاءتهم البينة ، أي: بعد مابعث الرسول ﷺ ، قال النسفي : فمنهم من أنكر نبوته بغياً وحسداً ، ومنهم من آمن ، وإنما أفرد أهل الكتاب بعد ماجمع أولاً بينهم وبين المشركين ، لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم ، فلذا وصفوا بالتفرّق عنه ﴿ **وماأُمروا** ﴾ بهذا الدين وهذا القرآن ﴿ **إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾ أي: من غير شرك ونفاق ﴿**حنفاء**﴾ أي: مؤمنين بجميع الرسل مائلين عن الأديان الباطلة ﴿ **ويقيموا الصلاة** ﴾ وهي أشرف عبادات البدن ﴿ **ويؤتوا الزكاة** ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿ **وذلك دين القيّمة** ﴾ أي: دين الملة القيمة ، قال ابن كثير : (أي: الملة القائمة العادلة ، أو الأمة المستقيمة المعتدلة ، وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان) فإذا كان هذا مايأمر به هذا الدين وهذا الرسول ، فقد كان المفروض أن يستجيب أهل الكتاب لدعوة الرسول ﷺ .

هذا التوجيه الذي وجّهنا فيه الآيات لم نره بمجموعه لمفسّر واحد ، ولكنه بمجموعه لايخرج عن أقوال المفسرين، ومنه نفهم السياق الخاص للسورة بشكل واضح ، وبعد أن بيّن الله عز وجل موقف أهل الكتاب والمشركين من الدعوة الجديدة ، وهو أنهم تفرّقوا فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، فإن الله عز وجل في الفقرة اللاحقة يحدّثنا عن هؤلاء وهؤلاء ، وحال هؤلاء وحال هؤلاء ، وماأعدّه هؤلاء ، وماأعدّه هؤلاء

قال تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ بعد مابعث محمد ﷺ ﴿ **والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾ قال ابن كثير : أي: شر الخليقة التي برأها الله وذرأها . أقول : يفسّر هذه الآية قوله عليه السلام في الحديث

الصحيح الذي رواه مسلم : «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» وبعد أن بيّن الله عز وجل عاقبة الكافرين بمحمد ﷺ من أهل الكتاب والمشركين وحكم عليهم أنهم شر الخلق ، يحدثنا عن المؤمنين العاملين فيقول : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية** ﴾ أي: خير الخليقة . وفي هذه الآية والتي قبلها تقرير لميزان الخيرية والشريّة ، فما أجهل من يحكم لكافر بالخيرية ، والله عز وجل جعله شر البرية ، وما أجهل من يحكم على مؤمن بالشرية وقد جعله الله عز وجل خير البرية ، ثم إن الله عز وجل بيّن جزاء المؤمنين العاملين فقال : ﴿ **جزاؤهم عند ربهم** ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ **جنات عدن** ﴾ قال النسفي : أي: إقامة ﴿ **تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ قال ابن كثير : أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ **رضي الله عنهم** ﴾ بقبول أعمالهم . وقال ابن كثير ومقام رضاه عنهم أعلى مما أدركوه من النّعيم المقيم ﴿ **ورضوا عنه** ﴾ قال ابن كثير : بما منحهم من الفضل العميم ﴿ **ذلك لمن خشي ربه** ﴾ قال ابن كثير : أي: هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنّه يراه . وعلم أنه إن لم يره فإنّه يراه . أقول : دلت الكلمة الأخيرة على أن خشية الله عز وجل هي ذروة الأمر ، وعلى أن بينها وبين الإيمان والعمل الصالح كمال اتصال ، فمن خشي الله كان مؤمناً وعمل صالحاً فالإيمان والعمل الصالح متلازمان مع خشية الله عز وجل .

كلمة في السياق :

١ - بينت السورة أن الكافرين بأصنافهم كانوا سيستمرون على كفرهم أبداً ، إلا إذا بعث الله رسولاً ، فبإرسال الرسول ﷺ يمكن أن تنقطع استمرارية الكفر . كفر أهل الكتاب ، أو كفر المشركين ، بشرط أن يكون رسولاً ذا كتاب ، وقد كان ذلك ، وبعث الله الرسول وبدلاً من أن يؤمن الجميع - وخاصة أهل الكتاب - لما في رسالة رسول الله ﷺ من الطهارة والاستقامة ، فإنهم تفرّقوا بعد بعثته عليه الصلاة والسّلام ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر . مع أن مضمون الرسالة الجديدة لا يمكن أن يعترض عليه أحد ؛ إذ هو دعوة إلى الإخلاص في العبادة ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وذلك دين الملّة المستقيمة التي تعلو عن أن تكون محلّ شك ، وإذ اختار قسم كبير من أهل الكتاب والمشركين لأنفسهم طريق الكفر مع هذا كله ، فقد بيّن الله عز وجل أن جزاء هؤلاء

النار ، وأنهم شرّ خلق الله عز وجل ، وفي المقابل فقد بيّن الله عز وجل ماللمؤمنين العاملين من جزاء ، جنات ، ورضى ؛ بسبب خشيتهم لله عز وجل . هذا هو السياق الخاص للسورة .

٢ - لنر صلة السورة بمحورها من سورة البقرة : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ وقد رأينا في السورة أن الكافرين قسمان : أهل كتاب ومشركون . ورأينا استحقاقهم النار ، ورأينا أن الحجة قائمة عليهم ، ورأينا أنهم شر البرية .

﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ وقد رأينا في السورة تفصيلاً وبشارة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ورأينا أنهم خير البرية .

﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾ وقد رأينا كيف أنّه مع هذا القرآن الطاهر المطهر القيّم الآمر بالإخلاص وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ضلّ الكافرون من أهل الكتاب والمشركين ، وماذلك إلا بسبب شريتهم فإنهم شر البرية ، بينما اهتدى به المؤمنون لأنهم خير البرية .

﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ . وقد رأينا أن من ضلّ وتفرّق عن هذا القرآن هم شر البرية ، فهم الفاسقون وهم الخاسرون ، فالسورة فصّلت في آيات المحور ، إنْ في تبيان فضيلة هذا القرآن ، أو في ضلال من ضلّ عنه ، أو في هداية من اهتدى به ، كما أنها أنذرت وبشرت ، وصلة ذلك بآيات المحور لا تخفى .

٣ - وصف الله الرسول ﷺ في السورة بالبيّنة أي : بالحجة الواضحة . وعلل لكونه كذلك بكونه تالياً لصحف مطهرة من الباطل ، فيها رسائل غاية في العلم والاستقامة ، وضرب مثالاً على مضمونها أنها تأمرنا بما لاينبغي أن يختلف فيه اثنان من

إخلاص العبادة لله عز وجل ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وفي ذلك كله تنزيه لرسول الله ﷺ ، وتقرير لارتقاء هذا القرآن عن الشك والريب ، وتقرير لوجوب التسليم لهذا القرآن ، ولرسول الله ﷺ . وكلها معان مرتبطة بهذا الجزء من سورة البقرة الذي يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** .. ﴾ إلى آخر ما ذكرناه ، من هذا وغيره تتضح لنا صلة السورة بمحورها من سورة البقرة ، وقد اتضح لنا سياقها الخاص وصلتها بما قبلها ، وسنرى صلتها بما بعدها ، فلنر بعض الفوائد .

الفـوائد :

١ - قدم ابن كثير لسورة البيّنة بذكر روايات كثيرة وهذه إحدى رواياته : روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾» قال وسمّاني لك ؟ قال : « نعم » فبكى ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث شعبة به) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيّنة** ﴾ مما نقل صاحب الظلال عن كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) هذا النقل : (كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف . فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون . وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي . وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها . وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه ، فنسي نفسه ومصيره ، وفقد رشده ، وقوة التمييز بين الخير والشر ، والحسن والقبيح . وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن ، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم ، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب ، فضلاً عن البيوت ، فضلاً عن البلاد . وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فراراً بدينهم من الفتن ، وضناً بأنفسهم ، أو رغبة إلى الدعة والسكون ، وفراراً من تكاليف الحياة وجدها ، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة ، والروح والمادة ، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم ، وأكل أموال الناس بالباطل ...

أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المجرمين والمنافقين ،

حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة ، والثقافة ، والحكم ، والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ، ولا للأمم دعوة ، وأفلست في معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوي ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري) .

أقول : وكان هذا سيستمر ولم يكن هناك من مخرج إلا مخرج واحد هو أن يبعث الله رسولاً بكتاب ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البينة ۔ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة** ﴾ وقد أرسل الله الرسول ، وأنزل الكتاب فكان بعد ذلك ما كان .

٣ - وجدنا أن المراد بقوله تعالى في السورة : ﴿ **وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة** ﴾ هو تفرقهم بعد بعثة رسول الله ﷺ ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وهو توجيه النسفي للآية . وعلى هذا فيكون المعنى أن التفرق الحقيقي إنّما كان بعد بعثة رسول الله ﷺ ، لأن فرقتهم السابقة لم تكن في شيء ؛ لأنهم جميعاً كفار ، وقد وجّه ابن كثير الآيات توجيهاً آخر ، ونحن نرجّح توجيه النسفي وهو الذي اعتمدناه .

٤ - حدّد قوله تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ مضمون دعوات الأنبياء عليهم السلام . فالاختلاف والخلاف في مثل هذه الأصول هو الذي لا يسع أحداً ، أما الاختلاف في فرعيات من الصلاة والزكاة كالاختلاف بين شافعي وحنفي فذلك شيء آخر ، والعجيب أن بعض الفرق التي تنتسب إلى الإسلام ، وبعض الطوائف التي تزعم أنها مسلمة تعبد غير الله ، ولا تصلي الصلوات الخمس ، ولا تزكي الزكاة المعروفة . ومع هذا فإنها تعتبر أن مخالفتها في هذا شبيهة باختلافات الشافعية والحنفية في أمر فرع من فروع الشريعة ﴿ **ومن يضلل الله فماله من هاد** ﴾ قال ابن كثير : (جاء في الحديث المروي من طرق : « إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة » قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي ») .

٥ - قال تعالى في السورة : ﴿ **حتى تأتيهم البينة ۔ رسول من الله يتلو صحفاً**

مطهرة . **فيها كتب قيمة** ﴾ وبعد آية قال : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ . لاحظ ورود كلمة القيمة في المقامين ، فهذا الذي جعلنا نقول : إن الآية الأخيرة تتحدّث عن مضمون الصحف . وجعلنا نقول إن هذه الآية حدّدت مضمون دعوات الرسل ، ومن ذلك دعوة رسولنا عليه السلام ، ولذلك فإن علينا أن نركز على معاني الآية الأخيرة تركيزاً خاصاً .

– العبادة والإخلاص فيها . – الميل عن كل ما يخالف دين الله عز وجل .

– إقامة الصلاة ، إيتاء الزكاة ، هذا هو الدين الذي وصفه الله عز وجل ﴿ **وذلك دين القيمة** ﴾ يبقى أن نقول : لقد رأينا تفسير المفسرين للكلمة الأخيرة إذ قالوا في معناها : وذلك دين الملة القيمة ، لكني أحتمل أن يكون المراد بالقيمة هنا القيمة التي وصفت فيها الكتب المتضمنة في الصحف المطهرة ﴿ **فيها كتب قيمة** ﴾ فيكون المعنى : وذلك دين الكتب القيمة الموجودة في الصحف المطهرة التي يتلوها رسول الله ﷺ .

٦ – عند قوله تعالى عن المؤمنين الصالحين : ﴿ **أولئك هم خير البرية** ﴾ قال ابن كثير : (وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة) . أقول : القول الراجح أن خواص البشر – كالرسل – أفضل من خواص الملائكة – كجبريل وميكال – . وخواصّ الملائكة أفضل من عامة البشر بعد الرسل . والصديقون والشهداء والصالحون أفضل من عامة الملائكة . وعامة الملائكة أفضل من فسقة المسلمين .

٧ – وبمناسبة قوله تعالى عن الكافرين : ﴿ **أولئك هم شر البرية** ﴾ وعن المؤمنين : ﴿ **أولئك هم خير البرية** ﴾ قال ابن كثير : روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يارسول الله قال : « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه . ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يارسول الله قال : « رجل في ثلة من غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ألا أخبركم بشر البرية ؟ » قالوا : بلى قال : « الذي يسأل بالله ولا يعطي به ») .

☆ ☆ ☆

سورة الزلزلة

وهي السورة التاسعة والتسعون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الخامسة والأخيرة من المجموعة الثالثة
عشرة من قسم المفصل ، وهي ثماني آيات
وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ، وَٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ ٱللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

بين يدي سورة الزلزلة :

قدم ابن كثير لسورة الزلزلة بقوله : (وروى الترمذي بسنده والإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أقرئني يارسول الله قال له : «اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء» فقال له الرجل : كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني ، قال : «فاقرأ من ذوات حم» فقال مثل مقالته الأولى ، فقال : اقرأ ثلاثاً من المسبحات » فقال مثل مقالته ، فقال الرجل : ولكن أقرئني يارسول سورة جامعة فأقرأه: ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق نبياً لاأزيد عليها أبداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ : «أفلح الرويجل ، أفلح الرويجل – ثم قال – عليّ به – فجاءه فقال له : أمرت بيوم الأضحى جعله الله عيداً لهذه الأمة » فقال الرجل : أرأيت إن لم أجد إلا منيحة أنثى فأضحي بها ؟ قال : لا ، ولكنك تأخذ من شعرك ، وتقلم أظفارك ، وتقص شاربك ، وتحلق عانتك ، فذاك تمام أضحيتك عند الله عز وجل» وأخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي عبد الرحمن المقري به . وروى الترمذي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «من قرأ إذا زلزلت عدلت له بنصف القرآن » ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن مسلم ، وقد رواه البزار بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن» هذا لفظه . وروى الترمذي أيضاً عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن ، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل ياأيها الكافرون تعدل ربع القرآن» ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة . وروى أيضاً عن أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : «هل تزوجت يافلان» قال: لا والله يارسول الله، ولا عندي ماأتزوّج ؟ قال : «أليس معك قل هو الله أحد ؟» قال: بلى ، قال : «ثلث القرآن» قال: أليس معك «إذا جاء نصر الله والفتح؟» قال: بلى ، قال: «ربع القرآن» قال : «أليس معك قل ياأيها الكافرون؟» قال: بلى ، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك إذا زلزلت الأرض؟» قال: بلى ، قال : «ربع القرآن ، تزوج» ثم قال : هذا حديث حسن ، تفرد بهن ثلاثتهن الترمذي لم يروهن غيره من أصحاب الكتب) .

وقال الألوسي : (وصح في حديث الترمذي والبيهقي وغيرهما عن ابن عباس

مرفوعاً : «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن» وجاء في حديث آخر تسميتها ربعاً ، ووجّه مافي الأول بأن أحكام القرآن تنقسم إلى أحكام الدنيا وأحكام الآخرة ، وهذه السورة تشتمل على أحكام الآخرة إجمالاً ، وزادت على القارعة بإخراج الأثقال ، وبحديث الإخبار ، ومافي الآخر بأن الإيمان بالبعث الذي قررته هذه السورة ربع الإيمان في الحديث الذي رواه الترمذي : «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر» . وكأنه لما ذكر عز وجل في السورة السابقة جزاء الفريقين المؤمنين والكافرين كان ذلك كالمحرك للسؤال عن وقته فبينه جل شأنه في هذه السورة) .

وقال صاحب الظلال عن هذه السورة : (إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة . هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي ، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بعض فقرات قصار) .

كلمة في سورة الزلزلة ومحورها :

بعد الآيات التي شكلت محور سورة البينة من سورة البقرة ، يأتي قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ لاحظ كلمة (ثم إليه ترجعون) ولاحظ أن سورة الزلزلة تتحدث عن رجوع الإنسان إلى الله ، وعن يوم الرجوع ذاك ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها ... فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ . من هذا الذي ذكرناه نعرف محور سورة الزلزلة وندرك الصلة بين السورة ومحورها .

وأما الصلة بين سورة الزلزلة والبينة فواضحة ، حتى لتكاد تكون سورة الزلزلة استمراراً لسورة البينة ، إذ إن خاتمة سورة البينة تتحدث عن جزاء الكافرين ، وجزاء المؤمنين يوم القيامة ، وتأتي سورة الزلزلة لتحدثنا عن ذلك اليوم ، ومايكون فيه ، وعن قاعدة الحساب والجزاء فيه ، فلنر السورة .

* * *

سورة الزلزلة

وهي ثماني آيات وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **إذا زلزلت الأرض** ﴾ أي: حرّكت الأرض ﴿ **زلزالها** ﴾ أي: حركتها الشديدة التي ليس بعدها حركة . قال النسفي : أي: زلزالها الشديد الذي ليس بعده زلزال . ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ قال ابن كثير : يعني : ألقت مافيها من الموتى ، وقال النسفي : أي: كنوزها وموتاها .. جعل مافي جوفها من الدّفائن أثقالاً لها . أقول : والحكمة في إخراج الكنوز مع الموتى إراءة الناس تفاهة ماتعبّدوا له ، وعملوا له ، واختصموا فيه . قال ابن كثير : (وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً ») .

﴿ **وقال الإنسان مالها** ﴾ قال النسفي : (أي: مالها زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ، ولفظت مافي بطنها ، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ موتاها أحياءً فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع ، كما يقولون: من بعثنا من مرقدنا ، وقيل : هذا قول الكافر ؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث ، فأما المؤمن فيقول: هذا ماوعد الرحمن وصدق

المرسلون) . ﴿ **يومئذ** ﴾ أي: يوم يكون ذلك الزلزال ، وإخراج الأثقال وتساؤل الإنسان ﴿ **تحدّث** ﴾ الأرض ﴿ **أخبارها** ﴾ أي: تحدّث الأرض الخلق أخبارها ، قال ابن كثير : (أي : تحدّث بما عمل العاملون على ظهرها . روى الإمام أحمد والترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي - واللفظ له - عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **يومئذ تحدّث أخبارها** ﴾ قال : «أتدرون ماأخبارها؟» قالوا : الله ورسوله أعلم قال : «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها» ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب) . ﴿**بأن ربك أوحى لها**﴾ أي : بسبب أن ربك أذن لها أن تحدّث ، وأن تقول ، قال النسفي : أي : تحدّث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها ، أي : إليها ، وأمره إياها بالتحديث ﴿ **يومئذ** ﴾ أي : يوم يكون ذلك ﴿ **يصدر الناس أشتاتاً** ﴾ قال النسفي : أي : يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف أشتاتاً ، بيض الوجوه آمنين ، وسود الوجوه فزعين ، أو يصدرون عن الموقف أشتاتاً يتفرق بهم طريقا الجنة والنار) وقال ابن كثير : (أي : يرجعون عن موقف الحساب أشتاتاً أي : أنواعاً وأصنافاً مابين شقي وسعيد ، ومأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار ، قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ماعليهم ، وقال السدي : أشتاتاً فرقاً) . ﴿ **ليروا أعمالهم** ﴾ أي : ليروا جزاء أعمالهم . قال ابن كثير : أي : ليعملوا ويجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر ، ولهذا قال : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره** ﴾ أي : ير جزاءه ﴿ **ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ أي جزاءه ، والذرة هي غاية مايضرب به المثل في الصغر ، وقد رأينا في سورة يونس وغيرها أن الله عز وجل ذكر ماهو أصغر من الذرة فقال : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ..** ﴾ فليس المراد في آية الزلزلة التحديد العلمي للذرة وأنها أصغر الأشياء ، بل المراد أنه مهما قلّ العمل من خير أو شر فإن الإنسان ملاقيه ، وليس كالذرة مضرب مثل في هذا؛ لأنه لايوجد في الكون ماهو أصغر من الذرة كشيء متكامل .

كلمة في السياق :

واضح تسلسل السياق الخاص للسورة فلا حاجة للكلام عنه ، وأما صلة السورة بمحورها فإن الله عز وجل قال في المحور : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ وقد ذكرت السورة متى يكون هذا الرجوع ،

وكيف يكون وماذا سيجرى فيه ، فالسورة واضحة الارتباط بمحورها ، فهي تفصّل في جزء من المحور ، وهو موضوع الرجوع إلى الله عز وجل ، ولكنه تفصيل جديد فما من سورة إلا وفيها جديد .

فائـدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الخيل ثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر . فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طيلها في مرج أو روضة ، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن تسقى به كان ذلك حسنات له ، وهي لذلك الرجل أجر . ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر ، ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً فهي على ذلك وزر » فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال : «ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ » ورواه مسلم من حديث زيد بن أسلم به .

وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية - عم الفرزدق - أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ قال : حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها . وهكذا رواه النسائي في التفسير عن الحسن البصري قال حدثنا صعصعة عم الفرزدق فذكره . وفي صحيح البخاري عن عدي مرفوعاً : «اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة» وله أيضاً في الصحيح : «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط» وفي الصحيح أيضاً : «يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» يعني : ظلفها ، وفي الحديث الآخر : «ردوا السائل ولو بظلف محرق» وروى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان» تفرد به أحمد . وروى عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت : كم فيها من مثقال ذرة . وروى الإمام أحمد عن عوف بن الحارث بن الطفيل أن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ كان يقول : «يا عائشة إياك ومحقّرات

الذنوب فإن لها من الله طالباً » ورواه النسائي وابن ماجه . وروى ابن جرير عن أنس قال : كان أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ فرفع أبو بكر يده وقال : يارسول الله إني أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر ؟ فقال : « ياأبا بكر مارأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ، ويدّخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى تُوفاه يوم القيامة » ورواه ابن أبي حاتم .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها .) .

٭ ٭ ٭

المجموعة الرابعة عشرة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المفصَّل
وتشمل سور :
العاديات ، والقيامة ،
والتكاثر

كلمة في المجموعة الرابعة عشرة من قسم المفصل :

تتألف المجموعة الرابعة عشرة من ثلاث سور ، والذي دلّنا على بدايتها أنّ السورة الأولى منها مبدوءة بقسَم ، وهي علامة مطردة على بداية المجموعات كما رأينا ، والذي دلنا على نهايتها أن سورة العصر بعدها مبدوءة بقسم مما يشير إلى أن سورة التكاثر هي نهاية المجموعة .

....

وقد عرفنا أن السورة المبدوءة بقَسَم تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وهذا يدلنا على محور سورة العاديات، وقد رأينا من قبل أن سورة الحاقة فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، والملاحظ أن سورة القارعة تشبه سورة الحاقة ، ففي سورة الحاقة . ورد قوله تعالى: ﴿ **الحاقّة ما الحاقّة . وما أدراك ما الحاقّة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة** ﴾ وفي سورة القارعة يأتي قوله تعالى : ﴿ **القارعة ما القارعة . وما أدراك ما القارعة** ﴾ لاحظ وجود كلمة القارعة في السورتين . وأن لفظ القارعة في سورة الحاقة تفسير للحاقة ، وهذا يشير إلى أن السورتين تصبان في مصب واحد ، مما يشير إلى وحدة محور السورتين .

والملاحظ أن سورة الحاقة تقول : ﴿ **يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتي كتابه بيمينه ... وأما من أوتي كتابه بشماله ..** ﴾ .

وأن سورة القارعة تقول : ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش . فأما من ثقلت موازينه .. وأما من خفّت موازينه ..** ﴾ تتشابهان تشابهاً كبيراً مما يشير إلى وحدة محورهما . فإذا كان محور سورة الحاقة هو مقدمة سورة البقرة فكذلك سورة القارعة .

وعلى هذا فإن محور سورتي العاديات والقارعة هو مقدمة سورة البقرة .

وتأتي سورة التكاثر والظاهر من معانيها أنها تفصّل فيما بعد مقدمة سورة البقرة ، أي: في قوله تعالى: ﴿ **يا أيها النّاس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً**

فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ ومن ثمّ تجد سورة التكاثر تخاطب الناس فتقول: ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ .

إن ما بعد مقدمة سورة البقرة دعوة للناس جميعاً إلى عبادة الله عز وجل شكراً له على نعمه . ولكن كثيرين من الناس تشغلهم النعمة عن المنعم ، ولذلك تأتي سورة التكاثر لتؤنّب هؤلاء على اشتغالهم بالنعمة عن المنعم حتى ماتوا ، وتعالج هذه الظاهرة ، والملاحظ بشكل عام أن المجموعة الرابعة عشرة تعالج بشكل عام ظواهر مرضية في الطبيعة البشرية تنأى بها عن الحق وقبوله ، فلنبدأ عرض المجموعة .

☆ ☆ ☆

سورة العاديات

وهـــي الســـورة المائـــة بحـــب الرســـم القـــرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الرابعة عشرة
من قسم المفصل ، وهي إحدى عشرة آية
وهـــي مكيـــة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلّٰهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة العاديات :

قال الألوسي عن هذه السورة : (ولما ذكر سبحانه فيما قبلها الجزاء على الخير والشر أتبع ذلك فيها بتعنيف من آثر دنياه على آخرته ، ولم يستعد لها بفعل الخير ، ولا يخفى ما في قوله تعالى هناك : ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ وقوله سبحانه هنا : ﴿ **إذا بعثر ما في القبور** ﴾ من المناسبة أو العلاقة على ما سمعت من أن المراد بالأثقال ما في جوفها من الأموات أو ما يعمهم ، والكنوز) .

وقال صاحب الظلال : (يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة ، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزاً وركضاً ووثباً ، في خفة وسرعة وانطلاق ، حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع ! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف !

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادحة للشرر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للنقع وهو الغبار ، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة ، وتثير في صفوفه الذعر والفرار ! يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد .

ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور !.

وفي الختام ينتهي النقع المثار ، وينتهي الكنود والشح ، وتنتهي البعثرة والجمع ... إلى نهايتها جميعاً . إلى الله . فتستقر هناك : ﴿ **إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ ..

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمدمة وفرقعة ، تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور المبعثرة ، والصدور المحصَّل ما فيها بشدة وقوة ، كما تناسب جو الجحود والكنود ، والأثرة والشح الشديد . فلما أراد لهذا كله إطاراً مناسباً ، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك ، تثيره الخيل العادية في جريها ، الصاخبة بأصواتها القادحة بحوافرها ، المغيرة فجاءة مع الصباح ، المثيرة للنقع والغبار ، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار .. فكان الإطار من الصورة والصورة من الإطار .

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة ، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري ، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر

منها ، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار . غبار المعركة على غير انتظار . وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب !.

إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة .. والقَسَم بالخيل في هذا الإطار فيه إيحاء قوي بحب هذه الحركة والنشاط لها ، بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله) .

كلمة في سورة العاديات ومحورها :

تتحدث سورة العاديات عن طبيعة الإنسان ، وأنه جحود ، وأنّه محبٌّ لمصلحته ومنفعته وهي تعالج هذا المعنى عند الإنسان ، بتذكيره بالبعث والحساب ، ومعرفة الله عز وجل ، وإذا تذكرنا مقدمة سورة البقرة فإننا نرى أنّها تتحدث عن المتقين والكافرين والمنافقين ، وهذه السورة تتحدّث عن سبب الكفر والنفاق ، وتعالج ذلك ليكون الإنسان من المتقين ، وهذه هي الصلة الرئيسية لهذه السورة بمقدمة سورة البقرة .

انتهت سورة الزلزلة بقوله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ٥ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ وسورة العاديات تتحدّث عن طبيعة الإنسان وكنوده ومحبته للمال والدنيا ، وتعالج ذلك . وفي ذلك حضّ على فعل الخير وترك الشر فالسورة كثيرة الصلات بما قبلها .

....

سورة العاديات

وهي إحدى عشرة آية وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾

فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

التفسير :

﴿ **والعاديات ضبحاً** ﴾ قال ابن كثير : يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت ، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو . أقول : والتقدير : والخيل العاديات يضبحن ضبحاً ﴿ **فالموريات قدحاً** ﴾ قال ابن كثير : (يعني اصطكاك نعالها بالصخر فتقدح منه النار) قال النسفي : (والقدح : الصك ، والإيراء: إخراج النار) ﴿ **فالمغيرات صبحاً** ﴾ قال ابن كثير : (يعني الإغارة وقت الصباح). قال النسفي : (فالمغيرات تغير على العدو وقت الصبح) ﴿ **فأثرن به نقعاً** ﴾ قال النسفي : أي : فهيجن بذلك الوقت غباراً ، وقال ابن كثير في الآية : يعني غباراً في مكان معترك الخيول ﴿ **فوسطن به جمعاً** ﴾ قال النسفي : فوسطن به أي: بذلك الوقت جمعاً جموع الأعداء ، ووسطه بمعنى توسّطه ﴿ **إنّ الإنسان لربه لكنود** ﴾ قال النسفي : أي لكفور أي : إنّه لنعمة ربه خصوصاً لشديد الكفران . قال ابن كثير : هذا هو المقسم عليه . بمعنى : إنّه لنعم ربه لكفور جحود ﴿ **وإنه** ﴾ أي: وإن الإنسان ﴿ **على ذلك** ﴾ أي: على كنوده ﴿ **لشهيد** ﴾ أي: يشهد على نفسه ، وعلى هذا القول محمد بن كعب القرظي . قال ابن كثير : فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد أي: بلسان حاله أي ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله ﴿ **وإنه** ﴾ أي: الإنسان ﴿ **لحب الخير لشديد** ﴾ قال النسفي : (أي وإنه لأجل حب المال لبخيل ممسك ، أو إنه لحب المال لقوي وهو لحب عبادة الله ضعيف) وقال ابن كثير : (أي: وإنه لحب الخير - وهو المال - لشديد ، وفيه مذهبان : أحدهما أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال والثاني وإنه لحريص بخيل من محبة المال وكلاهما صحيح) .

أقول: يمكن أن يكون المراد بالخير في هذا السياق ماهو أعمّ من المال. من ما يدخل في كل ما يعتبره الإنسان خيراً لنفسه. قال ابن كثير: ثم قال تبارك وتعالى مزهّداً في الدنيا، ومرغباً في الآخرة، ومنبّهاً على ماهو كائن بعد هذه الحال وما يستقبله الإنسان من الأهوال ﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور** ﴾ أي: أفلا يعلم الإنسان إذا بعث من في القبور من الموتى، وقال ابن كثير: أي: أخرج مافيها من الأموات ﴿ **وحصّل ما في الصدور** ﴾ قال النسفي: أي ميّز مافيها من الخير والشر. قال ابن عباس وغيره: يعني: أبرز وأظهر ما كانوا يسرّون في نفوسهم ﴿ **إن ربّهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ قال النسفي: أي: لعالم، فيجازيهم على أعمالهم من الخير والشر. وخصّ (يومئذ) بالذكر وهو عالم بهم في جميع الأزمان، لأنّ الجزاء يقع يومئذ، وقال ابن كثير: أي العالم بجميع ما كانوا يصنعون ومجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

كلمة في السياق :

انصب السياق على ذكر طبيعة الإنسان فهو كنود ويحبّ المال والمنافع الدنيوية، وذكرت السورة علاج هاتين الصفتين، وذلك يكون بتذكر البعث، ومايكون فيه من تحصيل مافي الأنفس، وعلم الله عز وجل بها، إن هذا التذكر هو الذي يحرّر الإنسان من كنوده، وحبّه الشديد للمال حتى لا يلقى الله عز وجل بأمراضه المخجلة تلك، فإذا علم الإنسان ذلك تحرّر من الكفر، وأقبل على الإيمان والصلاة والإنفاق، واتّباع كتاب الله عز وجل، فلا صارف يصرف عن هذه الأشياء مثل جحود نعم الله عز وجل ومحبّة الدنيا، ومن هذا الذي ذكرناه تدرك سياق السورة الخاص، وصلتها بمحورها أي: بمقدمة سورة البقرة، فالسورة تحرر الإنسان ممّا يمنعه من التحقّق بصفات المتقين، إنّ الجحود لنعم الله عز وجل ينتج عن الكفران الذي لا يرافقه اعتراف ولا عبودية، ومن ثَمّ فلا إيمان ولا صلاة ولا اتباع كتاب. وإنّ حبّ المال ينتج عنه حجب الحقوق، وعدم الإنفاق وينتج عنه، قبول الفتنة في أمر الإسلام.

وإن ما بين قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود .. وإنّه لحب الخير لشديد** ﴾. وبين قوله تعالى: ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون** ﴾ لصلة، فمن الصوارف التي تصرف الإنسان عن قبول الإنذار شحه وحبه للدنيا.

الفــوائد :

١ – القول الراجح أن المراد بالقَسَم الوارد في السورة الخيلُ ، وهناك خلاف . هل المراد بها خيل الغزاة أو خيل الحجيج في انطلاقها من عرفات إلى مزدلفة إلى منى . وهو خلاف لايوقف عنده . فالحج نوع جهاد في سبيل الله ، ولاشك أن في القَسَم بالخيل تعظيماً لها . كآلة جهاد ، وهذا يجعل المسلم يفكر دائماً بآلات الجهاد .

٢ – مما قالوه في الكنود سوى ماذكرناه ، ماقال الحسن : الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه ، وقال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود** ﴾ – قال – : الكنود الذي يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده » ورواه ابن أبي حاتم من طريق آخر بإسناد ضعيف ، وقد رواه ابن جرير أيضاً عن أبي أمامة موقوفاً) .

★ ★ ★

سورة القارعة

وهـي السـورة الحادية بعـد المائـة بحسب الرسـم القـرآني
وهـي السـورة الثانية من المجموعة الرابعة عشـرة
من قسم المفصل ، وهي إحدى عشرة آية
وهـي مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا . إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة القارعة :

قال صاحب الظلال عن هذه السورة : (القارعة : القيامة . كالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية ، والقارعة توحي بالقرع واللطم ، فهي تقرع القلوب بهولها .

والسورة كلها عن هذه القارعة . حقيقتها . وما يقع فيها . وما تنتهي إليه .. فهي تعرض مشهداً من مشاهد القيامة .

والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس في ظله صغاراً ضئالاً على كثرتهم : فهم ﴿ **كالفراش المبثوث** ﴾ مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفاً ! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام ! فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة ، فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ ، والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها ، مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء ! وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر ، تمهيداً لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء) .

وقال الألوسي : (ومناسبتها لما قبلها أظهر من أن تذكر) .

كلمة في سورة القارعة ومحورها :

تحدثت مقدمة سورة البقرة عن المتقين والكافرين والمنافقين ، والمنافقون كافرون في المآل . وسورة القارعة تتحدث عن حال المتقين والكافرين يوم القيامة ، وهذا أول مظهر من مظاهر صلة سورة القارعة بمقدمة سورة البقرة ، ومقدمة سورة البقرة تتحدث عن المتقين بأنهم يؤمنون بالآخرة ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ وتتحدث عن الكافرين ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ وسورة القارعة تتحدث عن اليوم الآخر وعما يكون فيه من فلاح لأهل العمل الصالح ، ومن عذاب وخسران لأهل الكفر ، ولذلك صلة بمقدمة سورة البقرة كذلك .

وقد ختمت سورة العاديات بقوله تعالى : ﴿ **أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور * وحُصِّل ما في الصدور * إنّ ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ وجاءت سورة القارعة لتحدّثنا

عن الساعة التي تبعثر فيها القبور ، وتحدّثنا عما يكون فيها ، وهذا مظهر من مظاهر صلتها بما قبلها ، ولعلّنا نلاحظ أنّ هذه المجموعة لها خصائص معينة في كونها تعالج معاني سلبية في الإنسان وذلك مظهر من مظاهر أسباب تعدّد المجموعات القرآنية ، إذ تؤدي كل منها خدمة في مجال التربية والتعليم ، والبيان والتفصيل ، وهو مدى لا يحاط به . ومن ثمّ فلا يغني عن ختم القرآن وتكراره شيء . فكل سورة فيها جديد ، وكل مجموعة فيها جديد ، وكل قسم فيه جديد ، وكل ذلك يترك آثاره الخاصة في النفس البشرية .

* * *

سورة القارعة

وهي إحدى عشرة آية وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

التفسير :

﴿ **القارعة** ﴾ قال ابن كثير : القارعة من أسماء يوم القيامة كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك ﴿ **ما القارعة** ﴾ هذا سؤال يراد به تعظيم أمرها وتفخيم شأنها : ﴿ **وما أدراك ما القارعة** ﴾ قال النسفي : أيّ شيء أعلمك ما هي ، ومن أين علمت ذلك ؟ أقول : وفي السؤال الثاني كذلك تفخيم آخر لشأنها . قال ابن كثير : ثم فسّر ذلك بقوله : ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث** ﴾ قال النسفي : (شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب ، كما يتطاير

الفراش إلى النار وقال ابن كثير في الآية : (أي في انتشارهم وتفرّقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مماهم فيه كأنهم فراش مبثوث) ﴿ **وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾ قال النسفي : شبه الجبال بالعهن : وهو الصوف المصبّغ ألواناً لأنها ألوان ﴿ **ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها** ﴾ وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها . قال ابن كثير : ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه كل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم . فقال : ﴿ **فأمّا من ثقلت موازينه** ﴾ قال النسفي : أي باتباعهم الحق وهي جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وحظّ عند الله أو جمع ميزان وثقلها رجحانها ، وقال ابن كثير : أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿ **فهو في عيشة راضية** ﴾ أي : ذات رضا أو مرضية . قال ابن كثير : يعني في الجنة ﴿ **وأما من خفّت موازينه** ﴾ قال النسفي : أي باتباعه الباطل . قال ابن كثير : أي رجحت سيئاته على حسناته ﴿ **فأمّه هاوية** ﴾ قال النسفي : أي فمسكنه ومأواه النار ، وقيل للمأوى أمّ على التشبيه لأن الأمّ مأوى الولد ومفزعه . وقال ابن كثير : قيل معناه فهو ساقط في الهاوية ، وهي اسم من أسماء النار ﴿ **وماأدراك ماهيه** ﴾ قال النسفي : الضمير يعود إلى هاوية والهاء للسكت ، ثم فسّرها الله عز وجل فقال : ﴿ **نار حامية** ﴾ قال النسفي : أي بلغت النهاية في الحرارة .

كلمة في السياق :

بينت السورة عاقبة المتقين الذين ثقلت حسناتهم ، وعاقبة الكافرين الذين لا يقبل الله عز وجل منهم عملاً ، وفي ذلك دعوة للإيمان والتقوى والعمل الصالح ، كما أن فيها دعوة للتحرر من الكفر والفجور ، وصلة ذلك بمقدمة سورة البقرة لا تخفى .

فائـدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأما من خفّت موازينه . فأمّه هاوية . وما أدراك ما هيه . نار حامية** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين فيقولون : روّحوا أخاكم فإنه كان في غم الدنيا قال : ويسألونه ما فعل فلان ؟ فيقول : مات أوَ ما جاءكم؟ فيقولون : ذهب به إلى أمه الهاوية ، وقد رواه ابن مردويه من طريق أنس بن مالك مرفوعاً بأبسط من هذا وقد أوردناه في كتاب صفة النار - أجارنا الله تعالى منها بمنه وكرمه - وقوله تعالى : ﴿ **نار**

حامية ﴾ أي: حارة شديدة الحر قوية اللهب والسعير . قال أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا: يارسول الله إن كانت لكافية؟ فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً» ورواه البخاري، وفي بعض ألفاظه: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها» وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقال رجل: إن كانت لكافية؟ فقال: «لقد فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً حرّاً فحرّاً» تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط مسلم .. وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودّت، فهي سوداء مظلمة» وقد روي هذا من حديث أنس وعمر بن الخطاب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان يغلي منهما دماغه» وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يارب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ماتجدون في الشتاء من بردها، وأشد ماتجدون في الصيف من حرها» وفي الصحيحين: «إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم») .

☆ ☆ ☆

سورة التكاثر

وهي السورة الثانية بعد المائة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة والأخيرة من المجموعة الرابعة
عشرة من قسم المفصل ، وهي ثماني آيات
وهي مكية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللّٰهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة التكاثر :

قال الألوسي عن سورة التكاثر : (وآيها ثمان بالاتفاق . وهي تعدل ألف آية من القرآن . أخرج الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم ؟ قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية ؟ قال : أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر» وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق والديلمي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «من قرأ في ليلة ألف آية لقي الله تعالى وهو ضاحك في وجهه» فقيل : يارسول الله من يقوى على ألف آية ؟ فقرأ سورة ألهاكم التكاثر إلى آخرها ثم قال عليه الصلاة والسلام : «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ألف آية» وذكر ناصر الدين ابن الميلق في سر ذلك أن القرآن ستة آلاف ومائتا آية وكسر ، فإذا تركنا الكسر كان الألف سدس القرآن وهذه السورة تشمل على سدس من مقاصد القرآن فإنها على ماذكره الغزالي ستة ، ثلاثة مهمة : وهي تعريف المدعو إليه ، وتعريف الصراط المستقيم ، وتعريف الحال عند الرجوع إليه عز وجل ، وثلاثة متمة ، وهي تعريف أحوال المطيعين ، وحكاية أقوال الجاحدين ، وتعريف منازل الطريق ، وأحدها معرفة الآخرة المشار إليه بتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى المشتمل عليه السورة ، والتعبير على هذا المعنى بألف آية أفخم وأجل من التعبير بالسدس . انتهى . والأمر — والله تعالى أعلم — وراء ذلك ومناسبتها لما قبلها ظاهرة) .

وقال صاحب الظلال عن هذه السورة :

(هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق وكأنما هي صوت نذير ، قائم على شرف عال . يمد بصوته ويدوي بنبرته . يصيح بِنُوَّم غافلين مخمورين سادرين ، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة ، وحسهم مسحور . فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ .

إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها . وتلقي في الحس ماتلقي بمعناها وإيقاعها . وتدع القلب مثقلاً مشغولاً بِهَمِّ الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون !

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل .. ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾

حتى زرتم المقابر ﴾ .. وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة .. ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال ؛ ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء . فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد ..

ومايقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة ، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها ، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها .. حتى يشعر بثقل ماعلى عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض ، ثم يحمل مايحمل منها ويمضي به مثقلاً في الطريق !

ثم ينشيء يحاسب نفسه على الصغير والزهيد !) .

كلمة في سورة التكاثر ومحورها :

بعد مقدمة سورة البقرة يأتي قوله تعالى: ﴿ **ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ . فالآيتان أمرتا بعبادة الله معللتان لذلك بأنه الخالق المنعم ، ولكن كم من الناس يستجيبون لهذا الأمر ؟ لاشكّ أن القليل هم المستجيبون ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ وحتى هذا القليل تلهيه الدنيا عن القيام بالشكر حقّ الشكر ، وقد جاءت سورة التكاثر لتحدثنا عن انشغال الكثير من الخلق بالدنيا ، ولم تحدد السورة هذا الانشغال عن ماذا . بل حدّدت بماذا . والسياق يعرّفنا عن ماذا كان الانشغال ومحور السورة يحدّده كذلك ، وهو الانشغال عن عبادة الله عز وجل وتقواه ، وهذا أول مظهر من مظاهر صلة سورة التكاثر بمحورها . وتنتهي سورة التكاثر بقوله تعالى : ﴿ **ثم لتسألُنّ يومئذ عن النعيم** ﴾ وقد رأينا أن آيتي المحور حدثتنا عن نعم الله علينا وطالبتنا بناءً على ذلك بالعبادة والتقوى والتوحيد ، ولكن كثيرين لايفعلون ذلك فهم يتنعمون ولايشكرون ، ومن ثم أنذرت سورة التكاثر بأن السؤال عن النعيم كائن ، وهذا كذلك من مظاهر صلة سورة التكاثر بمحورها من سورة البقرة .

وكما أنّ للسورة صلتها الواضحة بمحورها فلها صلتها الواضحة بما قبلها ، فسورة

القارعة انتهت بقوله تعالى: ﴿ وما أدراك ماهيه . نار حامية ﴾ وسورة التكاثر بدأت بقوله تعالى: ﴿ ألهاكم التكاثر .. ﴾ فلو قدرنا أن التكاثر ألهانا عن العمل المنجي من النار. لرأينا أنّ الصلة كاملة بين السورتين، ومن تأمّل السورة. وتأمل سورة القارعة فإنه يجد أكثر من وشيجة تربط بين السورتين.

* * *

سـورة التكـاثر

وهي ثماني آيات وهذه هي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

التفسير:

﴿ **ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر** ﴾ قال ابن كثير: يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها. وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها. روى ابن أبي حاتم الحديث الذي قاله رسول الله ﷺ: «﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ عن الطاعة ﴿ **حتى زرتم المقابر** ﴾ حتى يأتيكم الموت». أقول: في هذا الحديث دليل على ماذهبنا إليه في تفسير عن أي شيء يكون الانشغال. فالانشغال بالتكاثر إنما هو انشغال عن العبادة والتقوى، ويدخل في التكاثر. التكاثر في الأموال والأولاد وغير ذلك مما يتكاثر في الدنيا ﴿ **كلا** ﴾ قال النسفي: ردع وتنبيه على أنه لاينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولايهتم بدينه ﴿ **سوف**

تعلمون ﴾ قال النسفي : أي : عند النزع سوء عاقبة ما كنتم عليه ﴿ **ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ قال النسفي : أي في القبور . وقال الحسن البصري في الآيتين : هذا وعيد بعد وعيد . أقول : هذان الوعيدان حملهما النسفي على ما رأينا ، وسنرى أنّ ابن كثير حملهما على الوعيد في شأن جهنم يوم القيامة ﴿ **كلا** ﴾ قال النسفي : تكرير الردع للإنذار والتخويف ﴿ **لو تعلمون علم اليقين** ﴾ قال ابن كثير : أي لو علمتم حق العلم لَمَا ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر . وقال النسفي : جواب لو محذوف أي : لو تعلمون ما بين أيديكم علم اليقين لفعلتم مالا يوصف ولكنكم ضلّال جهلة ﴿ **لترونَّ الجحيم** ﴾ هذا جواب قسم محذوف كما نصّ النسفي وغيره . ﴿ **ثم لترونَّها عين اليقين** ﴾ قال النسفي : أي لترونّها الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصه ، وقال : كرره معطوفاً بثم تغليظاً في التهديد وزيادة في التهويل ، قال ابن كثير : هذا تفسير الوعيد المتقدم وهو قوله ﴿ **كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ توعدهم بهذا الحال وهو رؤية النّار التي إذا زفرت زفرة واحدة خرّ كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبته من المهابة والعظمة . ومعاينة الأهوال على ما جاء به الأثر المروي في ذلك ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قال ابن كثير : أي ثمّ لتسألنّ يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن ، والرزق وغير ذلك ، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته .

كلمة في السياق :

١ - عالجت السورة موضوع انشغال الإنسان عن العبادة والتقوى وبيّنت أن علاج ذلك هو العلم اليقيني بما يكون أمام الإنسان ، وبتذكر الجحيم ، وتذكر السؤال ، وقد فهمنا أن علاج ذلك هو هذا من سياق السورة .

٢ - في السورة إنكار على من ينشغل بالتكاثر عن طاعة الله وإنذار لَهُ ، وتهديد ووعيد ، وذلك كله تأديب للإنسان أن ينشغل عن حقوق الله عز وجل بشيء .

٣ - ومن السورة نعرف أنّ الانشغال بالنعمة عن المنعم خُلق من أخلاق الكافرين ، فالنعمة تقتضي شكراً ، والشكر عبادة وتقوى . قال تعالى : ﴿ **واتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ ومن ههنا ندرك الصلة القوية بين السورة ومحورها من سورة البقرة كما ذكرنا من قبل .

الفــوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألهاكم التكاثر – عن الطاعة – حتى زرتم المقابر – حتى يأتيكم الموت » وقال الحسن البصري : ألهاكم التكاثر في الأموال والأولاد : وروى الإمام أحمد عن مطرف – يعني ابن عبد الله بن الشخير – عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** ﴾ « يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟ » ورواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق شعبة به . وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالي مالي ، وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأمضى ، وماسوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » تفرد به مسلم .

وروى البخاري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله » وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سفيان بن عيينة به . وروى الإمام أحمد عن أنس أن النبي ﷺ قال : « يهرم ابن آدم ويبقى منه اثنتان الحرص والأمل » أخرجاه في الصحيحين) .

٢ – جاء في السورة قوله تعالى : ﴿ **كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ** ﴾ وكثيرون من الناس يظنون أنّ ﴿ **لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ** ﴾ جواب (لو) وهو خلاف ما عليه جمهرة المفسرين إذ يعتبرون أن الكلام انتهى عند قوله تعالى : ﴿ **كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ** ﴾ ويعتبرون جواب لو محذوفاً ، ويعتبرون أنّ ﴿ **لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ** ﴾ جواب قسم محذوف ، إلا أن النسفي مع ذكره لهذا القول يذكر قولاً آخر مضمونه أن ﴿ **لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ** ﴾ جواب للآية قبلها وأنها تشير لرؤية الجحيم بالعقول والقلوب في الدنيا ، ثم لترونها بأبصاركم يوم القيامة رؤية هي نفس اليقين ، وخالصته وهو اتجاه لا غبار عليه .

٣ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾ قال ابن كثير : (وقال ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينا أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهم النبي ﷺ فقال « ماأجلسكما ههنا؟ » قالا : والذي بعثك بالحق ماأخرجنا من بيوتنا إلا

الجوع قال: «والذي بعثني بالحق ماأخرجني غيره» فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار فاستقبلتهم المرأة فقال لها النبي ﷺ: «أين فلان؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحباً مازار العباد شيء أفضل من نبي زارني اليوم، فعلق قربته بقرب نخلة وانطلق فجاءهم بعذق فقال النبي ﷺ: «ألا كنت اجتنيت» فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم ثم أخذ الشفرة فقال له النبي ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم يومئذ فأكلوا فقال النبي ﷺ: «لتسألن عن هذا يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا فهذا من النعيم» ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان به ورواه أبو يعلى وابن ماجه عن أبي هريرة عن أبي بكر الصديق به، وقد رواه أهل السنن الأربعة من حديث عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحو من هذا السياق وهذه القصة .. وثبت في صحيح البخاري وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ماوجب عليه فهو مغبون. وروى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «مافوق الإزار وظل الحائط وخبز، يحاسب به العبد يوم القيامة أو يسئل عنه» ثم قال لا نعرفه إلا بهذا الإسناد، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «يقول الله عز وجل – قال عفان – وهو من رجال سند الحديث –: يوم القيامة: «ياابن آدم حملتك على الخيل والإبل وزوجتك النساء وجعلتك تربع وترأس فأين شكر ذلك» تفرد به من هذه الوجه).

☆ ☆ ☆

المجموعة الخامسة عشرة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المفصّل
وتشمل سور :
العصر ، والهُمَزَة ، والفيل ، وقريش ، والماعون ،
والكوثر ، والكافرون ، والنصر ، والمسد ،
والإخلاص ، والفلق ،
والناس

كلمة في المجموعة الخامسة عشرة من قسم المفصّل

تتألف المجموعة الخامسة عشرة من المفصّل من اثنتي عشرة سورة فهي أكثر مجموعات القرآن عدد سور، وقد دللنا على بدايتها أن السورة الأولى فيها - وهي سورة العصر - مبدوءة بقسم، وقد رأينا أن ذلك علامة مطردة على أنّ مجموعة جديدة قد أتت، وعندما نتأمل بدايات السور الأخرى، ومواضيعها ومعانيها، فإننا نصل إلى أنها جميعاً أسرة في مجموعة واحدة، وسنرى أدلة ذلك تفصيلاً.

والملاحظ أن سور هذه المجموعة تغطي من سورة البقرة إلى نهاية قصة آدم، فالسور الخمس الأولى منها تغطي مقدمة سورة البقرة، حتى إن السورة الخامسة فيها كلام عن المنافقين، كما أنّ مقدمة سورة البقرة فيها كلام عن المنافقين، فالسور الخمس تتحدث عن المتقين والكافرين والمنافقين كما سنرى، ثم تأتي السور الأربع التالية: الكوثر، والكافرون، والنصر، والمسد، لتفصّل في الآيات السبع التالية لمقدمة سورة البقرة، ومن ثم نجد فيها ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾ ونجد فيها ﴿ **قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون** ﴾ ونجد فيها ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره** ﴾ ونجد فيها ﴿ **تبّت يدا أبي لهب** ﴾ وكلها معان ترتبط بمعاني الآيات السبع الآتية بعد مقدمة سورة البقرة بدقة عجيبة كما سنرى، ثم تأتي سورة الإخلاص لتفصّل في الآيتين الآتيتين بعد الآيات السبع ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ ونجد سورة الإخلاص مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **قل هو ...** ﴾ وتأتي بعد ذلك في سورة البقرة قصة آدم عليه السلام، وفيها حسد إبليس ووسوسته، وتأتي سورة الفلق وفيها ﴿ **ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾ وتأتي سورة الناس وفيها ﴿ **قل أعوذ برب الناس .. من شر الوسواس الخناس ...** ﴾.

فسور المجموعة مترابطة الصلات مع مجاورها من سورة البقرة بشكل واضح، وسنرى هذا تفصيلاً عند الحديث عن كل سورة على حدة. ومع أن سور المجموعة منها المكيّ ومنها المدني، ومع ذلك فإنها في ترتيبها تسير على نسق واحد - هو ترتيب المعاني الموجود في سياق سورة البقرة - مما يدلك قطعاً على أن ترتيب القرآن ربانيّ، ومما يدلك قطعاً على أن هذا القرآن يستحيل أن يكون بشري المصدر.

☆ ☆ ☆

سورة العصر

وهي السورة الثالثة بعد المائة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الخامسة عشرة من
قسم المفصل ، وهي ثلاث آيات
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة العصر :

قال الألوسي في سورة العصر : (وهي على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت ، فقد روي عن الشافعي عليه الرحمة أنه قال : لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس؛ لأنها شملت جميع علوم القرآن . وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن أبي حذيفة - وكانت له صحبة - قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة والعصر ، ثم يسلم أحدهما على الآخر ، وفيها إشارة إلى حال من لم يلهه التكاثر ، ولذا وضعت بعد سورته) .

وقال صاحب الظلال :

(في هذه السورة القصيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام . وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة . إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار . وتصف الأمة المسلمة : حقيقتها ووظيفتها . في آية واحدة وهي الآية الثالثة من السورة .. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله .

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه :

إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار . وامتداد الإنسان في جميع الأدهار ، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح ، وطريق واحد ناجح . هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده ، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه . وكل ماوراء ذلك ضياع وخسار . ﴿ **والعصر ۝ إن الإنسان لفي خسر ۝ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

إنه الإيمان . والعمل الصالح . والتواصي بالحق . والتواصي بالصبر ..) .

كلمة في سورة العصر ومحورها :

تبدأ سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ **الۤمۤ ۝ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ۝ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ۝ والذين يؤمنون بما أنزل**

إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

لاحظ قوله تعالى ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ ثم لاحظ أن سورة العصر تبدأ بقوله تعالى ﴿ والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ﴾ .

فالآيات الأولى من سورة البقرة تتحدث عن المفلحين ، وسورة العصر تتحدث عن المفلحين ولكن بتفصيل جديد ؛ إذ تبدأ بالقَسَم على أن جنس الإنسان في خسر إلا من اتصف بصفات أربع : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، فهي تفصيل للتقوى ولأخلاق المتقين الذي وصفهم الله عز وجل بالفلاح في أول سورة البقرة ، لقد وصفت آيات سورة البقرة المتقين بالإيمان والصلاة والإنفاق ، وكل ذلك داخل في الإيمان والعمل الصالح ، وأما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فهما يدخلان في قوله تعالى : ﴿ الۤمۤ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ فالقرآن حق يجب التواصي به ، والقرآن أمر بالصبر ، فسورة العصر أبرزت أن مما يدخل في الاهتداء بكتاب الله عز وجل التواصي بالحق والتواصي بالصبر ، فهي تفصيل للآيات الخمس الأولى من مقدمة سورة البقرة ، لكنّه تفصيل جديد فيه تحديد وفيه بيان .

رأينا أنّ سورة التكاثر بدأت بقوله تعالى ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ وانتهت بقوله تعالى ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ وسورة العصر تتحدث عن جنس الإنسان أنه في خسران إلا من اتصف بصفات أربع ، فكأن سورة العصر تحدّثنا عن طريق النّجاة بعد أن ذكرت سورة التكاثر انشغال الإنسان ، واستغراقه بالنعمة عن المنعم ، فالصلة بين سورة العصر وما قبلها واضحة وسنرى أن صلتها بما بعدها قائمة .

* * *

سورة العصر

وتتألف من ثلاث آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّـبْرِ ﴿٣﴾

التفسير :

﴿ **والعصر** ﴾ قال النسفي : أقسم بصلاة العصر لفضلها .. ولأن التكليف في أدائها أشقّ لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار ، واشتغالهم بمعايشهم ، أو أقسم بالعشيّ ، كما أقسم بالضحى لما فيها من دلائل القدرة ، أو أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب ، والذي رجّحه ابن كثير : هو القول الأخير ففسّر العصر بأنّه الزمان الذي تقع فيه حركات بني آدم من خير وشر .. فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر ﴿ **إنّ الإنسان لفي خسر** ﴾ قال النسفي : أي جنس الإنسان لفي خسران من تجاراتهم (أي: الأخروية) وقال ابن كثير : أي في خسارة وهلاك ﴿ **إلا الذين آمنوا** ﴾ أي: بقلوبهم ﴿ **وعملوا الصالحات** ﴾ بجوارحهم ﴿ **وتواصوا بالحق** ﴾ قال النسفي : أي بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره ، وهو الخير كله ، من توحيد الله ، وطاعته واتّباع كتبه ورسله ، وفسّر ابن كثير الحق بأنه أداء الطاعات وترك المحرمات . أقول : قال تعالى ﴿ **والذي أنزل إليك من ربك الحق** ﴾ فالحق : القرآن والسُّنّة ، فالمفلحون الناجحون يتواصون بالكتاب والسنة فهماً وعملاً ﴿ **وتواصوا بالصبر** ﴾ قال النسفي : (أي عن المعاصي ، وعلى الطاعات ، وعلى مايبلو به الله عباده) وقال ابن كثير : أي على المصائب والأقدار ، وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف ، وينهونه عن المنكر ، وهكذا حدّدت سورة العصر طريق الفلاح والنّجاة بأربعة أشياء ، وقد أهمل كثير من المسلمين في عصرنا الشيئين الأخيرين ، وقصّروا في الأولين .

كلمة في السياق :

رأينا كيف أنّ سورة العصر تفصّل في الآيات الخمس الأولى من مقدمة سورة البقرة ، فكما أن هذه الآيات الخمس رسمت طريق الفلاح فكذلك سورة العصر .

الفــوائد :

١ - قدم ابن كثير لسورة العصر بقوله :

(ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ ، وقبل أن يسلم عمرو فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال : وماهي ؟ فقال ﴿ **والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال : وقد أنزل عليّ مثلها ، فقال له عمرو وماهو ؟ فقال : ياوبر ياوبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسترك حفر نقر ، ثم قال : كيف ترى ياعمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب . وقد رأيت أبا بكر الخرائطي أسند في كتابه المعروف (بمساوي الأخلاق) - في الجزء الثاني منه - شيئاً من هذا أو قريباً منه . والوبر دويبة تشبه الهر أعظم شيء فيه أذناه ، وصدره وباقيه دميم ، فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن ، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان . وذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله ابن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ، ثم يسلّم أحدهما على الآخر . وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبّر الناس هذه السورة لوسعتهم) .

٢ - قال صاحب الظلال : (أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالهما صورة الأمة المسلمة - أو الجماعة المسلمة - ذات الكيان الخاص ، والرابطة المميزة ، والوجهة الموحدة . الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها . والتي تعرف حقيقة ماهي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح ، الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح ، فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى . فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة - أو الجماعة - المتضامنة . الأمة الخيرة . الواعية . القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير .. وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة .. وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام .. هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن ..

والتواصي بالحق ضرورة . فالنهوض بالحق عسير . والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة ، وطغيان الطغاة وظلم الظلمة ، وجور الجائرين .. والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية ، والأخوة في العبء ، والأمانة . فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية ، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف . تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله .. وهذا الدين ـــ وهو الحق ـــ لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامة متضامنة على هذا المثال .

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الإيمان والعمل الصالح ، وحراسة الحق والعدل ، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . ولابد من الصبر . لابد من الصبر على جهاد النفس ، وجهاد الغير . والصبر على الأذى والمشقة . والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر . والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس المعالم ، وبعد النهاية !.

والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة ، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ، ووحدة المتجه ، وتساند الجميع ، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار .. إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها ، ولا تبرز إلا من خلالها .. وإلا فهو الخسران والضياع) ..

☆ ☆ ☆

سورة الهمزة

وهـي الســورة الرابعـة بعـد المائـة بحسـب الرسـم القـرآني
وهي السـورة الثانية من المجموعة الخامسة عشرة من
قسم المفصل ، وهـي تسـع آيات
وهـي مكيــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة الهمزة ومحورها :

بعد الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة والتي فصّلت فيها سورة العصر يأتي قوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ والملاحظ أن سورة الهمزة تتحدث عن الكافرين وعذابهم العظيم ، وتذكر بعض صفات الكافرين الرئيسية ، فتعرفنا على الأسباب التي استحقوا بها أن يختم الله عز وجل على قلوبهم وعلى سمعهم ، وأن يجعل على أبصارهم غشاوة ، فالسورة واضحة الصلة بالمحور الذي ذكرناه من مقدمة سورة البقرة .

رأينا أن سورة العصر ذكرت أن جنس الإنسان في خسر إلا من اتصف بصفات معيّنة ، وتأتي سورة الهمزة لتحدّد صفات الخاسرين ومظهر خسارهم ، فللسورة صلتها بما قبلها ، وهكذا نجد أن للسورة سياقها الخاص وصلتها بمحورها وصلتها بما قبلها .

قال الألوسي : (ولما ذكر سبحانه فيما قبلها أن الإنسان - سوى من استثنى - في خسر ، بيّن فيها أحوال بعض الخاسرين) .

* * *

سورة الهمزة

وتتألف من تسع آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ

﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩ ﴾

التفسير :

﴿ **ويل** ﴾ أي : خسار وهلاك وعذاب ﴿ **لكل همزة** ﴾ قال النسفي : أي الذي يعيب الناس من خلفهم ﴿ **لمزة** ﴾ قال النسفي : أي من يعيبهم مواجهة ، وقال ابن كثير : الهمار بالقول ، واللماز بالفعل ، يعني : يزدري الناس وينتقص منهم ﴿ **الذي جمع مالاً وعدّده** ﴾ قال النسفي : أي جعله عدة لحوادث الدهر ، وقال ابن كثير : أي جمعه بعضه على بعض وأحصى عدده ... وقال محمد بن كعب : أي ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا ، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة ﴿ **يحسب أنّ ماله أخلده** ﴾ قال ابن كثير : أي يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار ﴿ **كلا** ﴾ قال النسفي : ردع له عن حسبانه . وقال ابن كثير : أي ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب ﴿ **لينبذن في الحطمة** ﴾ أي : في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها ، أي ليلقين هذا الإنسان في النار ﴿ **وما أدراك ما الحطمة** ﴾ قال النسفي : هذا تعجيب وتعظيم . أقول : ثم فسّر الله الحطمة بقوله ﴿ **نار الله الموقدة** ﴾ أي : هي أي الحطمة نار الله المشعلة ثم وصفها الله عز وجل بقوله : ﴿ **التي تطّلع على الأفئدة** ﴾ قال النسفي : (هي أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطّلع على أفئدتهم ، وهي أوساط القلوب ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألماً منه بأدنى أذى يمسه ، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه ، وقيل خص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة ، ومعنى اطلاع النار عليها أنها تشتمل عليها) .

وقال ابن كثير : (قال ثابت البناني : تحرقهم إلى الأفئدة ، وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ثم يبكي ، وقال محمد بن كعب : تأكل كل شيء من جسده حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه ترجع على جسده) . ﴿ **إنها عليهم مؤصدة** ﴾ أي : مغلقة مطبقة ﴿ **في عمد ممددة** ﴾ قال النسفي : أي تؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد استيثاقاً في استيثاق . قال ابن كثير : وقال قتادة : كنا نحدّث أنهم يعذبون بعمد في

النار ، واختاره ابن جرير ، وقال أبو صالح ﴿ **في عمد ممددة** ﴾ يعني : القيود الثقال .

كلمة في السياق :

١ - ذكرت السورة أن من صفات الكافرين الهمز واللمز وجمع المال ، ولتصورهم أن في المال كل شيء ، ومن ذلك الخلود ، وهي تصورات وأعمال تنبثق عن الكفر بدليل ماورد في السورة في ذكر تعذيب هذا النوع من الناس ، وإذا وقع مسلم في هذه الأخلاق فإنه يكون قد سرت إليه أخلاق الكافرين ولم يتهذب بأخلاق الإيمان .

٢ - فصّلت السورة في العذاب العظيم الذي يستأهله الكافرون إذ بدأت بقوله ﴿ **ويل** ﴾ ثم ذكرت ﴿ **لينبذنّ في الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة ، في عمدٍ ممددة** ﴾ وذلك كله تفصيل للعذاب العظيم المعدّ للكافرين ، وذلك في مظاهر صلة السورة بمحورها من سورة البقرة .

٣ - في محور السورة من سورة البقرة رأينا قول الله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ وفي هذه السورة بيان لأخلاق كافرة عنها ينبثق الجحود والإنكار ورفض الإنذار ، فمن كان همّه عيب الآخرين وانتقاصهم واحتقارهم لا يقبل إنذاراً من أحد لنظرته السيئة إلى الخلق ، ومن كان همه جمع المال لا يكون عنده محل للإنذار ، ومن يتصور أن في المال الخلود فهذا ليس له إلى الآخرة تطلعات ، ولذلك لا يقبل إنذاراً ، وبهذا ننهي الكلام عن سورة الهمزة .

☆ ☆ ☆

سورة الفيل

وهي السورة الخامسة بعد المائة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الخامسة عشرة من
قسم المفصل ، وهي خمس آيات
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الفيل :

قال الألوسي عن سورة الفيل : (مكية وآيها خمس بلا خلاف فيهما، وكأنه لما تضمن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد له- عليه الصلاة والسلام- عقب ذلك بقصة أصحاب الفيل ، للإشارة إلى أنّ عقبى كيدهم في الدنيا تدميرهم ، فإن عناية الله عز وجل برسوله- صلى الله تعالى عليه وسلم- أقوى وأتم من عنايته سبحانه بالبيت ، فالسورة مشيرة إلى مآلهم في الدنيا إثر بيان مآلهم في الأخرى ، ويجوز أن تكون كالاستدلال على ماأشير إليه فيما قبلها من أن المال لايغني من الله تعالى شيئاً ، أو على قدرته عز وجل على إنفاذ ماتوعد به أولئك الكفرة في قوله سبحانه ﴿ **لينبذن في الحطمة** ﴾ الخ) .

كلمة في سورة الفيل ومحورها :

تأتي سورة الفيل وكأنها امتداد لسورة الهمزة ، إذ إنها تلفت النظر إلى حادثة مشهورة معروفة عذّب الله بها قوماً في الدنيا ، وذلك يأتي كالدليل على قدرته أن يعذّب الكافرين يوم القيامة ، ومحور سورة الفيل هو محور سورة الهمزة نفسه وهو قوله تعالى : ﴿ **إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ . إنك لو وضعت بعد هاتين الآيتين قوله تعالى: ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ..** ﴾ لوجدت المعنى منسجماً ، فالدليل على أنّ الله سيعذّب الكافرين عذاباً عظيماً ما فعله بهؤلاء الكافرين الذين أرادوا أن يكيدوا لبيت الله، هذا عذابهم في الدنيا فكيف بعذابهم يوم القيامة .

ولنقدم للكلام عن سورة الفيل بذكر القصّة كما ذكرها ابن كثير ، ثمّ ننقل تعليق على الحادثة لصاحب الظلال :

قصة أصحاب الفيل

قال ابن كثير : (وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود أن ذا نواس وكان آخر ملوك حمير وكان مشركاً وهو الذي قتل أصحاب الأخدود وكانوا نصارى ، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً فلم

يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان ، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام وكان نصرانياً ، فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين أرياط وأبرهة ابن الصباح أبا يكسوم في جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر ، واستقل الحبشة بملك اليمن ، وعليهم هذان الأميران أرياط وأبرهة ، فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطلام الجيشين بيننا ، ولكن أبرز إليّ وأبرز إليك ، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك ، فأجابه إلى ذلك ، فتبارزا وخلف كل واحد منهما قناة فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله ورجع أبرهة جريحاً فداوى جرحه فبرأ ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن ، فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه ويتوعده ، ويحلف ليطأن بلاده ويجزنّ ناصيته ، فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه ، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف ، وبجراب فيه من تراب اليمن ، وجز ناصيته ، فأرسلها معه ويقول في كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه ، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك ، فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضي عنه وأقره على عمله ، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي : إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها ، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء ، عالية الفناء ، مزخرفة الأرجاء ، سمتها العرب القليس لارتفاعها ، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها ، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة ونادى بذلك في مملكته ، فكرهت العرب — العدنانية والقحطانية — ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً حتى قصدها بعضهم ، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً وأحدث فيها وكرّ راجعاً ، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً . وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً ، وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض ، فتأهب أبرهة لذلك ، وصار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصده أحد عنه ، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له محمود ، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك ، ويقال كان معه أيضاً ثمانية أفيال ، وقيل اثنا عشر فيلاً غيره ، فالله أعلم ، يعني ليهدم به الكعبة بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة ، فلما سمعت

العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت ، ورد من أراده بكيد ، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله وما يريده من هدمه وخرابه فأجابوه ، وقاتلوا أبرهة فهزمهم لما يريده الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه ، وأسر ذو نفر فاستصحبه معه ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه شهران ، وناهس ، فقاتلوه فهزمهم أبرهة وأسر نفيل بن حبيب فأراد قتله ثم عفا عنه واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز ، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات ، فأكرمهم وبعثوا معه أبا رغال دليلاً ، فلما انتهى أبرهة إلى المغمس – وهو قريب من مكة – نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه ، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب ، وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة ، وكان يقال له الأسود بن مقصود فهجاه بعض العرب فيما ذكره ابن إسحاق ، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وأمره أن يأتيه بأشرف قريش ، وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت ، فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلّغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلي بينه وبينه فو الله ما عندنا دفع عنه ، فقال له حناطة : فاذهب معي إليه فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجله . وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط ، وقال لترجمانه : قل له ما حاجتك ؟ فقال للترجمان : إن حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي : فقال أبرهة لترجمانه : قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني . أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربّاً سيمنعه . قال ما كان ليمتنع مني ، قال : أنت وذاك ، ويقال إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى عليهم ، وردّ أبرهة على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرون على أبرهة وجنده فقال

عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهمّ إن المرء يمـ ـنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم أبداً محالك

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال . وذكر عن ابن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق فينتقم الله منهم ، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وكان اسمه محموداً ، وعبأ جيشه فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى صعد في الجبل وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا في رأسه بالطبرزين ، وأدخلوا محاجن لهم في مراقه فنزعوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك ، فأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا يصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق ، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق ، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش ، وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة ، وجعل نفيل يقول :

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

قال ابن إسحاق : وقال نفيل في ذلك أيضاً :

ألا حييت عنا ياردينا نعمناكم مع الإصباح عينا
ردينة لو رأيت ولا تريه لدى جنب المحصب مارأينا
إذا لعذرتني وحمدت أمري ولم تأسى على مافات بينا
حمدت الله إذ أبصرت طيراً وخفت حجارة تلقى علينا
فكل القوم تسأل عن نفيل كأن عليّ للحبشان دينا

وذكر الواقدي بإسناده : أنهم لما تعبأوا لدخول الحرم ، وهيأوا الفيل ، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها ، فإذا وجهوه إلى الحرم ربض

وصاح ، وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل ، وينهره ويضربه ؛ ليقهر الفيل على دخول الحرم ، وطال الفصل في ذلك ، هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة فيهم المطعم ابن عدي وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ومسعود بن عمرو الثقفي على حراء ينظرون ما الحبشة يصنعون؟ وماذا يلقون من أمر الفيل؟ وهو العجب العجاب ، فبينا هم كذلك إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل أي قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام وأرجلها حمر ، ومع كل طائر ثلاثة أحجار ، وجاءت فحلقت عليهم فهلكوا . وقال محمد بن إسحاق جاءوا بفيلين فأما محمود فربض ، وأما الآخر فشجع فحصب . وقال وهب بن منبه : كان معهم فيلة فأما محمود وهو فيل الملك فربض ليقتدي به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تشجع فحصب ، فهربت بقية الفيلة وقال عطاء بن يسار وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعاً ، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون ، وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً حتى مات ببلاد خثعم . وقال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون . وذكر مقاتل بن سليمان أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم ، وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة . قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة أنه حدّث أن أول ما رأيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رؤي به مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام ، وهكذا روي عن عكرمة من طريق جيد . قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يعدّ به على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ ﴿ **لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ أي لئلا يغير شيئاً من حالهم التي كانوا عليها لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه . قال ابن هشام : الأبابيل الجماعات ولم تتكلم العرب بواحدة . قال : وأما السجيل فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب الشديد الصلب) .

وقد علّق صاحب الظلال تعليقات مطوّلة على بعض الاتجاهات الخاطئة في تفسير سورة الفيل ومن كلامه :

(إن سنة الله ليست فقط هي ماعهده البشر وماعرفوه . ومايعرف البشر من سنة الله إلا طرفاً يسيراً يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون ، وبمقدار ما يتهيأون له بتجاربهم ومداركهم في الزمن الطويل ، فهذه الخوارق - كما يسمونها - هي من سنة الله ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه !

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها - متى صحت الرواية - أو كان في النصوص وفي ملابسات الحادث مايوحي بأنها جرت خارقة ، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم . وفي الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأمر على السنة المألوفة أقل وقعاً ولا دلالة من جريانه على السنة الخارقة للمألوف . فالسنة المألوفة هي في حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر .. إن طلوع الشمس وغروبها خارقة - وهي معهودة كل يوم - وإن ولادة كل طفل خارقة - وهي تقع كل لحظة - ، وإلا فليجرب من شاء أن يجرب ! وإن تسليط طير - كائناً ما كان - يحمل حجارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدري والحصبة وإلقاءها في هذه الأرض ، في هذا الأوان ، وإحداث هذا الوباء في الجيش ، في اللحظة التي يهم فيها باقتحام البيت .. إن جريان قدر الله على هذا النحو خارقة بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير . وليست بأقل دلالة ولاعظمة من أن يرسل الله طيراً خاصاً يحمل حجارة خاصة تفعل بالأجسام فعلاً خاصاً في اللحظة المقررة . هذه من تلك ، هذه خارقة وتلك خارقة على السواء ..

فأما في هذا الحادث بالذات ، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيراً أبابيل غير معهودة ، تحمل حجارة غير معهودة ، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود ..

نحن أميل إلى هذا الاعتبار . لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة ، ولكن لأن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب . فقد كان الله - سبحانه - يريد بهذا البيت أمراً . كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمناً ؛ وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة ، في أرض حرة طليقة ، لا يهيمن عليها أحد من خارجها ، ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضنها . ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال ، حتى يمتن بها على قريش بعد البعثة في هذه السورة ، ويضربها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها .. فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود ، بكل

مقوّماته وبكل أجزائه ولاداعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وملابساته مفرد فذ ..) .

سورة الفيل

وهي خمس آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

التفسير :

﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل** ﴾ قال النسفي : يعجّب الله نبيّه من كفر العرب ، وقد شاهدت هذه العظمة في آيات الله ، والمعنى : أنك رأيت آثار صنع الله بالحبشة ، وسمعت الأخبار به متواترة ، فقامت لك مقام المشاهدة ﴿ **ألم يجعل كيدهم في تضليل** ﴾ قال النسفي : (أي في تضييع وإبطال ...) يعني أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس ليصرفوا وجوه الحاج إليه ، فضلّل كيدهم بإيقاع الحريق فيه . وكادوه ثانياً بإرادة هدمه فضلّل كيدهم بإرسال الطير عليهم) ﴿ **وأرسل عليهم طيراً أبابيل** ﴾ قال الزجاج : جماعات من ههنا وجماعات من ههنا ﴿ **ترميهم بحجارة من سجيل** ﴾ أي : من آجر ﴿ **فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ قال النسفي : (أي كزرع أكله الدود)

فوائد

١ - كتب ابن كثير كلاماً طويلاً عن تفسير بعض مفردات السورة هذا هو : (قال ابن هشام : الأبابيل الجماعات ، ولم تتكلم العرب بواحدة قال : وأما السجيل فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب الشديد الصلب . قال : وذكر بعض

المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هوسنج وجل يعني بالسنج الحجر ، والجل الطين ، يقول : الحجارة من هذين الجنسين الحجر والطين ، قال : والعصف ورق الزرع الذي لم يقضب ، واحدته عصفة ، انتهى ما ذكره . وقد قال حماد ابن سلمة عن عامر عن زر عن عبد الله وأبو سلمة بن عبد الرحمن : ﴿ **طيراً أبابيل** ﴾ قال: الفرق ، وقال ابن عباس والضحاك : أبابيل يتبع بعضها بعضاً ، وقال الحسن البصري وقتادة : الأبابيل الكثيرة ، وقال مجاهد : أبابيل شتى متتابعة مجتمعة ، وقال ابن زيد : الأبابيل المختلفة تأتي من ههنا ومن ههنا ، أتتهم من كل مكان ، وقال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل إبيل ، وروى ابن جرير عن إسحاق بن عبد الله ابن الحارث بن نوفل أنه قال في قوله تعالى : ﴿ **وأرسل عليهم طيراً أبابيل** ﴾ هي الأقاطيع كالإبل المؤبلة وروى عن ابن عباس: ﴿**وأرسل عليهم طيراً أبابيل**﴾ قال : لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب ، وروى عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ **طيراً أبابيل** ﴾ قال: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع ، وروى عن عبيد بن عمير ﴿ **طيراً أبابيل** ﴾ قال: هي طيور سود بحرية في مناقيرها وأظافيرها الحجارة وهذه أسانيد صحيحة ؛ وقال سعيد بن جبير : كانت طيراً خضراً لها مناقير صفر ، تختلف عليهم ، وعن ابن عباس ومجاهد وعطاء : كانت الطير الأبابيل مثل التي يقال لها عنقاء مغرب ، ورواه عنهم ابن أبي حاتم . وروى ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة حجرين في رجليه وحجراً في منقاره قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت ، وألقت ما في أرجلها ومناقيرها ، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر ، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً ، وقال السدي عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿**حجارة من سجيل** ﴾ قال : طين في حجارة سنك وكل . وقد قدمنا بيان ذلك بما أغنى عن إعادته ههنا) .

٢ – عند قوله تعالى ﴿ **فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ قال ابن كثير (والمعنى أن الله – سبحانه وتعالى – أهلكهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً ، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح ، كما جرى لملكهم أبرهة ، فإنه

انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم ، ثم مات فملك بعده ابنه يكسوم ، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة . ثم خرج سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى فاستعانه على الحبشة فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه فرد الله إليهم ملكهم وما كان في آبائهم من الملك ، وجاءته وفود العرب بالتهنئة . وقد قال محمد ابن إسحاق عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان . ورواه الواقدي عن عائشة مثله ، ورواه عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : كانا مقعدين يستطعمان الناس عند إساف ونائلة حيث يذبح المشركون ذبائحهم (قلت) كان اسم قائد الفيل أنيساً) .

٣ – وبمناسبة سورة الفيل قال ابن كثير :

(وقد قدمنا في تفسير سورة الفتح أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش بركت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء أي حرنت ، فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أجبتهم إليها » ثم زجرها فقامت . والحديث من أفراد البخاري ، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ألا فيبلّغ الشاهد الغائب ») .

☆ ☆ ☆

سورة قريش

وهي السورة السادسة بعد المائة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة من المجموعة الخامسة عشرة من
قسم المفصل ، وهي أربع آيات
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا . إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة قريش ومحورها :

تكاد سورة قريش أن تكون امتداداً لسورة الفيل، حتى لتكادا أن تكونا سورة واحدة ، قال النسفي : (وهما في مصحف أُبَيّ سورة واحدة بلا فصل، ويروى عن الكسائي ترك التسمية بينهما)، وإذ كان الأمر كذلك فمحور سورة قريش هو نفسه محور سورة الفيل ، فالسور الثلاث : الهمزة والفيل وقريش محورها واحد وهو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

سورة قريش

وهي أربع آيات وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

التفسير

﴿ **لإيلاف قريش** ﴾ قال ابن كثير : أي : لإيلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين، وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه في الرحلة في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك ، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم لعظمتهم عند الناس ، لكونهم سكان حرم الله فمن عرفهم احترمهم بل من صرف إليهم وسار معهم أمن بهم ﴿ **إيلافهم رحلة الشتاء والصيف** ﴾ قال النسفي : أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيّد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف ، وتذكيراً لعظيم النعمة فيه؛ قال ابن كثير : ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال : ﴿ **فليعبدوا ربّ هذا البيت** ﴾ قال ابن كثير : أي فليوحّدوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً مُحرماً ﴿ **الذي أطعمهم** ﴾ قال النسفي : بالرحلتين ﴿ **من جوع** ﴾ شديد ﴿ **وآمنهم من خوف** ﴾ عظيم. قال ابن

كثير: أي هو رب البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، أي تفضل عليهم بالأمن والرخص فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً، فمن استجاب هذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه.

كلمة في السياق:

هناك ثلاث اتجاهات في تعليق قوله تعالى ﴿ **لإيلاف قريش** ﴾ فمنهم من علّقها بما قبلها أي بسورة الفيل، ومنهم من علّقها بفعل محذوف تقديره أعجبوا، ومنهم من علّقها بما بعدها في قوله تعالى ﴿ **فليعبدوا ربَّ هذا البيت** ﴾ قال ابن كثير في عرض الاتجاه الأول: (هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم. وإن كانت متعلقة بما قبلها كما صرح بذلك محمد بن إسحق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله لإيلاف قريش. وعرض النسفي هذا القول بقوله: (يعني أن ذلك الإتلاف المذكور في سورة الفيل لهذا الإيلاف) وقال النسفي عارضاً القول الثاني: (أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين) أي إن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة. وقال ابن جرير عارضاً القول الثالث: (الصواب أن اللام لام التعجب كأنه يقول: أعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك). وقال: لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان.

أقول: وعلى ضوء هذه الأقوال الثلاثة فلنر محلّ السورة في السياق القرآني العام.

قلنا إن محور سورة الهمزة هو قوله تعالى: ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾. ورأينا أن سورة الهمزة فصّلت في أخلاق الكافرين، وفي العذاب العظيم، وتأتي سورتا الفيل وقريش لتدلّلا على قدرة الله عز وجل على التعذيب بما حدث لأصحاب الفيل، وما رتّب عليها من آثار لصالح قريش، وهذه تقتضي شكراً منهم لا كفراً، وتقتضي منهم أن يكونوا متقين لا كافرين، هذا على المعنى الأول الذي يقول إن السورتين متصلتان معنى،

ومن خلال ماذكرناه يتضح لنا صلة السورتين ببعضهما البعض، وصلتهما بمحورهما من سورة البقرة .

وعلى المعنيين الثاني والثالث تبقى الصلة بين سورتي الفيل وقريش قائمة. فما الصلة بين سورة قريش وبين محورها من سورة البقرة ؟ بعد الجزم بأن محور سورة قريش هو نفسه محور سورتي الفيل والهمزة بدليل أن سورة الماعون ستفصّل في الكلام عن المنافقين ، أي ستفصّل في الفقرة الثالثة من مقدمة سورة البقرة ، فلم يبق إلا أن تكون سورة قريش تفصّل في الفقرة الثانية من مقدمة سورة البقرة . أقول : هناك صلة بين سورة قريش ومحورها من سورة البقرة من حيثية دقيقة جداً : محور السورة هو قوله تعالى :﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ هاتان الآيتان تذكران أن هناك كافرين لاينفع معهم الإنذار ، وهذه سورة قريش تنادي قريشاً للإيمان ، فكأن هذا يشير إلى أنّ قريشاً مظنة خير ، وأن كفّارها عامّة لم يصلوا إلى الحدّ الذي لم يعد ينفع معهم إنذار ، ولذلك نودوا وخوطبوا وطولبوا ، وجاءت الأحداث بعد ذلك ، وإذا بقريش تصبح كلها مسلمة تقريباً . من هذا الربط بين سورة قريش ومحورها تدرك مظهراً من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن حيث إن معانيه تتكامل ولا تتناقض وتأتي الأحداث فتصدّقها .

ونرجو أن نكون بهذا والذي قبله قد ربطنا بين سورة قريش ومحورها على كل الأقوال في تفسيرها .

فوائد :

١ - قدم ابن كثير لسورة قريش بقوله : (ذكر حديث غريب في فضلها) روى البيهقي في كتاب الخلافيات عن أم هانيء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال : « فضّل الله قريشاً بسبع خلال : إني منهم ، وإن النبوة فيهم ، والحجابة والسقاية فيهم ، وأن الله نصرهم على الفيل ، وإنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لايعبده غيرهم ، وإن الله أنزل فيهم سورة من القرآن - ثم تلا رسول الله ﷺ - ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾

٢ - وبمناسبة ذكر قريش في السورة قال النسفي : (وقريش ولد النضر بن كنانة سموه بتصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار . والتصغير للتعظيم فسموهم بذلك لشدتهم ، ومنعتهم تشبيهاً بها ، وقيل من القرش وهو الجمع والكسب ، لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد) .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فليعبدوا ربّ هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ أقول : لقد كان من حجج قريش الرئيسية في استمرارهم على الكفر قولهم الذي عرضته سورة القصص ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا أَوَلَم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء** ﴾ وقد جاءت سورتا الفيل وقريش فأكملت الحجة على قريش ، فالله عزّ وجلّ فعل بأصحاب الفيل ما فعل ، وفعل لقريش ما فعل ، وهم كفار أيتخلى عنهم إذا أسلموا ؟ لقد أسلمت قريش فيما بعد فكيف كان واقع الحال ؟ هل ازدادت مكة بعد الإسلام خوفاً أو فقراً ، أم ازدادت أمناً وغنى ، وفي ذلك درس لكفار عصرنا الذين يرفضون الإسلام خوفاً من عدو ، أو خشية من فقر .

☆ ☆ ☆

سورة الماعون

وهي السورة السابعة بعد المائة بحسب الرسم القرآني

وهي السورة الخامسة من المجموعة الخامسة عشرة من

قسم المفصل ، وهي سبع آيات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة الماعون :

قال الألوسي عن سورة الماعون : (ولما ذكر سبحانه في سورة قريش أطعمهم من جوع ، ذم عز وجل هنا من لم يحض على طعام المسكين ، ولما قال تعالى هناك ﴿ **فليعبدوا ربَّ هذا البيت** ﴾ ذم سبحانه هنا من سها عن صلاته ، أو لما عدد نعمه تعالى على قريش وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، أتبع سبحانه امتنانه عليهم بتهديدهم بالجزاء وتخويفهم من عذابه) .

وقال صاحب الظلال : (إن هذه السورة الصغيرة ذات الآيات السبع القصيرة تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلاً كاملاً . فوق ما تطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه العقيدة ، وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية ، وللرحمة السابغة التي أرادها الله للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة ..

إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس ، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر ، مالم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد ، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح ، وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى .

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة ، يؤدي منها الإنسان مايشاء ، ويدع منها ما يشاء .. إنما هو منهج متكامل ، تتعاون عباداته وشعائره ، وتكاليفه الفردية والاجتماعية ، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر .. غاية تتطهر معها القلوب ، وتصلح الحياة ، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء .. وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد .

ولقد يقول الإنسان بلسانه : إنه مسلم وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه ، وقد يصلي ، وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة ، ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ، ويظل بعيداً عنها ، لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها . ومالم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان ، ومهما تعبد الإنسان !

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها لكي تحقق ذاتها في عمل صالح) .

كلمة في سورة الماعون ومحورها :

بعد الكلام عن المتقين وعن الكافرين في مقدمة سورة البقرة يأتي الكلام عن المنافقين ، ونقطة البداية في الكلام عن المنافقين كفرهم بالله وباليوم الآخر ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ هذه قراءة حفص وقرأ غيره ﴿ **بما كانوا يكذّبون** ﴾ أي: يكذِّبون بالله واليوم الآخر، ذلك لأنهم يدّعون الإيمان بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين، ومن ثم كانوا مكذّبين بهما، وتأتي سورة الماعون مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين** ﴾ ثم تتحدث عن آثار التكذيب في سلوك الإنسان فتقول : ﴿ **فذلك الذي يدع اليتيم * ولا يحضّ على طعام المسكين** ﴾ ولما كان التكذيب باليوم الآخر خلقاً مشتركاً بين المنافقين والكافرين، وآثاره واحدة عندهما لم يكن في بداية السورة مايشير إلى أن الأمر خاص بالمنافقين، ولكن خاتمة السورة تقول: ﴿ **فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون** ﴾ ففي هذا الجزء من السورة انصب الحديث عن المنافقين فالسورة تفصيل إذن لقضية ترتبط بالنفاق ، وإذا كان النفاق حصيلته كفراً، فقد كان جزء من حديثها ينصبّ على الكفر والنفاق بآن واحد.

رأينا أن سورتي الفيل وقريش تخدمان سياق سورة الهمزة ، ورأينا أن سورة الهمزة تتحدّث عن عذاب الكافرين ﴿ **كلا لينبذنّ في الحطمة * وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التي تطّلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * في عمد ممددة** ﴾ وتأتي سورتا الفيل وقريش لتخدما قضية التدليل على اليوم الآخر، وبعد ذلك تأتي سورة الماعون لتحدثنا عن آثار التكذيب باليوم الآخر في السلوك البشري، من جفاء اليتم وعدم العطف على المسكين ، ومن تهاون في الصلاة ومراءاة فيها ومن منع للماعون ، ولا ينبغي أن يغرنا أننا نرى كثيراً من الملحدين يتظاهرون بالعمل للفقراء، فذلك موقف سياسي يمليه الحقد، وعلامة ذلك أنك تجد هؤلاء إذا دعوتهم لخير يحجمون ويحتجون لموقفهم في ترك الإحسان بأنّ عمليات الإحسان تؤخّر ثورة الفقراء.

مما أشرنا إليه نرى الصلة الوثيقة بين السورة وبين ماقبلها، وبين السورة وبين محورها . فلنر السورة .

* * *

سورة الماعون

وهي سبع آيات وهذه هي

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

التفسير

﴿ **أرأيت الذي يكذّب بالدين** ﴾ أي : بالمعاد والجزاء والثواب إن كنت لا تعرفه فإن علاماته هي ما يأتي . قال النسفي : أي هل رأيت الذي يكذّب بالجزاء فمنهو؟ إن لم تعرفه ﴿ **فذلك** ﴾ أي الذي يكذّب بالجزاء هو ﴿ **الذي يدعّ اليتيم** ﴾ قال النسفي : أي يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى ، ويردّه رداً قبيحاً بزجر وخشونة . وقال ابن كثير : أي هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه ، ولا يطعمه ولا يحسن إليه ﴿ **ولا يحضّ** ﴾ أي : ولا يأمر ويبعث ويهيج ﴿ **على طعام المسكين** ﴾ أي على بذل الطعام للمسكين وهو الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته . قال النسفي : جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف ، والإقدام على إيذاء الضعيف . فلو آمن بالجزاء ، وأيقن بالوعيد لخشي الله وعقابه ، ولم يقدم على ذلك ، فحين أقدم عليه دلّ أنه مكذّب بالجزاء . ﴿ **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعني المنافقين الذين يصلّون في العلانية ولا يصلّون في السر . قال ابن كثير في تفصيل سهو المنافقين عن الصلاة : (ثم هم عنها ساهون إما عن

فعلها بالكلية كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية كما قال مسروق وأبو الضحى، وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكن من اتصف بشيء من ذلك له قسطه من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تمّ له نصيبه منها..). ﴿**الذين هم يراؤون**﴾ فهم فضلاً عن سهوهم عنها مراؤون فيما يصلونه منها قال النسفي: (والمراءاة مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يري الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به، ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار الفرائض، فمن حقها الإعلان بها) ﴿**ويمنعون الماعون**﴾ قال ابن كثير: (أي لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى). أقول: وقد أحسن ابن كثير فيما قاله، فالماعون في الأصل هو ما يتعاوره الناس من قِدْرٍ وفأس وقلم وأمثال ذلك، فإن كان مانعاً لهذا مع أنه سيعود له فمنعه لغيره أولى وأولى. لقد فسّر بعضهم الماعون بالزكاة وهو معنى بعيد، إلا أنه داخل بالأولى في الآية فهؤلاء منعوا إعارة الماعون، وتلك زكاته فمنعهم لبقية أنواع الزكاة الأولى، فإذا اتضح هذا، فلنر ما قاله النسفي في الآيات الثلاث: (يعني بهذا المنافقين لا يصلونها سراً لأنهم لا يعتقدون وجوبها، ويصلونها علانية رياءً، وقيل فويل للمنافقين الذين يدخلون أنفسهم في جملة المصلين صورة، وهم غافلون عن صلاتهم، وأنهم لا يريدون بها قربة إلى ربهم، ولا تأدية للفرض، فهم ينخفضون ويرتفعون ولا يدرون ماذا يفعلون، ويظهرون للناس أنهم يؤدون الفرائض ويمنعون الزكاة وما فيه منفعة).

كلمة في السياق.

١ - من سياق السورة عرفنا أنّ التكذيب بالدين ينبثق عنه سلوك من مواصفاته دفع اليتيم دفعاً شديداً، وعدم الحضّ على طعام المسكين، وينبثق عنه سلوك عند المنافق من مظاهره أن يسهو عن صلاته، وإذا صلاها فإنه يكون مرائياً فيها، ومن مظاهره أن يمنع أصحابه الماعون، فالمنافقون كما وصفهم الله عزّ وجلّ في سورة أخرى ﴿**ويقبضون أيديهم**﴾.

٢ - في مقدمة سورة البقرة وصف الله المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب، ووصف

المنافقين بأنّهم يدعون الإيمان ولا يؤمنون، وفي هذه السورة وصف الله الكافرين والمنافقين بأنهم يكذّبون بالدين، وفي مقدمة سورة البقرة وصف الله المتقين بالإنفاق، وفي هذه السورة وصف الله الكافرين والمنافقين بأنهم لا ينفقون ولا يحضون على الإنفاق، بل يؤذون اليتيم، ويمنعون الماعون، وفي مقدمة سورة البقرة وصف الله المتقين بإقام الصلاة، وفي هذه السورة وصف الله المنافقين بأنهم ساهون عن صلاتهم وإذا صلوا فهم مراؤون، من هذا نعلم أن سورة الماعون أتمّت بيان الصورة العامة للمتقين والكافرين والمنافقين التي رسمتها مقدمة سورة البقرة، وأعطتنا تفصيلاً أوسع لقضية النفاق، فارتباطها بمحورها واضح، ومعانيها تتكامل مع معاني مجموعتها، فسورة العصر ركّزت على خصائص المتقين، وسورة الهمزة، والفيل، وقريش لها صلة بالكلام عن الكافرين، وسورة الماعون لها صلة بالكلام عن المنافقين، ولذلك كله صلاته بمقدمة سورة البقرة التي تحدّثت عن المتقين والكافرين والمنافقين.

الفوائد:

١ - رأينا أن ابن كثير ذكر كل ما يمكن أن يدخل في قوله تعالى ﴿ **الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾ ونضيف هنا أنه بعد أن ذكر ذلك قال: (ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها وكمل له النفاق العملي، كما ثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ قال: « تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى كما ثبت به النص، إلى آخر وقتها وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً، ولهذا « لا يذكر الله بها إلا قليلاً » ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس لا ابتغاء وجه الله، فهو كما إذا لم يصلِّ بالكلية. قال الله تعالى ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً** ﴾ وقال تعالى ههنا ﴿ **الذين هم يراءون** ﴾).

وقال ابن كثير: (وروى ابن جرير عن سعد بن أبي وقاص قال: سألت رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال: « هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » (قلت) وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية، ويحتمل صلاتها بعد وقتها،

وتأخيرها عن أول الوقت وكذا رواه الحافظ أبو يعلى بسنده . ثم رواه عن أبي الربيع عن عاصم عن مصعب عن أبيه موقوفاً « لهوا عنها حتى ضاع الوقت » وهذا أصح إسناداً وقد ضعف البيهقي رفعه وصحح وقفه وكذلك الحاكم) .

وقال ابن كثير : (قال عطاء بن دينار : الحمد لله الذي قال : ﴿ **عن صلاتهم ساهون** ﴾ ولم يقل في صلاتهم ساهون) . قال النسفي : تعليقاً على ذلك : لأن معنى (عن) أنهم ساهون عنها سهو ترك لها ، وقلة التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين ، ومعنى (في) أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس وذلك لا يخلو عنه مسلم ، وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره . **أقول** : ومن مثل هذه الدقة في التعبير القرآني نرى مظهراً من مظاهر الإعجاز في القرآن .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **الذين هم يراؤون** ﴾ قال النسفي : (ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار الفرائض فمن حقها الإعلان بها لقوله ﷺ : « **لا غمّة في فرائض الله** » أي لا تخفّي ولا تستّر ، والإخفاء في التطوّع أولى فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً) . وقال ابن كثير بمناسبة الآية : (وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « إن في جهنم لوادياً تستعيذ جهنم من ذلك الوادي في كل يوم أربعمائة مرة ، أعد ذلك الوادي للمرائين من أمة محمد ، لحامل كتاب الله ، وللمصدق في غير ذات الله ، وللحاج إلى بيت الله ، وللخارج في سبيل الله » (أي: إذا كانوا مرائين) وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مرة قال : كنا جلوساً عند أبي عبيدة فذكروا الرياء فقال رجل يكنى بأبي يزيد : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « من سمّع الناس بعمله سمّع الله به سامع خلقه وحقره وصغره ») .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ويمنعون الماعون** ﴾ قال ابن كثير : « وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله قال : الماعون العواري : القدر والميزان والدلو ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ﴿ **ويمنعون الماعون** ﴾ يعني متاع البيت ، وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وأبو مالك وغير واحد أنها العارية للأمتعة ، وقال ابن أبي سليم ومجاهد عن ابن عباس ﴿ **ويمنعون الماعون** ﴾ قال : لم يجيء أهلها بعد ، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ **ويمنعون الماعون** ﴾ قال : اختلف الناس في ذلك فمنهم من قال يمنعون الزكاة ، ومنهم من قال يمنعون الطاعة ، ومنهم من قال يمنعون العارية ، رواه ابن

جرير . ثم روي عن الحارث عن علي : الماعون منع الناس الفأس والقدر والدلو ، وقال عكرمة : رأس الماعون زكاة المال ، وأدناه المنخل والدلو والإبرة . رواه ابن أبي حاتم . وهذا الذي قاله عكرمة حسن فإنه يشمل الأقوال كلها ، وترجع كلها إلى شيء واحد وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة ، ولهذا قال محمد بن كعب ﴿ **ويمنعون الماعون** ﴾ قال المعروف ، ولهذا جاء في الحديث « كل معروف صدقة » . وروى ابن أبي حاتم عن الزهري ﴿ **ويمنعون الماعون** ﴾ قال : بلسان قريش المال) .

☆ ☆ ☆

سورة الكوثر

وهي السورة الثامنة بعد المائة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة السادسة من المجموعة الخامسة عشرة من
قسم المفصل ، وهي ثلاث آيات

(قال النسفي : مكية ، وقال ابن كثير : مدنية ، وقيل مكية)

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

بين يدي سورة الكوثر :

قال الألوسي في سورة الكوثر : (وآيها ثلاث بلا خلاف وليس في القرآن- كما أخرج البيهقي عن ابن شبرمة- سورة آيها أقل من ذلك ، بل قد صرحوا بأنها أقصر سورة في القرآن ، وقال الإمام هي كالمقابلة للتي قبلها ، لأن السابقة وصف الله تعالى فيها المنافق بأربعة أمور : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء ، ومنع الزكاة ، فذكر عز وجل في هذه السورة في مقابلة البخل ﴿ **إنا إعطيناك الكوثر** ﴾ أي : الخير الكثير . وفي مقابلة ترك الصلاة﴿ **فصَلّ** ﴾ أي دُم على الصلاة . وفي مقابلة الرياء ﴿ **لربك** ﴾ أي لرضاه لا للناس . وفي مقابلة منع الماعون ﴿ **وانحر** ﴾ وأراد به سبحانه التصدق بلحوم الأضاحي ثم قال : فاعتبر هذه المناسبة العجيبة انتهى فلا تغفل) .

وقال صاحب الظلال : (هذه السورة خالصة لرسول الله ﷺ كسورة الضحى ، وسورة الشرح يسري عنه ربه فيها ، ويعده بالخير ، ويوعد أعداءه بالبتر ، ويوجهه إلى طريق الشكر) .

كلمة في سورة الكوثر ومحورها :

بعد مقدّمة سورة البقرة دعا الله عز وجل الناس جميعاً لعبادته ، وعلّل للأمر بإنعامه ، وهذه سورة الكوثر تخاطب رسول الله ﷺ مذكّرة له بنعمتين : العطاء الكثير ، وبتر المبغض ، وتأمره فيما بين ذلك بالصلاة والنحر وهما عبادتان .

سورة الكوثر

وهي ثلاث آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

التفسير :

﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ الكوثر : هو المفرط الكثرة. قال النسفي : وعن ابن

عباس رضي الله عنهما : هو الخير الكثير . فقيل له : إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة . فقال له : هو من الخير الكثير . أقول : فالكوثر من أنهار الجنة ولكن كلمة الكوثر في الآية تعم ذلك وغيره من كل ماأعطيه رسول الله ﷺ . قال ابن كثير تعليقاً على تفسير ابن عباس : (وهذا التفسير يعمّ النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير ومن ذلك النهر) ﴿ **فَصَلِّ لربك وانحر** ﴾ قال ابن كثير أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذي تقدمت صفته ، فأخلص لربك النافلة وصلاتك المكتوبة ونحرك ، فاعبده وحده لا شريك له ، وانحر على اسمه وحده لا شريك له .... وهذا بخلاف ماكان عليه المشركون من السجود لغير الله ، والذبح على غير اسمه . وقال النسفي في الآية : (أي فاعبد ربك الذي أعزّك بإعطائه ، وشرّفك وصانك من فتن الخلق مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله) ﴿ **وانحر** ﴾ لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفاً لعبدة الأوثان في النحر لها . أقول : وحمل الآية بعضهم على جزئية مما يدخل فيها ، فحمل الصلاة على أنها صلاة الأضحى ، والنحر على أنه نحر الأضاحي بعد صلاة العيد ، وهو مما يدخل ضمن عموم الآية ، وليس وحده المراد . وتأمل النقل التالي عن ابن كثير . قال ابن كثير بعد أن ذكر أقوالاً وصفها بأنها غريبة في تفسير النحر في الآية : (والصحيح القول الأول أن المراد بالنحر ذبح المناسك ، وهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه ويقول: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له» فقام أبو بردة بن نيار فقال: يارسول الله إني نسكت شاتي قبل الصلاة ، وعرفت أن اليوم يشتهى فيه اللحم قال: «شاتك شاة لحم» قال: فإن عندي عناقاً هي أحب إليّ من شاتين أفتجزىء عني ؟ قال: «تجزئك ولا تجزىء أحداً بعدك» قال أبو جعفر بن جرير: والصواب قول من قال إن معنى ذلك فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ماسواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان ، شكراً له على ماأعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له وخصك به ، وهذا الذي قاله في غاية الحسن ، وقد سبقه إلى هذا المعنى محمد بن كعب القرظي وعطاء) .

ثم قال تعالى ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ قال ابن كثير : أي إنّ مبغضك يامحمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ، أقول : فصار معنى السورة: فصل لله وحده ، وانحر لله وحده ، شكراً له عز وجل على ماأعطاك ، ولاتبال الشانئين والمبغضين فإنهم المنقطعو الذكر والأثر ،

ولا تبال بما يقولونه فيك ، فإنهم هم أهله ولست أهله . قال النسفي في الآية الأخيرة : (أي من أبغضك من قومك بمخالفتك لهم هو الأبتر المنقطع) .

كلمة في السياق :

١ - رأينا أثناء عرضنا للسورة صلة آيات السورة ببعضها ، ورأينا في الكلمة التي قدمنا بها لسورة الكوثر بعض صلاتها بمحورها ، ونتكلم عن هذه الصلات مرة ثانية : دعا الله عز وجل بعد مقدمة سورة البقرة الناس جميعاً لعبادته ، وقد بينت سورة الكوثر مظهرين من مظاهر العبادة ، وهما : إخلاص الصلاة لله عز وجل ، وإخلاص النحر لله عز وجل ، وذلك من خلال توجيه الأمر لرسول الله ﷺ القدوة العليا للناس جميعاً ، فكأن السورة تقول : إذا لم يستجب الناس للأمر فاستجب أنت أيها الرسول ، فقد أعطيناك الكثير ، وجعلنا لك العاقبة ، فإذا كفر الناس النعم العامة فاشكر أنت الله عز وجل على النعم العامة والخاصة ، بأنواع العبادة والإخلاص فيها .

٢ - في الآيتين الآتيتين بعد مقدمة سورة البقرة أمر ونهي . الأمر ﴿ **اعبدوا** ﴾ والنهي ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ وقد رأينا كيف أن المفسرين فهموا من صيغة قوله تعالى ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾ أن ذلك أمر بالصلاة والنحر ، وأمر بالإخلاص فيهما لله عز وجل ، إذ تقديم الجار والمجرور على الأمر بالنحر يفيد الاختصاص ، وهو يفيد الإخلاص ، ففي السورة تفصيل لقضايا عبادية توحيدية . اعبد الله بالصلاة والنحر ، ولا تشرك بالله في صلاتك ونحرك ، ولذلك صلته بمحور السورة .

٣ - يبقى أن تعرف ما الصلة بين سورة الكوثر وما قبلها ؟ لقد أمرت سورة قريش قريشاً بعبادة الله عز وجل وجاءت سورة الماعون لتبين موقف الكافرين من الخير عامة . وموقف المنافقين من الصلاة والخير ، وتأتي سورة الكوثر لتفرد رسول الله ﷺ بالخطاب في الصلاة والنحر ، مذكرة بنعم الله الخاصة عليه ، وفي ذلك تعليم وتبيان أنه إن أعرض خلق عن الخير وفعله ، ورفضوا طاعة أوامر الله عز وجل ، فإن هناك من يستجيب على الكمال لذلك ، ومن أجل أمثال هؤلاء تنزل الشرائع مهما كان عدد المعرضين كثيراً ، وبمناسبة هذه السورة نحب أن نسجل ملاحظة حول إعجاز القرآن .

ملاحظة حول إعجاز القرآن

رأينا من قبل أن الله عز وجل تحدّى الناس جميعاً أن يأتوا بسورة من مثل القرآن ، وقد عجز الناس قديماً وحديثاً عن ذلك ، وسيعجزون أبداً ، ولنتأمل هذه السورة سورة الكوثر التي هي أقصر سورة في كتاب الله عز وجل . إنك عندما تتأمل محلها مما قبلها ومما بعدها ، وصلتها بالسياق القرآني العام القريب والبعيد ، وانسجامها مع طريقة القرآن في عرض المعاني على تسلسل معين مما تحكمه محاور المجموعة من سورة البقرة ، فإنك تجد عجباً ، ثمّ إنّ السورة توجد فيها خصائص القرآن كله ، فكلماتها أفصح الكلمات . حتى لو بحثت عن كلمة تحل محل كلمة من كلماتها ، وتؤدي معناها وجمالها فإنك عاجز ، ومعانيها هي الحق الذي لاينقض فليس فيها شطحة خيال ، وهي في الوقت نفسه مذكّرة وواعظة ، وهي مربية ومعلمة ، ومشرعة ومبشرة ، ومفصّلة ومبينة ، ومحكمة ، وهي مع ذلك كله لا تتناقض مع بقية معاني القرآن ، بل هي وإياه كلها تخرج من مشكاة واحدة وتصبّ في مصبّ واحد ، ثم إن معانيها بقدر كلماتها ، بل كلماتها وحدها هي التي تسع معانيها ، فهل يستطيع أحد من البشر أن يأتي بسورة من مثل هذه السورة في مكانها وخصائصها ؟! .

الفـوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسماً ، إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت فقال رسول الله ﷺ : « إنه أنزلت عليّ آنفاً سورة » فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ حتى ختمها فقال : « هل تدرون ما الكوثر ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال : « هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم فأقول : يارب إنه من أمتي ، فيقال إنك لاتدري ماأحدثوا بعدك » .

وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يشخب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر ، وأن آنيته عدد نجوم السماء وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي عن أنس ، ولفظ مسلم قال : بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى

إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً قلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : « لقد أنزلت عليّ آنفاً سورة » فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر** ﴾ ثم قال « أتدرون ما الكوثر ؟ » – قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم ، فأقول : رب إنه من أمتي ، فيقول إنك لا تدري ما أحدث بعدك » .

وروى البخاري عن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله عنها ، قال : سألتها – يعني أبا عبيدة – عن قوله تعالى ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ قالت : نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم . ورواه أحمد والنسائي .

وروى البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه ، قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة . فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه . ورواه أيضاً من حديث هشيم عن أبي بشر وعطاء بن السائب عن سعيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الكوثر الخير الكثير ، وقال الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الكوثر الخير الكثير ، وهذا التفسير يعني النهر وغيره ، لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحارب بن دثار والحسن بن أبي الحسن البصري حتى قال مجاهد : هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة . وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة يجري على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل . وروى العوفي عن ابن عباس نحو ذلك ، وروى ابن جرير عن ابن عمر أنه قال : الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة ، يجري على الدر والياقوت . ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل . وكذا رواه الترمذي عن عطاء بن السائب به مثله موقوفاً ، وقد رواه الإمام أحمد – مرفوعاً – عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب والماء يجري على اللؤلؤ وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل » وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير من طريق محمد بن فضيل عن عطاء بن السائب به مرفوعاً وقال الترمذي حسن صحيح) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ قال ابن كثير : (أي إن مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره ، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : نزلت في العاص بن وائل . وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره . فأنزل الله هذه السورة ، وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي معيط ، وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف ، وجماعة من كفار قريش ، وروى البزار عن عكرمة عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج ، وأهل السدانة ، وأهل السقاية ، فقال : أنتم خير منه ، قال : فنزلت ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ هكذا رواه البزار وهو إسناد صحيح . وعن عطاء نزلت : في أبي لهب ، وذلك حين مات ابن لرسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة ، فأنزل الله في ذلك ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ .

وعن ابن عباس نزلت في أبي جهل ، وعنه ﴿ **إن شانئك** ﴾ يعني عدوك وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم . وقال عكرمة : ﴿ **الأبتر** ﴾ الفرد ، وقال السدي : كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا بتر ، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا بتر محمد فأنزل الله ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره - فتوهموا - لجهلهم - أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمراً على دوام الآباد ، إلى يوم المحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد) .

☆ ☆ ☆

سورة الكافرون

وهي السورة التاسعة بعد المائة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة السابعة من المجموعة الخامسة عشرة من
قسم المفصل ، وهي ست آيات
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الكافرون :

قال الألوسي عن هذه السورة : (وآياتها ست بلا خلاف ، وفيها إعلان مافهم مما قبلها في الأمر بإخلاص العبادة له عز وجل ويكفي ذلك في المناسبة بينهما .

وجاء في حديث أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر مرفوعاً وفي آخر أخرجه في الصغير عن سعد بن أبي وقاص كذلك ، أنها تعدل ربع القرآن ، ووجّه ذلك الإمام بأن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات ، والنهي عن المحرمات ، وكل منهما إما أن يتعلق بالقلب ، أو بالجوارح ، فيكون أربعة أقسام ، وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بالقلوب فتكون كربع القرآن ، وتعقب بأن العبادة أعم من القلبية والقالبية والأمر والنهي المتعلقان بها لا يختصان بالمأمورات والمنهيات القلبية والقالبية ، وأن مقاصد القرآن العظيم لاتنحصر في الأمر والنهي المذكورين بل هو مشتمل على مقاصد أخرى كأحوال المبدأ والمعاد ، ومن هنا قيل لعل الأقرب أن يقال إن مقاصد القرآن التوحيد ، والأحكام الشرعية ، وأحوال المعاد ، والتوحيد عبارة عن تخصيص الله تعالى بالعبادة ، وهو الذي دعا إليه الأنبياء عليهم السلام أولاً بالذات ، والتخصيص إنما يحصل بنفي عبادة غيره تعالى ، وعبادة الله عز وجل ، إذ التخصيص له جزآن : النفي عن الغير ، والإثبات للمخصص به ، فصارت المقاصد بهذا الاعتبار أربعة وهذه السورة تشتمل على ترك عبادة غيره سبحانه والتبري منها فصارت بهذا الاعتبار ربع القرآن) .

ومن كلام صاحب الظلال في تقديمه لهذه السورة : (لم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه . أحد ، صمد . فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره ، ولا يعبدونه حق عبادته . كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء ، أو يرمزون بها إلى الملائكة .. وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله . وأن بينه ــ سبحانه ــ وبين الجِنَّة نسباً ، أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة ، وفي هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الزمر قولهم : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ ..

ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله السموات والأرض ، وتسخيره للشمس والقمر ، وإنزاله الماء من السماء كالذي جاء في سورة العنكبوت : ﴿ **ولئن**

سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ .. ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾ ..

وفي أيمانهم كانوا يقولون : والله ، وتالله . وفي دعائهم كانوا يقولون : اللهم .. الخ ..

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وأنهم أهدى من أهل الكتاب ، الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية ، لأن اليهود كانوا يقولون : عزيرٌ ابن الله . والنصارى كانوا يقولون : عيسى ابن الله . بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله ـــ بزعمهم ـــ فكانوا يعدون أنفسهم أهدى ؛ لأن نسبة الملائكة إلى الله ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزير وعيسى .. وكله شرك . وليس في الشرك خيار ، ولكنهم هم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقاً !.

فلما جاءهم محمد ﷺ يقول : إن دينه هو دين إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ قالوا : نحن على دين إبراهيم فما حاجتنا إذن إلى ترك مانحن عليه واتباع محمد ؟! وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول ﷺ خطة وسطاً بينهم وبينه ؛ وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم ، وله فيهم وعليهم مايشترط !

ولعل اختلاط تصوراتهم ، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه ، لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة ، يمكن التفاهم عليها ، بقسمة البلد بلدين ، والالتقاء في منتصف الطريق ، مع بعض الترضيات الشخصية !

ولحسم هذه الشبهة ، وقطع الطريق على المحاولة ، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة ، ومنهج ومنهج ، وتصور وتصور ، وطريق وطريق .. نزلت هذه السورة ، بهذا الجزم ، وبهذا التوكيد ، وبهذا التكرار ، لتنهي كل قول ، وتقطع كل مساومة ، وتفرق نهائيا بين التوحيد والشرك ، وتقيم المعالم واضحة ، لاتقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير) .

وقدم ابن كثير للكلام عن سورة الكافرون بقوله : (هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون ، وهي آمرة بالإخلاص فيه فقوله : ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم

كفار قريش ، وقيل إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية) .

كلمة في سورة الكافرون ومحورها :

رأينا أن الآيتين الآتيتين بعد مقدمة سورة البقرة أمرتا بالعبادة لله ، ونهتا عن الشرك . وتأتي سورة الكافرون لتأمر رسول الله ﷺ أن يعلن أنه لا يعبد ما يعبده الكافرون ، لا حالاً ولا استقبالاً . فإذا كانت آيتا سورة البقرة أمرتا الناس جميعاً بالعبادة ، ونهتا عن الشرك ، فسورة الكافرون تبيّن أن الناس قسمان ، قسم استجابوا لعبادة الله وحده ، وقسم لم يستجيبوا ، قسم أشركوا ، وقسم وحّدوا ، وتأمر إمام العابدين وسيد الموحدين ، وقدوة المسلمين ، أن يعلن لهؤلاء الكافرين أنه لا يعبد ما يعبدون ، وهذا أول مظهر من مظاهر صلة سورة الكافرون بمحور السورة .

بعد الآيتين الآتيتين بعد مقدمة سورة البقرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءَكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ وسورة الكافرون تأمر عبد الله محمداً ﷺ الذي أنزل عليه القرآن أن يعلن براءته من عبادة الكافرين ، وتميّز دينه عن دينهم ، ومفاصلته لهم في أمر العبادة والدين ، وذلك مظهر آخر من مظاهر صلة سورة الكافرون بمحورها من سورة البقرة ، وهي الآيات الخمس الواردة بعد مقدمة سورة البقرة .

وصلة سورة الكافرون بما قبلها واضحة ، فقد عرفنا من سورة الكوثر أن هناك شانئين ومبغضين لرسول الله ﷺ وهم الكافرون ، وتأتي سورة الكافرون لتأمر رسول الله ﷺ أن يعلن مفاصلته في عبادته ودينه للكافرين إعلاماً أنه لا يبالي بهم ، وتوضيحاً لكونه على الحق ، وفي سورة الكوثر أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بنوعين من العبادة يختلف فيهما المسلمون عن غيرهم من الناس ، وتأتي سورة الكافرون لتأمر رسول الله ﷺ أن يعلن أن إلهه الذي يعبده هو الله وحده ، وأنه لن يعبد — حالاً أو استقبالاً — آلهة الكافرين والمشركين ، وأن دينه متميّز عن كل دين ، وصلة ذلك بسورة الكوثر لا تخفى ، وهكذا رأينا صلة سورة الكافرون بما قبلها ، وصلتها بمحورها ، وسنرى صلتها بما بعدها . فلنر السورة .

سورة الكافرون

وهي ست آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **قل** ﴾ يا محمد ﴿ **يا أيها الكافرون** ﴾ جميعاً ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ يعني من الأصنام أو الأنداد والأوثان والشركاء مهما كانوا ، بشراً أو حجراً أو شمساً أو قمراً ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ أي : ولا أنتم عابدون إلهي وهو الله رب العالمين ، ومن هنا نفهم أن أي إنسان لا يدخل في هذا الدين فإنه لا يكون عابداً لله عز وجل ، ولو ادّعى ما ادّعى ، وعمل ما عمل ﴿ **ولا أنا عابد** ﴾ أي : فيما يأتي من الزمان ﴿ **ما عبدتم** ﴾ ﴿ **ولا أنتم عابدون** ﴾ فيما يأتي من الزمان ﴿ **ما أعبد** ﴾ بسبب من وصولكم إلى درجة من الكفر لا عودة فيها . وهذا الذي ذكرناه هو توجيه النسفي للسورة ، فالعبادة الأولى يراد بها الحال ، والعبادة الثانية يراد بها الاستقبال ، وقال ابن كثير : أي ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ أي : لا تعتقدون بأوامر الله وشرعه في عبادته ، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم . أقول : إن للمفسرين أربعة أقوال في تعليل تكرار موضوع المفاصلة في العبادة . هذان القولان اللذان نقلناهما ، وقولان آخران ، وقد ذكر الأقوال الأربعة ابن كثير . ولعل أكثر الأقوال غموضاً هو القول الذي قدّمه ، ومن ثم فستعرض الأقوال الأربعة كما ذكرها ، ونفسر القول الأول الذي قدّمه وهو الذي اعتمده . قال ابن كثير ملخصاً أقوال المفسرين : (فهذه ثلاثة أقوال :

أولها ما ذكرناه أولاً (أقول : والذي ذكره هو ما نقلناه ومضمونه : أنه فسر (ما) في القول الأول بمعنى (من) وفسر (ما) في القول الثاني بأنّها المصدرية ، فيكون هذا القول على الشكل التالي : لاأعبد ماتعبدون من الآلهة ، ولاأنتم عابدون مَنْ أعبد وهو الله ، ولا أنا عابد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتي ، فلا إلهكم إلهي ، ولا عبادتكم عبادتي ، ولا إلهي معبودكم ، ولا عبادتي عبادتكم ، ومن ثم ختمت السورة بقوله تعالى : ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ التي سنرى معناها فيما بعد ، ولنعد إلى نقل كلام ابن كثير) . قال ابن كثير : (الثاني) ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد ﴿ **لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ في الماضي ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ في المستقبل . (الثالث) أن ذلك تأكيد محض . (وثَمَّ قول رابع) نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه وهو أن المراد بقوله ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية ، لأن النفي بالجملة الاسمية آكد ، فكأنه نفى الفعل ، وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفي الوقوع ، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً . وهو قول حسن أيضاً . والله أعلم) .

أقول : والذي أميل إليه هو القول الذي اختاره النسفي ، وهو قول البخاري كما رأينا ، إلا أن هذا يحتاج إلى تعليل لقضية هي أن بعض الكافرين يسلمون ، فكيف نفسر الآية ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾ بأنّ المراد بها الاستقبال ، أقول : الجواب إن هذا الخطاب موجّه لكفار مصرِّين على الكفر مستمرين عليه ، علم الله أنهم سيموتون على ذلك . أو أن الخطاب يفيد : أي أنكم مادمتم على كفركم . فلن تكونوا في يوم من الأيام عابدين لإلهي ، ولن أكون عابداً لمعبودكم ، ثم قال تعالى : ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ قال النسفي : أي لكم شرككم ولي توحيدي . وقال البخاري في تفسيرها : ﴿ **لكم دينكم** ﴾ الكفر ﴿ **ولي دين** ﴾ الإسلام .

كلمة في السياق :

ذكرت هذه السورة موضوع المفاصلة بين المسلمين وغيرهم في العبادة والدين ، فحددت بذلك أن العبادة التي أمر الله - عز وجل - بها في الإسلام في محور السورة تختلف عن أي عبادة أخرى ، وأن الإسلام غير الأديان الأخرى ؛ إذ كلها منسوخة بهذا

الإسلام ، ومن قبل تحدثنا عن صلة السورة بما قبلها ، وصلتها بمحورها ، فلا نقف أكثر من ذلك .

الفــوائد :

١ - قبل أن يبدأ ابن كثير الكلام عن سورة الكافرون ذكر بعض النصوص الواردة فيها . قال : (ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف . وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة : قل ياأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد وروى أحمد أيضاً عن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ أربعاً وعشرين أو خمساً وعشرين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر ، والركعتين بعد المغرب بقل ياأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد . وروى أحمد عن ابن عمر قال : رمقت النبي - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - شهراً وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بقل ياأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد . وكذا رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي أحمد الزبيري وأخرجه النسائي من وجه آخر عن أبي إسحاق به ، وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن ، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن . وروى الإمام أحمد عن فروة بن نوفل - هو ابن معاوية - عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له : « هل لك في ربيبة لنا تكفلها ؟ » قال : أراها زينب . قال : ثم جاء فسأله النبي ﷺ عنه قال : « مافعلت الجارية ؟ » قال : تركتها عند أمها . قال : « فمجيء ما جاء بك » قال : جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي قال : « اقرأ قل يا أيها الكافرون ، ثم نم على خاتمها فإنها براءة من الشرك » تفرد به أحمد . وروى أبو القاسم الطبراني عن جبلة بن حارثة وهو أخو زيد بن حارثة أن النبي ﷺ قال : « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ قل ياأيها الكافرون حتى تمر بآخرها فإنها براءة من الشرك » وروى الطبراني - بسنده - أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قرأ ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ حتى يختمها . وروى الإمام أحمد عن الحارث بن جبلة قال : قلت يارسول الله علمني شيئاً أقوله عند منامي . قال : « إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ قل ياأيها الكافرون فإنها براءة من الشرك » . والله أعلم .

٢ - بمناسبة قوله تعالى - على لسان رسوله ﷺ - : ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾

قال ابن كثير : (أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم كما قال ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ فتبرأ منهم في جميع ماهم فيه فإن العابد لابد له من معبود يعبده ، وعبادة يسلكها إليه فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ، ولهذا كانت كلمة الإسلام لا إله إلا الله محمد رسول الله أي لا معبود إلا الله ، ولا طريق إليه إلا ماجاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله ، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ كما قال تعالى ﴿ **وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾ وقال : ﴿ **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ وقال البخاري: يقال ﴿ **لكم دينكم** ﴾ الكفر ﴿ **ولي دين** ﴾ الإسلام ولم يقل ديني لأن الآيات بالنون ، فحذف الياء كما قال (فهو يهدين - ويسقين) .

٣ - ومناسبة قوله تعالى - على لسان رسوله ﷺ - : ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ قال ابن كثير : (وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة ، فورّث اليهود من النصارى وبالعكس ، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان ماعدا الإسلام كلها بالشيء الواحد في البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى ») .

☆ ☆ ☆

سورة النصر

وهي السورة العاشرة بعد المائة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثامنة من المجموعة الخامسة عشرة من
قسم المفصل ، وهي ثلاث آيات
وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة النصر :

قدّم ابن كثير لسورة النصر بذكر الآثار التالية :

(قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن ، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن . وروى النسائي عن عبيد بن عبد الله بن عتبة قال : قال لي ابن عباس : ياابن عتبة أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت ؟ قلت : نعم ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ قال : صدقت . وروى الحافظ أبو بكر البزار والبيهقي عن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فرحلت ، ثم قام فخطب الناس فذكر خطبته المشهورة . وروى الحافظ البيهقي عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال : « إنه قد نعيت إليّ نفسي » فبكت ثم ضحكت وقالت : أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت ، ثم قال : اصبري فإنك أول أهلي لحوقاً بي فضحكت . وقد رواه النسائي بدون ذكر فاطمة)

كلمة في سورة النصر ومحورها :

من خلال الاستقراء نرى أن محور سورة النصر هو نفسه محور سورتي الكوثر والكافرون ، وهو الآيات الخمس الآتية بعد مقدمة سورة البقرة ، وأدلة ذلك كثيرة .

تأمر سورة النصر رسول الله ﷺ بالتسبيح بحمد الله وبالاستغفار إذا رأى علامة بعينها وهي الفتح والنصر ، ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، وقد فهم رسول الله ﷺ من ذلك وفهم بعض الصحابة ، أن تلك علامة على اقتراب أجله ﷺ ، ومن ثم نفهم أن العبادة المناسبة لاقتراب الأجل هي الاستغراق في التسبيح بحمد الله ، وكثرة الاستغفار ، وفي ذلك تفصيل للأمر الوارد في محور السورة ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ فالتسبيح بحمد الله ذروة المعرفة بالله ، وذروة الشكر لله على نعمه ، والاستغفار فيه اعتراف بالتقصير في حق الله عز وجل ، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو أعظم الخلق قياماً بحق الله عز وجل قد أمر بهذا في آخر حياته ، فأحرى بغيره أن يطالب بذلك ، وصلة ذلك بمحور السورة من سورة البقرة واضحة .

نفهم من سورة النصر أنّ النعمة ينبغي أن تقابلها عبادة . فالفتح والنصر والدخول في دين الله أفواجاً نعم، أمر الله رسوله ﷺ أن يقابلها بالتسبيح بحمد الله والاستغفار ، وهو أصل رأيناه في محور السورة ، إذ أمر الله عز وجل بعبادته وتوحيده في سياق الحديث عن نعمه العامة ، وهذا الأصل ترى فروعه في هذه السورة التي تبيّن أن نعمة أخرى من نعمه تقتضي عبادة من تسبيح واستغفار ، ولذلك صلته بمحور السورة من سورة البقرة .

ومن الآيات الخمس التي تشكل محور سورة النصر نعلم أنّ هناك كافرين ومرتابين ، وهذه السورة تبين لنا أن العاقبة لرسول الله ﷺ عليهم ، والسورة تأمر رسول الله ﷺ في حالة النصر والفتح والإسلام بأن يسبح ويستغفر شكراً واعترافاً بالقصور وهضماً للنفس، وهو درس للأمة ، وهذا مظهر آخر من مظاهر صلة السورة بمحورها في الآيات الخمس الآتية بعد مقدمة سورة البقرة، والمظهر الأول والأعلى للصلة بالمحور هو أن التسبيح بحمد الله توحيد وعبادة وشكر، وأن الاستغفار عبودية وافتقار .

وأمّا صلة سورة النصر بما قبلها ، من حيث إن سورة الكافرون تتحدّث عن المفاصلة بين المسلمين والكافرين ، ومن قبل ذكرت سورة الكوثر ما يفيد أن هناك مبغضين وشانئين لرسول الله ﷺ ، وكل ذلك يشعر بالصراع بين جهتين : أهل الإيمان، وأهل الكفر . وتأتي سورة النصر ليفهم منها أن العاقبة حتماً لرسول الله ﷺ ، وأن نصر الله آت ، وأن الفتح آت، وأن الدخول في دين الله أفواجاً آت لامحالة ، ولذلك فإن السورة تأمر رسول الله ﷺ بما ينبغي أن يفعله وقتذاك . فالسورة واضحة الصلات بما قبلها ، وسنرى صلتها بما بعدها . وكالعادة في كل سورة جديد ، ولنكتف بهذا القدر . ولنبدأ عرض السورة .

* * *

سورة النصر

وهي ثلاث آيات ، وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

التفسير :

﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ قال النسفي : النصر الإعانة والإظهار على العدو ، والفتح فتح البلاد ، والمعنى نصر رسول الله ﷺ على العرب ، أو على قريش وفتح مكة ، أو جنس نصر الله المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم ﴿ **ورأيت** ﴾ أي : أبصرت أو عرفت أو علمت ﴿ **الناس يدخلون في دين الله أفواجاً** ﴾ أي جماعات كثيرة بعد ما كانوا يدخلون واحداً واحداً ، أو اثنين اثنين ﴿ **فسبّح بحمد ربك** ﴾ قال النسفي (فقل : سبحان الله حامداً له أو فصلّ له) ﴿ **واستغفره** ﴾ قال النسفي : تواضعاً وهضماً للنفس ، أو دم على الاستغفار ﴿ **إنه كان** ﴾ ولا يزال ﴿ **تواباً** ﴾ التواب في حق الله عز وجل هو الكثير القبول للتوبة ، وفي صفة العباد الكثير الفعل للتوبة .

الفوائد :

١ - قال ابن كثير : (والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي . فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة ، وقد روى البخاري

في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون : دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي - الحديث) أقول : رأينا أن النسفي ذكر أقوالاً أخرى في المراد بالفتح ، والذي يبدو أنه يرى أن المراد بالفتح والنصر في حق رسول الله ﷺ والعلامة التي حددت له هي فتح مكة . ولكن يبقى ما ورد في السورة أدباً عاماً لكل مسلم أن يقابل نعمة الله عز وجل عليه بالشكر والحمد والاستغفار والتسبيح) .

قال ابن كثير : (فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر - رضي الله عنهم أجمعين - من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون بأن نحمد الله ونشكره ونسبحه يعني نصلي له ونستغفره ، معنى مليح صحيح . وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات ، فقال قائلون : هي صلاة الضحى ، وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً لم ينو الإقامة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسع عشرة يوماً يقصر الصلاة ويفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحواً من عشرة الآف قال هؤلاء : إنما كانت صلاة الفتح قالوا فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يصلي فيه أول مايدخله ثماني ركعات ، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن ، ثم قال بعضهم : يصليها كلها بتسليمة واحدة ، والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين كما ورد في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين) .

٢ - وقال ابن كثير : (روى البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال : ماتقولون في قول الله عز وجل ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي : أكذلك تقول ياابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ماتقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً** ﴾ فقال عمر بن الخطاب : لاأعلم منها إلا ماتقول . تفرد به البخاري) .

أقول : وإذن فالفهم البديهي للسورة هو ما فهمه عامّة الصحابة ، وبعد ذلك فهوم دقيقة لا تلغي الفهم الأول ، ولكن تدلّ على أن في السورة معاني أخرى يفطِن لها من آتاه الله عز وجل خصوصية فهم ، وذلك شأن القرآن كله ، يفهم منه العامّة ما يفهمون ، وللخواص فهوم دقيقة لا تلغي الفهوم الصحيحة الأخرى ، ولكن تزيد عليها ، وذلك من عجائب هذا القرآن ومظاهر إعجازه .

٣ - رأينا في الفائدتين السابقتين أن في السورة بشارة بالفتح والنصر ، وعلامة على الأجل . وكل ذلك قد حصل فكان في ذلك معجزتان من معجزات هذا القرآن زائدتان على الإعجاز العام ، إذ هما معجزتان في شأن من شؤون المستقبل ، وقد كان الرسول ﷺ يعمل ويستبشر بعدها .

قال ابن كثير : (روى النسائي عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ إلى آخر السورة قال نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت، فأخذ في أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: « جاء الفتح وجاء نصر الله وجاء أهل اليمن » فقال رجل: يارسول الله وما أهل اليمن ؟ قال: « قوم رقيقة قلوبهم لينة قلوبهم ، الإيمان يمان والحكمة يمانية والفقه يمان ») .

٤ - مما استدل به على أن المراد بالفتح في السورة فتح مكة استعمال الرسول ﷺ تعبير الفتح خاصة في فتح مكة ، من ذلك قوله عليه السلام: « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

٥ - من مظاهر التطبيق العملي لهذه السورة في حياة الرسول ﷺ ماذكرته النصوص التالية :

روى البخاري عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي » يتأول القرآن وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذي من حديث منصور به وروى الإمام أحمد عن مسروق قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول « سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه » وقال: « إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي ، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره ، إنه كان تواباً فقد رأيتها ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ۞ **ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً** ۞ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان**

تواباً ﴾ » ورواه مسلم . وروى ابن جرير عن أم سلمة قالت كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ، ولا يذهب ولا يجيء إلا قال : « سبحان الله وبحمده » ، فقلت : يارسول الله رأيتك تكثر من سبحان الله وبحمده ، لا تذهب ولا تجيء ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت : سبحان الله وبحمده قال : « إني أمرت بها » فقال : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ إلى آخر السورة . غريب .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ كان يكثر إذا قرأها وركع أن يقول « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم » ثلاثاً ، انفرد به أحمد .ورواه ابن أبي حاتم .

أقول : إن من تأمل حال رسول الله ﷺ من الالتزام بأمر الله عز وجل ، والقيام بحقه ، هذا القيام الفريد يكفيه ذلك دليلاً على أن محمداً رسول الله ﷺ ، وهو معنى أبرزناه في كتابنا الرسول ﷺ ، وإنما أشرنا إليه بمناسبة هذا التطبيق الرائع لأمر الله في السورة مما رأينا بعض مظاهره في النقول السابقة .

٦ — إن قول ابن عباس أنّ آخر سورة نزلت هي هذه السورة لا يعني أنها آخر القرآن نزولاً ، لأنه قد رأينا أن التحقيق أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى ﴿ **واتقوا يوماً** .. ﴾ وعلى هذا فمراد ابن عباس أنّها آخر سورة نزلت أي كسورة كاملة ، أما كآيات فقد نزل حتماً بعدها .

٧ — هناك اتجاه يقول : إن سورة النصر نزلت في حجة الوداع ، مع أنّ حجة الوداع كانت بعد فتح مكة بحوالي سنتين . وعلى هذا فإنّ البشارة تكون باستكمال النواحي الثلاث مجتمعة : الفتح ، والنصر ، والدخول في دين الله أفواجاً .

كلمة أخيرة في سورة النصر :

إن مجيء سورة النصر في مكانها معجزة ، وفيه إعجاز ، وفي بشارتها ودلالتها معجزة وإعجاز ، وفي معناها معجزة وإعجاز ، ألا ترى أن هذه التربية لرسول الله وللمسلمين حال النصر والفتح ، وإقبال الناس على الإسلام يستحيل أن تكون بشرية أو يفطن لها الإنسان ، فالناس في النصر والفتح يبطرون ويسكرون ويقبلون على المتاع واللذة ، بينما

السورة تربي على غير ذلك ، فهل هذا مما يخطر في قلوب البشر أن يقولوه أو يسجلوه ، ففي معنى السورة معجزة وإعجاز ، وفي انسجام معاني السورة مع بقية المعاني القرآنية التي لا يخطئها البصر معجزة وإعجاز ، وفي الكلمات التي عبّر بها عن هذا كله معجزة وإعجاز ، إذ لا يحل محلها غيرها ، فهي كلمات في الذروة من البلاغة والفصاحة والانتقاء أخذت مدلولاتها الإسلامية ، واستعملت لتأدية هذه المدلولات على مثل هذا الكمال ، وهذا شيء معجز فأن توجد اصطلاحات خاصة لدين جديد ، وأن تستعمل هذه المصطلحات ولأول مرة في ذروة من الكمال في التعبير والأداء ذلك معنى وحده يدلك على أن هذا القرآن من عند الله .

☆ ☆ ☆

سورة المسد

وهـي الســورة الحادية عشرة بعد المائة بحسب الرسـم القرآني

وهي الســورة التاسعة من المجموعة الخامسـة عشرة

من قسم المفصل ، وهي خمس آيات

وهــي مكيــــة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا . إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قدّم الألوسي لسورة المسد بقوله :

(وتسمى سورة المسد ، وهي مكية وآيها خمس بلا خلاف في الأمرين ، ولما ذكر سبحانه فيما قبل دخول الناس في ملة الإسلام ، عقّبه سبحانه بذكر هلاك بعض ممن لم يدخل فيها وخسرانه .

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

كذا قيل في وجه الاتصال ، وقيل هو من اتصال الوعيد بالوعد ، وفي كل مسرة له عليه الصلاة والسلام. وقال الإمام في ذلك : إنه تعالى لما قال ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ فكأنه ﷺ قال : إلهي فما جزائي ؟ فقال الله تعالى : لك النصر والفتح ، فقال : فما جزاء عمي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال : تبت يداه ، وقدم الوعد على الوعيد ليكون النصر متصلاً بقوله تعالى ﴿ **ولي دين** ﴾ والوعيد راجعاً إلى قوله تعالى ﴿ **لكم دينكم** ﴾ على حد ﴿ **يوم تبيض وجوه** ﴾ الآية فتأمل هذه المجانسة الحاصلة بين هذه السور مع أن سورة النصر من آخر ما نزل بالمدينة ، وتبت من أوائل ما نزل بمكة تعلم أن ترتيبها من الله تعالى وبأمره عز وجل ثم قال : ووجه آخر وهو أنه لما قال ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ فكأنه قيل : إلهي ما جزاء المطيع ؟ قال : حصول النصر والفتح ، ثم قيل : فما جزاء العاصي ؟ قال : الخسار في الدنيا والعقاب في العقبى ، كما دلت عليه سورة تبت . انتهى وهو كما ترى) .

كلمة في سورة المسد ومحورها :

بعد الآيات الخمسة الآتية بعد مقدمة سورة البقرة والتي رأينا أنها كانت محوراً للسور الثلاث السابقة : الكوثر ، والكافرون ، والنصر ، يأتي قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

لاحظ كلمة ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ وأن سورة المسد تبدأ بقوله تعالى ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتبّ** ﴾ قال ابن كثير : (أي وقد تحقق خسارته وهلاكه) ، من هذه

البداية للسورة ندرك أن الله عز وجل يعطينا في هذه السورة نموذجاً على هؤلاء الخاسرين من الرجال والنساء ، وأي نموذج ؟ عم رسول الله ﷺ وزوجة عمه ، وفي ذلك ما فيه من التحذير والإنذار ، وقطع الطمع والإبعاد عن الأماني .

فمن ربط السورة بمحورها ندرك أن أبا لهب وزوجته هما النموذجان الرجالي والنسائي على الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، ومن ثم استحقوا إضلال الله عز وجل لهم .

ختمت سورة الكافرون بقوله تعالى ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ وجاءت سورة النصر تبشّر رسول الله ﷺ بالنصر على الكافرين ، وتأتي سورة المسد لتتحدث عن مآل الكافرين وخسرانهم من خلال الحديث عن شخصية آذت رسول الله ﷺ هي وزوجها الإيذاء الكثير ، وحرصت على ردّ وصدّ الناس عن الإسلام ، فهي داخلة دخولاً أولياً في قوله تعالى ﴿ **قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون** .. ﴾ ومن ثم فللسورة صلتها الوثيقة بما قبلها ، فليس أعداء الله مغلوبين فقط ، بل من حارب رسول الله ﷺ فيها واستمر على ذلك فإنه كذلك معذب عند الله عز وجل يوم القيامة وفي الآخرة ، وهو نصر ثان لرسول الله ﷺ ، ففي سورة النصر تسجيل للنصر الدنيوي على الكافرين وفي سورة المسد تسجيل للنصر الأخروي على الكافرين .

إن سورة المسد نزلت في أوائل الدعوة الإسلامية ، فأن تأتي في محلها الذي جاءت به متصلة بما قبلها وما بعدها ، متصلة بمحورها من سورة البقرة ، فهذا وحده إعجاز ، وفيه معجزات وفي السورة . فلنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

سورة المسد

وهي خمس آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

فائدتان في التعريف بأبي لهب وزوجته وفي سبب النزول :

١ - قال ابن كثير : (فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمّي أبا لهب لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ ، والبغضة له ، والازدراء به ، والتنقّص له ولدينه . روى الإمام أحمد عن رجل يقال له ربيعة بن عباد من بني الديل وكان جاهليًّا فأسلم قال : رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه ، أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابىء كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب ، ثم رواه عن شريح عن ابن أبي الزناد عن أبيه فذكره قال أبو الزناد : قلت لربيعة : كنت يومئذ صغيراً ؟ قال : لا والله إني يومئذ لأعقل أني أزفر القربة ، تفرد به أحمد . وقال محمد ابن إسحاق حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول : إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ، ذو جمة يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: « يابني فلان إني رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به » وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يابني فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه فقلت لأبي: من هذا ؟ قال:

عمه أبو لهب . رواه أحمد أيضاً والطبراني بهذا اللفظ) .

وقال ابن كثير : وكانت زوجته من سادات نساء قريش وهي أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم .

٢ - في سبب نزول هذه السورة قال ابن كثير :

روى البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى « ياصباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقال : « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك ، فأنزل الله ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ إلى آخرها . وفي رواية فقام ينفض يديه وهو يقول : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ الأول دعاء عليه ، والثاني خبر عنه .

التفسير :

﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ أي : جعلت يداه هالكتين ، والمراد إهلاك جملته ، قال النسفي : التباب الهلاك . قال ابن كثير : أي خسرت وخابت وضلّ عمله وسعيه ﴿ **وتبّ** ﴾ قال النسفي : أي وكان ذلك وحصل . وقال ابن كثير : أي وقد تبّ أي تحقق خسارته وهلاكه ﴿ **ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾ أي : لم يغن عنه ماله ومكسوبه أو كسبه ، قال النسفي : أي لم ينفعه ماله الذي ورثه من أبيه ، والذي كسبه بنفسه ، أو ماله التالد أو الطارف ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **ما كسب** ﴾ ولده . أقول : فعلى هذا القول يكون معنى الآية : ما أغنى عنه ماله ولا ولده من عذاب الله شيئاً ، قال الألوسي : (وروي أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي فأنزل الله في ذلك : ﴿**ما أغنى عنه ماله وما كسب**﴾ ﴿ **سيصلى** ﴾ أي سيدخل ﴿ **ناراً ذات لهب** ﴾ أي ذات توقد . قال ابن كثير : أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد ، قال النسفي : والسين للوعيد أي هو كائن لا محالة وإن تراخى وقته ﴿ **وامرأته** ﴾ أي ستصلى النار ذات اللهب ﴿ **حمالة الحطب** ﴾ قال

النسفي : والتقدير : أعني حمالة الحطب ﴿ **في جيدها حبل من مسد** ﴾ قال النسفي : والمسد الذي فتل من الحبال فتلاً شديداً من ليف كان أو جلد أو غيرهما . أقول : قد اختلفت عبارات المفسرين في تفسير قوله تعالى ﴿ **حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد** ﴾ هل هذا وصف لها في الدنيا ؟ وما المراد به إن كان الأمر كذلك ؟ أو هو وصف لها في الآخرة وما المراد به إن كان الأمر كذلك ؟ أو هو وصف لها في الدنيا والآخرة ؟ وقد سرد ابن كثير الأقوال الواردة في ذلك متداخلة . فلننقل كلامه .

قال ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ **وامرأته حمالة الحطب** ﴾ :

(يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه وهي مهيأة لذلك مستعدة له ﴿ **في جيدها حبل من مسد** ﴾ قال مجاهد وعروة من مسد النار ، وعن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والثوري والسدي : حمالة الحطب كانت تمشي بالنميمة ، واختاره ابن جرير . وقال العوفي عن ابن عباس وعطية الجدلي والضحاك وابن زيد : كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ . قال ابن جرير : كانت تعيّر النبي ﷺ بالفقر ، وكانت تحتطب فعيرت بذلك ، كذا حكاه ولم يعزه إلى أحد ، والصحيح الأول والله أعلم . قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة فقالت : لأنفقنها في عداوة محمد ، يعني فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار . وروى ابن جرير عن الشعبي قال : المسد الليف ، وقال عروة بن الزبير : المسد سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ، وعن الثوري : هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً ، وقال الجوهري : المسد الليف ، والمسد أيضاً حبل من ليف أو خوص وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها ومسدت الحبل أمسده مسداً إذا أجدّ فتله .

وقال مجاهد : ﴿ **في جيدها حبل من مسد** ﴾ أي : طوق من حديد ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً ؟

وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى ﴿ **في جيدها حبل من مسد** ﴾ أي : في عنقها حبل في نار جهنم ترفع به إلى شفيرها ثم ترمى إلى أسفلها ثم كذلك دائماً . قال أبو الخطاب بن دحية في كتابه التنوير : وقد روى ذلك وعبر بالمسد عن حبل الدلو كما قال أبو حنيفة الدينوري في كتاب النبات : كل مسد رشاء . وأنشد في ذلك :

وبكرة ومحوراً صراراً　　ومسداً من أبق مغاراً

قال : والأبق القنب .

وقال آخر : يامسد الخوص تعوذ مني
إن تك لدنا لينا فإني
ماشئت من أشمط مقسئن

أقول : الذي يتشرح له الصدر أنّ وصف أم جميل بحمّالة الحطب هو وصف ذم لها في الدنيا ، وهل المراد به سيرها بالنميمة لإشعال الفتن ، أو المراد بذلك حملها الحطب فعلاً لتضعه في طريق رسول الله ﷺ فحقرها الله عز وجل بذلك بأن شبهها بالحطابين والحطابات لتجزع من ذلك ويجزع بعلها . وهما في بيت العز والشرف ، وفي منصب الثروة والجد ، كلا المعنيين وارد . وأما قوله تعالى ﴿ **في جيدها حبل من مسد** ﴾ فترجح أن المراد به الإشارة إلى نوع من أنواع عذابها في الآخرة ، والمراد بالحبل من المسد حبل من حبال النار كما قال مجاهد وعروة : من مسد النار . وكما قال مجاهد : أي طوق من حديد . ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً ؟ وكما قال سعيد بن المسيب : فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار ، وكما قال عروة بن الزبير ، المسد سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ، وكما قال الثوري : هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً . وبذلك تكون الآيتان قد حقّرتا زوجة أبي لهب غاية التحقير ، إذ وصفتها في الدنيا بصفة تعتبرها هي غاية في الحقارة ، ووصف حالها في الآخرة بصفة تفيد أقصى حالات الذلة . أن يكون كحبل الليف في عنقها تسحب منه ، ولا يفهمن فاهم أن حمل الحطب للعمل مذموم في الآية ، فالآية لا تتعرض لهذا الموضوع وإنّما تحقّر امرأة بما تعتبره هذه المرأة تحقيراً في مثل حالها . قال النسفي : (ونصب عاصم ﴿ **حمالة الحطب** ﴾ على الشتم ، وأنا أحب هذه القراءة وقد توسّل إلى رسول الله ﷺ بجميل من أحب شتم أم جميل) أقول : هذا ترجيح منه أن المراد بالآية تحقير أم جميل وأنّ من أحب هذا المعنى مأجور .

كلمة في السياق :

١ - نزلت هذه السورة في أوائل الإسلام ، ومن المعلوم أن كثيرين ممن حاربوا الدعوة الإسلامية ، ابتداءً دخلوا فيها بعد ذلك كعمر وأبي سفيان وخالد بن الوليد وغيرهم كثير . فأن تذكر السورة أن أبا لهب وزوجته سيدخلان النار فهذا إخبار بالغيب أنهما سيمتان على كفرهما ، وقد تحقق هذا ، وفي ذلك وحده معجزة من

معجزات هذا القرآن تقطع بأنّه من عند الله عز وجل ، وقد رأينا شبيهاً بهذا في سورة النصر ، وهكذا نجد أن المجموعة الأخيرة من القرآن فيها ألوان من الإعجاز ، وألوان من المعاني عدا عن التغطية الواسعة لآيات كثيرة من سورة البقرة ، مما يجعلنا نعرف حكمة الله عز وجلّ فيها ، بأن جعلها خاتمة مجموعات القرآن .

٢ - رأينا في السورة تفسيراً للخسران الذي تحدّث عنه محور السورة ، وهو دخول أبي لهب وزوجته نار جهنم ، وأي خسران أكبر من ذلك ، ومن الخسران ألّا يغني عن الإنسان ماله وولده شيئاً ، ومن الخسران أن يذم الله أحداً أو يحقره ، فما أشدّه من خسران . ولذلك كله صلة بمحور السورة ، فأبو لهب وزوجته ناقضا عهدٍ ، قاطعان لما أمر الله به أن يوصل ، مفسدان في الأرض ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ وبهذا نكون قد عرفنا صلة السورة بمحورها ، وصلتها بما قبلها ، ونكتفي بهذا القدر .

الفوائد :

١ - بمناسبة الكلام عن السورة ينقل لنا ابن كثير كيفية استقبال زوجة أبي لهب هذه السورة . قال ابن كثير :

(روى ابن أبي حاتم عن أسماء بنت أبي بكر قالت لما نزلت ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمماً أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يارسول الله قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك ، فقال : رسول الله ﷺ « إنها لن تراني » وقرأ قرآناً اعتصم به كما قال تعالى ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً** ﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني ، قال : لاورب هذا البيت ماهجاك ، فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها . قال : وقال الوليد في حديثه أو غيره : فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت فقالت : تعس مذمم فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لحصان فما أكلم ، وثقاف فما أعلم ، وكلتانا من بني العم ، وقريش بعد أعلم ، وقال الحافظ أبو بكر البزار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله

ﷺ جالس ومعه أبو بكر فقال له أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيك بشيء فقال رسول الله ﷺ: «إنه سيحال بيني وبينها» فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكر هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشعر، ولا يتفوه به. فقالت: إنك مصدَّق. فلما ولت قال أبو بكر: ما رأتك؟ قال: «لا ما زال ملك يسترني حتى ولت» ثم قال البزار: لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبي بكر رضي الله عنه.

٢ - رأينا أن اسم أبي لهب هو عبد العزى وقد علل ابن كثير لتكنيته في السورة بأبي لهب بقوله: وإنما كناه والتكنية تكرمة لاشتهاره بها دون الاسم أو لكراهة اسمه فإن اسمه عبد العزى، أو لأن مآله إلى نار ذات لهب فوافقت حاله كنيته.

٣ - ختم ابن كثير الكلام عن سورة المسد بالإشارة إلى ما تضمنته من معجزة إذ تتحدث عن المستقبل فيقع، وهو المعنى الذي ذكرناه من قبل قال:

(قال العلماء وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة. فإنه منذ نزل قوله تعالى ﴿ **سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد** ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا مسراً ولا معلناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة).

☆ ☆ ☆

سورة الإخلاص

وهي السـورة الثانية عشرة بعد المائة بحسب الرسم القرآني
وهي السـورة العاشـرة من المجموعة الخامسة عشرة
من قسم المفصل ، وهي أربع آيات
وهـي مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الإخلاص :

قال صاحب الظلال في سورة الإخلاص :

(هذه السورة القصيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة . روى البخاري عن أبي سعيد : أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ يرددها . فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له - وكأن الرجل يتقالّها - فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » ..

وليس في هذا من غرابة فإن الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ .. هذه الأحدية عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة .. وقد تضمنت السورة - من ثم - أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة ..

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية ، كما أن سورة الكافرون نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك .. وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه . وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه - في صلاة سُنّة الفجر - بالقراءة بهاتين السورتين .. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه ..) .

* * *

كلمة في سورة الإخلاص ومحورها :

بعد الآيتين اللتين كانتا محور سورة المسد من سورة البقرة يأتي قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ۞ هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

لاحظ مضمون الآيتين ، ومضمون سورة الإخلاص :

﴿ **قل هو الله أحد ۞ الله الصمد ۞ لم يلد ولم يولد ۞ ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ فكما ترى فسورة الإخلاص تعرّفنا على الله عز وجل الذي أنكرت وعجبت آية سورة البقرة الأولى من الكفر به ، والذي دلّت على وجوده الآيتان كلتاهما ، فسورة الإخلاص إذن تعرفنا على الله عز وجل ، كما عرفتنا عليه آيتا المحور ، مع ملاحظة أن سورة الإخلاص

تعرّفنا على صفات الله عز وجل التي لا ينبغي أن تغيب عن أحد ، ولا ينبغي أن تغيب عن عقل ، لأنها الصفات التي توصل إليها البداهة .

جاء قبل سورة الإخلاص سورة الكافرون وسورة النصر وسورة المسد ، وقد أمرت سورة الكافرون رسول الله ﷺ أن يعلن أنه لا يعبد ما يعبده الكافرون ، وجاءت سورة النصر لتبيّن أن النصر كائن لرسول الله ﷺ على أهل الكفر ، وجاءت سورة المسد لتبيّن عقوبة الكافرين ، وتأتي سورة الإخلاص لتعرفنا على الله عز وجل الذي يعبده رسول الله ﷺ ، والملاحظ أن سورة الكافرون مبدوءة بقوله تعالى ﴿ قل ﴾ وسورة الإخلاص مبدوءة بقوله تعالى ﴿ قل ﴾ وبينهما سورتان ليستا مبدوءتين (بقل) . في سورة الكافرون أمر لرسول الله ﷺ أن يعلن مفاصلته للكافرين في العبادة والدين ، وهذه سورة الإخلاص بأمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يعلن صفات إلهه الذي يعبده ، والذي لا يعبده الكافرون ولا يعرفونه جل جلاله .

وإذا كنا رأينا في كل من السورتين السابقتين معجزة أو أكثر زائدة على الإعجاز ، فإن في سورة الإخلاص معجزة تعدل آلاف المعجزات ، وهي أنها على قصرها وصفت الله عز وجل وصفاً لا تنتهي عجائبه ، حتى إن كلّ ضلال وقعت فيه البشرية في موضوع معرفة الذات الإلهية فإن سورة الإخلاص قد أحاطت به ، ونفته وخلّصت الإنسان منه ، ثم إن العقل البشري قد يصل إلى ما ذكرته هذه السورة في التعرّف على الله عز وجل ، ولكن بعد آماد وآماد ، وإنّ أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشري في موضوع تنزيه الذات الإلهية هو ما ورد في هذه السورة ، وسيتضح معنا هذا شيئاً فشيئاً كلما سرنا في دراسة السورة ، فلنر السورة .

☆ ☆ ☆

سورة الإخلاص

وهي أربع آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ

كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

التفسير :

﴿ قل هو الله أحد ﴾ قال ابن كثير : يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل ، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله . أقول : فالله عز وجل واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله ، والأحدية هي التعبير الأعلى للواحدية في هذه المعاني كلها ﴿ الله الصمد ﴾ قال ابن كثير : قال عكرمة عن ابن عباس : يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم . أقول : أي هو الذي يفتقر إليه خلقه ، وهو لا يفتقر إلى خلقه ، ومن ثم فالصمدية تفيد القيومية كما سنرى ، ويدخل في ذلك معان كثيرة أخرى سنراها . قال النسفي : أي وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق ولا يستغنون عنه وهو الغني عنهم ﴿ لم يلد ﴾ قال النسفي : (لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا) أقول : التوالد أمارة الفناء ، فالتوالد يكون من أجل بقاء الجنس ، وذلك علامة فناء المتوالديْن ، والله عز وجل باق فلا ولد له جل جلاله ﴿ ولم يولد ﴾ أي : ليس له والد لأن الوالدية علامة الحدوث ، والله عز وجل أزلي قديم لا بداية لوجوده جل جلاله . وقد جعلنا أوّل ظاهرة تدلّ على الله عز وجل بشكل قطعي في كتابنا (الله جل جلاله) هي ظاهرة حدوث الكون الذي دلّت عليها قوانين كثيرة عقلية وعلمية ، وهي تدلّ بشكل قطعي على قدم الله عز وجل كما برهنّا على ذلك هناك وفصّلناه ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ قال النسفي : أي ولم يكافئه أحد ، أي لم يماثله . أقول : ففي الآية نفي المماثلة عنه . قال النسفي في السورة : (فقوله : ﴿ هو الله ﴾ إشارة إلى أنه خالق الأشياء وفاطرها ، وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم ، لكونه واقعاً على غاية إحكام واتساق وانتظام ، وفي ذلك وصفه بأنه حي ، لأن المتصف بالقدرة والعلم لابد وأن يكون حيّاً ، وفي ذلك وصفه بأنه سميع بصير مريد متكلم إلى غير ذلك من صفات الكمال ، إذ لو لم يكن موصوفاً بها لكان موصوفاً بأضدادها وهي نقائص ، وذا من أمارات الحدوث ، فيستحيل اتصاف القديم بها ، وقوله ﴿ أحد ﴾ وصف بالوحدانية ونفي الشريك ،

وبأنه المتفرد بإيجاد المعدومات والمتوحد بعلم الخفيات ، وقوله ﴿ **الصمد** ﴾ وصف بأنه ليس إلا محتاجاً إليه وإذا لم يكن إلا محتاجاً إليه فهو غني لا يحتاج إلى أحد ، ويحتاج إليه كل أحد ، وقوله ﴿ **لم يلد** ﴾ نفي للشبه والمجانسة ، وقوله ﴿ **ولم يولد** ﴾ نفي للحدوث ووصف بالقدم والأولية ، وقوله ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ نفي أن يماثله شيء ، ومن زعم أن نفي الكفء - وهو المثل في الماضي - لا يدل على نفيه للحال ، والكفار يدّعونه في الحال - فقد تاه في غيّه ؛ لأنه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن في الحال ضرورة ؛ إذ الحادث لا يكون كفؤًا للقديم ، وحاصل كلام الكفرة يئول إلى الإشراك والتشبيه والتعطيل ، والسورة تدفع الكل كما قررنا) .

كلمة في السياق :

١ - ماضلّت البشرية في موضوع معرفة الذات الإلهية إلا لجهلها بما لا يليق بالذات الإلهية ، فأشركوا ونسبوا إلى الله الافتقار والاحتياج ، ونسبوا له الولد والزوجة ، وجعلوه مماثلاً لخلقه ، وسورة الإخلاص تطهر الضمير البشري والعقل البشري من أي غلط في باب معرفة الذات الإلهية .

٢ - عندما يتحدث علماء التوحيد عن الذات الإلهية وأسمائها وصفاتها يتحدثون عن الصفات السلبية للذات الإلهية ، أي الصفات التي تسلب عن الله عز وجل ما لا يليق به ، ويذكرون أن أمهاتها خمس : الوحدانية ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس . ويقيمون الأدلة الطويلة التي تستغرق الصفحات على كل صفة من هذه الصفات ، والملاحظ أن الصفات الخمس هذه مرجعها إلى سورة الإخلاص . فالوحدانية ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ ، وقيامه بنفسه ﴿ **الله الصمد** ﴾ ، وقدمه ﴿ **لم يلد** ﴾ ، وبقاؤه ﴿ **ولم يولد** ﴾ ، ومخالفته للحوادث ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ .

ومتى عرف الإنسان الله عز وجل بهذه الصفات فقد عرف الله حق المعرفة . أما صفات الله عز وجل الوجودية وأسماؤه الحسنى ، فتلك لا يختلف عليها الخلق ؛ لأن أدنى تفكير يوصل إليها ؛ من علم ، وإرادة ، وقدرة ، وحياة . والملاحظ أن النسفي قد جعل هذه الصفات داخلة فيما ذكر في السورة - كما رأينا - آخذاً ذلك من قوله تعالى ﴿ **هو الله** ﴾ فإذا لم يكن هذا إعجازاً فما هو الإعجاز ؟ .

وأما صلة السورة بمحورها فهو كالتالي : محور السورة من سورة البقرة يقول ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

وسورة الإخلاص تأمر رسول الله ﷺ أن يعلن أمام كفر الكافرين بالله عز وجل عن صفات الله عزّ وجلّ ﴿ **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ .

الفوائد :

١ - قال النسفي : وكان أبو عمرو يستحب الوقف على (أحد) ولا يستحب الوصل ، قال عبد الوارث : على هذا أدركنا القراء ، وإذا وصل نوّن وكسر أو حذف التنوين .

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ قال النسفي : (والدليل على أنه واحد من جهة العقل : أن الواحد إما أن يكون في تدبير العالم وتخليقه كافياً أوْ لَا فإن كان كافياً كان الآخر ضائعاً غير محتاج إليه ، وذلك نقص ، والناقص لا يكون إلهاً ، وإن لم يكن كافياً فهو ناقص ، ولأن العقل يقتضي احتياج المفعول إلى فاعل ، والفاعل الواحد كاف ، وما وراء الواحد فليس عدد أولى من عدد ، فيفضي ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها ، وذا محال ، فالقول بوجود إلهين محال ، ولأن أحدهما إما أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر ، فإن قدر لزم كون المستور عنه جاهلاً ، وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً ، ولأنا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده كان كل واحد منهما عاجزاً ، والعاجز لا يكون إلهاً ، وإن قدر أحدهما دون الآخر فالآخر لا يكون إلهاً ، وإن قدرا جميعاً فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر ، فيكون كل واحد منهما عاجزاً ، وإن قدر كل واحد منهما على إيجاده بالاستقلال فإذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثاني قادراً عليه ، وهو محال لأن إيجاد الموجود محال ، وإن لم يبق فحينئذٍ يكون الأول مزيلاً قدرة الثاني ، فيكون عاجزاً ومقهوراً تحت تصرفه ، فلا يكون إلهاً ، فإن قلت : الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد

زالت قدرته ، فيلزمكم أن يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزاً . قلنا : الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد نفذت قدرته ، ومن نفذت قدرته لا يكون عاجزاً ، وأما الشريك فما نفذت قدرته بل زالت قدرته بسبب قدرة الآخر فكان ذلك تعجيزاً) .

٣ - في تفسير (الصمد) أقوال كثيرة نذكرها لاحتياج السالك إلى الله عز وجل لمعرفتها . قال ابن كثير : (وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **الله الصمد** ﴾ قال عكرمة عن ابن عباس يعني : الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفء وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار ، وقال الأعمش عن سفيان عن أبي وائل : ﴿ **الصمد** ﴾ السيد الذي قد انتهى سؤدده ، ورواه عاصم عن أبي وائل عن ابن مسعود وقال مالك عن زيد بن أسلم : (الصمد) السيد ، وقال الحسن وقتادة : هو الباقي بعد خلقه ، وقال الحسن أيضاً : (الصمد) الحي القيوم الذي لا زوال له ، وقال عكرمة : (الصمد) الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم ، وقال الربيع بن أنس : هو الذي لم يلد ولم يولد ، كأنه جعل ما بعده تفسيراً له وهو قوله ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ وهو تفسير جيد وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير عن أبي بن كعب في ذلك وهو صريح فيه ، وقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله ابن بريدة وعكرمة أيضاً وسعيد ابن جبير وعطاء بن أبي رباح وعطية العوفي والضحاك والسدي : (الصمد) الذي لا جوف له . وقال سفيان عن منصور عن مجاهد : (الصمد) المصمت الذي لا جوف له ، وقال الشعبي : هو الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ، وقال عبد الله بن بريدة أيضاً : (الصمد) نور يتلألأ ، روى ذلك كله وحكاه ابن أبي حاتم والبيهقي والطبراني وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده ، وروى عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : لا أعلم إلا قد رفعه قال : « الصمد الذي لا جوف له » وهذا غريب جداً والصحيح أنه موقوف على عبد الله بن بريدة .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب (السنة) له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد : وكل هذه صحيحة وهي صفات ربنا عز وجل ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج ، وهو الذي قد انتهى سؤدده ، وهو الصمد الذي لا جوف له ،

ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقي بعد خلقه . وقال البيهقي نحو ذلك) .

٤ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ ولم يولد ﴾ قال النسفي :

(لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده؛ إذ لو لم يكن قديماً لكان حادثاً لعدم الواسطة بينهما ، ولو كان حادثاً لافتقر إلى محدث ، وكذا الثاني والثالث ، فيؤدي إلى التسلسل وهو باطل ، وليس بجسم لأنه اسم للمتركب ، ولا يخلو حينئذ من أن يتصف كل جزء منه بصفات الكمال ، فيكون كل جزء إلهاً فيفسد القول به كما فسد بإلهين ، أو غير متصف بها بل بأضدادها من سمات الحدوث وهو محال) .

٥ – في كتابنا (الله جل جلاله) تدليل طويل على الصفات المذكورة في هذه السورة للذات الإلهية ، فليراجع وليعلم أن هذه السورة تغني عن كل كتاب أرضي لمن عرفها وأيقن بها .

٦ – بمناسبة هذه السورة ، ذكر ابن كثير الحديث التالي ، قال :

وفي صحيح البخاري « لاأحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال الله عز وجل : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد » ورواه أيضاً عن همام بن منبه عن أبي هريرة مرفوعاً بمثله تفرد بهما من هذين الوجهين) .

٧ – في سبب نزول هذه السورة قال ابن كثير :

روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يامحمد ! انسب لنا ربك فأنزل الله تعالى ﴿ **قل هو الله أحد*** **الله الصمد*** **لم يلد ولم يولد*** **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ وكذا رواه الترمذي وابن جرير، زاد ابن جرير والترمذي قال : (الصمد) الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله عز وجل لايموت ولا يورث ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء . ورواه ابن أبي حاتم بسنده .

وقال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عزير ابن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركون : نحن

نعبد الأوثان ، أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ يعني : هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ، ولا شبيه ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله) .

٨ - ذكر ابن كثير تسعة أحاديث تفيد أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن نكتفي منها بذكر الحديث الأول :

روى البخاري عن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له - وكأن الرجل يتقالّها - فقال النبي ﷺ : « والذى نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن ») .

أقول : قال النسفي في تعليل كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن :

(لأن القرآن يشتمل على توحيد الله ، وذكر صفاته ، وعلى الأوامر والنواهي ، وعلى القصص والمواعظ ، وهذه السورة قد تجرّدت للتوحيد والصفات ، فقد تضمنت ثلث القرآن ، وفيه دليل شرف علم التوحيد . وكيف لا يكون كذلك والعلم يشرف بشرف المعلوم ، ويتضع بضعته ، ومعلوم هذا العلم هو الله وصفاته ، وما يجوز عليه ومالا يجوز عليه ، فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله ، اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك ، العاملين لك ، الراجين لثوابك ، الخائفين من عقابك ، المكرمين بلقائك) .

٩ - وذكر ابن كثير باباً آخر غير الباب المذكور آنفاً يدل على فضل سورة الإخلاص .

(حديث آخر في فضلها) روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿ **قل هو الله أحد** ... ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : « سلوه لأي شيء يصنع ذلك » فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها فقال النبي ﷺ : « أخبروه أن الله تعالى يحبه » هكذا رواه في كتاب التوحيد ، وقد رواه مسلم والنسائي أيضاً من حديث عبد الله بن وهب)

١٠ - وذكر ابن كثير باباً آخر عن سورة الإخلاص تحت عنوان : (حديث آخر في كون قراءتها توجب الجنة) قال :

(روى الإمام مالك بن أنس عن عبيد الله بن عبد الرحمن عن عبد بن حسين قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾

فقال رسول الله ﷺ : « وجبت - قلت : وما وجبت ؟ قال : الجنة » ورواه الترمذي والنسائي من حديث مالك وقال الترمذي : حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك وتقدم حديث « حبك إياها أدخلك الجنة ») .

وقال ابن كثير : (روى الإمام أحمد أيضاً عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ قل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة » فقال عمر : إذاً نستكثر يارسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكثر وأطيب » تفرد به أحمد ورواه أبو أحمد الدارمي في مسنده فقد روى عن سعيد بن المسيب يقول إنه قال : إن نبي الله ﷺ قال : « من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة ، ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين في الجنة ، ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور في الجنة » فقال عمر بن الخطاب : إذاً تكثر قصورنا ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أوسع من ذلك » وهذا مرسل جيد) .

١١ - وعقد ابن كثير باباً تحت عنوان : (حديث آخر في الدعاء بما تضمنته من الأسماء) :

(روى النسائي عند تفسيرها عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، قال : « والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم ، الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب » وقد أخرجه بقية أصحاب السنن من طرق عن مالك بن مغول عن عبد الله بن بريدة عن أبيه به ، وقال الترمذي : حسن غريب) .

١٢ - وعقد ابن كثير باباً في فضل سورة الإخلاص مع المعوّذتين نقتطف منه بعض رواياته ختاماً لهذه الفوائد لتكون هذه الفائدة مقدمة للكلام عن سورتي الفلق والناس .

قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد ... عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يارسول الله بم نجاة المؤمن ؟ . قال : ياعقبة أخرس لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك . قال : ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأخذ بيدي فقال : ياعقبة بن عامر ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم . قال قلت : بلى جعلني الله فداك . قال : فأقرأني (قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس) ثم قال : يا عقبة

لاتنسهن ولا تبت ليلة حتى تقرأهن . قال : فما نسيتهن منذ قال لاتنسهن ، ومابت ليلة قط حتى أقرأهن . قال عقبة : ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يارسول الله أخبرني بفواضل الأعمال فقال : ياعقبة صل من قطعك ، واعط من حرمك ، وأعرض عمن ظلمك » روى الترمذي بعضه في الزهد عن علي بن يزيد فقال : هذا حديث حسن ، وقد رواه أحمد من طريق عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ فذكر مثله سواء تفرد به أحمد (حديث آخر) في الاستشفاء بهن روى البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما مااستطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات » وهكذا رواه أهل السنن من حديث عقيل به .

(حديث آخر) روى عبد الله بن الإمام أحمد عن معاذ بن عبد الله بن حبيب عن أبيه قال : أصابنا عطش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا ، فخرج فأخذ بيدي فقال : « قل » ، فسكت . قال : « قل » ، قلت : ماأقول ؟ قال « قل هو الله أحد ، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً تكفيك ، كل يوم مرتين » ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن أبي ذئب به وقال الترمذي حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وقد رواه النسائي من طريق أخرى عن معاذ بن عبد الله بن حبيب عن أبيه عن عقبة بن عامر فذكره ولفظه « تكفك كل شيء ») .

☆ ☆ ☆

سورة الفلق

وهي السورة الثالثة عشرة بعد المائة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الحادية عشرة من المجموعة الخامسة عشرة
من قسم المفصل ، وهي خمس آيات

(وهي مدنية على رأي ابن كثير)

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الفلق :

قال صاحب الظلال في سورتي الفلق والناس :

(هذه السورة والتي بعدها توجيه من الله - سبحانه وتعالى - لنبيه ﷺ ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعاً ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف ، خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل .. وكأنما يفتح الله سبحانه لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم ، في مودة وعطف : تعالوا إلى هنا ، تعالوا إلى الحمى ، تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه ، تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف ، وأن لكم أعداء ، وأن حولكم مخاوف ، وهنا .. هنا الأمن والطمأنينة والسلام ..) .

وقال الألوسي في تقديمه لسورة الفلق (ولما شرح أمر الإلهية في السورة قبلها جيء بها بعدها شرحاً لما يستعاذ منه بالله تعالى من الشر الذي في مراتب العالم ومراتب مخلوقاته . وهي والسورة التي بعدها نزلتا معاً كما في الدلائل للبيهقي فلذلك قرنتا مع مااشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ومن الافتتاح بقل أعوذ) .

☆ ☆ ☆

كلمة في سورتي الفلق والناس ومحوريهما :

بعد الآيتين اللتين ذكرنا أنهما محور سورة الإخلاص من سورة البقرة تأتي قصة آدم عليه السلام وهذه هي :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالاتعلمون ۝ وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ۝ قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم ۝ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ۝ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين ۝ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ۝ فأزلهما الشيطان عنها

فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين* فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم* قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون* والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

من الملاحظ في هذه القصة أن الذي حمل إبليس على مافعله حسده لآدم عليه السلام . وسورة الفلق تختم بقوله تعالى ﴿ **ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾ فهي تأمر بالاستعاذة من أشياء آخرها الاستعاذة من شر الحاسدين إذا حسدوا ، وصلة ذلك بقصة آدم عليه السلام واضحة ، ومن الملاحظ في قصة آدم أنّ الله عز وجل حذّرنا من إبليس عليه اللعنة ، وأرانا الآثار الفظيعة التي ترتّبت على وسوسته لأبينا آدم عليه السلام ، وتأتي سورة الناس لتأمرنا بالاستعاذة من الوسواس الخناس ، سواء كان شيطاناً إنسياً أو جنّياً ، من هذه الملاحظات السريعة نرى صلة المعوّذتين بمحورهما من سورة البقرة كما تعرف هذا المحور أصلاً .

فلنر صلة المعوّذتين بما قبلهما :

لقد عرّفتنا سورة الإخلاص على الله عز وجل وكماله وصفاته ، وتأتي المعوذتان لتأمراننا بالاستعاذة بالله عز وجل من كل ماينبغي أن يحذر منه في أمر دنيا ودين ، فالصلة واضحة بين المعوذتين وبين ماقبلهما من سورة الإخلاص .

وقبل أن نبدأ عرض السورتين فلنذكر بعض ماقدّم ابن كثير للسورتين قال : (وقد روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ و﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ ورواه أحمد ومسلم أيضاً والترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح (طريق أخرى) روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال لي : « ياعقبة ألا تركب » قال : فأشفقت أن تكون معصية ، قال : فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم ركب ثم قال : « عقب ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس » قلت : بلى يارسول الله فأقرأني ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ و﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ

فقرأ بهما ثم مر بي فقال: « كيف رأيت ياعقب اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت ».

(عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ماسواهما . رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي : حديث حسن صحيح) .

(روى النسائي عن عبد الله الأسلمي هو ابن أنيس أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره ثم قال: « قل » فلم أدر ماأقول، ثم قال لي: « قل » قلت ﴿ **هو الله أحد** ﴾ ثم قال لي : قل، قلت : ﴿ **أعوذ برب الفلق من شر ما خلق** ﴾ حتى فرغت منها ثم قال لي : « قل »، قلت : ﴿ **أعوذ برب الناس** ﴾ حتى فرغت منها فقال رسول الله ﷺ : « هكذا فتعوذ وما تعوذ المتعوذون بمثلهن قط »: (حديث آخر) روى النسائي عن جابر بن عبد الله قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ ياجابر » قلت : وما أقرأ بأبي أنت وأمي ؟ قال : « اقرأ قل أعوذ برب الفلق - و - قل أعوذ برب الناس » فقرأتهما فقال : « اقرأ بهما ، ولن تقرأ بمثلهما » وتقدم حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن وينفث في كفيه ويمسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، وروى الإمام مالك عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها ورواه البخاري) .

* * *

سورة الفلق

وهي خمس آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

التفسير :

﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ أي برب الصبح ، قال ابن كثير - بعد أن ذكر أكثر من قول في الآية -: قال ابن جرير : والصواب القول الأول أنه فلق الصبح ، وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخاري في صحيحه رحمه الله تعالى ﴿ **من شرّ ما خلق** ﴾ قال ابن كثير : أي من شر جميع المخلوقات ﴿ **ومن شر غاسق إذا وقب** ﴾ قال النسفي : الغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه ، ووقوبه : دخول ظلامه في كل شيء ﴿ **ومن شر النفاثات في العقد** ﴾ قال النسفي : النفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللواتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين ، والنّفْث : النفخ مع ريق . أقول : من كلام النسفي نفهم أن هناك اتجاهاً عند المفسرين في تفسير النفاثات بالنفوس ، فهل يدخل في ذلك الاستعاذة من النفوس التي تنفث في عقد النفوس لتغذّيها أو لتستغلّها أو لتوجهها توجيهاً سيئاً ؟ لا أجزم بذلك ولكنني أحتمل أن يكون هذا داخلاً في النّص ، فإن القرآن لكل العصور ﴿ **ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾ قال النسفي : إذا أظهر حسده ، وعمل بمقتضاه ، لأنّه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره ، وهو الأسف على الخير عند الغير ، وقد ختم النسفي كلامه عن السورة بقوله :

(والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق ، إشعار بأن شر هؤلاء أشدّ ، وختم بالحسد ليعلم أنه شرها ، وهو أول ذنب عصي الله به في السماء من إبليس ، وفي الأرض من قابيل ، وإنّما عرّف بعض المستعاذ منه ونكّر بعضه لأن كل نفاثة شريرة ، فلذا عرّفت النفاثات ونكّر غاسق ؛ لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر ، إنما يكون في بعض دون بعض ، وكذلك كل حاسد لا يضر ، ورب حسد يكون محموداً كالحسد في الخيرات) .

كلمة في السياق :

١ - تأتي قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة بعد قوله تعالى ﴿ **هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾ بعد هذه الآية تأتي قصة آدم وفيها ذكر لتبشير الله عز وجل الملائكة بخلافة

آدم ، وفيها عرض ماهيات الأشياء ، وعلى الملائكة وسؤالهم عن أسمائها ، وفيها حسد إبليس لآدم ورفضه السجود له ، وسورة الفلق تبيّن أن للمخلوقات شراً ، وللّيل شراً ، وللنفاثات ضرراً ، وللحاسد ضرراً ، وأمرت رسول الله ﷺ - وهو أمر لكل مسلم - أن يستعيذ برب الصبح الذي يجلو به الصباح من شر هؤلاء جميعاً ، فإنه وحده الذي يخلص من شرّها ، لأنه خالقها ، وهو الأعلم بحدود الخير والشر ، وهو القادر على الإنجاء منها ، فالصلة قائمة بين المعاني التي أمرت السورة بالاستعاذة منها ، وبين المعاني المذكورة في محور سورتي الفلق والناس من سورة البقرة .

٢ - إنّ سورة الفلق فصّلت في جوانب ذكرتها قصة آدم عليه السلام ، فأن يعرف أنّ فيما خلقه الله عز وجل شراً ، وأن تعرف بعض مظاهر هذا الشر ، وأن يدلّ على طريق الخلاص منها ، كل ذلك ترتبط به سورة الفلق بمحورها من سورة البقرة ، وكما أن سورة الفلق فصّلت في محورها فإن ما ذكر في محورها كان أساساً بنت عليه ، فرؤية شر الحاسد إبليس ، من خلال قصة آدم عرفتنا أنّ الاستعاذة بالله منه ضرورية .

٣ - وهناك علاقة بين السحر والجنّ قال تعالى في سورة البقرة :
﴿ واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ مِنْ هذه الآية نرى أن للسحر علاقة بعالم الشياطين ، ومن ثم ندرك صلة أخرى مابين سورة الفلق وقصة آدم ، وماورد فيها من وسوسة إبليس عليه اللعنة ، وبهذا نكون قد أوضحنا بما فيه الكفاية الصلة بين سورة الفلق ومحورها .

الفوائد :

١ - هناك اتجاه عند المفسرين يفسر الغاسق إذا وقب بالقمر ، وقد نقل هذا القول ابن كثير ونقل جواب الآخرين عليه قال :

(وعمدة أصحاب هذا القول مارواه الإمام أحمد عن الحارث بن أبي سلمة قال : قالت عائشة رضي الله عنها : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع وقال : « تعوّذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب » ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير

من سننيهما، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح ولفظه « تعوَّذي بالله من شر هذا فإن هذا الغاسق إذا وقب » ولفظ النسائي « تعوّذي بالله من شر هذا، هذا الغاسق إذا وقب » قال أصحاب القول الأول: وهو آية الليل إذا دلج، هذا لا ينافي قولنا لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تضيء إلا بالليل، فهو يرجع إلى ما قلناه والله أعلم).

٢ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ومن شر النفاثات في العقد** ﴾ قال ابن كثير: (قال مجاهد وعكرمة والحسن عن ابن طاوس عن أبيه قال: ما من شيء أقرب إلى الشرك من رقية الحية والمجانين. وفي الحديث الآخر أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال: اشتكيت يامحمد؟ فقال: « نعم » فقال: بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك، ومن شر كل حاسد وعين الله يشفيك » ولعل هذا كان من شكواه ﷺ حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، وردّ كيد السحرة والحساد من اليهود في رءوسهم وجعل تدميرهم في تدبيرهم وفضحهم.

وروى البخاري في كتاب الطب من صحيحه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد مايكون من السحر إذا كان كذا- فقال: « ياعائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبه، قال: لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة، قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان » قالت: فأتى البئر حتى استخرجه فقال: « هذه بئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكان نخلها رءوس الشياطين » قال: فاستخرج فقلت: أفلا تنشرت؟ فقال: « أما الله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً » وأسنده بسند آخر وفيه قالت: حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، وعنده فأمر بالبئر فدفنت، وذكر أنه رواه عن هشام أيضاً ابن أبي الزناد والليث بن سعد، وقد رواه مسلم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة وعبد الله بن نمير ورواه أحمد عن عفان عن وهب عن هشام به ورواه الإمام أحمد أيضاً عن عائشة قالت: لبث النبي ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي، فأتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما للآخر: ما باله؟ قال: مطبوب، قال ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم وذكر تمام الحديث).

سورة الناس

وهي السورة الرابعة عشرة بعد المائة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية عشرة من المجموعة الخامسة عشرة
من قسم المفصل ، وهي ست آيات

(وهي مدنية على رأي ابن كثير)

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ذكرنا من قبل محور سورة الناس وصلتها بهذا المحور وصلتها بما قبلها فلنبدأ عرضها .

سورة الناس

وهي ست آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ قال النسفي : أي مربيهم ومصلحهم ﴿ **ملك الناس** ﴾ أي : مالكهم ومدبر أمورهم ﴿ **إله الناس** ﴾ أي : معبودهم ﴿ **من شر الوسواس** ﴾ أي : الشيطان ، قال النسفي : والوسوسة الصوت الخفي ﴿ **الخناس** ﴾ قال النسفي : أي الذي عادته أن يخنس أي يتأخر إذا ذكر الله عز وجل ﴿ **الذي يوسوس في صدور الناس** ﴾ أي : في قلوبهم الموجودة في صدورهم ﴿ **من الجنّة والناس** ﴾ قال النسفي : بيان للذي يوسوس على أن الشيطان ضربان : جني وإنسي .

قال ابن كثير في السورة :

(هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل : الربوبية ، والملك ، والإلهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة له عبيد له ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ، ولا يألوه جهداً في الخبال ، والمعصوم من عصمه الله) .

كلمة في السياق :

١ - تنتهي قصة آدم- عليه السلام- في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وفي قصة آدم في سورة البقرة رأينا خطر وسوسة الشيطان ، وفي سورة الناس رأينا أن هناك شياطين الجن ، وهناك شياطين الإنس وهم الكافرون المذكورون في آخر قصة آدم من سورة البقرة . وقد أمرنا الله عز وجل بالاستعاذة به وهو الرب والملك والإله من شر هؤلاء وهؤلاء، فصلة السورة بمحورها من سورة البقرة واضحة .

٢ - في ذكر ربوبية الله عز وجل ومالكيته وألوهيته للناس في السورة التي أمر الله عز وجل بها أن يستعاذ به من شر الجنة والناس إشعار بأن من كان هذا شأنه هو وحده الذي يعيذ من شر الموسوسين .

الفــوائد :

١ - بمناسبة مامرّ معنا من قبل في موضوع استرقاء الرسول ﷺ بسورتي الفلق والناس ، قال النسفي : (ولهذا جوزوا الاسترقاء بما كان من كتاب الله وكلام رسوله عليه السلام ، لا بما كان بالسريانية والعبرانية والهندية فإنه لا يحل اعتقاده ، ولا الاعتماد عليه) .

٢ - بمناسبة الكلام عن وسوسة شياطين الجن والإنس ذكر ابن كثير أنه مامن إنسان إلا وله شيطانه الذي يوسوس له . قال ابن كثير في تأييد هذا القول : (وقد ثبت في الصحيح أنه «مامنكم من أحد إلا قد وكّل به قرينه» قالوا: وأنت يارسول الله؟ قال: «نعم إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» ، وثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف ، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال: رسول الله «على رسلكما إنها صفية بنت حيي» فقالا سبحان الله يارسول الله فقال «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو قال شرّاً -» . وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسي التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس» غريب . وروى الإمام أحمد عن أبي تميمة يحدث عن رديف

رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حماره فقلت : تعس الشيطان فقال النبي ﷺ : « لا تقل تعس الشيطان فإنك إذ قلت تعس الشيطان تعاظم وقال بقوتي صرعته ، وإذا قلت باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب » تفرد به أحمد وإسناده جيد قوي ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وَغُلِبَ ، وإن لم يذكر الله تعاظم وَغَلَبَ . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان فأبس به كما يبس الرجل بدابته ، فإذا سكن له زنقه أو ألجمه » قال أبو هريرة رضي الله عنه : وأنتم ترون ذلك أما المزنوق فتراه مائلاً كذا لا يذكر الله ، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل. تفرد به أحمد) .

٣ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **الوسواس الخناس** ﴾ قال ابن كثير : (وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿ **الوسواس الخناس** ﴾ قال : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنس ، وكذا قال مجاهد وقتادة وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه : ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر الله خنس ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ **الوسواس** ﴾ قال : هو الشيطان يأمر فإذا أطيع خنس) .

٤ – بمناسبة قوله تعالى ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ قال ابن كثير : وقيل قوله ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن كما قال تعالى ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** ﴾ وكما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال : « يا أبا ذر هل صليت ؟ » قلت : لا ، قال : « قم فصل » قال فقمت فصليت ثم جلست فقال : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال : فقلت : يارسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : « نعم » قال : فقلت يارسول الله الصلاة ؟ قال : « خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قلت : يارسول الله فالصوم ؟ قال : « فرض مجزىء وعند الله مزيد » قلت : يارسول الله فالصدقة ؛ قال : « أضعاف مضاعفة » قلت : يارسول الله أيها أفضل ، قال « جهد من مقل أو سر إلى فقير » قلت : يارسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدم » ، قلت : يارسول الله ونبيا كان ؟ قال « نعم نبي مكلَّم » قلت : يارسول الله كم المرسلون ؟ قال : « ثلثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً » وقال مرة « خمسة عشر » قلت : يارسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟

قال : «آية الكرسي» ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ . ورواه النسائي من حديث أبي عمر الدمشقي به وقد أخرج هذا الحديث مطولاً جداً أبو حاتم بن حبان في صحيحه بطريق آخر ولفظ آخر مطول جدا فالله أعلم وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ﷺ إني لأحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به قال : فقال النبي ﷺ : «الله أكبر الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» ورواه أبو داود والنسائي من حديث منصور زاد النسائي والأعمش كلاهما عن ذر به) .

كلمة أخيرة في المجموعة الخامسة عشرة :

رأينا أن المجموعة الخامسة عشرة فصّلت تفصيلاً شاملاً ، وغطّت تغطية كاملة إلى نهاية قصة آدم من سورة البقرة ، وهو الجزء الذي عرض المعاني الأساسية والرئيسية والطريق الإجمالي ، ورأينا كيف أن المجموعة مترابطة مع بعضها ، متكاملة فيما بينها ، وكل ذلك رأيناه ، فالحمد لله رب العالمين .

كلمة أخيرة في السياق القرآني العام :

رأينا أن سورة الفاتحة ذكرت كل المعاني القرآنية بإجمال ، وجاءت سورة البقرة لتفصّل في الطريقين : طريق المنعم عليهم ، وطريق المغضوب عليهم والضالين ، وجاءت الآيات التسعة والثلاثون من سورة البقرة للتحدّث عن المعاني الرئيسية في الهدى والضلال .

ثم جاءت بقية السورة لتخدم معنى من المعاني الآتية في هذه التسعة والثلاثين آية ، ثم جاءت بعد ذلك أربع وعشرون مجموعة قرآنية ، كل مجموعة فصلت في معاني سورة البقرة على ترتيب ورود هذه المعاني في سورة البقرة بشكل رأينا حكمه وتفصيلاته فيما مرّ معنا ، ورأينا أن في كل تفصيل جديداً ، وفي كل سورة جديداً .

لقد رأينا ابتداء أنّ القرآن ينقسم إلى أربعة أقسام : قسم الطّول ، وقسم المئين ، وقسم المثاني ، وقسم المفصّل ، ورأينا أنّ كل قسم من هذه الأقسام يتكامل مع بعضه ، وأن هذه الأقسام كلها تتكامل مع بعضها ، وقد رأينا أن القسم الأول يتألف من سورة البقرة ومجموعة واحدة تفصّل في سورة البقرة من أولها إلى آخرها ، ثمّ رأينا أن قسم

المئين يتألّف من ثلاث مجموعات ، كل مجموعة تفصّل في سورة البقرة من ابتدائها إلى مكان فيها ، ثم جاء قسم المثاني وفيه خمس مجموعات ، كل مجموعة تفصّل في سورة البقرة من ابتدائها حتى آية منها على اختلاف في المدى الذي يبلغه التفصيل ، ثم جاء قسم المفصّل وفيه خمس عشرة مجموعة ، كل مجموعة تفصّل في سورة البقرة من ابتدائها إلى مكان ما فيها ، وهكذا نجد أن سورة البقرة قد فُصّلت أربعة وعشرين مرّة تفصيلاً بعد تفصيل ، وقد أصاب الآيات الأول منها خاصة من التفصّيل على عدد المجموعات .

وقد رأينا أنّ بعض المجموعات استغرق حوالي ثمانية أجزاء ، بينما نجد المجموعة التي لاتتجاوز صفحة واحدة مع أن كلّ مجموعة فصلت في المعاني الرئيسية لسورة البقرة ، والحكمة في ذلك - والله أعلم - أن ينال كل إنسان حظّه من الذكر حفظاً وتلاوة وتذكّراً بما يسع حاله ، وبحيث يأخذ نصيبه من تذكّر المعاني الرئيسية على قدر مايسعف وقته وفراغه واستعداده وذاكرته ، مع ملاحظة أنّ القرآن بمجموعه لابدّ من تلاوته وتدّبره لمن أراد أن يعرف حقائق الأشياء على ماهي عليه ﴿ **ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ .

خاتمة التفسير

هذا التفسير جزء من سلسلة الأساس في المنهج التي تتألف من القسم الأول : الأساس في التفسير ، والقسم الثاني . الأساس في السنة وفقهها ، والقسم الثالث : الأساس في فهم النصوص . وللاختصار فقد أخرت الحديث عن كثير من الأمور ، أو أخرت التفصيل فيها ؛ لأنه لابدّ أن ترد في قسم السنة . على أنني حاولت أن أذكر الشيء إذا جاءت مناسبة بما يسد احتياجات الدارس العادي للكتاب والسنة . وعذري في تأخير كثير من الأمور إلى القسم الثاني هو حرصي على إبراز النقاط التي استهدفتها في هذا التفسير وهي :

١ - إبراز الوحدة القرآنية الجامعة ، وإبراز الوحدة في السورة الواحدة من خلال نظرية تطرح لأول مرة تبيّن القاعدة الجامعة في شأن ترتيب سور القرآن .

٢ - إبراز الإعجاز والمعجزة في القرآن حيث جاءت مناسبة ذلك . فالإعجاز هو القاسم المشترك في القرآن كله ، ومع هذا الإعجاز فإن في القرآن معجزات كثيرة .

زائدة على أصل الإعجاز ، ولقد حاولت أن أبرز هذا وهذا ، وكل ذلك ليزداد إيمان المؤمن ، فكثيراً مايحدث أن القارىء للتفاسير يضيع بين النكتة البلاغية والإعراب والأقوال الكثيرة والأقوال الضعيفة بحيث لا يستشعر نمو الإيمان مع الدراسة ، وقد تسبب بعض الروايات الفاسدة وساوس عند بعض ضعفاء اليقين ، أو غير الراسخين في العلم ، وقد حاولت في هذا التفسير أن ينصبّ الكلام على ماهو تفسير مجرّد على الطريقة الأولى التي كان يقدّم فيها التفسير لطالبه في الجيل الأول ، ومن أراد ماسوى ذلك ، فالمراجع أمامه كثيرة ، إن الإنسان عندما يقرأ بعض التفاسير يشعر أحياناً بتشتت يبعده عن لب ماأراده من قراءة التفسير . وبالتالي فإنه لا يستغرق الاستغراق التام وهو يقرأ ، وقد جاء هذا التفسير ملاحظاً ذلك .

٣ - لقد كان لكل عصر معطياته التي تفتح آفاق أهله على معان من كتاب الله تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق** ﴾ ولعصرنا معطياته الجديدة ، ولقد حاولت أن أستفيد من ذلك مااستطعت بما لا يخرج نصاً عن معناه أو مضمونه الذي تقدمه ألفاظه ، فلا تكلف ولا تعسف .

٤ - حاولت - ما استطعت - أن أعرض القرآن عرضاً قريباً يستطيع من خلاله المثقف العادي أن يفهمه ، هذا مع محاولة اقتناص ماتيسّر لي من فوائد مبثوثة تخدم الفهم لكتاب الله .

٥ - حاولت - إلى حد كبير - أن أقدم مفهوم أئمة الاجتهاد للكثير من آيات الأحكام ، ولكن باختصار وبدون تدليل ومناقشة ، لأن محلّ ذلك في القسم الثاني من هذه السلسلة في كتاب الأساس في السنة وفقهها .

٦ - إبراز الكثير من الأسس التي عليها تبنى الأمة المسلمة ، أو تقوم عليها حياتها العملية ، أو ينبثق عنها العمل الإسلامي المعاصر ، على أنه في القسم الثاني من السلسلة يأتي كلام كثير حول هذه الشئون .

ولعل القارىء لحظ أننا ابتعدنا عن الحشو وعن كل مالا يهم القارىء غير المختص . كما لحظ أننا حاولنا إبراز خصائص القرآن ، وأعطينا موضوع التربية حقه على قدر استطاعتنا ، وحاولنا أن نضع كثيراً من الأمور ضمن إطارها العام ، وكثيراً من الجزئيات ضمن إطارها الكلّي .

إنّ استهداف هذه الأشياء حال بيننا وبين التوسع في كثير من الأمور ، وصرفنا عن أمور كثيرة . وليكن ذلك بمثابة اعتذار لمن لم ير في هذا الكتاب ماتخيله أو تصوره مما كان ينبغي أن يكون فيه ؛ وحسبنا أن يكون قارىء هذا التفسير قد خرج بانطباع جديد ، وفهم جديد ليكون ذلك نقطة انطلاق نحو جهاد متواصل ، من أجل أن يكون هذا القرآن مهيمناً على الأرض كلها، وليكون ذلك نقطة انطلاق لسير منضبط وصحيح إلى الله ، ولقد حاولت - مااستطعت - أن أجنب هذا التفسير أي فهم خاطىء أو منحرف أو متكلّف لكتاب الله وإذا فاتني شيء فإني أستغفر الله .

وقد ألزمت نفسي في آيات الصفات أن أبقى ضمن الحدود التي ذكرها ابن كثير؛ لإيماني بأن هذا الموضوع لا يستطيع أحد أن يعرف أبعاد مايقال فيه إلا إذا كان من الراسخين في العلم، فالكلام بتوسع فيه في مثل هذا التفسير قد يساء فهمه عند أنواع من القراء فاقتصرت فيه على ماقاله ابن كثير، وكلامه يسع الجميع ويكفي الجميع .

ومن خلال استقرائي لأصناف كثير من الراغبين في دراسة القرآن وجدت أن هناك ناساً تهمهم الفائدة الشاردة ، والنكتة اللطيفة ، وآخرون تهمهم دقائق السياق ، والربط بين الآيات والسور ، وآخرون لايهمّهم إلا أن يعرفوا المعنى الحرفي ضمن أدنى حدّ ممكن ، ولذلك فصلت الكلام بين المعنى الحرفي والسياق والفوائد فالراغب في الجميع لم يفته شيء ، والرّاغب في شيء بعينه يجده منفصلاً عن غيره .

وقد اعتمدت أربعة تفاسير كأساس : تفسير ابن كثير ، وتفسير النسفي ، وتفسير الألوسي ، وتفسير الظلال ، واعتقدت أن فوائد هذه التفاسير هي أقصى مايحتاجه القارىء العادي ، فابن كثير يفسر القرآن بالقرآن وبالمأثور في الغالب ، والنسفي يعطي للمعنى الحرفي أهمية ، وقد كاد هذان التفسيران أن يستوعبا فوائد التفاسير التي سبقتهما ، وتفسير الألوسي وسيد قطب تفسيران متأخران ، الأول منها استوعب التفسير التقليدي ، والثاني منها فسّر القرآن بلغة العصر ، وقد رأيت أنه باعتمادي هذه التفاسير الأربعة أكون قد استوعبت - إلى حدّ ما - الفائدة من كتب التفاسير على مرّ العصور .

وكما قلت من قبل فإني لم أذكر إلا ماله صلة مباشرة بالتفسير ، اعتماداً مني على أنّ أي شيء آخر يريده طالب المعرفة عن القرآن يستطيع أن يجده في المكتبة القرآنية ، فليس من كتاب في هذا العالم قد خُدم كما خدم هذا القرآن ، حتى إنه ليكاد يكون من المستحيل أن تحصى كتب المكتبة القرآنية ، فما من شيء له صلة بالقرآن إلا وتجد فيه عشرات الكتب : في إعرابه وبلاغته وأحكامه وتفسير آياته وإعجازه وأسباب نزوله والناسخ والمنسوخ فيه إلى غير ذلك ، لذلك فقد انصبّ همي أن أقدّم للقارىء ماله صلة مباشرة بفهم القرآن وتفهيمه .

ولو لم أرد ذلك اختياراً لاضطررت إليه اضطراراً لأنني لو أردت غير ذلك لتوسّع التفسير سعة لا يعود معها ذا نفع إلا لأفراد من الناس .

فإلى القسم الثاني من سلسة الأساس في المنهج ولله الحمد والمنة .

☆ ☆ ☆

فهرس المجلد الحادي عشر

الموضوع	الصفحة

☆ ☆ ☆

﴿ سورة المعارج ﴾ ٦١٢٧

☆ ☆ ☆

﴿ سورة نوح ﴾ ٦١٤٥

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

﴿ سورة الانشقاق ﴾ ٦٤٣٥

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

﴿ سورة الكوثر ﴾ ٦٧٠٧

☆ ☆ ☆

﴿ سورة الكافرون ﴾ ٦٧١٥

☆ ☆ ☆

﴿ سورة النصر ﴾ ٦٧٢٥

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆